

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة وهران - السانیا -

كلية الآداب واللغات والفنون

قسم اللغة العربية وآدابها



البعد الهوياتي والوثائقي في رواية الأمير-مسالك أبواب الحديد- مقاربة تداولية

بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه

إشراف: أ.د. عبد القادر شرشار.

إعداد الطالب: زحاف حبيب

أعضاء لجنة المناقشة:

- | | |
|--|---------------------------|
| رئيسا.....جامعة وهران | - أ. د. ملياني محمد |
| مشرفا و مقررا.....جامعة وهران | - أ.د. شرشار عبد القادر |
| عضوا مناقشا.....جامعة الحسن الثاني -المغرب - | - أ.د. شعيب حليفي |
| عضوا مناقشا.....جامعة وهران | - أ.د. بن عيسى عبد الحليم |
| المركز الجامعي بعين تموشنت.....عضوا مناقشا | - أ.د. منقور عبد الجليل |
| جامعة سيدي بلعباس.....عضوا مناقشا | - أ.د. منصوري مصطفى |

السنة الجامعية: 2014/2013

* بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

الرَّحِيمِ*

"ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ يَمَنْ
ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ
أَعْلَمُ يَمَنْ اهْتَدَى "

الآية 30 النجم

الشكر..



"أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ
الْمَصِيرُ"

الآية سورة 14 لقمان

* الإهداء *

على البياض نكتب..

إلى..

الشخصين اللذين أُكِّنُ لهما امتلاء الحب و
المودة البريئة..

الوالد *الجيلالي* الغائب الحاضر..

الوالدة *الزهراء* الحاضرة غير الغائبة..

وإلى العائلة التي أساسها الأم *الزهرة*
وأبنائنا *عبد الجليل* و أحمد قانت * سراج
الدين.

وإلى محمد أخي الذي رافقتني ظلال روحه
أينما وليت.. و الأخت *زوييدة* الصبورة..

وإلى عائلتي أخي *بنحواء* الأكبر و أختي
الكبرى *حورية*..

إلى كل هؤلاء و إلى الآخرين الذين نَسَاهُمْ
القلم و ما نساهم الفؤاد..

المقدمة

المقدمة:

انكبت البحوث اللغوية المتعددة على النصوص المكتوبة بالتنفيذ و الدراسة مستعملة مناهج شتى لأجل تحديد فضاء الدلالات التي يُكِنُّها النص الأدبي اللغوي، سواء الشفهي منه أو المكتوب، و قد توسل أصحاب هذه البحوث لأجل تحقيق ذلك دلالات النص الظاهرة على أساس أنها أول ما يستقبله المتلقي، و لقد اكتسحت البنيوية حاملة صفة سبق في البحث في النصوص المختلفة معلنةً عن بداية موجة جديدة تعمل على تسليط التحليل و التفكير على النص دون كاتبه، انطلاقاً من أن هذا النص يمثل المَكْمَنَ الأساسي لحمل الدلالات التي أسسته في شكل خطاب، و بالتالي راحت الأقلام تدلي بدلائها في هذا المضمار بداية من كلود ليفي شتراوس و وصولاً إلى ميشال فوكو و كذا إلى بلوغ آخر الدراسات العربية التي آمنت بمسألة موت الكاتب في نصه، ولقد تبين فيما بعد أن هذه الدراسات ذات الطبيعة البنيوية باستبعادها لمنشئ النص سقطت في مقتلها، و لذلك تراجع الاهتمام بها، بله كاد أن يصل إلى الانعدام.

تواصل الاهتمام بالنصوص المتعددة الأنماط إلى أن بلغ عقل الباحث في اللغويات سبيلَ منهجٍ بحثي استطاع بواسطته التمكن من حلولٍ لمصاعب عرقلت التوصل إلى أعماق خطابية النص، و يتمثل هذا المنهج في التداولية التي تنطلق من النص بكل متعلقاته المتمثلة في الناص-المنشئ- و كذا النصوص المشاركة في تشكيله-التناصية- إلى جانب أهم فضاء في التحليل اللغوي و المتمثل في السياق أو المقام العام الذي تمّ التشكل النصي ضمنه، و يضم هذا السياق الملابس الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية و كذا الثقافية التي تعتبر أهم هذه العناصر، و لقد وجد النقاد العرب ضالّتهم في المنهج التداولي لاحتواء تراثهم على معين لا يُستهان به في الدراسات المقامية التي يقف على رأسها الجاحظ ببيانه و تبيانیه، و للإشارة العابرة فإن التداولية انطلقت شرارتها الأولى من دراسات لغويين أمثال شارل موريس و أوستين و تلميذه جون سيرل، و قد اعتمدت في تأسيس منطلقاتها الفكرية على فلاسفة أمثال لودفيغ فيدغنشتاين و غوتلوب فريجه و براتراند راسل، و تُعد محاضرات أوستين التي ألقاها في هارفارد سنة 1955 ضمن ندوات وليام جيمس بمثابة التأسيس الفعلي للتداولية، و قد جُمعت هذه المحاضرات في مصنف: **كيف ننجز الأشياء بالكلام**، أما التأسيس الفني فكان على يد جون

سيرل، وعليه صار الفضاء البحثي بفضل سيرل أكثر اتساعاً، ليشمل النصوص الروائية الحاملة لخطابات مجتمعاتها.

بناء على ما سبق إيراده تبدى لي انتقاء رواية واسني الأعرج كمدونة للتطبيق البحثي و التي عنوانها كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، بحيث أوجزت هذه الرواية رحلة تاريخية هامة من تاريخ الجزائر في قالب فني مشوق و أبرزت إنسانية القائد الجزائري، وانصب اهتمامي أكثر بموضوع الهوية فيها، علماً أن هذا الموضوع رافقني كالمهاجس البحثي منذ فترة الدراسة الجامعية بوهران، و قد ظل هذا المهاجس يرافقني كالظل في كل المراحل العلمية التي تلت ذلك، إلى الحين الذي وفقني الله تعالى إلى نيل درجة الماجستير في مشروع **نظرة الأنا العربية إلى الآخر ضمن الرواية الجديدة**، و بعدها اتجه تفكيري إلى اختيار موضوع أطروحة الدكتوراه التي كنت أزمع أن أواصل من خلالها تشكيل بحثٍ له علاقة بالآخريّة، و لكن بعد أخذ و رد استقر الرأي على الاختيار الوسط و الذي وضعه المشرف أمام ناظري، فكان البحث مصطبغاً بالطابع الهووي الذي يستمد أسباب وجوده من ذاكرة التاريخ الخاص بكل أمة من الأمم، وبالتالي انطرح هذا الجانب في العنوان في صورة مصطلح الوثائقية، و يشكل بهذا كل من التاريخ والهوية الخلفية الفكرية الأساسية للفرد والمجتمع التي تغذي عملية إثبات وجودهما، و عليه كان العنوان كالتالي:

البعد أهوياتي و الوثائقي في رواية كتاب الأمير

مقاربة تداولية

ارتأيت أن أجعل التنظيم المنهجي للبحث على شكل مقدمة يليها مدخل وثلاث فصول، مع الشفع بخاتمة الاستنتاجات، و بقية ملحقات البحث المعروفة، و تناولت في المدخل:

1-التداولية من حيث المنشأ و التأصيل المعرفي و عاجلت ضمنه الإرهاسات الأولى لهذا المنهج.

2-التداولية ضمن المنظومة النقدية العربية، و تناولت ضمنه كيفية تلقي النقد العربي لهذا المنهج .

3-الوثائقية و علاقتها بالرواية التاريخية.

أما الفصول فكانت ثلاثة، أولها ذو طبيعة نظرية بحتة، استهلته بالمبحث الأول بتناول لجملة المفاهيم التي بُني عليها البحث و التي يقف على رأسها: مصطلح الهوية بشقيها اللغوي و الاصطلاحي، ثم كان تناولي للتواصل و علاقته باللغة، ثم انتقلت إلى مكوني الهوية الأساسيين الديني و القومي، ثم تناولت مسيرة مصطلح التداولية إلى أن أخذ شكله الفني، أما المبحث الثاني فقد خصصته للحديث عن الخلفية الفكرية التي ساهمت في تأسيس حقل التداولية، فكان العنصر الأول مخصصا للسانيات بوجه عام، ثم تلى ذلك حقل الفلسفة التحليلية وهو حجر الزاوية في التأسيس، إذ كانت لي وقفة مع فلاسفة التحليل اللغوي كفيد غنشتاين و فريجه و كذا سيرل، أما العنصر الثالث فكان للحديث عن علم النفس المعرفي بحيث تناولت من خلاله التلاقي الإجرائي بين هذا الحقل المعرفي و بين التداولية، أما خاتمة عناصر المبحث الثاني فكانت للحديث عن التعالق الحاصل بين فضاء التواصل و التداولية، و من ثم انتقلت إلى المبحث الثالث المخصص للآليات التداولية، و كانت البداية من نظرية الأفعال الكلامية إذ تناولت مفهومها و أهم الرجال المؤسسين لها كأوستين و جون سيرل اللذين عقدت بينهما مقارنة موجزة و مفيدة، ثم أردفت ذلك بحديث عن دعوة النقاد إلى إنشاء نظرية للأفعال الكلامية ذات روح عربية، أما العنصر الثاني فكان للإشارات بأنواعها: الشخصية و الزمانية و المكانية، و الخطائية و كذا الإشارات الاجتماعية، ثم خصصت العنصر الثالث للمتضمنات القولية، و عرجت بعد ذلك للحديث عن الاستلزام الحوارية بأنواعه الثلاثة: التخاطبي المخصص و التخاطبي المعمم و التخاطبي الجملي، و كانت لي جولة مع طه عبد الرحمان و غرايس لعقد مقارنة بينهما على أنهما درسا عنصر الاستلزام الحوارية، و كانت خاتمة المبحث و الفصل الأول على حد سواء بالتطرق إلى نظرية الملاءمة أو المناسبة التي لم تنل حظها من الدراسة من طرف الكتاب.

حاولت في الفصل الثاني أن أقترح التطبيق بانتقاء عنوان يناسب الدراسة المقامية التي أزمعت على إسقاطها على الرواية، فكان المبحث الأول الذي احتوى على: توصيف موجز للنص الروائي، و حديث مفيد عن فلسفة الهوية ضمن الرواية ثم تحليل بسيط لهوية العمل المُتخذ في المدونة، و جعلت المبحث الثاني وهو الرئيس لمحاولة إظهار أنماط المقامات أو السياقات التي ظهرت من خلالها الهوية، فكانت العناصر على النحو التالي: تتبع الهوية من

خلال مقام الحضور المتعالي بشقيه الداخلي و الخارجي، ثم المقام التفاعلي الجدلي بنوعيه السليبي و الايجابي، و لكل من هذه المفاهيم دلالاته الموضحة في البحث، أما المبحث الثالث فكان لتناول الطبيعة التي اصطبغ بها نص كتاب الأمير و هي موجة الرواية الهوية، و كان لي حديث في آخر الفصل الثاني عن الامتزاج الفني المتفرد الذي أحدثه المبدع ما بين حقلي التاريخي و التخيلي، صانعا سياقاً مميزاً أنتج لغة جاذبة لقارئها .

اصطبغ الفصل الثالث من البحث كسابقه بالصبغة التطبيقية، و قد خصصته لأجل مقارنة الأنماط الهوية في الرواية، على أنني حاولت أن أتناول هذه الأنماط بشكل أكثر تجريداً لأجل محاولة الإحاطة بكل الأنماط المساهمة في صنع الهوية العامة، و بالتالي وقع اختياري على تصنيف هشت الكاتب في علم النفس الاجتماعي على أساس تعالق هذا الأخير بالتداولية في عديد المساحات، و قد بدأت بتناول التصنيفات الأربع للهوية من حيث المفاهيم وهي: الهوية الشخصية، الهوية المعبر عنها، و الهوية العلائقية، والهوية المشتركة، ثم تمحور المبحث الثاني للفصل الثالث حول السياقات الروائية التي توافقت التصنيفات الأربع في النص الروائي، إذ خصصت لكل تصنيف عنصراً منفرداً به، و كنت أضطر إلى إضافة بعض العناوين الفرعية التي أخذت شكل أنماط هوية أخرى مثل: اللغة و الهوية الشخصية و الهوية الثقافية الذاتية، اللذين اندرجا تحت فرع: الهوية الشخصية، و للإشارة المفيدة قد يلاحظ القارئ للعنوان أن البحث أهمل الجانب التوثيقي المشار إليه، و لكن للقضية تخريج، يتمثل في أن هذا العنصر اخترت أن يكون متفرقا بين الفصلين التطبيقين، بحيث كنت نأزُدُ الحقائق التاريخية الواردة في الرواية إلى نظيرتها في كتب التاريخ الموضوعي مشيراً إلى ذلك في التهميش، و ذلك تبعاً لطبيعة لعنصر التوثيقية من جهة و ابتغاء الإيجاز المفيد من جهة أخرى، و يبقى هذا الأمر محض اجتهاد أقرب إلى الخطأ و أبعد من الصواب، و لقد استعنا في ذلك بكتب سجلت سيرة الأمير عبد القادر، منها: حياة الأمير عبد القادر لشارل هنري تشرشل، و أصحاب الميمنة للأميرة بديعة الحسيني الجزائري إلى جانب كتاب التاريخ الإداري و العسكري للأمير عبد القادر لأديب حرب، بالإضافة إلى جملة من المقالات .

إن المنهج النقدي الذي حاولت أن أجعل تحت إطاره البحث هو التداولية، و كانت انطلاقة الفكرة من المشرف من جهة، وعلى أساس أنه مناسب للبحوث التي تتناول الروايات

ذات الطابع التاريخي من جهة أخرى، و بالتالي حاولت أن أوسع قراءاتي ضمن هذا المنهج محاولاً أخذ التفاصيل و الآليات من مصادرها مثل كتاب: كيف ننجز الأشياء بالكلام، و الأفعال الكلامية في الخطاب لكاترين أوركويوني les actes de langages dans le discours، و القاموس الموسوعي للتداولية dictionnaire encyclopédique de pragmatique، و قاموس تحليل الخطاب Dictionnaire d' analyse du discours، أضف إلى ذلك مصنف: التداوليات علم استعمال اللغة لحافظ إسماعيلي، و كتاب آليات إنتاج النص الروائي لعبد اللطيف محفوظ، و كتاب ما الخطاب و كيف نحلله لعبد الواسع الحميري، و التداولية من أوستين إلى غوفمان لفيليب بلانشيه، و كانت هذه أهم المصادر التي اعتمدت عليها في تحرير فصول البحث، ولقد تحتم علي خوض القراءة لكتب تاريخ الأمير عبد القادر نظراً للطابع التاريخي البحث الذي اتصفت به المدونة، و أهم هذه الكتب: التاريخ الإداري و العسكري للأمير عبد القادر لأديب حرب، حياة الأمير لوستون تشرشل، و أصحاب الميمنة للأمير بديعة الحسني و قد أُشير إليها أعلاه، و تركز التداولية أكثر ما تركز على تتبع المقام العام الذي يَضمُّ ملابسات المحاور اللغوية بين الأطراف المتعددة، إذ أن من هذه الأخيرة حاولت استخراج ركائز و أنماط الهوية مستعينا بطبيعة الحال بآليات المنهج المتخذ في البحث.

بقدر شدة العوائق بقدر اللذة التي تحصل للباحث في خلال تشكيل أطروحته، و عليه فإن أول هذه المصاعب تمثلت في عدم وجود اتفاق بين الباحثين على منظومة اصطلاحية للمنهج التداولي، و بخاصة بين المشاركة و إخوانهم المغاربة الذي ينقل معظمهم من المصادر الفرنسية، أما ثاني هذه المصاعب و أعتاها فيتمثل في قلة تطبيقات التداولية على النصوص الروائية، و مرد ذلك حداثة ورود هذا المنهج إلى ثقافة النقد العربية التي أنتجت اهتماماً قليلاً بهذه القضية، إذ نجد بعض المقالات المتناثرة في المجلات المحكمة كعالم الفكر التي سجلت أعدادها نشر العديد منها.

لم يكن من الهين اقتحام بحثٍ ذي طبيعة زئبقية مستمدة من المنهج التداولي الذي انتشرت تطبيقاته على محتويات الفصول، لأجل ذلك كان من الضروري بل من الحتمي أن يستقبل الباحث السند و الظهر المعينين له على الانجاز، و عليه فله الحمد و المنة على التوفيق، و للمشرفين الرئيسيين د.عبد القادر شرشار، و المساعد د.شعيب حليفي المغربي الشكرُ على

متابعتهما للبحث و صبرهما، و للعائلة كذلك الشكر على مشاركتها عنوة الطريق، و لإدارة جامعة معسكر الذي يمثلها شخص رئيسها أ.د. عبد القادر خالدي كذلك الشكر على تيسير و تذليل المراحل الإدارية، و لا أحسب أني قد ساهمت في تكوين بحث ذي طبيعة تقترب إلى الصفة الأكاديمية، بل أراي قد فتحت بابا للتساؤل حول مصداقية تسليط المناهج ذات المنبت الغربي على النصوص الحاملة للغة الضاد.

زحاف حبيب معسكر بتاريخ:

الثلاثاء 9 أفريل 2013 م الموافق لـ: 28 جمادى الأولى 1434هـ

المدخل

1.1- التداولية من حيث المنشأ و التأصيل المعرفي.

2.1- التداولية ضمن المنظومة النقدية العربية.

3.1 - الوثائقية و علاقتها بالرواية التاريخية.

1.1-التداولية من حيث المنشأ و التأصيل المعرفي:

يعتبر هذا العنصر رديفا للعنصر الذي ستأتي الإفاضة فيه في مستقبل البحث حيث سيدور الحديث من خلاله على التحديدات المفاهيمية المتعلقة بالتداولية⁽¹⁾ إذ سنجد في نشر أفكاره معلومات تكاد تتضارع مع نظيراتها المذكورة لاحقا، ولكن هذا ليس من قبيل التكرار الممل، و لكن من قبيل التكرار المفيد الذي يعطي نفسا جديدا لتوضيح الأفكار، وإذا كانت العلاقة التي تجمع العنصرين على هذا الشكل التبادلي في المعطيات النظرية، فإن الأهمية المعرفية لكليهما تتساوي وبالتالي ينبغي أن يأخذ حقهما من الاهتمام المنهجي والدراسة المتأنية، و عليه سنحاول أن نسير مع عنصر منشأ التداولية على حسب بداية نشأتها منذ بروزها على يد الفلاسفة الأمريكيين، ثم نخرج بعد ذلك على تناول الدارسين الذين كان لهم السبق في الإضافة المعرفية و المنهجية، متتبعين طريقة الاسترشاد بما قدموه من كتابات مختلفة حول التداولية أو حول العلوم التي ساهمت في تأسيسها النظري .

يكاد يكون الإجماع بين الدارسين والمهتمين بالتأريخ لبداية العلوم و المناهج على أن النشأة الأولى للنهج التحليلي الجديد – التداولية - كان على يد الفيلسوف أوستين⁽²⁾ ولكن ينبغي الإشارة إلى أن هناك إرهاصات كتابية سبقت إلى الظهور قبل أن يقام حفل ميلاد التداولية حيث كانت هذه الأخيرة تمارس وجودها المفاهيمي بشكل بسيط غير مكتمل القسمات عند الأولين، ولم يكن في نية اهتمام هؤلاء هو تأسيس نهج خاص بها، و ذلك راجع إلى اعتبار معين يتمثل في كون: "البلاغيين القدامى كانوا تداوليين"⁽³⁾ حيث أن الفلسفة باعتبارها من أعرق العلوم، اهتمت منذ القدم بأهم أركان التداولية وهي البلاغة⁽⁴⁾، ولقد عمل معظم الفلاسفة القدامى على تفصيل هذه المسألة: "فطوروا منذ أفلاطون وأرسطو وصولا إلى سينيكا Sénèque وسيشرون Cicéron وكون تليان Quintilien بلاغة واصفة

¹ ينظر التحديد المفهومي للتداولية ضمن شبكة المفاهيم في الفصل الأول.

² ينظر: فرانسواز أرامينكو، المقاربة التداولية ، تر: سعيد علوش، ص 74 .

³ فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، ص 20.

⁴ ن.م.س، ص 20 يقصد الفلاسفة اليونان .

للانفعالات والطبائع"⁽¹⁾، ثم إن هوس الفلاسفة اليونان القدامى باللغة دفعهم إلى إيجاد مساحات معرفية جديدة لأجل إثراء حقل اللغة على أنه ميدان حيوي يساهم في إرساء الصيرورة التاريخية في المجتمع، وكان الخطاب البلاغي *discours rhétorique*⁽²⁾ من أهم العناصر المهتم بها في هذا المجال، و تعد البلاغة في المفهوم الغربي رافدا من روافد الخطاب الإقناعي في بعده التنظيمي و اللغوي، لأن كلمة *Rhétique* تعني الخطابة لا البلاغة، أما في تراثنا فهي تشمل الخطابة و سائر الفنون الكلامية⁽³⁾، و بالتالي تم إعطاء تقسيمات لهذا الخطاب على معيار العلاقة القائمة بين الخطاب والمتقبل – أي المخاطب - وهي كالتالي:

1- جنس مشاجري *genre judiciaire* يتضمن أحكاما على الأعمال

المنقضية .

2- جنس منافري *épideictique* ويتعلق بتحديد الجمال و القبح في الأشياء،

و غالبا ما يكون الوصف من خلاله في الزمن الحاضر، حتى و إن كانت الأفعال تدل على غير ذلك.

3- مشاوري *délibératif* ويقترح حلولاً مستقبلية الوقوع، متوسلا الحوار

الجدلي *le débat* و غالبا ما نجده ضمن المحافل السياسية.⁽⁴⁾

¹ فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، ص20 . يشير صلاح فضل إلى التعالق القائم بين اهتمام الفيلسوف سيشرن ضمن البلاغة من تقديمه لما يجب أن يكون عليه الخطيب البليغ و بين ما دعت إليه البلاغة العربية القديمة من ضرورة مناسبة المقال لمقتضى الحال و هو المبدأ الذي تلح عليه التداولية، ينظر بلاغة الخطاب و علم النص، صلاح فضل، ص21.

² فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، ص20. على أساس أن البلاغة ذات علاقة وثيقة بالتداولية.

³ ينظر: عبد الله بن إبراهيم الزهراني، سؤال الهوية و آفاق المنهج، جامعة أم القرى، ط1/ 1433هـ-2012م، ص538-539.

⁴ المتحدث عن الأجناس هو الفيلسوف اليوناني *Quintilien* ولد سنة 42 ق.م اهتم بفنون البلاغة ينظر: التداولية من أوستين إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، تر: صابر الحباشة، ص21. أشار أرسطو إلى أنماط الخطابة التي لا تبتعد عن طرح كانتيليان السابق و هي: الاستشارية، و التثبينية، و القضائية، ينظر: اللغة و الحجاج، أبو بكر العزاوي، مؤسسة رحاب الحديثة، 2009، ص19-20، كما نجد تقسيمات أخرى للخطابة وهي: خطابة تداولية لإقناع السامعين وخطابة=

و انطلاقا من الأجناس الخطابية المتناولة أعلاه فإننا نسجل ظهور إشكالية هامة تتمثل في التعالق القائم بين الأنماط المذكورة سابقا و التي مثلت و لا تزال تمثل المادة الخام التي استقى منها أعلام التداولية إنتاجهم، و بين التفصيلات التي توصل إليها أقطاب التداولية في العصر الحديث حول الأنماط المتعلقة بالنهج المذكور، أمثال أوستين و سيرل و كذا غرايس...

إن الأدب بأجناسه المتعددة من شعر و قصة و رواية ميدان خصب يفرغ فيه الإنسان تجاربه التي لقنتها له الحياة بتفاعلاتها، وبالتالي كان من اللازم أن يُتخذ الكلام بمثابة الوسيلة الوحيدة الفعالة من طرف الإنسان للإخراج والتعبير، هذا العنصر الذي عدَّ ظهوره دوسوسير قبل ظهور اللغة إذ قال: "الكلام أسبق من اللغة.. والكلام سبب تطور اللغة.. و اللغة أداة الكلام و حصيلته"⁽¹⁾، و بالتالي كانت النتيجة أن ظهر الاهتمام بمقتضيات عنصر الكلام المعرفية المختلفة، وقبل ذلك ظهر الاهتمام بحقوله الإبداعية من مسرح و قصة وشعر، فأُنْجبت قريحة الإنسان التابع للحضارة اليونانية نوعا من حب النزوع نحو الخطابة التي تُعد إلى جانب أجناس أخرى فضاء يسيرا وفعالا وأكثر توصيلا، وتُعد كذلك أنموذج الساحة التطبيقية لممارسة تقنيات البلاغة، و هذه الأخيرة هي الفضاء الذي حشد فيه أهل الفلسفة اليونان فنون القول على اختلاف أنواعها وأنماطها، و بالتالي تكونت لهذا المجال مفاهيم عبر قراءات هؤلاء الفلاسفة فقال عنها أفلاطون بأنها: "القدرة التي يملكها الإنسان في الخطاب كي يتسنى له دحض الخصم"، بينما يجعلها سقراط من فنون السياسة، على أن مفهوم السياسة الذي يعنيه هو الفن الذي يهدف إلى الاهتمام بالنفس الإنسانية"⁽²⁾ أما أرسطو الذي كان له الفضل في إثراء الكثير من المسائل الفكرية، يرى أن الخطابة تتمثل في رؤية مغايرة فأظهرها على أنها: "عملية للتمويه manipulations بواسطة الخطاب"⁽³⁾ وذلك لأن الخطابة بوصفها آلية تتوسل اللغة تمتلك مقدرة

=قضايا و أخرى بيانية و فيها التقريظ و التقريع، ينظر: عبد الله بن إبراهيم الزهراني و آخرون، سؤال الهوية و آفاق المنهج، ص538.

¹ فرديناند دي سوسور، علم اللغة العام، تر: لوئيل يوسف عزيز، ص38. وينظر التفصيل الشافي و الكافي للمسألة

ضمن: اللغة العربية معناها و مبناها، تمام حسن، ص31-32-33.

² Dictionnaire d'analyse du discours , ibid., p505.

³ فيليب بلانشيه، تر: صابر الحباشة، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص22.

جمع المواضيع Topos⁽¹⁾، والتي تعني وجهات النظر التي يمكن أن تعالج بها موضوع ما، وللإشارة فقد تناول سيرل هذه المسألة ضمن استدراكااته التي أضافها على أستاذه أوستين، و سيأتي الحديث عنها في عنصر نظرية الأفعال الكلامية⁽²⁾، وبالتالي تُسَعَفُ معرفة ملقي-الفاعل المتكلم- الخطاب لهذه المواضيع الكلامية على أخذ الاحتياط و تجنب الوقوع في إفشال العملية التواصلية و هذا: " باستباق الاعتراضات والشكوك المقاومة التي قد يظهرها هذا الخطاب"⁽³⁾.

تواصلت الهيمنة الثقافية التقليدية القديمة على الفكر الغربي حتى القرن التاسع عشر (19)، و لقد عملت أفكار متعددة عملها وكان لها الحظ الأكبر من هذه الهيمنة مثل المنطق الأرسطي الذي تركز في حلّ النظريات الأدبية بداية من: "الشكلانية إلى الشعرية (الإنشائية) ثم البنيوية إلى التداولية"⁽⁴⁾، هذه الأخيرة كانت آخر حلقات التطور في ميدان التنظير للمناهج النقدية اللغوية الحديثة، و لقد حمل أكبر الفلاسفة الغربيين هذه المسؤولية على كاهلهم، وقدموا مطارحات نظرية حاولوا بها وصل التراث الفلسفي اليوناني بما توصلوا إليه، و لقد أشار بلانشيه إلى بعض المسالك التي تقود إلى الاعتقاد أن هناك إرهابات سبقت التداولية إلى الظهور ففي فلسفة كانط مثلا و التي توصف بالفلسفة المتعالية transcendante "نجد في منظومته الاصطلاحية استعمال لفظ pragmatisch و هذا الأخير غير بعيد عن لفظ التداولية عند التداوليين les pragmatistes"⁽⁵⁾.

ييدي كثير من الباحثين في حقل التداولية رؤية تكاد تصل إلى شبه الاتفاق حولها، وتتمثل هذه الرؤية في تحديد مصادر نشأة التداولية ومنابع معارفها، ولقد وجدنا الكتب النقدية

¹ ينتمي مفهوم topos إلى مادة topic التي تستعمل للدلالة على موضوع خطاب أو سجال، أما topos فهو مصطلح يشير إلى نظرية المواضيع أي الأماكن المشتركة، و هي الأماكن العامة التي يمكن أن يصار فيها إلى ترتيب كل الحجج، و من ثم تُشكل معرفة هذه الأماكن /المواضع سجلا يسهل الإبداع، ينظر موسوعة لالاند، ج3، ص1462.

² ينظر: جان مارك فيري، تر: عمر مهيل، فلسفة التواصل، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط/2006، ص12.

³ فيليب بلانشيه، تر: صابر الحباشة، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص 22.

⁴ ن.م.س، ص 25.

⁵ ن.م.س، ص 26.

تحدث عن ذلك بنوع من الاختلاف في تناول، إذ حددها أحدهم بتبيان تأصيلها المأخوذ-
على رأي الكاتب - من الفضاءات المعرفية الآتية:

- 1- السمائيات المنطقية من نادي فيينا cercle de vienne.
- 2- سمائيات ش. موريس. ch. Morris.
- 3- الذرائعية الأمريكية pragmatisme ل ش.س. بيرس ch. Pierce⁽¹⁾

وعليه فإن التداولية: "تتموقع في حقل فلسفي فسيح"⁽²⁾، إذ نجد أن القائمين على التنقيب في قضاياها قد أخذوا معظم صياغة أفكارهم من أشهر الفلاسفة الذين ملأت دراستهم المكتبة الثقافية الإنسانية، و بخاصة في ميدان علوم اللغة من حيث ديناميكية عملها في المجتمع ومن بينهم برتراند راسل (1920-1972) الذي يُعد: "مثالا مختارا للسياق الفلسفي والتاريخي الذي نصبت في كنفه التداولية"⁽³⁾، و يشير كذلك بلانشيه blanchet إلى أن بيرس Peirce يُعد من بين الذين انطلقت على أيديهم الإشعاعات الأولى للتداولية إذ إلى جانب حيازته على مرتبة صاحب الفلسفة النفعية (pragmatiste) يعد كذلك سلفا للتداوليين⁽⁴⁾، ويوضح هذا الكاتب المسألة بصفة جلية بحديثه عن مدى ارتباط دراسات بيرس بالفضاء التداولي فيقول عنه أنه: "كان واصلا بين عمله كسيميائي وبين تأملاته الفلسفية إذ يؤكد أن وضع العلامة موجه نحو الفعل، ما دامت فترة صنع الإنسان أشياء لنفسه تعادل الآثار الملموسة والممكنة بواسطة تلك الأشياء التي يخلقها... وبالتالي قد ألزم بيرس بوضوح الدراسة اللغوية بالمنظور التواصلية والدلالي، الذي يسمُ المقاربة التداولية التي تُعني بورود العلامة"⁽⁵⁾.

وهكذا ستعرف التداولية بعد هذا المسار الفعال من الدراسات الفلسفية، وهذا الكم الكبير مما قدمه هؤلاء من أبحاث نظرية⁽⁶⁾، ستعرف ظهورا من نوع آخر، أي الظهور الشبه

¹ Introduction a la pragmatique , office des publications universitaires Alger, p4. linguistique, Djilali dalache

² فيليب بلانشيه، صابر الحباشة، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: ص 18 .

³ ن.م.س.: ص 33.

⁴ ن.م.س، ص 39.

⁵ ن.م.س، ص 43.

⁶ يقصد البحث ما قدمه هؤلاء أما ما قيل عنهم فهو على وجه الاختصار.

التام للمنهج التداولي في صيغته الكاملة والتي سيستطيع أي باحث من خلالها إدراك أبعاده المعرفية و كذا آلياته التحليلية، ويعود الفضل القوي في تحقيق التداولية لوجودها بالفعل لأوستين Austin و إلى تلميذه جون سيرل Searle، وبالتالي أُعتبر هؤلاء من: "المنظرين-لحقل التداولية- مع عالم الاجتماع غوفمان Goffman وكذلك المختص في اللسانيات الاجتماعية غمبرز gumperz بالإضافة إلى مدرسة بالو ألتو⁽¹⁾، هذا وينبغي أن نشير إلى أن هناك من الدارسين من كان أكثر صرامة في وضع التصنيف لهؤلاء المؤسسين، مثل صاحبة كتاب المقاربة التداولية التي قدمت تصنيفا متكونا من ثلاث طبقات بداية من: "المؤسسين المباشرين، أمثال بيرس وموريس، ومؤسسين غير مباشرين أمثال : فريج و فيتغنشتاين، و مؤسسين متعاقبين، أمثال : كارناب ثم بارهيل⁽²⁾"، وسيأتي الحديث عن هؤلاء الجمع من المنظرين في لاحق البحث كل في عنصره.

2.1-التداولية ضمن المنظومة النقدية العربية:

لا يزرغ شيء من فراغ، فلا بد من إرهاصات تسبقه كي تمهد له الطريق للظهور، وهذه صفة تكاد تكون كالقانون العام الذي يشمل جملة الظواهر الطبيعية التي تتعلق بالإنسان سواء من شؤونه المحسوسة أو غير المحسوسة، واللغة تكاد تكون من الشؤون التي تنتمي إلى عالم الإنسان غير المحسوس أي المجرد، وبالتالي فإن اهتمام الإنسان العربي بلغته بدا منذ عهد قدم انطلاقا من الصيغة الحميمية التي ضمت اللغة العربية و ربطتها بدواخل نفسه، هذا الإنسان الذي أَلِفَ العربية و أَلَفَته منذ العصر الجاهلي -باعتبار التصنيف المعتد به- إلى العصور التي تلت ذلك، أي الأموي والعباسي إلى يومنا هذا، حيث أضاف التحضر الذي صنعه إشراقات الحضارة العربية الإسلامية إلى العربي نوعا من الانجذاب إلى اللغة العربية، هذه اللغة التي شكلت كينونته، ثم جاءت الإضافة الكبرى و التي تمثلت في الجهود العلمية التي قدمها اللغويون العرب القدامى سواء في النحو أو الصرف أو البلاغة، إلى غيرها من الحقول المعرفية الأخرى و هذا ما زاد اللغة غنى و ثراء .

لقد كان للعرب القدامى التفاتات ذات أهمية كبرى ضمن الميدان اللغوي الذي يمت بالصلة إلى العلوم التي أبدت اهتماما بالحقول اللسانية، و لا غرو و لا عجب في ذلك، إذ أن

¹ ينظر: فيليب بلانشيه، تر: صابر الحباشة، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص 18.

² فرانسواز أرامينكو، تر: سعيد علوش، المقاربة التداولية، ص4.

العقل العربي آنذاك كان قد وصل إلى درجة عالية من الوعي المعرفي جراء عوامل مهمة من بينها التفعيل الذي أحدثته حركة الترجمة التي أتت على كل الكتب التي أُلِّفت باللغات الأخرى، و بالتالي لم تترك حركة النقل اللغوي للعلم شاردة و لا واردة إلا نقلتها إلى لغة الضاد، و حصل ما سُمي بالصدمة الحضارية للمؤلفين العرب القدامى، و لكن ما أُلْحَقَ ذلك أثراً عكسياً في تفكيرهم من شيء، لأن منظومة العلوم التي أبدعها العقل العربي المسلم قد جعلته يعتنق ضوابط و معايير علمية خالصة و صارمة، و عليه فقد سارت حركة الترجمة العلمية للمؤلفات اليونانية و الهندية و كذا الفارسية في الاتجاه الحسن، و انعكس هذا الأمر على علوم اللغة و بخاصة البلاغة التي عُدت العلم الأكثر عرضة للتلقي التأثيري دون العلوم الأخرى من نحو و صرف و عروض، الشيء الذي أدى إلى ظهور هذه القضية بقوة حينما اطلع العلماء العرب القدماء على كتب المنطق و الفلسفة اليونانية، و لقد عبّر عن ذلك غير واحد من الباحثين المنتمين إلى العصر الحديث متعرضاً إلى مساحات التلاقي الموجودة ضمن ثنائية البلاغة العربية و المفاهيم التداولية عند البلاغيين، و من هؤلاء محمد العمري الذي قال : "إن هذا البعد-يقصد البعد التداولي- هو أحد الأبعاد الأساسية في البلاغة العربية، وهو بعد جاحظي في أساسه، وإنَّ تخليّ البديعيين عنه في مرحلة لاحقة أدى إلى اختزال البلاغة العربية وتضييق مجالها، وتخطى نظرية التأثير والمقام حالياً بعناية كبيرة في الدراسات السيميائية، ومن ثم الشروع في إعادة الاعتبار إلى البلاغة العربية تحت عنوان جديد هو التداولية" (1)، و كذلك نجد تمام حسن الذي بيّن مدى ارتباط المقام أو السياق بالدرس البلاغي العربي القديم على اعتبار أن المنهج التداولي يتخذ من السياق أهم ركن له في تأويل الملفوظات فيقول هذا الباحث متحدثاً عن البلاغة أنها : "قدمت لدراسة المعنى الاجتماعي-أي الذي يُستنبط من الاستعمال اللغوي-فكرتين تعتبران من أنبل ما وصل إليه...و أولى هذين الفكرتين فكرة المقال و الثانية فكرة المقام، و أنبل من ذلك أن علماء البلاغة ربطوا بين هاتين الفكرتين بعبارتين شهيرتين ضمن علم اللغة الحديث، أصبحتا شعاراً يهتف به كل ناظر لمعنى، فأما العبارة الأولى لكل مقام مقال، و العبارة الثانية لكل كلمة مع صاحبها-ببها مقام" (2)، و إذا أردنا انتقاء مثال عن الالتفاتات البلاغية التراثية

¹ محمد العمري، البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، المغرب، 1999، ص293.

² تمام حسن، اللغة العربية معناها و مبناها، ص20.

التي يحال البحث أن لها تعالقا بالتداولية، فالجاحظ خير من يمثل هذا النموذج، إذ تتجلى جذور التداولية عند الجاحظ من خلال تقسيمه للبيان إلى ثلاث وظائف، واهتمامه أكثر بالوظيفة التأثيرية، التي تمثل جانباً مهماً في التداوليات الحديثة فيقول الجاحظ: "أما بعد، يمكن إرجاع وظائف البيان، اعتماداً على كل ما سبق إلى ثلاث وظائف أساسية هي: (1)

1— الوظيفة الإخبارية المعرفية التعليمية (حالة حياد، إظهار الأمر على وجه الإخبار قصد الإفهام).

2— الوظيفة التأثيرية (حالة الاختلاف) تقديم الأمر على وجه الاستمالة وجلب القلوب.

3— الوظيفة الحجاجية: (حالة الخصام) إظهار الأمر على وجه الاحتجاج والاضطرار. إن مثل هذه النماذج عديدة، ولكن المجال ليس مجال سردها و التأكد من صحة تعالقتها بالتداولية بل المجال للحديث عن النماذج التراثية التي كانت لها رؤيا عميقة للغة، و بالتالي فإن التطبيقات التي أتاحتها المنهج التداولي للباحث في اللغويات تكاد تكون مساحتها ألصق بالفرد في مجتمعه، و هذا يسهل للدارس قرب التوصل إلى نتائج كافية لتفسير و تأويل الملفوظ اللغوي في صيغته الإستعمالية.

ارتأينا أن نضع أيدينا في هذا العنصر على مكان من الحياة الفكرية عند العرب القدامى على وجه الاختصار المفيد، ولسوف يلقى المطلع على هذا البحث المتواضع أحاديث متنافرة عن الإسهامات العربية في التداولية و ذلك في سياق تناول الباقي من العناصر، و استمرارا من البحث على سبيل الإضافة المنهجية لما سبق الحديث عنه ارتأينا الانتقال إلى ساحة الحدث التاريخي الذي يعبر عن الظهور الفعلي للتداولية، و يعبر كذلك عن مدى التأثير الإيجابي الذي تلقاه العرب المحدثين جراء هذا الظهور، و بالتالي يجدر بنا في هذا المقام أن نلج من الباب لا من غيره، والباب الذي دخلت منه التداولية إلى مسرح الثقافة العربية كان موقفه استقبال هذا الشأن اللغوي بفتح المصراعين تبعا لطبيعة زمن الانفتاح الذي يتموضع ضمن فترة القرن

¹ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الجاحظ، مصر، ط4، الكتاب الثاني، 1395هـ - 1975، ج1، ص75.

العشرين 20م، وهذا بعد أن ألقى الغرب في الحقل المعرفي المختص بالذكر ما ألقى من الكتابات المختلفة و التي لها تعالقات بالتداولية، واجتهد وكون وصاغ من النظريات ما صاغ، وعليه فإننا نسجل في هذا المضممار أهمية الترجمة⁽¹⁾ التي اتخذها الدارسون العرب كوسيلة فعالة لنقل الثراء الفكري الغربي، إذ بدون هذه الوسيلة أي الترجمة-النقل النصي من لغة إلى أخرى- ما استطاع العربي المنتمي إلى القرن العشرين التعرف على التداولية ولا على غيرها من المناهج النقدية الأخرى، وعليه فسير الكتاب العرب نحو إتقان اللغات التي يكتب بها العلم والفن في هذه الفترة التاريخية يعتبر السبيل الأوضح الموصل إلى التعرف على مضامين هذه المناهج، ولقد كانت بداية الحديث عن التداولية عند العرب من: "طه عبد الرحمن في كتابه الدلالات والتداوليات"⁽²⁾، ويُعدُّ هذا الباحث من المجتهدين في مجال علم اللغة بشقيه التراثي و الحديث، أضف إلى ذلك مواطنه أحمد المتوكل الذي أهطل اجتهاده الفكري سيلا من المؤلفات التي عاجلت الموضوع، و أشهرها كتاب **الوظائف التداولية للغة العربية**⁽³⁾، إلى جانب محاولات متواضعة من دارسين عرب آخرين استعانوا باللسان غير العربي أي الفرنسي مثلا كمحاولات الجيلالي دلاش في كتابه: **مدخل إلى اللسانيات التداولية** وهي عبارة عن جملة من المحاضرات ظهرت سنة 1992⁽⁴⁾، وهكذا انطلق فتيل الاهتمام بهذا الميدان الهام من علوم اللغة حتى عمّ المشرقين العربيين⁽⁵⁾.

إن الباحثين العرب المنتمين إلى العصر الحديث هم الذين فتحوا بابا جديدا في الدراسات اللغوية العربية و الذي تُرجم فيما بعد بمصطلح التداولية، وتمثل الجهد الذي قدموه في دراساتهم

⁽¹⁾ هناك الكثير من المصادر المتعلقة بالتداولية تمت نقلها إلى العربية مثل: التداولية من أوستين إلى غوفمان الذي نقله صابر الحباشة، و التداولية اليوم الذي نقله كل من سيف الدين دغفوس و محمد الشيباني ، أضف إلى ذلك كتاب المقاربة التداولية الذي نقله إلى العربية سعيد علوش، ثم تتالت المؤلفات المترجمة عن الكتب المتخصصة في التداولية.

⁽²⁾ الدلالات و التداوليات أشكال الحدود، البحث اللساني و السيميائي، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات و مناظرات رقم 6 ، ط1، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء، 1984، ص299.

⁽³⁾ تم طبع هذا الكتاب لأول مرة سنة 1985 بمطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب.

⁽⁴⁾ تم طبع هذا الكتاب بديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر العاصمة، وقد كتب بالفرنسية و قام بترجمته محمد يحياتن أستاذ بجامعة تيزي وزو، الجزائر، سنة 1992.

⁽⁵⁾ من باب **التغليب** في اللغة نسمي المشرق العربي و المغرب العربي بالمشرقين أو بالمغربين كتسمية صلاحي الظهر و العصر بالعصرين.

و التي كانت تروم ربط مفاهيم هذا المنهج النقدي بالإنتاجات الفكرية التراثية العربية المختلفة، في جملة المحاولات البحثية عن العناصر التي تتعلق أجزائها بالمنهج المذكور و بالتالي محاولة الإفادة منها، ويدخل تطرقنا لهذا العنصر و المتعلق بالتداولية عند علمائنا العرب ضمن زاوية ذات خصوصية تدعى من طرف المتخصصين بتاريخية المعرفة، والمقصود الذي نريده من وراء ذلك هو تبيان أن الجهود التراثية لم يكن في حسابها وضع منهج يسمى التداولية، وذلك لأن التاريخ الحقيقي للعلوم العربية على اختلاف أنواعها هو تاريخ قراءتها أما البراغماتية-أي التداولية- فهي لم تُنتج قارئها آنذاك أي أثناء سيرورة تاريخ التراث العربي القديم⁽¹⁾، وعليه فإن المفاهيم التي أنتجها الدارسون للتداولية من الغربيين- على أن الفضل يرجع إليهم في اكتشاف هذا الحقل المعرفي و تنميته- لم يكن لها اهتمام من طرف العرب القدامى، ولم تشكل زاوية بحثية عندهم، وبالتالي لم يكن لهم كذلك الاهتمام النوعي ذو الطبيعة التداولية، بل كانت لهم انشغالاتهم العلمية الخاصة، و التي تتمحور ضمن أشكال أخرى، و لقد اتصفت هذه الحالة بعدم تواجد هذا النوع من الاهتمامات الذي لم تتوفر أسباب ظهوره على الواقع السائد آنذاك، و لذلك اضطبغت الحياة الثقافية التي سادت فترة أجدادنا بميزة مفادها أن: "لا العلماء العرب ولا القارئ العربي كانوا يمتلكون هذا البعد البراغماتي-أي التداولي- ومقصديته"⁽²⁾، ثم تتالت الجهود النقدية العربية في البحث عن مواطن التعالق بين النواحي التداولية ذات الأصول الغربية، وبين التراث العربي البلاغي، ومن بين من اهتم بهذا النوع من البحوث مسعود صحرابي صاحب كتاب **التداولية عند العلماء العرب**⁽³⁾، حيث أوضح في هذا المؤلف -بنسبة النتائج البحثية- حدود المساحات المعرفية التي يلتقي فيها الإنتاج العربي القديم بالإنتاج التداولي الغربي، و ركّز على دراسة ظاهرة الأفعال الكلامية متخذاً إياها كنموذج للدراسة، مبينا صلتها بما

¹ حافظ إسماعيلي، التداوليات علم استعمال اللغة، ص 63، صاحبة المقال، أبقت التداولية على جذرها اللغوي الأصلي أي "pragmatics" بالإنجليزية و pragmatique بالفرنسية، و الإشارة إلى ذلك ستكون في عرض شبكة المفاهيم، الفصل الأول ص45.

² ن. م. س، ص 63 .

³ صدر كتاب: التداولية عند العلماء العرب عن دار الطليعة ببيروت، سنة: 2005م.

يوافقها ضمن المصنفات التراثية، وهكذا أخذت هذه المقاربة تموضعها ضمن دراسة الخبر والإنشاء عند العلماء العرب⁽¹⁾.

تعتبر اللغة العربية من الألسن التي وقفت في مصاف اللغات العالمية الحية، ومن أجل ذلك فهي بحاجة إلى ما احتاجت إليه اللغات العالمية المعروفة - التي صارت تُكتب بها العلوم و الفنون - إلى دراسات متنوعة المشارب كي تتكون لديها إمكانية الولوج إلى عالم الحدث و معترك الفعل، وهكذا تصبح لها القدرة على المزاخمة الفكرية في التاريخ، انطلاقاً من أن: "اللغة ظاهرة اجتماعية يشكلها أفراد المجتمع من ثقافتهم"⁽²⁾ و بالتالي تكون النتيجة هي الحصول على الحظ الأوفر من الكتابات التي تعمل على الإثراء العلمي و الفني، ولئن كان الأمر على هذه الحال فإن حتمية تكريس الدراسات المختلفة والمنطلقة من مناهج متعددة، صارت مُلزمة لأهلها، وعليه فإن النهج التداولي كغيره من مناهج التحليل اللغوي للنصوص راح يسقط على متون هذه النصوص ما توصلت إليه عقول فلاسفة اللغة التي وضعت النظريات المتعددة المنتمية إلى الحقل المشار إليه سابقاً قيد التجربة، وبالتالي سيأتي الحديث عن هذه النظريات أو المبادئ تبعاً في لاحق البحث القريب.

يندرج سعي النقاد العرب المحدثين نحو استجلاب ما ظهر حديثاً من المناهج النقدية ضمن دائرة ذات خصوصية تجريبية معرفية تدعى المثاقفة⁽³⁾، ويمكن أن نصفها بأنها أشبه بعملية إسقاطية للمفاهيم التداولية على متون اللغة العربية في شكلها المكتوب و الشفهي، و تكريس ذلك يكون من خلال إعادة النظر في النصوص التراثية، و بالتالي نجد منها محاولات جادة في هذا الباب مثل ما قام به عبد السلام عشير و مصطفى الغرافي و منال النجار⁽⁴⁾ و غيرهم كثير، وكل هذا: "يسهم في وصفها-أي اللغة العربية- ورصد خصائصها وتفسير ظواهرها الخطابية

¹ ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص49.

² تمام حسن، اللغة العربية معناها و مبناها، ص28.

³ المثاقفة هي عملية نقل مفاهيم و مصطلحات منها ما هو إنساني مشترك بين جميع اللغات و الآداب، ينظر: عبد الله بن إبراهيم الزهراني، ندوة البلاغة العربية سؤال الهوية و آفاق المنهج، ص540.

⁴ ينظر المؤلفات في مكتبة البحث و هي على التوالي: تطور التفكير اللغوي، و الأبعاد التواصلية لبلاغة حازم ضمن عالم الفكر، المقولات البلاغية دراسة مقامية براغماتية ضمن كتاب التداوليات، و كلها مراجع موجودة معلوماً في هذا البحث، و للإشارة فإن الأسماء المنتقاة تمثل نماذج ليس إلا، و هناك الكثير منها ضمن الكتابات النقدية.

التواصلية"⁽¹⁾، و لا شك في أن المجهود العملي الذي بذله العلماء القدامى والذي يدخل ضمن إطار خاص، يهتم أساسا باللغة على اعتبارها أنها أداة فعالة للتواصل على أساس أن الإنسان كائن اجتماعي يحتاج إلى تحقيق فعل الاتصال بالأداة ذات الطبيعة الاجتماعية⁽²⁾، و بالتالي ستكون نتيجة هذا المجهود العلمي أنه سيتبوأ المرتبة الراقية حينما يتم إسقاط مضامين المناهج النقدية الحديثة و لا سيما النهج التداولي بالآليات التحليلية على المنطوق و المكتوب من اللغة العربية، لأن طبيعة الاهتمام بالأمور تنبعث من شرارة تصدر من أطراف مغايرة. بمعنى أن هِمةَ اهتمامنا بلُغتنا العربية ستزداد جذوتها أكثر حينما يطالع القارئ العربي ما استطاعت عقول أجدادنا التوصل إليه من خلال ما يقوم به أمثال طه عبد الرحمان و غيره ضمن الكشف عن أسرار علوم اللغة عند القدماء، و لا ينبغي أن يُفهم هذا الطرح على أنه تكريس لنوع من الاستلاب الثقافي بل على النقيض من ذلك، إذ إن اطلاع القارئ العربي على إسهامات لغته سيعزز تعلقه بهذه اللغة، و بالتالي سيدفعه هذا الأمر إلى تفعيل المشهد الثقافي، و هو عين ما تحتاجه اللغة العربية من أبنائها، و على هذا السبيل سار الأولون بدليل تشعب قراءاتهم للثقافات الأخرى و استعمال ما اطلعوا عليه ضمن كتاباتهم المتعددة، و بالتالي سينحو هذا الإسقاط العلمي الذي يمارسه النقاد العرب نحو التثمين والبروز من حيث أنه سيعمل على تفجير منابع المعرفة ضمن لغتنا العربية.

لقد ركز العلماء العرب القدامى في إطار دراسة اللغة⁽³⁾ و الكلام على حد سواء على إظهار الجوانب البلاغية فيه، و لا يخفى علينا أن لهذه الأخيرة علاقة وثيقة مع ما تتخذه التداولية كطرق و آليات للتحليل، لأن الظاهرة البلاغية تتسم باعتمادها على البناء اللغوي، وهذا الأخير يتجسد في مراحل النهائية في عملية صنع الخطاب الذي يتبادله الطرفان المتكلم والمخاطب، ومن خصائص هذا النوع من الخطابات أنها تنحو إلى تكريس العملية التشاركية في أعلى

¹ مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 5.

⁽²⁾ ينظر: سمير أحمد معلوف، حيوية اللغة بين الحقيقة و المجاز، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1996، ص 29.

³ إن مفهوم اللغة تبلور عبر التاريخ على حسب المقتضيات الفكرية فهي من وجهة نظر العربية: "الأصوات الإنسانية المقطعة التي يختلف الأقوام في عددها، و طريقة النطق بها، و تركيب هذه الأصوات يؤدي إلى المفردات بأبنيتها المختلفة، وتحمل هذه المفردات دلالات تدل على معان لتحقيق غرض التفاهم، و مثل العربية مثل بقية اللغات ، فهي تملك قواعد تركيبية خاصة، كما تملك بنية لغوية تميزها "، ينظر: سمير أحمد معلوف، حيوية اللغة بين الحقيقة و المجاز، 1996 ص 29.

درجاتها، و بالتالي فإن المواجهة تتصاعد درجة حدتها و سينتقل الحوار الدائر بين الطرفين من مرحلة الخطاب العادي إلى مرحلة ذات:"خطاب تواصل يمتاز بخصائص بنائية براهمية-أي ذات منحى تداولي- تجعله مختلفا عن غيره من الخطابات الإخبارية السردية والحقيقية"⁽¹⁾، وما يزيد من رسوخ هذه الرؤية في الأذهان هو احتواء البلاغة في إحدى تعاريفها التراثية على معاني التوصيل⁽²⁾ وهو الحجر الأساس الذي تعتمد عليه التداولية كحقل معرفي بوجه عام، وفي التداولية البلاغية بوجه خاص⁽³⁾، على أساس وجود مبادئ أخرى تتلاحم لتشكيل التحليل التداولي.

تقتحم المفاهيم البلاغية المسرح التداولي اقتحاما، إذ إن المقام الذي يعد من المكونات الأساسية في الخطاب البلاغي، يشكل لبنة أساسية كذلك من اللبنة التي تُكون الأرضية التي ترسو عليها الفعالية التداولية التي تدرس حالات نجاح الخطاب أو فشله على اختلاف أنماطه، ويعتبر الخطاب البلاغي من المسائل التي مثلت و لاتزال تمثل انشغالا من الانشغالات التي تبحث الآليات التداولية على المسالك العلمية المناسبة لتوضيحه، والدليل على ما نذهب إليه هو اعتماد الجهود النظرية التي وُضعت للتداولية و التي تركزت في شكل مفاهيم و تعاريف، اعتمادها على جعل المقام بمكوناته عنصرا هاما من الأساسيات التي تقوم عليها هذه التعاريف التي تحدد التداولية، ومن بينها البراهمية التي تعتبر:"دراسة العلاقات بين اللغة والسياق، تلك العلاقات القائمة على فهم اللغة"⁽⁴⁾، و يظهر من التعريف السابق الذكر أن المقام يشكل ركنا من أركان التحليل التداولي للنصوص، والبلاغة بمثابة علم يدرس التركيب الكلامي في شكله الفني الذي يحتوي على قواعد معيارية تتيح للمتكلم أن يتّملك قدرةً على الإقناع بالاستعمال الجيد لمختلف

¹ مصطفى الغرافي، الأبعاد التداولية لبلاغة حزم، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، المجلد 40، سبتمبر 2011، ص 266.

² محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983، ص 219.

³ المصطلح موجود ضمن مقال: الأبعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال منهاج البلغاء و سراج الأدباء، إلى جانب مصطلحين آخرين: التداولية اللسانية والمنطقية والفلسفية، ص 266.

⁴ حافظ إسماعيلي علوي و آخرون، التداوليات علم استعمال اللغة، ص 69.

التعابير اللسانية، على أساس أن هذا الاستعمال الجيد مرتبط بصفة الإبداعية⁽¹⁾ التي يتميز بها الإنسان، و التي تتجلى من خلال أشكال الاستعمال اللغوي ضمن ممارسته الأدبية أو ضمن حياته اليومية، و تشكل هذه الإبداعية خصوصية متجذرة في الإنسان، و تظل كالمعين المنتج لسياقات بلاغية متجددة، ومن ثم: "نُظر إلى البلاغة بوصفها عتادا بنائيا وتبليغيا يتقصد أساسا التأثير في متلقي الخطاب، وهو ما يكشف عن البعد التداولي و المقامي للبلاغة"⁽²⁾، وللعلم أن هناك جملة من التعاريف الأخرى للتداولية تبين التعالق الوثيق بينها وبين للبلاغة، لكن إيرادها وسردها على سبيل الحصر لا يسمن ولا يغني من جوع في هذا القسم من البحث، إلا بقدر ما يفيد من هذه التعاريف النهج التداولي ومقتضياته، ولقد اخترنا التعريف أعلاه نظرا لاحتوائه على ركنٍ تَعْتَبِرُهُ كُلٌّ من البلاغة العربية التراثية والتداولية الحديثة أساسيا في مرجعيتهما الفكرية.

لقد قدم العلماء العرب القدامى جهودا علمية ذات فعالية في ميدان الدراسات المتعلقة باللغة من الجانب التقني التبليغي، ظهرت بصورة واضحة في إنتاجهم الهائل من البحوث النوعية، و ظهرت كذلك في قيمة ما توصلوا إليه من نتائج هامة فرضت نفسها على الساحة النقدية، وليس أدل على هذا الطرح، تلك النظرية التي شكّلت القفزة النوعية في الدراسات اللغوية في العصر العباسي: وهي نظرية النظم، والتي ظهرت إلى الوجود الثقافي و الفكري على يد عبد القاهر الجرجاني الذي صاغها من احتكاكه القوي بأستاذه القاضي عبد الجبار آسد آبادي⁽³⁾، إن هذه النظرية وغيرها من النظريات النقدية انطلق تأسيسها من إرهاصات سبقتها إلى الظهور، والمقصود بهذه الإرهاصات جهود المؤسسين لعلم النحو الذي حفظ للجملة العربية بنيتها التكوينية وبنيتها الجمالية، وإذا عدنا إلى الوراء قليلا فسنجد أن المؤسسين الأوائل لعلوم اللغة العربية كانت دراساتهم تتضمن المنحى التداولي، على أساس أن تقنين النحو قام على الاستعمال الذي تَصْمَنُ جمع اللغة من أفواه البوادي العربية التي لم يخالطها اللحن و لا الخطأ،

¹ ميشال زكريا، الألسنية و التوليدية و التحويلية و قواعد اللغة العربية، مؤسسة الجامعية للدارسات و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ص31.

² مصطفى الغرافي، الأبعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال منهاج البلغاء و سراج الأدباء، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة و الفنون ، الكويت، المجلد40، سبتمبر2011، ص 267.

³ ينظر: إيمان القاضي، نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، الموقف الأدبي، ع 172 آب 1985.

كما حدث للغة التي توقعت في التشكيلية اللسانية لأهل الحضرة الذين امتزجت طبائعهم بطبائع العناصر الدخيلة على العنصر العربي، وبالتالي صارت الآليات التي ابتدعها الأولون تلتقي في كثير من المبادئ مع الاتجاه التداولي، ولقد أخذت هذه الآليات ذات المنحى التداولي كوسائل ارتكازية لمشروع الرواة المتمثل في الجمع والتمحيص للغة العربية، وعليه فإن طبيعة الآليات التي استخدمها النحاة و اللغويين في تنضيد قواعد اللغة العربية تُمَّتْ بالصلة لما قام به هؤلاء الرواة الذين أمدوا علماء التقنين اللغوي من نحو و صرف و ما إلى ذلك بالمادة الخام من شعر و نثر، حيث صارت تؤدي هذه الأخيرة دور الشواهد المتعددة على القواعد المختلفة، بالتالي بات الاستعمال اللغوي الذي يعتبر من أهم مبادئ التداولية الخلفية النظرية لمنظومة القواعد النحوية و الصرفية على حد سواء، و صار هذا الديدن التقني ذو الطابع التداولي ساريا ضمن التشكيلية التي تضم الطرق المنهجية في الدرس اللغوي القديم، و كمثال على ذلك كتاب الجمل الذي يمثل أنموذجا لذلك⁽¹⁾، و الذي ألفه الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170هـ)، حيث يضم هذا المؤلف بين دفتيه جملة من الدراسات المضطلة بتصنيف الحركات الإعرابية التي تخضع لها الألفاظ والكلمات من رفع ونصب وجر و جزم ضمن النظام اللغوي على حسب وقوعها في السياق اللساني، و الفراهيدي في مؤلفه هذا، فضّل جعل البداية الدراسية بالتطرق للنصب لكثرة توارده في الجمل فيقول الخليل: "فللنصب أحد وخمسون وجها"⁽²⁾، وبالتالي تخلى الفراهيدي عن الرفع الذي محله أن يكون في صدارة الحديث، وأغفله في الدراسة وجعل بذلك النصب نظرا لخضوعه للاستعمال الكثير في الكلام الذي تتضمنه اللغة العربية، وما يُلاحظ هو أن الفراهيدي سار على طريقة استنباط القواعد من الاستعمال وليس العكس⁽³⁾، ثم إن النهج الذي اختاره هذا العالم يعتمد أساسا على اتخاذ الاستعمال كباب من الأبواب الأساسية في جمع الشتات القواعدي للغة العربية، و كذا محاولة وضع القوانين التي تضبطها، وعلى هذا النحو سار معظم المؤسسين الأوائل لعلوم اللغة، بداية من العالم المذكور اسمه، و وصولا إلى آخر حلقات النحاة و

¹ تم تحقيق الكتاب من طرف: محمد إبراهيم عبادة، و نشرته دار المعارف بالإسكندرية، سنة 1987.

² عبد السلام عشرين، التفكير اللغوي عند العرب، ص 16 .

³ يجدر الإشارة أن الاستعمال اللغوي الذي كان سائدا آنذاك يختلف من حيث المستوى المعرفي و التقني عن الاستعمال

اللغوي الآتي، لأن بوادي العرب كانت تمثل المعين الصافي للغو العربية ومنها جُمعت معالم شواهد الشعر و النثر و التي أُستخدمت في القواعد العامة، لأجل ذلك يختلف مفهوم الاستعمال من فترة إلى أخرى، البحث.

اللغويين القدماء، وقد تعامل هؤلاء مع اللغة بمدرسة الاستعمال فيها، ثم العمل على تشكيل القاعدة، وهذا منحى تداولي محض، لأن هذا الأخير يقضي بدراسة اللغة بين المستعملين حين التخاطب أو بتعبير جون ليونز: "دراسة اللغة من وجهة نظر مستخدميها، و على الأخص الاختيارات التي يقومون بها و القيود التي يواجهون بها استخدامهم لها في صلاتهم الاجتماعية"⁽¹⁾، و بالتالي لا نلفي تباعدا بين المهمة التي حددها هذا الدارس و بين الطريقة المتخذة من طرف القدماء و التي تقتضي: "بأن القاعدة تنبع من الاستعمال والاستعمال هو سيد اللغة"⁽²⁾، و غير بعيد عن عصر الفراهيدي نجد التلميذ الوفي لشيخه و هو سيبويه ت180 هـ صاحب الكتاب، حيث صنف هذا المجتهد الكلام إلى أصناف متعددة، و الذي أردنا التحدث عنه ضمن هذا المجال هو الصنف المعنون: بالمستقيم الكذب، هذا النمط عدّه أحد الدارسين من طينة اللحن التداولي، على أساس أن صاحب الكتاب كان أكثر تداولية في تصنيفه، و لقد منح هذا الكاتب نمط **المستقيم الكذب**⁽³⁾ مصطلحا خاصا و هو: اللحن التداولي و يُعرَفُ هذا المصطلح الجديد بقوله: "هو تركيب انتظمت عناصره وفق نسق قواعدي مقبول و يحافظ فيه على الرتب و المجالات و آثار الإعراب، غير أن اللحن يمكن أن يأتيه من جهة دلالة ملفوظه في علاقته بالاعتقاد و الواقع، إذ هو إما صادق أو كاذب بناء على المنطق الثنائي القيمة"⁽⁴⁾، و لم تتوقف رياح الدراسات النقدية التي تفتش عن العلاقات القائمة بين التراث العربي وبين المناهج التداولية الحديثة، وعليه كانت الدراسة متركزة على المكونات الأساسية للتداولية، ومحاولة إيجاد ظلال لها عند علمائنا الأجلاء، ومن بين المكونات الأساسية التي تؤسس لبنات هذا المنهج عنصر "**السياق**" أو ما يسمى بالمقام، وهذا الأخير يقصد به مجموع الظروف المختلفة التي يتم فيها التخاطب بواسطة الملفوظات حول قضية معينة لأجل تحقيق مقصد معين، وللعلم أن السياق مرتبط بشكل وثيق بالاستعمال اللغوي، ولقد عبر عنه العرب القدماء بمصطلح "مقتضى الحال"، هذه القضية سخر لها القدماء الكثير من جهودهم الفكرية، ومن بينهم بشر بن

¹ جون ليونز، اللغة و علم اللغة، تر: مصطفى التوني، دار النهضة العربية، القاهرة مصر، ج1، ط1، 1987، ص225.

² التفكير اللغوي عند العرب، عبد السلام عشير، ص 14 .

³ ينظر الأنماط ضمن: الكتاب، سيبويه، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، ط3، 1988، (26-25/1)

⁴ مقبول إدريس، البعد التداولي عند سيبويه، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة و الفنون، الكويت، ع 1، مج 33،

سبتمبر 2004، ص247.

المعتمر في صحيفته التي استعان بها الجاحظ في إيراد رؤاه حول اللغة والبلاغة وما يتعلق بهما، و من ضمن هذه الرؤى التي استنبطها الجاحظ ما قاله في موضوع السياق و المقام حيث يدلي بأن: "جماع البلاغة التماس حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، و أن لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم و الحمل عليهم على أقدار منازلهم"⁽¹⁾، والقارئ لما أدلى به الجاحظ يلاحظ أن الخطاب أخذ عند العرب يتبلور تحت وطأة السيل العرمم من الدراسات المنجزة من طرف العلماء، و بالتالي: "فإن التطور الذي شهدته الدراسات اللغوية عند العرب أفضى إلى تغيير خطابنا البلاغي لكي يتحول إلى عملية ربط المقال بالمقام"⁽²⁾، ولقد أُعتبر هذا الأمر من سياق الاهتمامات البلاغية ذات الأهمية الكبرى، لأنها تشكل ركنا إجرائيا أساسيا في هذا الحقل المعرفي.

إن إقحام قضية السياق أو المقام في العملية البلاغية التي يهدف من ورائها المتكلم إلى تحقيق عنصر الإبلاغ يعد محطة هامة في تاريخ البلاغة العربية، وهي ذات المحطة الفكرية التي يلتقي فيها الدرس البلاغي الغربي بالدرس البلاغي العربي، وذلك ما عبرت عنه منال النجار⁽³⁾ في إطار تناولها لدراسة المقام والتي أصبغت عليها صفة النظرية⁽⁴⁾، وإذا تعمقنا في القضية قليلا فسنجد أن ثمة محطات أخرى يتحقق فيها الالتقاء بين الدرسين البلاغيين السابقين الذكر، وتعد هذه المحطات بمثابة أساسيات البلاغة العربية من جهة، وللتداولية من جهة أخرى، ونقصد بها: فن التوصيل الذي يُعد المنطلق و المقصد في ذات الوقت من العملية الحوارية التي تجري بين المتكلم والسامع أو المخاطب، ولقد سخرت البلاغة العربية علومها الثلاث-المعاني و البيان و البديع- لتحقيق هذا الهدف لذلك جعلتها: "تتم بكيفية البناء في الكلام ودخوله مجرى العملية الإيصالية"⁽⁵⁾، و نجد أن صاحب نقد الشعر أشار إلى هذه القضية بوضوح حينما تطرق إلى تعريف البلاغة قائلا: "و حَدُّهَا عندنا أنها القول المحيط بالمعنى المقصود، مع اختيار حسن النظام،

¹ أبو عثمان الجاحظ، البيان و التبیین، تح: عبد السلام هارون، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، ط7، 1998، 88/1.

² حافظ إسماعيلي علوي و آخرون، التداوليات علم استعمال اللغة، ص 558.

³ ن.م.س، ص 558.

⁴ ن.م.س، ص 63.

⁵ ن.م.س، ص 558.

و فصاحة اللسان"⁽¹⁾ و يضيف ذات العالم الناقد إلى ذلك معللا و مفندا: "و قد أضفنا إلى الإحاطة بالمعنى اختيار الكلام ، لأن العامي قد يحيط قوله بمعناه الذي يريده، إلا أنه بكلام مردول من كلام أمثاله"⁽²⁾ و بالتالي ذكر الكاتب للمعنى المقصود إشارة إلى التّقصّد في تكوين الخطاب من طرف المتكلم، و في خلال إيرادِه لمعاملة العامي إشارة إلى احترام المقام من طرف المتكلم، حيث لا ينبغي أن يستعمل الفاعل الأساسي في العملية الحوارية من الكلام اللغوي إلا ما يناسب القدر الذي يتوفر عليه المخاطب من الفهم.

لقد تبين مما سبق أن اهتمام البلاغة العربية بالقضايا التي طرقتها التداولية ظهر جليا في الدراسات التي قدمها العلماء العرب في هذا الميدان، و يظل الجاحظ بمؤلفاته معتليا رأس القائمة ضمن هؤلاء، و لا سيما مصنفه المعنون بـ " البيان والتبيين"، على أساس أن الفرع الأول من العنوان يقضي بتعلم البيان أي فنون الكلام، والفرع الثاني يتأسس حول كفايات الإبلاغ والإيصال الكلامي، و تعتمد رؤية الجاحظ على عقد التعالق بين الآليات التداولية والمفاهيم البلاغية، وذلك بالقياس على وقوعهما في عملية تشاركٍ في المقصد: وهو التوصيل، و إذا أردنا أن ندرك هذا التشارك يمكننا التمعن في التشكيل العنوي لكتاب الجاحظ، واضعين في أذهاننا أن التشكيل العنوي يؤدي بوجه عام وظيفتين أساسيتين إحداهما تتمثل في تقديم و رسم ايجاءات التبليغ، أي بمعنى أنها تُزين الكتاب وتعطيه أبعادا جمالية، والثانية تكرر وظيفة تداولية: "Fonction Pragmatique"، تساهم في جذب القارئ واستقطاب اهتمامه نحو مجريات الحديث الكلامي، وذلك بعقد محاوره تتجه إلى أفق الانتظار⁽³⁾ الذي يشكله سعي المتلقي للتعرف على فحوى الخطاب الكلامي، و يشكل عنوان مصنف الجاحظ ثنائيةً مُكوّنةً لأداة تواصلية فعالة تتمثل في محاولة ربط العلاقة بين طرفي الحوار عبر بسط آلية الإفهام التي يتوسلها المتكلم لتحقيق مقصد الفهم لدى المخاطب، و بالتالي تصير الثنائية عانيةً **الفهم والإفهام** على حد تعبير بناني الذي يقول: "يمكننا تصنيف البيان على شكل الفهم والتبيين على شكل

¹ أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي، نقد النثر، تح: طه حسين بك و عبد الحميد العبادي، مطبعة بولاق، 1941،

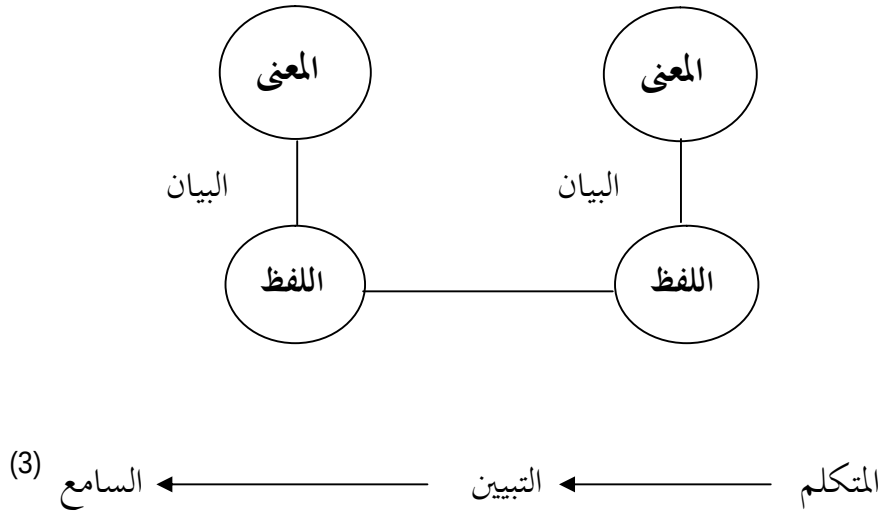
ص78.

² ن.م.س، ص78.

³ Jouve Vincent, la poétique du roman, cèdes 1997, Paris, France, p13

الإفهام"⁽¹⁾، وهكذا يتم تكريس مبدأ التوصيل بين الطرفين اللذين يشكلان العملية التحوارية، لأن عملية الإفهام تتطلب على الأقل طرفين لتأسيس أرضية ترسو عليها دائرة الاستعمال اللغوي، و تبقى مسألة الفرق الذي يبدو طفيفا و وحيدا بين اصطلاح الجاحظ واصطلاح المحدثين، كامنة في التسمية اللفظية وليس في التسمية المعنوية، أي بمعنى أن المحتوى واحد واللفظ مختلف، و كأنه مشترك لفظي⁽²⁾ بتعبير البلاغيين القدماء.

يؤسس الجاحظ منظومته الفكرية حول فكرة التوصيل على إعطاء التحديد المفهومي العلمي لمصطلحي البيان والتبيين، فيُعلّق عملية البيان بالمتكلم و عملية التبيين بالمخاطب، وهذه الخطاطة توضح لعبة التبادل التي تصنعها ثنائية اللفظ والمعنى بين الطرفين اللذين يشكلان عملية التخاطب:



¹ محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ من خلال البيان و التبيين، ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983. ص 210.

² المشترك اللفظي هو اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة عن طرق المجاورة و المشاهدة، فمثال الأولى تحول معنى طعينة من المرأة في الهودج الى معنى الهودج نفسه و إلى البعير، و مثال الثانية تحول معنى الأفن من قلة لبن الناقة الى معنى قلة العقل و السفه، المزهر، السيوطي، مطبعة الحلبي، 219/1، نقلا عن المشترك اللفظي في ضوء غريب القرآن الكريم، عبد العال سالم مكرم، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1430هـ-2009م، ص9-10.

³ محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ من خلال البيان و التبيين، ص 211.

تبين الخطاطة أعلاه التشارك الحاصل بين كل من المتكلم و المخاطب تحت إطار جملة المعارف التي تصنعها العلاقات الاجتماعية المتعددة، و تشكل بذلك منظومة من المعارف التي يتشارك في امتلاكها الأفراد المنتمون إلى المجتمع الواحد، و لكن الشيء الذي ينبغي ذكره في هذا المجال هو الاختلاف الحاصل بين هؤلاء الأفراد في إدراك هذه المعارف، و بالتالي يتطلب هذا التفاوت في الإدراك المعرفي تفعيل العمليات التواصلية بين بني المجتمع الواحد فيؤدي ذلك إلى ممارستهم لعملية التوصيل المعرفي⁽¹⁾ بأشكال متعددة، وبالتالي يتدراك كل فرد من هذا المجتمع النقص الحاصل له ضمن منظومة إدراكه لمعارف المجتمع، فيتجنب هذا الأخير أن يكون الفرد المنتمي إليه صانعاً أقوالاً تنتج عنها أفعالا تعود بالضرر على البناء الاجتماعي، من أجل ذلك يتحمل المتكلم مسؤولية أكبر من التي يتحملها المخاطب، لأنه يعتبر الطرف الأساسي في إخراج العملية الكلامية من مرحلتها اللغوية إلى مرحلتها الفعلية، أو بتعبير التداولية تحويل الأقوال إلى أفعال، و الملاحظ على الخطاطة أن المعنى تعلو مكانته كلاً من المتكلم و السامع على أساس أنه مشترك بينهما، لكن اللفظ يختص به الطرف الأول الذي يروم منه إيصال التبيين إلى الطرف الثاني، و عليه فإن وسيلة المتكلم هي اللغة انطلاقاً من كمون الخاصية الاجتماعية فيه و لكن في حالة ما: "إذا لم يتكلم بها الشعب... لم يجر التفاعل بينه و بينها، فقدت قيمتها العلمية و لم تعد الأقوال أفعالا"⁽²⁾، و للإشارة العابرة فإن اتخاذ الوسيلة التوصيلية بشكل غير سليم يؤدي إلى حصول الفهم غير السليم كذلك، لأجل ذلك ينبغي أن يهتم المتكلم بعملية التشكيل اللغوي للملفوظ الذي يودُ إيصال معنى أو معاني عبره، و الذي تكون نتيجته خروج الفعل إلى الصيغة الواقعية، و لا يخفى علينا أن: "الفعل مثله مثل النص مُعرَضٌ لتأويلات جديدة"⁽³⁾ و بالتالي انتقاء هذه التأويلات من طرف المتكلم يعد عملية تفرض نفسها في هذا السياق.

لقد أدرك العلماء العرب السابقون، كلٌ في ميدانه الأهمية التي يكتسبها عنصر السياق أو المقام في العملية التحاورية، التي ينشأ من ورائها المتحاور توصيل الفكرة بتفاصيلها ضمن ظروفها المعينة والمحددة لها، ولكننا نجد أن عنصري السياق والمقام: "لم يحتل المكان الضروري

¹ يُقصد بهذا المصطلح التواصل المؤدي للوظيفة المعرفية المتمثلة في نقل الرموز المجردة التي تُدرك بآلية العقل، البحث.

² سلامة موسى، البلاغة العصرية و اللغة العربية، دار سلامة للنشر و التوزيع، ط2، 1964، ص93.

³ نبهة قارة، الفلسفة و التأويل، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص86.

في الوعي المعرفي والعلمي العام للنحاة على خلاف ما نجده لدى علماء التفسير والبلاغة⁽¹⁾ فنجد الجاحظ الذي يُعد من ضمن الكتاب الذين أغنوا هذا الميدان بأفكاره⁽²⁾ يمنح فضاء واسعاً لدراسة المقام أو السياق، و لقد جعل هذا الكاتب هذه المسألة ضمن سلم أولويات البلاغة الناجحة التي تساهم في الصياغة المفهومية الواضحة للخطاب من طرف السامع، وللعلم فإن السياق هو المساحة التي ترتع فيها الظروف غير اللسانية وهذه الأخيرة: "تلعب دوراً هاماً في البلاغة اللسانية والفنية معاً"⁽³⁾.

يذهب العلماء العرب إلى أبعد الحدود التي بلغتھا التداولية و بلغھا الدارسون المنتمون إلى العصر الحديث، حيث ارتفعت في عصر عربي سابق وُسِمَ بالعصر العباسي حدة الشراة في القراءة و النهم في الأخذ الفني، وصار الوافد من الكتب إلى الأراضي التي يتعامل أهلها باللغة العربية أكثر بكثير من الخارج منها نحو أمم أخرى، ونذكر في هذا المجال حاضرة بغداد أين وُلد مشروع دار المحكمة، إذ كان يتم جمع عيون الكتب و أحسنها ثم يتم وضعها بين يدي القارئ العربي باللغة التي يفهم بها العالم، و من ضمن أهم هذه المدونات التي أضافها المترجمون إلى المكتبة العربية: كتب الفلسفة الإغريقية التي اعتمدت المنطق في إشاراتها المختلفة وحدث أن تلقفت الأيدي الباحثة عن الجديد في العلوم هذه الكتب، و تمكنت منها بفضل الجهود البحتية التي سُخرت لأجل ذلك، ومزجتها بالموروث و المحفوظ من علوم اللغة العربية و فنونها مما تحصل لها من اجتهادات العرب المسلمين، و لقد عاد هذا الأمر بالإيجاب على الأذهان المتخذة اللسان العربي كوسيلة للتواصل، و هذا ما حدث لكتاب مبدعين نقاد مثل حازم القرطاجي (608-684هـ).

إن حديثنا عن هذا العالم الشامخ الذي ملأت كتبه وآراءه سماء القراءة الأدبية في عصره، يقع في سلم الاختيارات المؤسسة على قيمة ما قدمته أنامله، و آراءه العميقة الأبعاد، و التي وصلت أصدائها إلى أهل الغرب في نظرياتهم المتسمة بالدقة فالرجل كان: "مفيداً من الآراء

¹ عبد السلام عشير، تطور التفكير اللغوي، ص 74 .

² ينظر: محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ من خلال البيان و التبيين، الصفحات 245/244/243/242 .

³ محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ من خلال البيان و التبيين، ص 244 .

النقدية التي راكمها سابقوه، إلى جانب انفتاحه على البلاغة الأرسطية من خلال جهود الفلاسفة المسلمين⁽¹⁾، و كان حازم يحمل في نفسه أمنية تحقيق مشروع بلاغي، وتجسد هذا المشروع فيما بعد في كتابه الموسوم: "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" الذي جمع فيه الشعرية اليونانية بقوانينها و الشعرية العربية بقوانينها⁽²⁾، وما يهمننا في هذا الشأن من التحليل هو ما كان يحمله هذا الرجل من أبعاد تحليلية للنصوص بالمفهوم السابق للكلام المنطوق و للملفوظات بالمفهوم المتقدم له، إذ إن حازما سار على قاعدة هامة من قواعد التداولية الحديثة وهي أن: "وصف خطاب أو ملفوظ يمر عبر وصف نوع الفعل الذي يرومه الملفوظ أو الخطاب"⁽³⁾، وعلى هذا المنوال راح هذا الناقد يلقي بنظراته على التراث العربي شعره ونثره، ولقد ظهرت الأبعاد التداولية أكثر في القضايا التي كان يتغيا إبرازها والتي من بينها:

- "إلحاحه على وظيفة النص الشعري بالنظر إلى مقاصد منجزه .
- اهتمامه بالمقام التواصلية الذي يدخل في سياق " التبليغ البلاغي "⁽⁴⁾.

ولا يخفى على القارئ أن القضيتين المطروحتين أعلاه تعد كذلك من الأمور التي شغلت فكر الكثير من الفلاسفة الذين فتحوا الباب على مصراعيه ليتسنى للتداولية تقديم مطارحاتها النظرية، ومن بين هؤلاء بيرس "Pierce" الذي عدّه صاحب كتاب **التداولية من أوستين إلى غوفمان**: بمثابة السلف للتداوليين⁽⁵⁾ أي بمعنى من ضمن أصولهم ومرجعياتهم الأساسية الأولى، و تعد نظرة البلاغيين القدامى للنص نظرة تفحصية للكلام المنطوق والمكتوب على حد سواء، إذ إن النص تحدده وظيفته التي يكرسها في السياق، الذي يتشكل ضمن المساحة اللسانية بين أطراف التخاطب، وعليه تكمن هذه الوظيفة في اعتباره دالا على مقاصد منجزه، وبالتالي اتخذت

¹ مصطفى الغرافي، عالم الفكر، الأبعاد التداولية لبلاغة حازم، ص 257.

² مصطفى الغرافي ، عالم الفكر، الأبعاد التداولية لبلاغة حازم، ص 257.

³ Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, Ed du Seuil ; 1994, p31 jacques moeschler et Anne Reboul,

« Décrire le sens d'un énoncé. C'est donc décrire le type d'un acte que l'énoncé est censé réaliser »

⁴ مصطفى الغرافي، الأبعاد التداولية لبلاغة حازم، عالم الفكر، مرجع سابق، ص 267.

⁵ فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، ص 30.

البلاغة إستراتيجية جديدة في ذلك العصر، وتتمثل في جعل النص الأدبي المختلف عن الكلام العادي ذا قيمة تليق بمقام اللغة بمثابته وسيلة حضارية وفعالة للتواصل، وعليه فالقيمة التي تحصل عليها النص الأدبي تتمثل في: "التأثير على المتلقي وتحريكه"⁽¹⁾، هذا التحريك هو التفعيل الذي سينتج عنه حركية في التواصل بين المتحاورين بوجه خاص، وفي المجتمع بوجه عام، ذلك لأن المكونات المفاهيمية التي يحققها الخطاب البلاغي تسير نحو تكوين خطاب بياني أي توضيحي، وعليه فهو كما وصفه عبد السلام عشير له قدرة على الإبانة أي: "القدرة على تبليغ السامع المراد، فهو خطاب للإبلاغ والإقناع والإمتاع، تتفاعل فيه قدرات لغوية ومعرفية واجتماعية وثقافية"⁽²⁾.

لقد تركزت المفاهيم التي توصلت إليها البلاغة العربية القديمة على أيدي من أخذوا ونهلوا من الثقافات المتنوعة نصيبا معتبرا كحازم القرطنجي، الذي انطلق من دراساته حول الشعر العربي، وتوصل إلى أن الشعر بمثابته النص المنطلق من متكلم إلى سامع يؤدي وظيفة توصيلية ضمن مقام تواصلية معين، وبالتالي جعل حازم نجاعة الخطاب ومنفعته في المعاني الموظفة توظيفا ناجحا، يتساوق مع المهمة التي سطرها الشاعر بنصه، وبالتالي يَعتبر حازم المقام أداة للإقناع ولا⁽³⁾ يعتبره مظهرا فنيا وبذلك سيصير البيان من: "أرقى درجات التفكير ويمكن أن نقارنه بالحجاج"⁽⁴⁾.

3.1- الوثائقية و علاقتها بالرواية التاريخية:

¹ مصطفى الغرافي، عالم الفكر، الأبعاد التداولية لبلاغة حازم، ص 269

² عبد السلام عشير، تطور الفكر اللغوي، ص 24.

³ مصطفى الغرافي، عالم الفكر، الأبعاد التداولية لبلاغة حازم، ص 272 .

⁴ عبد السلام عشير، تطور التفكير اللغوي، ص 24 .

يختلف تصور الزمن من فرد إلى آخر قياسا على معايير تعمل على تحديده، و من بين هذه العوامل طبيعة الثقافة التي تحتزنها الذاكرة بشقيها العام و الخاص، إلى جانب طبيعة المقام المجتمعي الذي يتعايش معه هذا الفرد، و من ثم تظل الرؤيا هي المنظار الحقيقي الذي يحدد المفهوم الواضح للزمن، و يرتبط هذا الأخير في الغالب العام من الدراسات بعنصر التاريخ نظرا لعوامل التلاقي بينهما، إذ لا تاريخ بلا زمن و لا زمن بلا تاريخ، و لا نستطيع فقه التاريخ إلا بفقه الزمن أو الوقت⁽¹⁾، و تشكل الأحداث في هذا المجال العنصر الرئيس في نقاط التلاقي، بحيث تعمل الجدلية التاريخية على خلق سيورتها من خلال دفع آلة الإنسان إلى صناعة الأحداث المتعددة الألوان⁽²⁾، و بالتالي يتشكل التاريخ من خلالها، و يظل الإنسان سيد الموقف في هذا المجال لأنه الوحيد الذي يتوفر على الآلية التفكيرية التي تستطيع أن تصنع المواقف التي تتخذ بعد ذلك شكل الحدث.

يرتبط مفهوم التاريخ بميادين متعددة و على رأسها التوثيق، هذا الأخير لا يتوفر في أمة من الأمم إلا بوجود ثلاثة شروط و هي: "أناس يعرفون الكتابة و القراءة، و مواد يكتبون بها و عليها، و تراث فكري و حقوق يحرصون على تسجيلها و تدوينها و الرجوع إليها عند الحاجة"⁽³⁾، و كانت عادة الأمم منذ القدم كتابة العهود و الأحلاف و الديون المالية و الرسائل المتبادلة في شكل الوثائق على الجلود، و من أشهر الوثائق صحيفة المقاطعة التي كتبها قريش مكرسة القطيعة مع محمد صلى الله عليه و سلم وأتباعه، و هكذا تظهر أهمية تسجيل الوثائق لأنها تحفظ الحقوق للناس خشية ضياعها أو نسيانها، و تواصلت في عهد الراشدين حركة التوثيق بحيث أفرغ عمر بن الخطاب نصيبا من جهده و أمر بإنشاء دواوين متعددة منها للجند و منها للبريد و هكذا وخصص لهذا الغرض رجالا أكفاء⁽⁴⁾ من بينهم زيد بن ثابت و عبد الله

¹. ينظر تفصيلا مفيدا عن نظرة الحضارات إلى الزمن ضمن: رأفت غنيمي الشيخ، فلسفة التاريخ، دار الثقافة النموذجية، القاهرة، مصر، 1988، ص12.

² خرج التاريخ مع تطور العلوم من النظرة المقدسة إلى دائرته الموضوعية المتمثلة في الفعل البشري على أساس أن التاريخ محض فعاليات بشرية نتيجة صراع قوى ذات مصالح متضاربة، ينظر: محمود اسماعيل، دراسات في الفكر و التاريخ الإسلامي، دارسينا للنشر، مصر، ط1/1994، ص7.

³ مصطفى أبو شعيشع، دراسات في الوثائق و مراكز المعلومات الوثائقية، دار العربي للنشر والتوزيع، مصر العربية، ص5.

⁴ ن.م.س: ص18.

بن خلف الخزاعي و عبد الله بن الأرقم، و كذلك فعل الخلفاء من بعد عمر بن الخطاب، و الوثائق نوعان عامة و خاصة، فأما الأولى فهي التي تسجل تصرفا قانونيا يخضع للقانون العام و هي الصادرة عن ديوان الرسائل و الدواوين الأخرى مثل ولاية اليهود و تعيين الوزراء، أما الثانية فهي التي تسجل التصرفات التي تخضع للقانون الخاص و هي التي تسجل مواقف البيع و الشراء و كذا سائر المعاملات الفردية⁽¹⁾، فظهر ما يسمى بعلم الوثائق، و أقدم مؤلف هو: الجامع الكبير في الشروط لأبي جعفر الطحاوي، تـ321هـ⁽²⁾، و لقد ارتبط التاريخ بالوثيقة منذ بدأ التفكير في اعتماد كل أنواعها على أنها مصادر للتسجيل التاريخي، بحيث أخذ باحثو التاريخ الإسلامي تفاصيل الحياة العامة العربية من كتب الخراج و الفقه و النوازل و الطبقات وغيرها⁽³⁾، و لا يخفى على قارئ أن كتب السيرة النبوية سطرت تاريخ ما قبل الهجرة و ما بعدها بالاعتماد على الوثائق التي حفظتها الأيدي الأمانة⁽⁴⁾، و تركزت موضوعات الوثائق بوجه عام على: المعاهدات، الدعوة إلى الإسلام، تولية العمال و ذكر ما لهم وما عليهم، العطايا من الأراضي و غلاتها، كتب الأمان والتوصية، المتفرقات مثل المكاتيب⁽⁵⁾.

يدخل تعرض البحث إلى علم التوثيق ومقتضياته ضمن إطار محاولة فهم الأصول التي قام عليها، و الذي يهمنا من هذا العرض هو طبيعة العلاقة التي تربط التوثيقية بالتاريخ الذي يعتبر مكونا أساسيا من مكونات الهوية⁽⁶⁾، و عليه لم نشأ أن نخصص عناصر خاصة بهذا الأمر ضمن البحث تتبع الأحداث الواردة في نص كتاب الأمير و كذا ربطها بما أوردته كتب المؤرخين المهتمون بتسجيل الأحداث تسجيلا توثيقيا يخلو من التحليل والتفنيد، و بالتالي فضلنا أن يكون هذا العمل متناثرا بين ثنايا التحليل، بغية تحقيق هدفين أكاديميين: أولهما تحري الاختصار و

¹ ن.م.س: ص23.

² ن.م.س: ص28.

³ ينظر: محمود اسماعيل، دراسات في الفكر و التاريخ الإسلامي، دارسينا للنشر، مصر، ط1/1994، ص15.

⁴ ينظر: في هذا الشأن التفصيل المفيد للوثائق النبوية مع الأطراف الفاعلة في المجتمع ضمن: محمد حميد الله، الوثائق

السياسية للعهد النبوي و الخلافة الراشدة، دار النفائس بيروت، لبنان، ط5/1405-1998، ص11.

⁵ و يعتبر طبقات ابن سعد أهم المصنفات التي جمعت هذه الوثائق التاريخية، ينظر: محمد حميد الله، الوثائق السياسية

للعهد النبوي و الخلافة الراشدة، ص28، و ما يليها.

⁶ في البحث يوجد توضيح لمسألة التاريخ و الهوية و ذلك ضمن تناول مفهوم الهوية و كذا في خلال التعرض إلى عنصر التمازج بين التاريخي و التخيلي في الرواية ضمن الفصل الثاني.

الإيجاز تفاديا لتعظيم حجم الفصول، أما الهدف الثاني فيتمثل في وضع عنصر التوثيقية في نصابه الحقيقي من البحث، بإيراد ربط الحوادث الواردة في النص الروائي بنظيرتها الواردة في كتب المؤرخين الموضوعيين ضمن الإحالات المختلفة و المقتبسة من المصنفات التي دونت سيرة الأمير عبد القادر، و لسوف يجد القارئ للبحث هذه المسألة مطروحة بقوة ضمن فصلي التحليل الأخيرين أي الثاني و الثالث، و من أجل ذلك لم نشأ أن نخصص عنصرا خاصا بهذه المسألة بغية المحافظة على المنهجية التي سطرناها ضمن تصور بناء البحث، و زيادة على ما قيل سابقا فإن الأحداث التاريخية المتناولة من طرف كاتب الرواية يمكن أن نضعها في خانة فلسفة التاريخ⁽¹⁾، نظرا لإقحام كاتب نص الأمير للكثير من الرؤى و الخطابات التي رست في دائرة قناعاته، كتكريسه لفكرة حوار الأديان التي تجسدت من خلال توسله لشخصية الأسقف ديبوش المسيحي و كذا شخصية الأمير عبد القادر المسلم، إذ حاول خلال وقفات الرواية أن يعقد جملة من الحوارات المحكمة في لغتها و كذا في طروحاتها، و قد توزعت هذه الحوارات على مدار رحلة الأمير بداية من المقاومة حتى وصوله منفيا إلى فرنسا، و نشير إلى أن غالبية الحوارات، إن لم نقل كلها جرت على أرض الآخر الفرنسي، بحيث كان الأسقف يعمل على منهجة الأسئلة التي يود طرحها على الأمير، ثم يتزل ذلك على المشهد الواقعي ضمن المشهد الروائي، ونجد مجريات هذه المشاهد ضمن إحدى الأمكنة التي تردد عليها الأمير كرها لا اختيارا بداية من قلعة لامالق ووصولاً إلى قصر أمبواز الذي كان مقرا للملك هنري الرابع، وفي الرواية العديد من المسالك الملفوظية⁽²⁾ الدالة على ذلك.

¹ يعتبر ابن خلدون أول من استعمل دلالة هذا المصطلح و ليس لفظه، و يعني به النظر إلى التاريخ لا على أساس أنه جملة من الأحداث التي جرى عليها الزمن الإنساني، بل هو النظر إليه بعين التعليل إلى الأحداث ومحاولة إعطائها القراءة التي تستحقها، و يعتبر فولتير الفرنسي هو أول من استعمل مصطلح فلسفة التاريخ في ق 18م، و يعني به دراسة تحليلية للتاريخ تبعد عن التقديس و ترفض الخرافات و تنقحه من الأساطير والمبالغات من أجل التنوير العقلي، ينظر: رأفت غنيمي الشيوخ، فلسفة التاريخ، دار الثقافة النموذجية، القاهرة / مصر ، 1988، ص14.

² ينظر: أمثلة عن هذه الحوارات في الرواية ضمن الصفحات: من 47 حتى ص59، من 145 حتى 149، من 243 حتى 247.

الفصل الأول:

الأطر النظرية و المفاهيمية للبحث

1.1 - تحديد شبكة المفاهيم المتعلقة بالبحث.

1.1.1 - الهوية: identité

2.1.1.1 - توقع الهوية ضمن الوجود المجتمعي.

3.1.1.1 - تعالق التواصل بالمكون اللغوي.

5.1.1.1 - المكون القومي.

5.1.1.1 - المكون الديني.

2.1.1 - التبلور المفهومي للتداولية معجميا و اصطلاحيا.

1.1 - تحديد شبكة المفاهيم المتعلقة بالبحث

1.1.1- الهوية: Identité

تعتبر مسألة الهوية من أقدم القضايا التي شغلت بال الإنسان بوجه عام، حيث انعكس هذا الانشغال على الكتابات التي أنتجتها صفوة المجتمع و التي تبحث في مسائل الوجود، و لقد تحددت نظرة العلوم الإنسانية إلى مسألة الهوية على أنها منفذا من المنافذ التي يكرس من خلالها هذا الإنسان عناصر وجوده، إذ أدلى الفلاسفة على اختلاف مشاربهم بدلوهم في هذا الميدان، و قدموا تعريفات مختلفة، منها التعريف الذي قدمه معجم مصطلحات الفلسفة بناء على الأصل الذي اشتقت منه الهوية إذ ورد فيه: "لفظ الهوية مشتق من الهو كما تشتق الإنسانية من الإنسان، و هوية الشيء هي عينيته و تشخصه و خصوصيته التي ندرکها بالجواب عن السؤال ما هو؟"⁽¹⁾ وبالتالي تمثل الهوية المنبع الأصلي لكل ميزة خاصة يحملها الإنسان، كما يقدم صاحب التعريفات سردا مفهوما يتسم بنوع من الشمول و مفاده أن الهوية هي: "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق"⁽²⁾، و تسمى العملية التفاعلية التي يتحصل الإنسان بها على بعض خصوصيات ماهيته بالمُماهاة التي تجري بين المتكلم و المخاطب، و ذلك لأن المعاجم المتخصصة تذكر مصطلح "الغيرية"، و تقابله بمصطلح الهوية انطلاقا من أنها تعني كذلك: "الأمر المتعلق من حيث امتيازها عن الأغيار"⁽³⁾، و يربط لالاند الهوية، بالتماهي ويعني بها توحيد الماهية، ويعني بها كذلك المماهة أي: "الاعتراف بالماهية"⁽⁴⁾، و مفاد قولنا ضمن المجال الفكري أن ذلك الكائن متماهيا مع الآخر عبر المماهة، أي عبر عملية المماثلة التي قد تكون مع الذات، و تكون كذلك مع الآخر لأن: "حركة العقل تجري من الآخر إلى المثل، و المثل بهذا يعبر تعبيرا أساسيا عن الذوات الداخلية"⁽⁵⁾، و قد ربط الفلاسفة العرب القدماء مفهوم الهوية بمفهوم التشخيص فقالوا: "ما به الشيء هو باعتبار تحققه يسمى حقيقة، و ذاتا و باعتبار تشخيصه يسمى هوية"⁽⁶⁾، و عليه فالهوية تقف كالمبدأ العام الذي يبنى الأنا

(1) جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات و الشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر، تونس، 2004، ص 494.

(2) الشريف الجرجاني، التعريفات، تح محمد الصديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، ص 216.

(3) مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار الثقافة الحديثة، مصر، القاهرة، ط 2، 1971، ص 247.

(4) موسوعة لالاند، تعريب: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط 2001/2، ص 605.

(5) ن. م. س، ص 606.

(6) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982، ج 2، ص 530.

الإنسانية التي تقابل مساحة الآخرية أو الغيرية، و كلا من الطرفين يحتكمان إلى بعضهما البعض ابستمولوجيا⁽¹⁾، و لابن رشد إضافة فريدة من الناحية الفكرية المجردة إذ يربط الهوية بالهُو فيقول: "الذي يقال على جهات معادلة للجهات التي يقال عليها الواحد"، و يواصل الفيلسوف حديثه محددًا تصنيفات هذه المسألة التي تتصف بالإجمال فيقول: "فمنه: ما هو العدد، و ذلك فيما كان له اسمان، كقولنا إن محمدا هو ابن عبد الله، و منه: ما هو في النوع، كقولنا إنك أنت أنا في الإنسانية، و منه ما هو الجنس، كقولنا إن هذا الفرس هو هذا الحمار في الحيوانية، و منه ما هو بالمناسبة، بالموضوع، و بالعرض"⁽²⁾.

تتقارب معظم المعاجم المتخصصة في تحديد مصطلح الهوية و تكاد تتفق في الأركان التي تقوم هذا المفهوم، إذ أن النقطة الأساسية التي ركزت عليها هذه المعاجم تتمثل في أن الميزات التي ينفرد بها الفرد هي التي تمنحه مركب الهوية، و بالتالي يصير هذا الإنسان مميزا عن الآخرين و هكذا يكتسب صفة الهوية التي تضاف إلى الهويات الأخرى المشكلة للمجتمع البشري، و يمكننا ضمن هذا السرد المعجمي لمصطلح الهوية الاستعانة بما ذكره هيجل Hegel صاحب كتاب فينومينولوجيا الروح، إذ نجده يطرح الهوية من زاوية الاعتراف الكوني⁽³⁾، أما بول ريكور Paul Ricœur فقد ركن إلى هيدغر و نفى عن الهوية مسألة الماضوية و حددها في ما سُمي بالتاريخاوية التي تتكون من:

1- امتداد الوجود بين الحياة و الموت.

2- الثبات للذات.

3- التحول.⁽⁴⁾

⁽¹⁾ عبد الله الزهراني و آخرون، ندوة البلاغة العربية سؤال الهوية و آفاق المنهج، ص 217.

⁽²⁾ جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات و الشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر، تونس، 2004، ص 496.

⁽³⁾ ينطلق هيجل في طرحه هذا من تحليله لثنائية العبد و السيد، و يطرح في هذا حتمية وجود الحرية كي توجد هوية، لأن الأحرار هم القادرون على اختيار قدرهم، ينظر: عبد الله إبراهيم الزهراني و آخرون، سؤال الهوية و آفاق المنهج، ص 219.

⁽⁴⁾ لأن الهوية تنبني على الحركة و السكون و على التحول و التغير لا على الثبات مما يجعلها في دائرة تجدد دوائر يستمد الكائن بقاءه و ديمومته ينظر: عبد الله الزهراني و آخرون، سؤال الهوية و آفاق المنهج، ص 220.

و قد برز الاهتمام الضخم في السنوات الأخيرة من القرن بموضوع الهوية، و تمثل في خروج عدد هائل من المؤلفات والأبحاث والمؤتمرات والأنشطة المختلفة إلى الواقع الثقافي، و تنصب كلها على سؤال الهوية الذي ينطرح من عدة زوايا معرفية منعكسة من المضمون و الانشغالات الإنسانية التي تتشابه أحيانا وتفترق أحيانا أخرى، و للإشارة فإن الاهتمام بها لم يكن وليد اللحظة أو نتيجة طفرة فكرية، وإنما هو امتداد لحركية إنسانية قديمة، فسؤال الهوية قديم قدم الإنسان وقدم انشغاله الاجتماعي والثقافي، و قدم تأمله في نفسه وفي الآخرين⁽¹⁾.

2.1.1.1-تموقع الهوية ضمن كينونة المجتمع:

يتحدث أحد الدارسين ضمن موضوع الهوية عن أصول المصطلح فيذكر أن مرجعيته تعود إلى الأصل اللاتيني الأصل الإغريقي للهوية هو Idem الذي أنتج الصفة النعتية⁽²⁾ Identicus و المقصود به: "الشيء نفسه"، بما يجعله مبنيا لما يكون أن يكون عليه شيء آخر و يميزه عنه⁽³⁾، و بذلك تتموقع الهوية في دواخل الإنسان إذ تمثل: "الشعور الداخلي للفرد الذي يحدد ماهيته، وهي تتطلب وجود شعور بالاستمرارية في الزمان و المكان"⁽⁴⁾، و لتحقيق هذه الاستمرارية الوجودية للإنسان ينبغي أن يكرس هذا الإنسان ما تهيأ له من صفات آتية من منظومة الهوية و تتمثل في: "مجموعة مميزات الجسمانية والمعنوية والنفسية والقانونية والاجتماعية والثقافية، التي يستطيع الفرد من خلالها أن يشعر بأنه موجود كإنسان له جملة من الأدوار و الوظائف التي من خلالها يشعر أيضا بأنه مقبول ومعترف به من طرف الآخرين، أو حتى من طرف جماعته أو الثقافة التي ينتمي إليها"⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ سعد البازعي، شرفات للرؤية العولمة والهوية و التفاعل الثقافي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط1 - 2005 ص30.

⁽²⁾ ينظر: فتحي التريكي، الهوية و رهاناتها، تر: نور الدين السافي و زهير المديني، الدار المتوسطة للنشر، تونس، 1437هـ - 2010م، ص36.

⁽³⁾ اللغة و الهوية، جون جوزيف، تر: عبد النور خراقي، عالم المعرفة، الكويت، 2007، ص9، ينظر: عبد الله الزهراني و آخرون، سؤال الهوية و آفاق المنهج، ص217.

⁽⁴⁾ محمد مسلم، خصوصيات الهوية وتحديات العولمة، دار قرطبة، الدار البيضاء، المغرب، د ت : ط1، 1425-2004 ص8.

⁽⁵⁾ محمد مسلم، خصوصيات الهوية وتحديات العولمة، ص11.

وما يمكن أن نستنتجه من هذه التعاريف التي سبقت الاستعانة بها، هو أن الهوية عملية حيوية يتم من خلالها تحريك كل قدرات الوظائف العقلية، إذ تُعد هذه الأخيرة السبيل الذي يتوسله الفرد للتعرف عبره على مدى مقبوليته عند الآخرين، كما أن الهوية مساحة مفتوحة على كل التغيرات التي تروم من خلالها الاكتمال و الاستمرار عليه، و ترسم بذلك سبيلا نحو التوازن الذي تُمكن حاملها من الاقتراب من الصورة المثالية التي يتمنى أن يكون عليها، أو أن يكون مطابقا لها، والتي ينبغي عليه أن يقاوم كل من يريد المساس بها، و من ثم فالهوية تعتبر الوظيفة الديناميكية للإنسان، فهي اللب و الجوهر في وجوده الحياتي، فهي تمكنه من التوازن والبقاء والاستمرارية داخل المحيط الذي يوجد فيه، كما أن مرونتها تساعد على تغيير المحيط بغية إيجاد توازن جديد⁽¹⁾.

3.1.1.1- تعالق التواصل بالمكون اللغوي للهوية :

تظل الهوية فضاء معتما لأنها تضرر داخلها فضاءات أخرى توصف بأنها فرعية لا تقل أهمية عن الكل، و تندرج هذه الفضاءات ضمن المساحة النظرية التي تُبرز الهوية مظاهرها الأصلية التي تمكننا من حسن إدراكها، إذ يعمل العقل المرتبط بالوعي على تسيير الحواس بعقلانية مفرطة، وتتبدى من خلال ذلك المنافذ التي تعبر المعرفة من خلالها للإنسان قصد إرشاد الهوية إلى طرائق التواصل، لذلك تبقى الهوية تمثل الفضاء الجرد الذي يبقى بعيدا عن الإدراك ما لم تحدد عناصره المحسوسة و الفرعية، و لقد حاول الباحثون في هذا الميدان تناول هذه العناصر بوجه من العمومية، و على تكاد هذه الكتابات تشكل اتفاقا على أن التكريس الفعلي لمبدأ الهوية يتم عبر مفاهيم أساسية، و تتحدد هذه المفاهيم ضمن نمطين من المكونات التي تشكل تجسيد التجريد الفكري للهوية، أما النمط الأول فتمثله المكونات الرئيسة، و هي الدين و اللغة، و القومية، أما المكونات الفرعية فتتمثل في العادات و الأعراف و طرق التفكير و كذا القيم المختلفة، و ما يميز القسم الأول من هذه المكونات أنها ثابتة ضمن النماذج البشرية، أما القسم الثاني منها فيتميز بالتغير و عدم الثبات، و ذلك تبعا لطبيعة الأمم و ما يحيط بها من جهة وتبعا لطبيعة الهوية ذاتها الخاضعة للتحول، و بالتالي يمكن تحديد منظومة من العلاقات التي تستمد منها هذه العناصر وقودها، و هي كالتالي:

⁽¹⁾. محمد مسلم، خصوصيات الهوية وتحديات العولمة، ص15.

1- مجال جغرافية ووطن تاريخي مشترك .

2- أساطير وذاكرة تاريخية مشتركة.

3- ثقافة شعبية مشتركة.

4- منظومة حقوق وواجبات مشتركة.

5- اقتصاد مشترك مرتبط بمناطق معينة⁽¹⁾.

إن العناصر التي تمّ تحديدها تكاد تكون كالقانون الذي يشمل حالات الأمم المتعددة، و تتركس هذه النقاط فعليا من خلال ما يقدمه أفراد المجتمع من التحقيق و التميز في هويتهم، و عليه فالعنصر قيد الكتابة سيحاول التركيز على الثوابت بمثابته الأركان التي تقوم عليها الهوية أيا كانت، و سيكون الحديث عنها ضمن الحدود التي يسمح بها البحث، إذ سنحاول انتقاء المعلومات التي تشكل بوتقة التعالق النظري بين فضائي المفاهيم الثابتة للهوية و المنهج التداولي، و عليه فاللغة تشكل مرتبة الصدارة ضمن القائمة التي تضم هذه المفاهيم، و هي إلى جانب ذلك تمثل عملا مشتركا ذا أهمية بين طرفي المعادلة، إذ تعتبر اللغة الميزة التي خصّ بها الله تعالى الإنسان، و لقد عدّها الباحثون أساسا ضمن المكونات الأخرى المشكّلة للهوية، لأنها تمثل عاملا مشتركا بين الأمم الساعية إلى هويتها من جهة، و لأنها ذات قيمة عالية تكرسها الوظائف التي تؤديها ضمن المجتمع الإنساني من جهة أخرى فهي: "أداة للتعبير وإيصال الأفكار والحقائق والمشاعر بواسطة الأصوات والرموز والإيماءات والإشارات"⁽²⁾، و أهم قيمة يضطلع بها الجانب اللغوي تتمثل في وظيفة التواصل التي تتركس في الواقع الفعلي في صور متعددة، و هنا ينبغي الإشارة إلى أن التواصل يحمل بدوره وظائف متعددة أهمها:

⁽¹⁾ إبراهيم القادري، حول مفهوم الهوية ومكوناتها الأساسية، بتاريخ 13 يوليو 2008، من موقع WWW.aljabriabed.net.maj27 و هناك من حدد هذه المنطلقات الفكرية في تحديد الهوية بصيغة أخرى ضمن خمسة عناصر: وحدة اللغة والأرض و التاريخ، و التكوين النفسي المشترك، و الحياة الاقتصادية المشتركة، أو النسق الوطني، ينظر: مفهومان للقومية العربية، أديب ديمتري، دراسات عربية، ع2، ديسمبر 1978، ص6.

⁽²⁾ طاهر ليب، الموسوعة العربية للمعرفة من أجل التنمية المستدامة، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط 1،

1— وظائف معرفية ومرجعية تهتم بكل ما له علاقة بمحتوى الخطاب كالإخبار والإحالة على الواقع المشترك والتقليل من التشويش.

2— وظائف تداولية تهتم بالمرسل (التعبير عن الذات) وبالمرسل إليه (التأثير على المرسل إليه) وبخصائص الاسترجاع.

3— وظائف صورية (شكلية) تهتم بشكل الرسالة وبفعالية القنـاة وبصلاحية الشيفرة⁽¹⁾.

والملاحظ أن الوظائف أعلاه تشكل التنظير العام للتواصل، و بالتالي يبدو أن الوظيفة الثانية أكثر تعلقا بالمنهج التداولي الذي اتخذ هذا البحث سبيلا للتحليل، لأنها تعمل على ترتيب القيمة الفعلية للتواصل ذاته إلى الواقع العيني الذي يمثل مسرح الاستعمال اللغوي، و تتمثل هذه القيمة في خلق مساحة للحوار الكلامي بين الأطراف المنتمين إلى المجتمع الواحد من جهة، و بين الأطراف البشرية التي تختلف انتماءاتها من جهة أخرى، و بالتالي يتحقق ما ينشده المتكلم فتصير اللغة بذلك منوطة: "بإتمام أحداث"⁽²⁾ و ذلك قصد إلحاق التأثير في الآخرين بالوجهين السلبي أو الإيجابي، و تأخذ بذلك اللغة مفهوما جديدا يتمثل في أنها تعبر عن: "سلوك اجتماعي من أفراد مطبوعين اجتماعيا للقيام بمهام اتصالية، و يرتبط ذلك-بطبيعة الحال- بتبادل الأفكار و الأهداف و الاهتمامات"⁽³⁾.

إن من أهم السيمات التي جعلت اللغة تعتلي الصدارة الفعلية ضمن العناصر المشكلة للهوية، عنصر التفاهم المنمي للهويات، و الذي ينظر إليه الباحثون بمثابة الفردوس البشري أي القمّة التي يمكن أن تحققها الكتابات الفلسفية الخاصة بالتعامل الإنساني، و التي تروم تحقيق الأهداف المنشودة من التواصل ضمن المجتمع، و بالتالي اللغة التي ينبغي أن يجعلها الإنسان ذو الملكة العقلية في الحسبان كي يتوسل بلوغ التفاعل مع البقية تفوق التوقع المفهومي الذي هو التمثيل، و هي بذلك تنتمي إلى العالم البشري، و لقد جمعت صاحبة كتاب المقاربة التداولية

⁽¹⁾. يوسف آيت همو، من التواصل إلى التواصل الشعبي، فكر و نقد، ع 36-11، فبراير 2001.

⁽²⁾. فولفجانج هاينه و وديتر فيهفيجر، علم اللغة النصي، تر: فالخ بن شيب، جامعة آل سعود، 1997، ص 68.

⁽³⁾. فولفجانج هاينه و وديتر فيهفيجر، علم اللغة النصي، تر: فالخ بن شيب، جامعة آل سعود، 1997، ص 68.

خيوط هذه القضية المتعلقة بتناول عملية التمثيل⁽¹⁾ للأشياء المحيطة بنا في الكون، معتبرة إياه الإطار الذي يحمل دلالة خاصة تتحدد عبر المنظور التداولي، و التمثيل بذلك هو: "مجموعة من المعارف و الاعتقادات التي تحز في الذاكرة، و يتم استرجاعها عند الحاجة و معالجتها معالجة ذهنية"⁽²⁾، و يضطلع التمثيل بالآلية الإسترجاعية لمختلف المعلومات، أما التمثيل فمضمونه يتحدد ضمن قول الباحثة: "ليس الهدف الأول من اللغة هو هدف الفهم و التمثيل، بل هو التأثير في الآخرين...فأن لا نقول: أي بدون لغة، لن نتمكن من التفاهم فيما بيننا"⁽³⁾.

يعتبر وعاء اللغة نظيرا لوعاء الفكر بصفة نسبية، إذ الفكر على رأي فريجه يبقى حاملا لاستقلاليتة عن الذي يحمله محافظا على: "هويته ذاتها كائنا من كان يحمله، فمضمونه مستقل عن الذات الحاملة له من حيث إنه يحيل إلى مجموعات أشياء و ليس إلى موضوعات"⁽⁴⁾، و تلتقي اللغة مع الفكر ضمن عنصر الاتساع التجريدي الذي يظهر في شكل الزيادة في حجم الأفكار التي تستمد معناها الحقيقي من المنطوق ذاته، إذ كلما ضاق بالزيادة المعلوماتية اتسع حجمه، و يظل هذا الوعاء يكتنز في داخله مساحة من الطاقة الهائلة التي تحمل الأطياف المتنوعة من ظلال المعاني ضمن درجات متفاوتة، مكونة نسيجاً لغوياً فريداً متصفاً بمقبولية لعملية التركيب المتواصل دون أن يحس من يستعمل هذا النسيج من الاستعمال المعرفي أن طاقته تقترب من النفاد، إذ اللغة تختزن في داخلها طاقة لا تنضب، و هي بالإضافة إلى ذلك تتصف بمرونة عالية، و غير محدودة، إذ يمكننا تشبيهها بالدائرة التي تحتوي الأعداد التي بدايتها من الصفر و نهايتها إلى العدد تسعة، و هي تُكوّن مساحةً لانهاية من الأعداد التي نستطيع تركيبها،

⁽¹⁾ حدد بيهار k.buhler ثلاث وظائف رئيسية للغة و للملفوظ على أساس أنه جزء أساسي منها من جهة، و على أساس أننا نعتبره ضمن البحث أحد المصطلحات التي تسير معنا إن شاء الله طيلة التدوين، و تتمثل هذه الوظائف في: التمثيل و التعبير و النداء الذي يعبر عن التفاعل، و لقد اعتبر الكاتب المشار إليه هذه الصور الثلاثة من وظائف اللغة أنها كذلك وظائف للملفوظ و هذا الأخير هو الوسيلة التي يستعملها الإنسان في تشكيل شبكة التفاهم مع بقية بني البشر أثناء الحوار، أنظر Catherine Orecchioni, Les actes de langage dans le discours Ed.Nthan,2001,p.6, tout énoncé est corrélativement doté des trois fonctions de représentation , d'expression ,et d'appel

⁽²⁾ .آن رويول و جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد للتواصل، تر: سيف الدين دغفوس و محمد الشيباني، ص264.

⁽³⁾ .فرانسواز أرامينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، ص23.

⁽⁴⁾ .مارك فيري، فلسفة التواصل، تر: عمر مهيل، ص25.

و بالتالي فاللغة لا تحمل فقط ما تحمله الأعداد المذكورة سابقا، بل تحمل ما لا يحصى من الكلمات، و التي تحمل بدورها جملة من الدلالات التي تتنوع على حسب السياقات، و في هذا الخضم الهائل من المكونات اللغوية بدلالاتها لا نلفي نصين متشابهين إلا إذا كان ذلك على سبيل النسخ و النقل الحرفي، و فيما يلي المكونات الأساسية للهوية.

5.1.1.1-المُكوّن القومي:

لا نكاد نلفي كتابا يتحدث عن الهوية و تداعيات مكوناتها يستثني من حديثه قضية القومية إذ تعتبر القومية حركة سياسية فكرية متعصبة بالشكل الايجابي، تدعو إلى تمجيد العرب وإقامة دولة موحدة لهم، على أساس من رابطة الدم واللغة والتاريخ بدلا من رابطة الدين، وهي صدى للفكر القومي الذي سبق و أن ظهر في أوروبا، و تشغل هذه القضية حيزا تجريديا فكريا معتبرا من التكوين الاجتماعي الذي يحتوي داخله التجسيد الفعلي للطروحات النظرية القادمة من الثقافة التي يؤمن به المجتمع، و بالتالي يتصف هذا المجال بالاتساع النظري، و عليه سوف لن ننساق وراء ترديد المفاهيم التي ملأت الأوراق بحبر الفكر، و سوف لن نختار إلا المفاهيم التي تمثل ارتباطا قريبا من المنهج الذي اتخذه هذا البحث أي التداولية كمطية لبلوغ أهداف محددة، و لا يهمنا من هذا أن يكون المفهوم المنتقى الذي شكله قلم الكاتب بعيدا عنا زمنيا، بل ما يهمنا منه هو أنه يسدي خدمات لإشكالات البحث.

تتحدد قسّمات مبدأ القومية من تكريس مفاهيم معينة تتخذها الأمم كالقانون العام، و تتعلق هذه المفاهيم باللغة، و الأرض، و التاريخ، و يشكل التلاحم بين هذه العناصر النتاج الحقيقي للقومية، و للعلم أن المادة التي اشتق منها المصطلح في اللغة العربية تتكون من الحروف الثلاثة: القاف و الواو و الميم، و اجتماع هذه الحروف يشير إلى المعاني المتصلة بالقوة، إذ نلفي هذه القوة ضمن الآليات التي تعمل على تمتين الروابط بين أفراد الجماعة الواحدة، و لقد ورد في لسان العرب أن القيام الذي يعتبر من مشتقات مادة قَوْمَ جاء: "بمعنى الوقوف و الثبات" (1)، و يحدد المهتمون بالميدان القومي الذي يُعد من أساسيات التكوين الوجودي للأمة فترة القرن التاسع عشر، على أنها الفترة التي استقبلت ظهور المسألة بشكل مكتمل أي بتشكيل مبدأ الحس

(1). ابن منظور، لسان العرب، دار صادر ، بيروت، لبنان، 497/12.

الفعال نحو القومية، و قد كان ذلك بطبيعة الحال عند الغرب الذي انفتحت له أبواب الحضارة، و لقد شهد هذا الغرب هذا الأثر الايجابي جراء إرساء مبدأ تفعيل الحركية داخل المفاهيم المذكورة سابقا عن القومية، باعتبار أن التكريس الجامد للعناصر التي تشكل الهوية أي الأرض و اللغة و التاريخ، يظل حبيس التجريد الحبري للكتب ما لم يتم إخراجه سلوكا في الواقع، و بالتالي سوف لن يتمتع الإنسان بتذوق هويته في حياته بالمعنى الفعلي للمفهوم، إلا إذا اتخذ هذا الإنسان القومية: "حقيقة حية"⁽¹⁾، و في حال اتخاذ فهم الحقائق بالشكل السطحي السليبي فإن نتيجة ذلك تتمثل في بروز مساحة بدون محتوى داخل الشخصية الإنسانية، و يبقى الوسط الذي ينبغي أن يُفَعَّل بعناصر الهوية: "غائبا عن الأذهان فتملاً الصورة التجريدات و الغيبات الميتافيزيقية، و تختفي حقيقة القومية بين الوجود و العدم"⁽²⁾، لذلك ينبغي على الإنسان المشارك في تكوين هوية مجتمعه أن يعمل على تصحيح النظرة لهذه العناصر، و ذلك يجعلها واقعا حيا يتمثله في وجوده داخل مجتمعه.

الملاحظ على المفاهيم المعروضة أعلاه و التي تشكل صرح الهوية عند أي أمة من الأمم أنها تمثل الأجزاء المكونة للكل، على اعتبار أن الكل هو الهوية بمجاميعها، و بالتالي الخوض في سَوِّق الكلام حول الهوية في جانبها القومي سيجرنا إلى عملية إقحامية للكلام عن اللغة، على أساس أن هذه الأخيرة تعتبر المعطى الأساسي للبحث التداولي، و بالتالي سوف نتناول من مقتضيات مفهوم الهوية من جوانبها العامة ما له علاقة بقضية اللغة في الجانب الاستعمالي، إذ يمثل هذا الأخير الإطار المعرفي الذي تدعو التداولية إلى الاهتمام به، لأن اللغة تمثل عنوان وجود الأمة، و مسألة انقراض اللغات لا يعني ذهاب جهاز اتصالي فحسب، وإنما يعني انقراض وجود أمة وضياع ثقافة، ولهذا السبب عملت الأمم التي وعت أسباب الحضارة بشكل سليم على تفعيل انبعاث الهويات اللغوية من جديد، حيث شهدت فترة القرن العشرين محاولات كثيرة و دؤوبة لمواجهة تحدي الواحدية اللغوية التي تبشر بها العولمة، والتي لا تعني هيمنة اللغات الغالبة وإنما تعني في النهاية هيمنة النموذج الثقافي المختزن في رموز الاتصال، فاللغة التي تتعامل بها الأقلية كلما أحست بالأخطار تتهددها هيأت لنفسها أسباب العودة إلى الحياة، بعد أن كادت

⁽¹⁾. أديب ديمتري، مفهومان للقومية العربية، دراسات عربية، دار الطليعة، بيروت، ع2، ديسمبر 1978، ص9.

⁽²⁾. أديب ديمتري، مفهومان للقومية العربية، ص9.

ظروف العصر تخرجها من عالم التداول، واللغة الكورية التي واجهت ضربات اللغة الصينية و اليابانية لم تستسلم للهيمنة الناعمة للغات الأوروبية، كما أن هناك إحساساً في العالم العربي بضرورة حماية اللغة العربية، و لا عجب في أن نلفي الإقبال الجامح من طرف أفراد الأمة الواحدة على النهل من اللغة القومية، نظراً لاعتبارها العنوان على بقاء الهوية المميزة لها، واستمرار الجماعة التي تمثلها في الوجود.

ولقد عهدنا من خلال الاطلاع البسيط على الكتابات العربية النقدية أنها تُلحق بشكل آلي مسألة اللغة بمساحة الثقافة، و بخاصة حينما يتم تناولهما ضمن البحث عن أسئلة الهوية، و ذلك يعود للرابطة الطبيعية التي تشد الطرفين بعضهما ببعض و التي من نتائجها الترافق الوجودي للغة و الثقافة ضمن المجتمع، على أن الأولى ظاهرة اجتماعية و "الثقافة لا توجد إلا بوجود مجتمع، ثم إن المجتمع لا يقوم و لا يبقى إلا بوجود ثقافة"⁽¹⁾، و من ثم تبرز ضمن الحديث عن هذا النوع من المسائل قضية العلاقة التي تربط الثقافة بعنصر الهوية، إذ يتحدد هذا المجال ضمن الآليات التي يتخذها أفراد مجتمع ما لأجل إثبات الهوية الخاصة بهم، باعتبار أن المجال الثقافي يعمل على إثرائه "ما يكتسبه المرء من معارف متنوعة في شتى الميادين، و ما يحرز عليه من ذوق و حس نقدي و حكم سليم... و يتجلى السلوك الثقافي كذلك في الأخلاق و العادات و التقاليد بمختلف مظاهرها"⁽²⁾، و بالتالي يتكون للإنسان ما يسمى بالهوية الثقافية التي تكونها جملة من العناصر المتعددة الأشكال تتمثل في: "التحيزات الثقافية و العلاقات الاجتماعية و التي تنتج أنماط و أساليب الحياة"⁽³⁾، و تتقاسم الهوية الثقافية للفرد ضمن مجتمعه ظاهرتان متناقضتان: "الخصوصية القومية، والعمومية الإنسانية من حيث الوظيفة"⁽⁴⁾ و يشكل التناقض الحاصل بين الظاهرتين حجر الزاوية إذ يمثل توافرهما في الثقافة المجتمعية أهمية كبرى تعمل على تحقيق إثبات الخصوصية في الهوية لأن: "الخصوصية

⁽¹⁾ . نظرية الثقافة، مج من الكتاب، تر: علي سيد الصاوي، عالم المعرفة، ع223، 1997، ص8.

⁽²⁾ . جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات و الشواهد الفلسفية، ص123.

⁽³⁾ نظرية الثقافة، مج من الكتاب، تر: علي سيد الصاوي، عالم المعرفة، ع223، 1997، ص10

⁽⁴⁾ محمد أرزقي بركان، التحول هل بناء للهوية أم تشويه لها، فكر ونقد، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ع 35-19،

يناير 2001، ص31.

القومية للثقافة شرط إيجابي للتحقيق الفكري في التعاون البشري، و لأنه إذا افتقدت الخصوصية اتسم الإنتاج الثقافي بالمماثلة، و لم يعد ثمة منطق لفكرة المبادلة⁽¹⁾.

تتميز المساحة المعرفية للهوية بميزة العمق في طرح المفاهيم المتعلقة بها، لذلك نلفي ضمن اللغة العربية التي نفخر حينما نستشعر الانتماء إليها وجوديا و حضاريا طرحا يتضمن دعوة إلى الاهتمام بمقتضياتها، و ذلك بفعل ما أصاب أهلها من عدم الالتفات إليها، و ظهرت في هذا المسلك التاريخي المحدود مسألة التعريب التي تشكلت من خلال وضعية معرفية لا ترتقي إلى الطموح التأسيسي للهوية ذات التوجه العربي، إذ ينبغي أن نفهم هذه المسألة من المنطلقات الحقيقية التي تكونها، و ينبغي كذلك أن يقع التغيير ضمن الجوهر قبل أن يقع في أشكال اللغة العربية و صورها، و لقد تطرق أحد الدارسين المهتمين بهذه القضية بنوع من التفصيل حيث بيّن من خلال ذلك أن التكريس الفعلي للغة العربية يكون في التعريب الجوهري للمفاهيم، و بالتالي ينعكس ذلك على الشكل الذي نعطيه أهمية أكبر مما يستحق، و يتموضع التعريب الحقيقي ضمن تعريب الخطاب العربي بحيث يصبح: "خطابا ينتمي إلى جذوره ومنابعه"⁽²⁾، و يصير الفاعل المتكلم منتما إلى خطابيه الذي يشكله باعتبار أن: "الخطاب-اللغوي- هو المكان الذي يتكون فيه فاعله"⁽³⁾، و لا يمت هذا الخطاب بالصلة فقط إلى الألفاظ و الأساليب و ما يقابل ذلك من المكونات الشكلية للغة، بل ينبغي أن يصل إلى العمق الدلالي، ولقد انقسم الكتاب الداعون إلى جعل الساحة الفكرية ذات قومية عربية إلى اتجاهين اثنين من خلال تحديد العوامل التي تعمل على ترسيخ أديبات القومية داخل نسيج المجتمع، فأما الاتجاه الأول فقد جعل من الدين العنصر غير المجدي في تثبيت القومية و من بين هؤلاء ساطع الحصري، و استدلو بما تحصل للعنصر العربي من شأن رفيع بين الأمم حين تم فرض الاهتمام بالروح العربية من خلال تحويلها إلى ثقافة سائدة ضمن المجتمع، و ما عرفه كذلك العرب ذواتهم أثناء العصر العباسي من انحدار تلو الانحدار حينما جعلوا من الروح العربية ضمن مساحة الشؤون التي تحتل سلم الأولويات ذات الشأن البارد، أما الفريق الثاني فقد منح للدين هالة قدسية من الثناء و

⁽¹⁾ محمد أرزقي بركان، التحول هل بناء للهوية أم تشويه لها، فكر ونقد، ع 35-19، يناير 2001، ص40.

⁽²⁾ ياسر سليمان مؤلف، اللغة العربية و الهوية القومية، حاوره خالد الحروب ضمن برنامج خير جليس، في موقع: شبكة

صوت العربية، WWW.VOICEARABIC.NET.

⁽³⁾ صلاح فضل، بلاغة الخطاب و علم النص، ص90.

جعله المقوم الأساسي الذي تَبَيَّنَت عليه القومية العربية⁽¹⁾، و لكن ظاهرة الحسم الذي تنزع إلى التطرف في الرأي ليست ذات نتائج طيبة في مثل هذه المجالات من النقاشات الفكرية، إذ الموقف الوسط هو الموصل إلى الحقيقة، و إذا شئنا التوضيح أكثر فإننا سنحاول إنزال المفاهيم النظرية إلى المستوى العملي، بحيث نتخذ من ديننا الإسلامي محطة تاريخية لنعالج من خلالها الطرحين السابقين من باب تبيان الرابطة الافتراضية التي تشد الدين باللغة و بالتاريخ و بالقومية معا، على اعتبار هذه المتوالي المنطقية مكونة لكل الذي يعمل على تأسيس الهوية، و هذا مناط حديثنا في العنصر الموالي.

5.1.1.1-المُكوّن الديني:

يحتل العنصر الديني في المنظومة التي تشكل هوية الأمة مكانة ذات قيمة عالية، إذ يمثل الركن الأساس من الأركان التي يتكئ عليها التكريس الفعلي للهوية في المجتمعات عامة لأنه محسوب على العناصر الرئيسة في هذا المجال، و لقد أدت الأديان على مر الزمان أدوارا هامة في حياة الأمم، و إذا عدنا إلى لسان العرب فسنجد معاني متعددة لمصطلح الدين على حسب المقام الذي أستمعلت فيه اللفظة، و من أهم هذه المعاني التي وردت في القاموس أن الدين يعني الطاعة فنقول: "دِنْتَهُ أَي أَطَعْتَهُ، و دان الفرد بدينهم أَي اتَّبَعَهُمْ فِي دِينِهِمْ"⁽²⁾، و من معانيه كذلك العادة و الشأن حيث نقول عن شخص تعود عادة معينة مازال دينه و ديدنه، و لقد ارتبط الدين بالطاعة و التعبد لله تعالى⁽³⁾، و بالتالي تتجسد هذه المعاني من خلال إتباع أفراد المجتمع الواحد لدين معين، فالمسلمون الذين نحسب أنفسنا منهم يُكُونون الطاعة و العبادة لله تعالى، و الملاحظ على المعاني التي أوردها صاحب لسان العرب تتمفصل مع الواقع الذي كان قد عاشه العرب المسلمون آنذاك، فالأهمية التي تكتسبها القيمة الدينية ليست فقط متعلقة بما أنتجته الفترات الزمنية التي مضت من قراءات متعددة لمبادئ الأمة، على أساس أن الدين كان من أولوياتها، و لكن الأمر يكمن في مضمون هذا الشأن الثقافي و الحضاري وما حققه العرب من ورائه، و في غيره من القيم الأخرى المنتمية إلى نفس الدائرة و التي صدرت من راهنية الأمة، و

⁽¹⁾ ينظر: في قضايا معاصرة في الدراسات اللغوية و الأدبية، محمد عيد ، عالم الكتب، ط1، 1989، ص98-99-90.

⁽²⁾ ابن منظور، لسان العرب، ، 169/13.

⁽³⁾ ابن منظور، لسان العرب، 171/13.

الملاحظ على الدلالات التي دَوَّنَهَا ابن منظور في مؤلفه أنها تخضع لقاعدة الاستعمال التي تعمل التداولية على التركيز عليها، لأن دلالة التعبد ما كانت متجذرة عند العرب، و لكن حدث هذا التجذر بعد أن عرف هؤلاء العرب الدين الإسلامي الذي أتاح الانفتاح على الأمم الأخرى، و لقد تمت للعرب معرفة هذا الدين من خلال أشكال التطبيق الفعلي لما جاء به الوحي من أعمال متنوعة الأشكال و الأهداف.

إن ما تقدمه القواميس المتخصصة في الفلسفة و علم الاجتماع عن جوانب مفاهيمية من الدين لا يبتعد كثيراً عن الدلالات التي سبقت الإشارة إليها، إذ نقرأ ضمن إحدى هذه المعاجم أن الدين يطلق: "على أربعة عقائدية، تحددها عناصر معينة أهمها: وجوب الانخراط ضمن مجموعة ما و التسليم بما تؤمن به مِنْ مُعْتَقَد، و قد يكون هذا الإيمان مجرد موقف يجعل الفرد يتجاوز ما يمكن تفسيره بالعقل، أو قد يكون منبئاً على أسس و ركائز مذهبية تستمد اتساقها من المعقولة" (1)، و يتخذ الإنسان الدين نمطَ حياةٍ يعيش به محاولاً إنزال وظائفه إلى واقعه بواسطة التواصل اللغوي، و تعتبر هذه الوظائف جزءاً من الطبيعة الحقيقية للدين، إذ يعمل هذا المبدأ على توحيد أفراد المجتمع تحت المظلة الواحدة، و هذا ما يُيسِّرُ على أفراد المجتمع رسم طرق الحوار و أساليب التعامل الكلامي، و يعمل الدين كذلك على تكريس الوظيفة الاجتماعية: "التمثلة في التوحيد بين الأفراد روحانياً، بما يسمح بوجود ضمير جمعي كفيل بتحقيق الانسجام داخل المجموعة" (2).

تخضع العناصر التي تشكل منظومة الهوية للتغيير المستمر على مدار الفترات التاريخية، ولقد سبق الحديث عن هذا التغيير في بداية النشر الفكري لعنصر الهوية، و الشيء الذي ينبغي إضافته و التركيز عليه هو أن التغيير المشار إليه لا يبطأ الجوانب الثابتة من الهوية، و التي تمت الإشارة إليها أعلاه، و المتمثلة في اللغة، و الدين و القومية، لأن هذه العناصر هي التي تُقَوِّمُ البناء الهوي (3) عند الأفراد، و إذا حدث أن فقد الإنسان واحداً من هذه الأركان فإن البناء سوف يصاب بالتصدع، و ذلك يرجع إلى أن الثوابت هي المنوطة بتأسيس عنصر الهوية و هذه

(1) جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات و الشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر، تونس، 2004، ص 200.

(2) ن.م.س، ص 200.

(3) نسبة إلى الهوية.

الأخيرة تعمل على إلحاق صفة الخصوصية بالفرد كما عبر عن ذلك الأمين معلوف بقوله: "هويتي هي ما يجعلني غير متماثل مع أي شخص آخر" (1) وبالتالي يكتسب من ورائها الإنسان تميّزه عن الآخرين، أما العناصر الثانوية التي تساهم هي الأخرى في بناء الهوية فتخضع لسنة التغيير و ذلك على حسب الوظيفة التي تؤديها، و تتنوع هذه العناصر من مناخ فكري واجتماعي إلى آخر، ومن بينها الجنسية التي ترافق الإنسان في تنقله ضمن الجغرافية العالمية، والجنسية هنا مطروحة بمفهومها الحرفي الذي مفاده اكتساب الإنسان لجنسية جديدة لظروف معينة كالجزائري مثلا الذي يولد بفرنسا فهو يحافظ على جنسيته الأصلية و يتقمص الجنسية الجديدة الطارئة، و نسجل في هذا المضممار من البحث أن وصف بعض العناصر بأنها ثانوية لا يعني عدم اكتسابها لجانب من الأهمية، و لكن نعتبر ذلك من باب التصنيف المنهجي العلمي الذي يوضح معالم الموضوع، و كذا يعتبر إشارة إلى تنظيم سلم الأولويات في المجتمع.

إن الذي يخدم البحث من قريب ضمن هذا المجال المفاهيمي هو الذي يساهم في إظهار المنهجية في داخله، و عليه فالجمل ليس لعرض ما قدمه الدارسون في قضية الدين، و لكن المجال لانتقاء المقولات التي تسدي الخدمة للموضوع، و لسوف يُظهر الجانب التطبيقي من هذا البحث المزيد من المتعلقات النظرية بمسألة الدين، و عليه فإن الدين الإسلامي الذي رفع الأمة العربية في التاريخ استطاع أن يحقق الشعور القومي عند العربي، و ذلك لعامل قوي و فعال يعلمه العام و الخاص: و هو نزول معجزة البيان باللغة العربية و هي القرآن الكريم إذ نجد فيه قوله تعالى: "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" (2) و نجد كذلك قوله تعالى: "قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ" (3)، و كلها نصوص قرآنية صريحة الخطاب بانتقاء الله تعالى للعربية لغةً و لسانا للوحي الخالد، و الدين الإسلامي حمل طيلة مدة ظهوره ضميرا نظيفا يدعو من خلاله إلى تقديم النفع للإنسانية، و هو ليس محصورا في زاوية حُددت له من طرف أفهام مقطوعة كما يبين ذلك محمد عيد بقوله: "الإسلام ليس تقاليد و عادات و ليس قضايا فكرية مجردة، و لكنه تجربة قومية عميقة و أصيلة" (4)، و للإشارة العابرة المفيدة للمنهجية فإن الحديث عن

¹ سورة يوسف، الآية 2.

² سورة الزمر، ص28.

³ أمين معلوف، الهويات القاتلة، نبيل محسن، ص14.

⁴ محمد عيد، قضايا معاصرة في الدراسات اللغوية و الأدبية، عالم الكتب، ط1، 1989، ص93.

الإسلام هو من باب أن المدونة التي اتخذها البحث كمادة للمقاربة التداولية تتمحور حول شخصية فاضت مواقفها الحياتية بهذا الدين⁽¹⁾.

2.1.1 - التبلور المفهومي للتداولية معجميا و اصطلاحيا :

يعتبر الفضاء التداولي الذي سوف يرسم البحث عليه فصوله بمثابة الحقل المفاهيمي الأساس الذي سيغذي هذه المقاربة البحثية، وعليه و بالرغم مما كتب فيه فإنه ظل على درجة من الغموض⁽²⁾، نتيجة للعلاقات المتشعبة التي يعقدها مع حقول معرفية أخرى متخذة إياها كمصادر لإغناء التحليل اللغوي معرفيا، و بالتالي الإقدام على تشكيل التعريف للتداولية: "يقتضي الإشارة إلى العلاقات القائمة بينها وبين الحقول المختلفة"⁽³⁾، و لقد أشار مسعود صحراوي إلى هذه المسألة بقوله: "التداولية تشي بانتمائها إلى حقول مفاهيمية تضم مستويات متداخلة، كقواعد التخاطب، والاستدلالات التداولية، والبنية اللغوية.." ⁽⁴⁾.

إن الميلاد الحقيقي لهذا المنهج كان عند الغرب لا عند العرب، بالرغم من وجود الكثير من الإشارات المتعلقة بالتداولية في تراثنا العربي، و لقد أشارت صاحبة كتاب المقاربة التداولية إلى ذلك بقولها: "لا يمكن التنكر لمكونات المفاهيم الإجرائية في التداولية التي أنجزت في البداية فيما وراء بحر المانش و ما وراء الأطلسي"⁽⁵⁾، و يعتبر ذكرُ الكاتبة للموقعين الجغرافيين من باب الكناية على المنبع الفكري للمنهج التداولي، و يحدد مصطلح الأنجلوساكسونية جغرافية هذا المنبع، و منها تخرج أقطاب المنهج المشار إليه وهم بيرس و أوستين و كذا غرايس⁽⁶⁾.

لقد ارتأينا في البداية أنه ينبغي تفصيل الجانب اللغوي من التداولية انطلاقا من الأصل اللفظي لا من الترجمة، باعتبار أن كلمة تداولية تُرجمت من المصطلح الفرنسي pragmatique⁽⁷⁾

¹ إنه الأمير عبد القادر الجزائري ضمن رواية واسيني الأعرج.

² فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ، تر: صابر الحباشة، دار الحوار، سورية، ط1/، 2007، ص 17 .

³ مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دارالطبعة، بيروت، ط1/، 2005، 16 للإشارة فإن المصدر السابق تطرق إلى هذه المسألة مدليا بأن التداولية تنهل من اللسانيات و من علم الاجتماع و من الأنثروبولوجيا و من علم النفس، ينظر ص 17 .

⁴ مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، 16.

⁵ فرانسواز أرامينكو، المقاربة التداولية، ص 75.

⁶ سيأتي الحديث عنهم إن شاء الله في لاحق البحث.

(1) الذي اشتق من مصطلح آخر praxis أي ما هو عملي⁽²⁾ وهناك من الباحثين من ترك المصطلح على حاله ونقله بالحروف العربية ومعظمهم من المشاركة أي بالشكل التالي "البراغماتية"⁽³⁾ وتبدو هذه الترجمة التي تنحو الأمانة الحرفية في صياغتها غير دقيقة⁽⁴⁾ إذ إن المخزون المفاهيمي للحقل المتحدث عليه يشير إلى ترجمته من حيث المعنى لا من حيث لفظه، ويعود السبب في الترجمة الحرفية إلى الديدن الذي اتخذه النقاد المشاركة وغيرهم من المهتمين بالعلوم الإنسانية في الترجمة، إذ نجد أن معظم مسميات العلوم منقولة حرفيا و مكتوبة بالحروف العربية مثل "الابستمولوجيا، السيكلوجية، الفنولوجيا"⁽⁵⁾ ... مع العلم أن هناك حقول معرفية نقلت بالترجمة المعنوية المزوجة بالترجمة الحرفية كاللسانيات التي تعادل "linguistique"، وعليه فإن مشكل المصطلح في الدراسات العربية من أكثر المشاكل تنغيصا على البحث و الباحث معا، فقد لا يقتنع باحث بمصطلح ما ثم تراه يستخدمه كما فعل الغدامي إذ يقول في هذا الشأن: "إني استخدم عن كره مصطلح سيميولوجي منتظرا مولد مصطلح عربي يحل محله"⁽⁶⁾، أو يقتنع به لكنه يرى فيه تداخلا مع علم آخر، كصلاح فضل الذي اقتنع بالسيميائية و فضل عليها السيميولوجيا⁽⁷⁾، واصطنع محمد البكري مصطلح الدلائلية لأنه "متجانس مع دال ومدلول ودليل وتدلال"⁽⁸⁾، إلى غير ذلك من المصطلحات المستخدمة في النقد الحديث، والتي تمثل إعاقة للباحثين، و بالتالي سيطول المقام بنا إذا استدرجنا الحديث عن التعالقات اللغوية التي تدخل في الإطار المتحدث عنه، و لا يهمنا من هذا الإشكال إلا الذي

¹ فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص 205 .

² ينظر، عبد السلام عشير، تطور التفكير اللغوي من النحو إلى اللسانيات إلى التواصل، مطبعة دار لمعارف الجديدة، الرباط، المغرب، ط1، 2010، ص116، و ينظر جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، 1982، ج1، ص203-204.

³ ينظر: حافظ إسماعيلي علوي، التداوليات علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، 2011، ص 64.

⁴ ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، هامش ص 215.

⁵ آن روبول و جاك موشلار، التداولية علم جديد للتواصل، تر سيف الدين دغفوس، ص28. ينظر كذلك: فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، ص 28 .

⁶ عبد الله الغدامي، الخطيئة والتكفير، ص 297 .

⁷ صلاح فضل، نظرية البنائية، ص 297 .

⁸ محمد البكري، على ترجمته مقالا لجوليا كريستيفا بعنوان، الدلائلية علم أو نقد لعلم، مجلة العرب و الفكر العالمي ع 1، 1988م بيروت لبنان، ص70.

أشرنا إليه على سبيل الإيماءة البحثية، لأن الترجمة الاصطلاحية لا تزال تتخبط في أوساط نقاد أهل الضاد العربي، ولا يزال عدم الاتفاق بينهم رغم الجهود المبذولة في تكوين معاجم متخصصة تجمع الشتات كي تيسر على العاملين في مجال البحث على اختلاف مستوياتهم السير نحو استيعاب المفاهيم.

يشير الجذر اللغوي الذي جاءت عليه التداولية إلى اتجاهين بداليتين متباينتين ينتميان إلى ملابسات الفكر والفلسفة الغربيين، أولهما التداولية التي مصطلحها بالفرنسية *pragmatique* أو *pragmatics* بالإنجليزية، وكلا من المصطلحين يعينان العلم الذي يتوصل التواصل في تشكيله النظري⁽¹⁾، أما الاتجاه الثاني فيتمثل في الفلسفة الذرائعية النفعية *pragmatisme*، وبتعدد هذه الأخيرة من حيث الدلالة عن التداولية على أساس أنها تعني: "مذهب يقرر أن الدليل على الحقيقة هو فعاليتها و نجاح الفعل يكمن في التحصيل، و الذرائعية في المعرفة هي القول بأن حقيقة القاعدة العلمية لا تكون إلا عند تطبيق هذه القاعدة في ظروف عملية، و الفكرة الصحيحة هي التي تكون أكثر فعالية و أكثر نجاحاً"⁽²⁾، و هذه إشارة صريحة إلى المنهج التجريبي أو الأمبريقي الذي ساد بداية فترة النهضة عند الغرب، وبالتالي يظهر من خلال عرض مفهوم الذرائعية انعدام العلاقة التي تربط الاتجاهين نظراً لاحتوائهما على دلالتين مختلفتين إلا في بعض النقاط التي لا تمت بالصلة إلى المعاني، و عليه فاستبعاد ترجمة مصطلح التداولية *pragmatique* بالذرائعية⁽³⁾ من الأمور التي تجعل من البحث يسير ضمن خط واضح في جانبه المفهومي، و يتحقق بذلك تفادي الخلط بين مصطلحات العلوم، و كذا بين المحتويات المعرفية التي تحملها هذه العلوم، ولكن هذا لا يعني عدم وجود نقاط التلافي بين الاتجاهين إذ نجد أن الظروف و الملابسات التاريخية التي ترعرعت في كنفها التداولية هي ذاتها التي نشأت فيها النفعية (*pragmatisme*)، ولقد حدد الدارسون الولايات المتحدة الأمريكية على أنها الأرض التي عرفت النهج التداولي من حيث الظهور و التطور، و ذلك في منعطف القرن العشرين على يد: "شارل بيرس (1839-1914)، الذي قام بمقتضى كونه سيميائياً، بدور أساسي في النشأة

¹ مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، حاشية ص 15.

² جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات و الشواهد الفلسفية، ص 207.

³ مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 15

المفهومية للمقاربة التداولية"⁽¹⁾ وامتدت بعد ذلك النفعية إلى الفكر الأوروبي، و التي تعتبر الأرض الثانية المستقبلية للتأثيرات التي قدمت من العالم الجديد، و لقد عرفت النفعية في أوروبا تعميقا في الشكل المفهومي و صارت تتمثل بمصطلح **فلسفة العمل**، حيث تعمل هذه الأخيرة: "على اختزال الحقيقة في المنفعة l'utilité... ويهتم قسم منها بالمقاربة التداولية"⁽²⁾.

منذ ظهور الاهتمام الذي انصب على ميدان التداولية انماالت الدراسات من كل حذب و صوب محددة تعريفات مختلفة للتداولية، ومن خلال الاستقراء البسيط لمعظمها تجلى لنا أن هذه التعريفات تتلاقى في مساحات وتختلف في أخرى، فأما المساحات التي تلتقي فيها فهي بمثابة الأصول التي كونت ماهية التداولية، ولا يستطيع أي باحث اتخذ له طريقا إلى هذا الفضاء المعرفي - التداولية- أن يتلافى المرور عليها، و نجد أن هذه الأصول يعبر عنها أصحابها بصيغ لغوية مختلفة، لكن يبقى المعنى الذي تؤديه هذه الصيغ واحدا، وبالتالي سنحاول التعرض إلى جملة من هذه التعاريف محترمين جانبيين اثنين وهما: السبق الزمني والسبق المعرفي⁽³⁾.

يعد التعريف الذي قدمه شارل موريس CH. Morris من أقدم التعاريف التي حددت التداولية، وهذه عباراته: "التداولية جزء من السميائية، و تعالج العلاقة بين العلامات، ومستعملي هذه العلامات"، ولقد قدم Morris هذا التعريف سنة 1939⁽⁴⁾، ثم تابعت تعريفات أخرى منطلقة من تحليل عبارة: "مستعملي هذه العلامات"، و لقد جعل موريس من التداولية جزءا من الدلائلية⁽⁵⁾ وبالتالي نجد التداولية تنهل من منهلين هامين و هما السميائية وعلم الدلالة على حد سواء، وتضيف صاحبة كتاب **المقاربة التداولية** إلى ما سبق أن التداولية تحدد: "علاقة

¹ ا فيليب بلانشيه، لتداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، ص28.

² ن. م. س، ص28 .

³ نعي بالسبق الزمني الأسبق من الناحية الكرونولوجية أما السبق المعرفي فنعي به الأكثر شهرة.

⁴ ينظر: حافظ إسماعيلي علوي، التداوليات علم استعمال اللغة، ص65 و آن روبول و جاك موشلار، التداولية علم جديد للتواصل، تر سيف الدين دغفوس، ص29 .

⁵ فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، ص45.

العلامات بمستعملي هذه العلامات، و الجمل بالمتكلمين⁽¹⁾ على أساس أن اللغة خاصة بالمجتمع أما الكلام فهو خاص بالفرد، أي بالاستعمال⁽²⁾.

حدد موريس ثلاث مكونات أساسية للغة وهي المكون الدلالي أو الدلائلي *sémantique* والمكون النحوي *syntaxe* والمكون البراغماتي - أي التداولي -⁽³⁾ وبالتالي اعتبرت التداولية الركن الأساسي الثالث الذي تستند عليه علوم اللغة، ولكن تبقى هذه الحقول الثلاثة تحتفظ بخصوصيتها المعرفية والإجرائية في الوسط النقدي، ولقد تطرقت منال النجار في كتاب التداوليات إلى النقاط الأساسية التي ترسم الفروق بين الحقول اللغوية المذكورة أعلاه مركزة على مدى فعالية الآليات التي يستخدمها كل حقل قصد تمكنه من المعنى، و بالتالي يهتم علم الدلالة *sémantique* بالمعنى كعلاقة ثنائية، أي أن المعنى له دلالات تنحو إلى التجريد وتمثل الانفصال عن المقام اللغوي، أما التداولية فتحتفظ باهتمامها بالمعنى من زاوية خاصة، تتمثل في أركان ثلاثة: المعنى، ثم مستعمل اللغة، والمقام، أما علم التركيب *syntaxe* أو علم النحو فيُظهر تعاملًا جامدًا مع اللغة، انطلاقًا من أن الجمل تشكل مكونات جامدة للغة، لاسيما أن التداولية تبرز تعاملًا خاصًا مع العمل اللفظي على حسب وقوعه في المواقف المعينة له⁽⁴⁾ انطلاقًا من الطبيعة غير الثابتة للمعنى، وعليه فالتعامل مع النص أو الخطاب أو الملفوظ ينبغي أن يمر عبر المراحل الثلاث المشروحة فُروقهَا أعلاه، و تظل إمكانية الفصل بين العلوم الثلاثة غير واردة بل: "يستحيل انفصال المكون البراغماتي-التداولي- عن المكونين النحوي والدلالي .. بل

¹ فرانسواز أرامينكو، المقاربة التداولية، ص 06، و ينظر كذلك: حافظ إسماعيلي، التداوليات علم استعمال اللغة، ص 65
² ميز ف. سوسير بين اللغة والكلام و جعل ذلك مدخلا إلى تحليل اللغة، و رأى أن اللغة نتاج اجتماعي للملكة الكلام، و هي مجموعة من الموصفات التي يتبناها الكيان الاجتماعي ليتمكن الأفراد من ممارسة هذه الملكة، و بالتالي يُفهم من كلامه أن اللغة ذات منشأ اجتماعي أما الكلام متعدد الجوانب، و هو يخص الفرد والمجتمع، ينظر: فرديناند دي سوسور علم اللغة العام، تر: لوئيل يوسف عزيز، ص 37، و سيأتي تفصيل المسألة أكثر في الفروق بين اللسانيات و الدلالة والتداولية.

³ ينظر Dictionnaire d' analyses du discours, patrick charaudeau et

⁴ Dominique maingueneau, Ed du Seuil, 2002, p454
Cette notion issue de la tripartition de C.morris 1983 qui distinguait trois domaines dans l'appréhension de toute langue, qu'elle soit formelle ou naturelle: la syntaxe, ... la sémantique ... la pragmatique.

ينظر كذلك: آن روبول و جاك موشلار، التداولية علم جديد للتواصل، تر سيف الدين دغفوس، ص 29.

⁴ حافظ إسماعيلي، التداوليات علم استعمال اللغة، ص 70 بتصرف.

إن ذلك المكون البراغماتي صار موجها فعليا للمكونين الآخرين⁽¹⁾، و في هذه الحالة تصبح التداولية تقنية: "تعالج آلية ترجمة الملفوظات في السياق"⁽²⁾.

ظهرت فيما بعد جملة من الكتاب الآخرين تلقفوا الحقل المعرفي الجديد إلى الظهور- التداولية- ووقعوا عليه بالدراسة والتحليل، ومنحوه تعريفات تكاد تتماثل فيما بينها من حيث القسامات التي تشكل الأسس العامة لهذا المنهج، حيث نجد أن من بين العرب الأوائل الذين ادخلوا ضمن دراساتهم البحث في التداولية طه عبد الرحمان، و قد تناول ذلك في مؤلف شرح فيه البدايات الأولى لهذا النهج، و وضَّح كذلك المفاهيم التي تركز عليها التداولية ولقد أورد مفهوما للتداولية على طريقته فقال: "لفظة التداول تفيد في العلم الحديث الممارسة... و تفيد أيضا التفاعل في التخاطب"⁽³⁾، ثم عرف مصطلح التداولية انتشارا في أوساط النقاد العرب، فنجد من أمثلة هؤلاء مسعود صحراوي الذي قدّم للتداولية تعريفين في مصنفين مختلفين، أول هذين التعريفين هو: "التداولية هي اتجاه القوانين الكلية للاستعمال اللغوي والتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي"⁽⁴⁾ أما الثاني فقد جعلها: "نسقا معرفيا استدلاليا عاما يعالج الملفوظات ضمن سياقاتها التلفظية، والخطابات ضمن أحوالها التخاطبية"⁽⁵⁾، و الملاحظ أن الذي يجمع التعريفين هو ربط التداولية بأهم المعايير التي تبنّيت عليها وهي: البنية اللغوية، الاستعمال اللغوي، وكذا تعالق البنية اللغوية بمعيّار استعمالها، بالتالي فإن جلّ المفاهيم التي قدمها الباحثون العرب في الميدان لا تخرج عن الخطوط العريضة التي حددها التعريف السابق⁽⁶⁾، و ينبغي

¹ فرنسواز أرامينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، ص 38- 39 .

² Dictionnaire d'analyse du discours, patrick charaudeau et Dominique maingueneau, Ed du Seuil ; 2002, p455. linguistique et pragmatique...description des procédures non-linguistique qui permettent ...l'interprétation des énonces en contexte. سيأتي التفصيل في

هذه القصبة بصفة مستفيضة في لاحق البحث.

³ طه عبد الرحمان، أشكال الحدود البحث اللساني و السيميائي، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 6، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1984، ص299.

⁴ مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص17.

⁵ حافظ إسماعيلي، التداوليات علم استعمال اللغة، ص32.

⁶ ينظر: أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، حيث استنتاج التعريف النهائي المفيد ص 14 و ينظر كذلك: Djalali Dalache , Introduction a la office de la publication universitaire, p3. pragmatique linguistique, النص طويل و حاولت أن أخذ منه زبدته، يستغرق النص الصفحة المشار إليها كاملة.

الإشارة في هذا الصدد إلى أن التعاريف التي قدمها النقاد العرب المحدثون عن التداولية تكاد تكون قبا قوسين أو أدنى من التعاريف التي قدمها النقاد الغربيون، و عليه فإن قاموس الخطاب يطلعنا على تعريف يحمل إلى حد بعيد القسّمات التي نجدّها عند أمثال طه عبد الرحمان و مسعود صحراوي وغيرهما من المهتمين العرب و هو: "التداولية هي دراسة الاستعمال اللغوي.. مع العلم أن هذا الاستعمال لا يتميز بالحيادية، وذلك لأن المساحة الحوارية المتكونة نتيجة تواصلنا أكبر من دائرة مساحة دلالة الألفاظ التي نتواصل بها"⁽¹⁾.

إن الخوض في عملية استقراء المفاهيم التي دونتها أيدي الباحثين عن التداولية يفيد في جانب مهم من البحث، و تتمثل هذه الإفادة في تمكين الباحث من إدراك الجوهر الذي بُني على أساسه هذا الحقل المعرفي، ذلك لأن التعريف أو المفهوم للمصطلح لا يكون سابقاً للأبحاث التي أجريت من أجل توضيحه، بل يكون لاحقاً لها وبالتالي يعد هذا التعريف أو المفهوم ثمرة البحوث النظرية التي قُدمت، ولكن المبالغة في الخوض في مسائل الاختلافات الشكلية بين التعاريف لا يفيد في شيء إلا إذا كان الاختلاف كامناً في عمق التعريف، و في هذه الحال يتحتم على البحث الإشارة و التعرض إلى ذلك، وهذا بقصد عدم الوقوع في إشكالية المفارقات المنهجية المنعكسة على الإجراءات والآليات التطبيقية، و التي سنتوسلها في لاحق البحث لتحليل النص الروائي المنتقى، أي كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد لمؤلفه واسيني الأعرج، و نشير في هذا الصدد أن مسألة التعريف أو المفهوم تخضع للتغير و للنسبية مثل بقية الظواهر المتعلقة باللغة على أساس أن هذه الأخيرة ذاتها خاضعة لسنة التغير الإيجابي نحو الأحسن، أي بالنهل من اللغات التي عرفت نمواً و تطوراً و بالمحافظة على التكوين الداخلي الذي يضمن لأي لغة كانت البقاء و يحقق لها الوجود و الهوية، بالتالي وقع اختياري المتواضع على التعريف الذي توصل إليه أحمد محمود نحلة و الذي يبدو على الأقل مناسباً و مفيداً في الخضم الحالي للمفاهيم والترجمات، ويتمثل هذا التعريف في أن التداولية هي: "دراسة اللغة في الاستعمال أو في التواصل؛ لأن المعنى ليس شيئاً متأصلاً في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا السامع وحده، وإنما يتمثل في تداول اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدد (مادي، اجتماعي، لغوي) وصولاً إلى

¹ jacques moeschler et Anne Reboul, Dictionnaire Encyclopédique de , ibid. p17. pragmatique, « nous communiquons beaucoup plus que ce que nos mots signifient »

المعنى الكامن في كلام ما"⁽¹⁾، من خلال التعاريف المقدمة عن التداولية أعلاه نستطيع أن نخرج باستنتاج مفاده أن التداولية استطاعت بفضل فلاسفة اللغة مزاحمة مناهج تحليل اللغة في مستوياتها المعروفة، و لقد اكتسبت خصوصياتها من خلال التركيز على المستوى الاستعمالي للغة، على أساس أن هذا المستوى هو الذي يمنح المعنى القُربَ من الحقيقة.

¹ محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 13.

2.1- الحقول المعرفية المساهمة في تأسيس مبادئ التداولية

- توطئة.

1.2.1- اللسانيات.

2.2.1- انبعاث التداولية من الفلسفة التحليلية.

3.2.1- علم النفس و تطبيقات التداولية.

4.2.1- التداولية ثمرة للتعاقب بين اللغة و التواصل.

توطئة:

يعتبر تعرضنا لهذا العنصر من باب محاولة وضع التسييج للظهور الذي اتكأت عليه جهود الدارسين لأجل بناء الهرم النظري للمنهج التداولي، و بالتالي سيجد القارئ كتابة تترع إلى السرد التاريخي الممزوج بالتناول للمقولات الفلسفية، باعتبار هذه الأخيرة هي المشكلة للمرجعية الفكرية التي فتحت للتداوليين بابا كي يمتحوا من شتى حقول المعرفة الإنسانية على تعدد منابعها، و على تنوع تطبيقاتها، و لقد فضلنا الذهاب إلى أهم الحقول التي ساهمت بقدر كبير و فعال في تأسيس الآليات التداولية، و سنبدأ بأهمها و هو اللسانيات العامة.

1.2.1- اللسانيات :

لقد تحدثنا في سابق البحث عن طبيعة ظهور التداولية على أساس أنها حلقة وصل بين عديد الحقول المعرفية، ولقد تناول الكتاب المهتمون هذه الحقول بالشرح، وكل قد أخذ ذلك على طريقته، وعليه سنحاول أن نضع أرضية تتلاقى فيها الشروحات لعنا نظفر بشيء من الفهم، ولكن قبل الولوج إلى النشر الفكري في هذا العنصر، علينا أن نشير إلى بعض الرؤى التي اتسمت بنوع من الضبابية تجاه التداولية، حتى صارت تُنعت بما على أنها محل سلبيتها التي ينبغي تلافيها، ومن بينها أنها جاءت لتتلقف البقايا المتروكة و المهشمة من اللسانيات، و لقد أشار القاموس الموسوعي للتداولية إلى ذلك نافيا أن تكون التداولية سلةً مهملات لللسانيات¹، و انتشر هذا الزعم منذ ستينات القرن العشرين، و صارت الرؤى البحثية تنظر نظرة مفادها أن كل المشاكل العويصة التي تعجز اللسانيات عن حلها تُترك للتداولية، وهذا لعمري زعم فيه دُخَن، لأن الإجراءات التطبيقية المستنبطة من المنظومة المعرفية المتعددة المشارب و التي تعمل على تغذية التداولية تتوجه نحو إسقاطها على المسالك اللغوية التي اتخذت شكل الملفوظ، و هذا الأمر ليس بدعاً في هذا المنهج، بل هو من مهامه ووظائفه، كما أن اللسانيات تبدي عدم استطاعتها القيام بهذا الإجراء، إذ إن عملها يدور في فلك محدد و هو: "إزالة الغموض عن

¹ Jacques moeschler et Anne Reboul, Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, ibid., p24. « Dans les années soixante-dix, on avait tendance à définir la pragmatique comme la poubelle de la linguistique. »

عناصر التواصل اللغوي، وشرح طرق الاستدلال ومعالجة الملفوظات¹ وبالتالي ستصير التداولية على هذا الأساس:" وسيلة لتبسيط المسائل اللسانية"²، و ليست سلة لمهمات القضايا اللغوية.

إن الوظيفة التي تضطلع بها التداولية تتخذ حقلا معرفيا نوعيا خاصا بها، يتوسل كل الطروحات النظرية التي تُمْتُ بالصلة إلى اللغة العادية، وهذا الشأن يُحسب للتداولية إذ يعتبر من الخصوصيات التي تتميز بها، فهي تحاول:" بواسطة الوسائط غير اللسانية وصف الأنظمة والآليات المندمجة في اللغة كي تصل إلى المعاني التي يرومها معنى الملفوظ"³، و يصف بعض النقاد اللسانيات البنيوية بأنها بعيدة عن تفسير اللغة في سياقها الذي ألحقت به، وبالتالي ينعكس هذا البعد على:" الأحداث الكلامية الحقيقية في الواقع المجسد، مما يجعل جهازها الواصف مفتقرا إلى التعبير والإحالة لافتقارها للقواعد التفسيرية"⁴، وبالتالي دخلت اللسانيات البنيوية في مجال معرفي محدد يتمثل في التطرق إلى النص فقط، وترك ما يدور حول هذا النص، وعليه فقد استبعد:" المنهج البنيوي هذا الأمر في تحليل الخطاب، معتمدا على مصطلح أدبية النص"⁵.

إن الدراسات التي تلت ذلك بينت أن الخطابات المختلفة المنابع تجري ضمن سياقات مختلفة، ولا تستطيع تجاهل السياق و صب الاهتمام فقط على الخطاب وحده دون الظروف والملابسات المتعددة التي قيل فيها هذا الخطاب، و الذي يأخذ في بعض الأحيان شكل الملفوظ، و كمثال على ذلك قولنا:" لقد زادوا في قيمة الضرائب" يفهم من وجهات نظر مختلفة، فلسانيا يعني ما تعنيه الجملة: أن القيمة القديمة للضرائب صارت طي النسيان وحلت محلها قيمة جديدة تتميز بأنها مرتفعة، و هذه الأخيرة هي الدلالة المعتمدة من طرف اللسانيات البنيوية، إذ تتسم هذه الدلالة بالحرفية لأنها تحمل دلالة ظاهرية⁶، أما إذا أسقطنا التحليل التداولي على الملفوظ

¹ مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 27.

² Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, ibid., p24. « La pragmatique est un moyen de simplifier la linguistique. »

³ « La pragmatique a pour tache de décrire a l'aide de principes non linguistique, les processus d'inférence nécessaires pour accéder au sens communiqué par l'énoncé » ibid, p22.

⁴ مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 29.

⁵ عبد السلام عشير، تطور التفكير اللغوي، ص 43.

⁶ الدلالة الظاهرية هي الدلالة الحرفية الموافقة للحقيقة و التي تقف كالمقابل للدلالة المجازية التي عادة ما تكون في المجال الاستعمالي للجملة، ينظر: تمام حسن، اللغة العربية معناها و مبناها، ص19.

السالف الذكر فإننا سنتوصل إلى نتائج أخرى أكثر أهمية من التي توصلت إليها اللسانيات البنيوية، و بالتالي فإن أول إجراء تقوم به التداولية ضمناً هو إسقاط آلية تحديد المرجع¹ على الملفوظ في الواقع الخارجي، فإن الفهم الذي سيحصل للسامعين بعد ذلك يتمثل في أن ليس لأحد الحق في زيادة الضرائب إلا السلطات² المخولة بذلك ، وهو فهم يقترب كثيراً من ملاسبات السياق التي قيل فيها الملفوظ، وبالتالي حققت التداولية بذلك نتيجة مهمة تتمثل في تحرير الملفوظ من صيغته اللغوية الحرفية وإخراجه إلى فضاء آخر، يعقد من خلاله علاقة وثيقة بالواقع الفعلي، و بتعبير تمام حسن يخرج الملفوظ: "من دائرة الصمت اللغوي إلى دائرة النطق الكلامي ، و من حيز الكون إلى حيز الحركة، و من حيز المكان إلى حيز التطبيق"³، فتكون له صيغة غير حرفية غير لسانية، إن اللسانيات التي منطلقها الأساسي من اللغة ذاتها شقت طريقها عبر محاولة تعميم القوانين على اللغات بوجه عام، وذلك باستحداث طرق وآليات جديدة ولجت بها إلى العمق الدلالي للغة محاولة إعادة تركيبه، وعليه فالذي تغير في هذا هو استحداث محتويات مفاهيمية جديدة، ومن ثم إلحاقها بالتطبيقات الإجرائية التي تسقطها التداولية على الكلام اللغوي، فبعد ما كان التركيز على: "مفهوم الكلمة صار التركيز على مفهوم القول énoncé وذلك استحضاراً لذات المتخاطبين"⁴، و بالتالي صار المفهوم الذي تحمله اللسانيات و الذي مفاده أنها: "تعالج نظم العلاقات بين سلسلة الأصوات وسلسلة المعاني"⁵، محسوبا ضمن مرحلة من مراحل تحليل الملفوظ، على أن تكون المرحلة النهائية للتحصل على التفسير الأقرب إلى الحقيقة منوط بالتطبيق التداولي.

¹ للكلمة في اللغة العربية معنى لغوي و معنى مقصود ، فالأول هو الموجود في المعاجم، أما الثاني فهو الدلالة المستنبطة من ارتباط المعنى بالسياق الاجتماعي، ينظر: محمد محمد يونس علي، المعنى و ظلال المعنى، دار المدار الإسلامي، ط2، 2007، بيروت، لبنان، ص142، و ينظر كذلك: ، تمام حسن، مقالات في اللغة و الأدب عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 2006، ج1، ص330 و ما يليها.

² مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 24.

³ تمام حسن، اللغة العربية معناها و مبناها، ص41.

⁴ عبد السلام عشير، تطور التفكير اللغوي، ص 73.

⁵ Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, ibid. P19, «La linguistique traite donc des modes de combinaisons des ensembles de sons et des ensembles de sens »

إن اللسانيات لا تنظر إلى التداولية على أنها حلقة غريبة عنها بل تنظر إليها على أنها مرحلة تطور وخطوة نحو إخراج رؤية أخرى جديدة للغة وللخطاب على حد سواء وبالتالي: "فتحت اللسانيات بابا واسعا نحو التواصل بأبعاده التداولية"¹، و يعمل اللسانيون على تحديد مفاهيم أخرى موافقة للمناخ الجديد المستحدث من طرفهم، بحيث تساعدهم على الولوج إلى حقل التحليل الخطابى، ومن بينها النظرة التي منحتها التداولية للمحتوى اللغوي، و الذي يضطلع بتشكيله المتكلم، إذ اتخذت التداولية هذه النظرة كأساس تعتمد عليه لتبرز في أوساط المناهج النقدية الحديثة، ومفادها نجده ملخصا ضمن القول الآتي: "إذا كانت الجملة موضوع اللسانيات فالملفوظ هو موضوع التداولية"²، أي إن الاهتمام الذي ينبع من التداوليين ينصب على الملفوظ أكثر من انصبابه على الجملة ذاتها، ولكن هذا لا يعني إهمال التركيب اللغوي للجملة، لأن هذا الأخير يُعدّ من المراحل الأساسية التي يجب على التداولي المرور عبرها وذلك لأن: "الجملة هي وحدة لغوية مؤسسة نحويا وتركيبيا، ولكن مفهوم الجملة في التواصل يختلف، لأن المتخاطبين يتبادلون عبرها الملفوظات لا الجمل"³، و بالتالي تتمظهر عملية تغيير ضمن زاوية المتكلم الذي يعيد تشكيل الجملة انطلاقا من بنائها اللغوي ليخرجها في الشكل الملفوظي وعليه فمفهوم: "الملفوظ يوافق الجملة التي تم تشكيلها من المعلومات المستخرجة من السياق الذي قيلت فيه"⁴.

لقد تبين مما سبق أن تشكيل بداية الكلام يكون من الجملة ثم يتبلور إلى أن يتخذ سياقاً جديداً يتمثل في الخطاب، الذي يستطيع المتكلم أن يخزن فيه ما يريد إيصاله إلى المتلقي أو المتلقين، و بعد الحديث عن اللسانيات بمثابتها مشكلا أساسيا للتداولية ننطلق للحديث عن الفلسفة التحليلية بمثابتها المرجعية الفكرية لهذا المنهج.

¹ عبد السلام عشير، تطور التفكير اللغوي، ص73.

² Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, ibid., p22. « Si la phrase est l'objet de la linguistique, l'énoncé est l'objet de la pragmatique »

³ Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, ibid., p22. « La phrase est entité abstraite, le produit d'une théorie .mais dans la communication les locuteurs n'échangent pas des phrases mais des énoncés »

⁴ Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, ibid., p22. « Un énoncé correspond en effet a une phrase complétée par les informations qu'on l'on tire de la situation dans laquelle elle est énoncé »

2.2.1- انبعاث التداولية من الفلسفة التحليلية

1.2.2.1- علاقة التداولية بالفلسفة التحليلية:

يجدر بنا ضمن هذا العنصر أن نركز الحديث على الجزئيات التي تشكل العنوان المشار إليه، و بالتالي فالمصطلح الذي يشد الانتباه أكثر هو الفلسفة بمكوناتها، والتي تعتبر الإنسان و الكلام طرفان متلازمان من حيث الوجود، و ذلك اعتباراً من التميّز الذي يحمله هذا الإنسان عن غيره، و الذي يقع ضمن تملكه ظاهرة الكلام دون غيره لأن منطلق المسألة من المقصد الذي تحقّقه اللغة التي تنتظم الكلام، ولقد عبّر عنه عبد السلام المسدي بشكل جليّ قائلاً: "وجود الكلام متراهن مع وجود الإنسان، و أن سدّ الحاجات متعذر خارج حدود اللغة"⁽¹⁾، و بالتالي تعد اللغة الرابطة التي تبني العلاقة بين التداولية و الفلسفة التحليلية. بمثابة مكوناً أساسياً للتنظير في العلوم الإنسانية التي نشأت جراء التبادل النظري بين الحقلين المعريين، و عليه فإن مثل هذه القضايا تجلب معها تساؤلات تنطلق من مادة خام لغوية متكاملة، توصف مكوناتها بأنها تقع في زاوية مُبَارَرة⁽²⁾، و تتمثل هذه المادة الخام في العلاقة التي تربط اللغة بمعطياتها بفضاء الفلسفة التحليلية، حقا إنه سؤال كبير جدا وقع في بحث صغير، لكن لا بد مما ليس منه بد، فنحن سوف لا ندع القلم يذهب بنا كل مذهب و لكن سنحاول ممارسة عملية الانتقاء في وضع الأفكار.

إن الفلسفة وقفت وظلت واقفة على أنها الممثل الشرعي الوحيد لكل المنطلقات الفكرية للمناهج النقدية المعتمدة على التحليل و التنفيذ، و لاسيما المنهج الذي نحن بصدد الحديث عنه أي التداولية، و يجدر بنا من خلال النشر الكتابي لهذا الإشكال التعرض بالشرح لبعض المفاهيم التي نرى أنها ستسعفنا في التحليل وبسط الأفكار، ومن بينها تحديد جوانب الفلسفة التحليلية⁽³⁾، على أساس أن هذا الفرع من الفلسفة العامة هو المنوط بتناول مسائل التحليل

⁽¹⁾ عبد السلام المسدي، التفكير اللساني عند العرب، الدار العربية للكتاب، تونس، ط1، 1981، ص50.

⁽²⁾ التبئير: البؤرة هي قبلة الأنظار و مركز الاهتمام، و لها أبعاد تصويرية مضبوطة، ينظر: سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، ط1، 1985، ص54.

البؤرة ضمن المجال التداولي تنسب إلى وظيفتها المنسوبة بدورها إلى المكون الحامل للمعلومة الأكثر أهمية أو الأكثر بروزا في الجملة، مثل: عاد زيد من السفر البارحة، و حدثني عمرو البارحة عن مقالته، فالكلمات المكتوبة بالخط الغليظ هي التي تمثل البؤرة، أحمد المتوكل، ينظر الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص28.

⁽³⁾ ينظر: روبر مارتن، مدخل إلى فهم اللسانيات، تر: عبد القادر المهيري، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2007، ص114.

اللغوي التي سيستعين بها البحث في مستقبل الكتابة، إذ بمعرفة هذا الحقل المعرفي سيتسنى لنا السير على خطى ثابتة في تمييز ما يمت بالصلة إلى التداولية.

لقد منحت الفلسفة التي تكونت في الرحم اليونانية إشعاعا كبيرا استطاعت بواسطته معظم الفنون و العلوم أن تبرز إلى الوجود، و إذا فتشنا في المصادر التي تناولت تاريخية العلوم و الفنون فسنجد الكثير من الأحاديث عن العلاقات التي تربط هذه الحقول المعرفية بما أنتجه الفلاسفة اليونان القدامى من كتابات متنوعة ظلت طيلة قرون عاشتها الإنسانية تجذب القراء إليها على مختلف مستوياتهم، و عليه فإن المناهج النقدية التي ظهرت عند الغرب استمد المنشغلون بها الكثير من العناصر المتعلقة بها من تراثهم الفلسفي القديم، و لاسيما ضمن علوم اللغة في زاوية النهج التداولي الذي يعتبر محطة بحثنا، و للإشارة فقد سبق الحديث عن شذرات من هذا العنصر، و ذلك في قسم "المنشأ و التأصيل للتداولية" من المدخل، و يعتبر ما سيأتي الحديث عنه بمثابة التكملة لما سبق، و ذلك بغية رصف بعض الإضافات التي نراها ضرورية في تشكيل صورة واضحة عن طبيعة العلاقة التي نتحدث عنها، و التي تربط فضاء الفلسفة التحليلية بفضاء التداولية، و بالتالي فإن العنصر الذي نروم النشر فيه يشكل حلقة تواصلية لما سبق من حديث عن المرجعيات الفكرية التي دفعت النهج التداولي إلى الظهور.

2.2.2.1- الفلسفة التحليلية مرجعية فكرية للتداولية:

يشير مسعود صحراوي إلى أن النهج التداولي يرتبط بجملة من الحقول الفلسفية، تدرس هذا الارتباط في شكل علاقات متعددة المسافات الفكرية فيقول: "ليس للدرس التداولي المعاصر مصدر واحد انبثق منه، ولكن تنوعت مصادر استمداده"⁽¹⁾، و لقد انعكس هذا التعدد في المصادر الفكرية إيجابا على النهج التداولي، و تمثل هذا الانعكاس في ثراء المفاهيم التي توصل إليها المهتمون بهذا الحقل المعرفي، إذ تمكنوا من خلال هذه المفاهيم من تفكيك الجملة اللغوية الصادرة عن المتكلم، و ذلك بمتابعة مراحلها التي تقطعها إلى أن تصل إلى السامع، و لقد توسل التداوليون جملة من الآليات التي تسير مع الجملة اللغوية من المرحلة اللسانية إلى أن دخولها ضمن إطار الملفوظية، ثم بلوغ المرحلة النهائية حيث تتخذ لها مفهوما واضحا مستنبطا من مقام معين قيلت فيه، وقدّم المهتمون بالنهج التداولي جهودا معتبرة تمثلت في إدخال العديد من

⁽¹⁾ . مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 17

المفاهيم التي يستعين بها الدارس في تحليله للنص اللغوي⁽¹⁾، ومن بين هذه المفاهيم ما سُمي بنظرية "الأفعال الكلامية"، هذه النظرية تعتبر الأشهر ضمن المفاهيم التداولية، وهي تسيّر كالظل للنهج المتناول، و لم نلقي كتاباً أغفل الحديث عن هذه النظرية في سياق حديثه عن التداولية، و لقد أشار مسعود صحراوي إلى ذلك بقوله: "إن مفهوم الأفعال الكلامية منبثق من مناخ فلسفي عام هو تيار الفلسفة التحليلية، بما احتوته من مناهج وتيارات"⁽²⁾.

يعتبر الحديث عن الفلسفة التحليلية من المسائل التي يطول فيها الكلام، لأن طبيعة هذا النوع من الحقول المعرفية تتميز بتفرعاتها الكثيرة، و تتحدد فلسفة اللغة في أنها تحاول أن تخضع اللغة ذاتها لجملة من المساءلات التي لها علاقة بطبيعتها، و كذا علاقاتها بما ليس له علاقة باللغة أي المظاهر غير اللسانية التي تكمن على سبيل المثال في: الواقع و الحقيقة و الفكر..⁽³⁾، و تتم فصل الفلسفة التحليلية ضمن علاقات متعددة مع حقول معرفية أخرى، ولذلك يجد المطلع على مؤلفات الفلاسفة أن نشرهم لأفكارهم لا ينحصر على جزء واحد من العلوم الإنسانية أو حتى على قسم من هذه العلوم، بل يتعدى ذلك.. و سوف نقرأ في خلال هذا القسم من البحث توضيح هذا الطرح.

تشير فرانسوا أرامينكو إلى أن النشأة الأولى للتداولية مرّت بمراحل ذات أهمية، حتى وصولها إلى مرحلة التقعيد، و تحدد الكاتبة على غرار حديثها عن صعوبة الإمساك بزمام عناصر التداولية فكرةً مركزيةً توافق إلى حد بعيد ما تمّت الإشارة إليه سابقاً من أن من بين أهم منابع الدرس التداولي حقل الفلسفة التحليلية، إذ أشارت إلى أن هذا الحقل المتحدث عنه استقبل ميراثين أولهما: "ميراث لسانيات التلفظ"⁽⁴⁾، أما الثاني فهو مناط حديثنا و يتعلق بـ: "مكتسبات الحركة التحليلية في الفلسفة"⁽⁵⁾، هذه الأخيرة استطاع الدارسون للحقل التداولي استخدام آلياتها و مضامين أفكارها لأجل تسليط الدراسة على جانب كان مهملاً من طرف

(1) اخترنا مصطلح النص اللغوي باعتباره الحقل الذي تشتغل عليه التداولية و هو أعم من النص الأدبي.

(2) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 17 للإشارة أن مبحث الحقول الإجرائية سيعالج مبادئ التداولية و لا سيما الأفعال الكلامية.

(3) ينظر: روبر مارتن، مدخل إلى فهم اللسانيات، تر: عبد القادر المهيري، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 2007/1، ص 114.

(4) ينظر: فرانسواز أرامينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، ص 11.

(5) ن. م. س، ص 11.

الدراسات الفلسفية المنوطة بعلوم اللغة، و يتمثل هذا الجانب في " اللغة العادية" التي تقابلها اللغة العلمية، واهتمام التداولية بهذا النوع من اللغات ليس من قبيل البدع من الأشياء، و لكنه نابع من جوهر المفاهيم التي يتضمنها هذا المنهج، لأن من أهم المنطلقات الفكرية للنهج التداولي هو الفلسفة التحليلية التي تنبعت إلى أهمية الالتفات إلى عنصر اللغة العادية، وبالتالي فإن التداولية:" تتدخل بطريقة منسجمة و مؤرخة في تاريخ فلسفة اللغة و تاريخ الفلسفة عموماً"(1).

تحدث معظم المؤلفات الفلسفية التي تتناول موضوع التاريخ الفلسفي-أي تاريخية الفلسفات الإنسانية- على أن القدماء صبّوا اهتمامهم في هذا الميدان على غير الظاهر من المشاهدات، وهو ما يُصطلح عليه في منظومة الفلسفة و الفكر بالجانب "الميتافيزيقي"(2) أي الجوانب غير الظاهرة من الوجود المادي، ولقد نال هذا الجانب الحظ الأوفر من الخبر و الفكر سواء من السلف الفلسفي اليوناني للغرب أو من الخلف الذين جاؤوا من بعدهم، ولكن التكريس لهذا المبدأ الذي بُنيت عليه أشهر النظريات الفلسفية بدأ يتناقص الاهتمام به شيئاً فشيئاً، و ذلك لأسباب عديدة، من بينها أن التزوع إلى تطبيق المبدأ الميتافيزيقي لم يعطي نتائج ذات أهمية في الميدان العلمي، و بخاصة في ميدان علوم اللغة و الذي تنطوي أسفله البحوث التداولية، و لقد كانت الحملة التي قادها الفلاسفة الغربيون أثناء الانفجار النهضوي في أوروبا، هي الفتيل الذي منح بداية النهاية للاعتقاد الميتافيزيقي في الأشكال الفكرية التي حاول الإنسان تكوينها حول ما تعايُنُه حواسه ولا سيما حاسته الذهنية أي العقل.

ينبغي أن نشير في هذا الصدد إلى أن العنصر الذي هو قيد التناول يعتبر من أشد العناصر التي تسترعي الانتباه في خلال نشر الأفكار ضمنه، و ذلك يعود إلى أهمية العلاقة التي يتغيا توضيحها من خلال تبيين المساحات النظرية التي تلتقي فيها التداولية بالفلسفة التحليلية، إذ تعتبر هذه الأخيرة من بين المصادر الهامة للأطروحات النظرية الخاصة بالنهج التداولي، و سنجد تنفيذ هذه القضية في لاحق البحث حينما نتعرض للمفاهيم التداولية و التي صارت فيما بعد

(1) ن. م. س، ص14

(2) الميتافيزيقا أي علم ما بعد الطبيعة وهي مقالات أرسطو الخاصة بالفلسفة الأولى، ويقول عنها ابن سينا:"إن هذا العلم يبحث عن الوجود المطلق و ينتهي في التفصيل أي حيث تبتدئ منه سائر العلوم فيكون في هذا العلم بيان مبادئ سائر العلوم الجزئية." و إنما سمي هذا العلم بعلم ما بعد الطبيعة لمرتبه في التعليم و إلا فهو متقدم في الوجود و لذلك سمي بالفلسفة الأولى و لا تدرك الحقيقة بالاستدلال و التحليل بل بالحدس المباشر على رأي برغسون، ينظر: جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، ص300-301.

تمثل الآليات التطبيقية التي يلجأ إليها الدارس في خلال تحليله للكلام التخاطبي على اعتبار أن التداولية هي: "التي تُعنى بتحليل عمليات الكلام و الكتابة، ووصف وظائف الأقوال اللغوية وخصائصها خلال إجراءات التواصل بشكل عام"⁽¹⁾.

يشير مسعود صحراوي إلى قضية تعالق الفلسفة التحليلية بالتداولية على أساس مصاحبة هذه الكيان الفلسفي للظهور التسلسلي للمبادئ أو المفاهيم التي تعتمد عليها التداولية، و يعتبر أول مبدأ تداولي المسمى نظرية الأفعال الكلامية النقطة التي تلتقي فيها التداولية بالفلسفة التحليلية على أساس أن هذه الأخيرة هي ينبوع المعرفي لهذا المفهوم⁽²⁾، و يؤكد صحراوي كذلك على أن القضية تستدعي الدراسة نظرا لأهميتها فيقول: "فقد بات ضروريا التعريف بهذا التيار الفلسفي-أي الفلسفة التحليلية- بمختلف اتجاهاته و قضاياها"⁽³⁾، و عليه فإننا نرى من الضروريات القصوى التعرض لهذا العنصر، و محاولة الإحاطة غير المملة به و العمل على تنفيذ عناصره الجزئية.

إن التداولية نهج لغوي يعمل على تتبع المعنى كي تجد له تفسيرات أو تأويلات قريبة من الحقيقة، و يجعل منها هذا الطرح ملتقى الدراسات المختلفة الأدبية و الفلسفية، و هذا شأن المناهج التي تتغيا مسائل المعنى، لأن طبيعة هذا الأخير تحتم على قاصديه نوعا من الصعوبة في التمكن منه و تحصيله، لأنه متداخل في خصائصه، و لقد كان لتمام حسن كلام مفيد في هذا الشأن، إذ بين الاختلاف في وجهات النظر حول دائرة المعنى و الكيفية التي تسعفنا في استخلاصه، و ما خلّص إليه هو أن الحصيلة النهائية للمعنى القريب من الحقيقة هي حاصل ناتج الالتقاء التزامني بين الجزئيات المكونة لدائرة المعنى الثلاث، و هي المدلول الوظيفي النابع من العملية التحليلية، و المدلول المعجمي النابع من استخراج ظاهر النص، و المدلول الاجتماعي أي المستخرج من سياق المقام⁽¹⁾، و إذا سار التحليل للملفوظ اللغوي على هذا النسق التراتبي فإن النتيجة التي سيتوصل إليها البحث تتصف على وجه الحتمية بالبعد التداولي الذي يتابع التعبير اللغوي من لحظة تشكله من المعين اللغوي الجمعي، إلى بلوغه مرحلة القول الكلامي الفردي، لأن التداولية تشكل لحظة بحثها ضمن مرحلة إخراج الحديث، حيث يتم الانتقال كما قال

(1) صلاح فضل، بلاغة الخطاب و علم النص، ص8.

(2) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص17.

(3) ن.م.س، ص17.

محمد علي يونس من:" اللغة إلى الكلام ، ومن الجملة إلى القولة، و من المعنى إلى القصد ، ومن الدلالات و الألفاظ إلى الإشارات"(2).

3.2.2.1-مساهمة فلاسفة التحليل اللغوي و المناطقة في تشكيل مبادئ التداولية:

إذن كلُّ له من المعنى نصيب في النظر والبحث، وكل يراه من زاويته، لذا فلا غرابة أن تولد التداولية التي تنغيا هي الأخرى تتمكن من المعنى نتيجة التأثير بالدراسات الفلسفية والمنطقية، و بذكر هذه الأخيرة يستدرجنا البحث إلى مساهمة أقطاب الفلسفة التحليلية الغربيين و أول هؤلاء غوتلوب فريجه Friedrich Gottlob Frege 1848-1925 الذي كان له الفضل في فتح هذا الباب، إذ أثرت دراساته عن نتائج ذات أهمية ضمن ميدان اللغة، و من بينها تمييزه بين الفكرة و الشيء الذي يقع تحت الفكرة، و أن هناك ترابطا بين الفكرة و المعنى، إذ إن هذا الأخير هو الفكرة التي نعبر عنها باللغة⁽³⁾، وهناك كذلك مساهمة لودفيغ فيتغنشتاين و Ludwig Wittgenstein 1920-1951 الذي برز دوره أكثر في نقل انتباه الدراسات من دائرة اللغة المنطقية ذات الدلالات الواضحة و الدقيقة و المجردة، إلى اللغة العادية⁽⁴⁾ أما الثالث فهو: رودلف كارناب Rudolf Carnap 1891-1970 الذي استطاع تحقيق النقلة النوعية التي تمثلت في اتخاذ المنطق كأساس في التركيب اللغوي، الذي يفضي بدوره إلى التركيب اللساني، و لقد اكتست نظريته إلى اللغة أهمية كبرى انعكست بالإيجاب على الاتجاهات التي تروم تحليل اللغة بشقيها الشكلي و المادي، و تتمثل هذه النظرة في توصله إلى اللغة النظامية و التي تتأسس من فرعين هما: السياق الصوري للكلام و السياق المادي للكلام⁽⁵⁾ و نجد أن هذين السياقين يتلاقيان مع ما تحدث عنه تمام حسن⁽⁶⁾ من أن للألفاظ سياق نصي و سياق مقامي، حيث يتم

(1) تمام حسن، اللغة العربية معناها و مبناها، ص41.

(2) محمد محمد يونس علي، الأصول الأنطولوجية و الاستمولوجية الموجهة لاتجاهات المدارس اللسانية في القرن العشرين، موقع مدونة تخاطب، بتاريخ 22 يونيو 2009.

(3) ياسين خليل، نظرية جوتلوب فريجه المنطقية المنطق و اللغة، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، ع7، أبريل 1964، ص330، ملاحظة: جمع المقالات قاسم جمعة.

(4) جمال حمود، فلسفة اللغة عند لودفيغ فيتغنشتاين، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2009، للاستزادة من إجلاء قضية اهتمام الفيلسوف باللغة العادية ينظر: الفلسفة و نقد اللغة العادية، ص253 و ما بعدها.

(5) جمال حمود، فلسفة اللغة عند لودفيغ فيتغنشتاين، ص286.

(6) تمام حسن، اللغة العربية مبناها و معناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1994، ص41.

تأويل الملفوظ من طرف السامع بناء على التداخل الواقع بين السياقين، و التداولية هي منهج سياقي بالدرجة الأولى، لأنه يدرس اللغة ضمن الاستعمال، و عليه سيكون الحديث عن هؤلاء و عن المسألة المطروحة بالقدر الذي يخدم البحث استمدادا من طروحاتهم النظرية المساهمة في بناء المفاهيم التداولية.

4.2.2.1- غوتلوب فريجه و المنعرج الألسني tournant linguistique :

إن الأسماء المذكورة أعلاه مثلت المنطلقات المضيفة للفلسفة التحليلية، مع العلم أن هناك أسماء أخرى ذات تأثير من نوع آخر كالانجليزي برتراند راسل - Bertrand Russel 1872 الذي أمدت اجتهاداته النظرية في المنطق حقل علم اللغة بوجه عام والتداولية على وجه الخصوص بالكثير من الأفكار، وكذا الأعضاء الذين انضموا إلى حلقة فيينا العلمية في تواريخ متفاوتة، وعليه فإن فترة القرن العشرين التي ينتمي إليها هؤلاء قد أحدثت تغييرا هاما في الثقافة الإنسانية في مستوياتها الحقيقية، و لقد سجل بعض الكتاب هذا الحدث التغييري ومنحه المصطلح الملائم له وهو المنعرج الألسني le tournant linguistique ويعبر هذا المصطلح/المفهوم عن: "التزاوج المنهجي الذي وقع بين اللسانيات و بين فلسفة اللغة"⁽¹⁾ و بالتالي فقد انتقل هذا التغيير في المسار الفكري و الفلسفي إلى المجالات الثقافية الإنسانية، و توسل اللغة لتحقيق هذا الانجاز الذي يُعد إضافة ذات أهمية، و كان لميدان العلوم الإنسانية قسطا وافرا من هذه الإطلالة التغيرية، إذ ظهر النشاط في الإنتاج الفلسفي الذي يعتبر عند الغرب المعين الأساسي للعلوم وللفنون، و انعقد التلاقح و التبادل بين: "الفلسفة القارية ذات الأغلبية الأوروبية و بين الفلسفة التحليلية ذات الأغلبية الأنكلوسكسونية"⁽²⁾، و بالتالي عُدد باب الفلسفة التحليلية تمفصلا هاما ضمن دائرة الأفكار الأنوار les idées phare في القرن العشرين، و لكن البداية كانت قبل ذلك بكثير، و تكاد تجمع الآراء التي أدلت بدلائها في هذه المسألة على أن حلقة فيينا كانت تمثل المعادل الموضوعي التاريخي لهذه الفلسفة⁽³⁾، و السبب في ذلك يعود إلى أن هذه الحلقة

(1) جان غراندن، المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا، تر: عمر مهيبيل، ص9.

(2) كريستيان ديكامب، كرونولوجيا أفكار القرن. تر: حسن أحجيج، موقع مدارات فلسفية، الجمعية الفلسفية المغربية،

الأفكار الفلسفية في القرن العشرين، 2008، ع5، philosophiemaroc.org

(3) Introduction a la pragmatique linguistique, Djilali dalache, O.P.U, Alger, p4 « ... quatre... la sources qui ont abouti a la constitution de cette discipline la pragmalinguistique... la sémiotique logique liée au cercle de vienne... »

كانت تمثل المحل العلمي الذي استقطب الصفوة الفكرية من أوروبا، إذ كانت تمثل مدينة فيينا ملتقى العلوم و الفنون فكانت بمثابة قرطبة العصر الأندلسي لأوروبا، و المعهود آنذاك عن هؤلاء المفكرين و الفلاسفة على مختلف مشاربهم الفكرية متابعتهم للإنتاج الثقافي المتنوع الصادر عن هذه الحلقة العلمية.

يشير مسعود صحراوي إلى أن أول من وضع الحجر الأساس ضمن هرم الفلسفة التحليلية هو الألماني غوتلوب فريجه، و أن العقد الثاني للقرن العشرين كان يمثل المسرح الزمني لظهور هذه الفلسفة⁽¹⁾، و يعبر فريجه في عصره عن العودة القوية لاهتمامات الفلاسفة اليونانيين القدامى، الذين سعوا لتأسيس فلسفة مبنية على أسس علمية بداية من عصر فيتاغورث و أفلاطون وصولاً إلى عصر فريجه مع من أدى معه هذه المهمة أمثال ليبتز و براتراند راسل، و يُعد الفيلسوف فريجه: "بالنسبة للمنطق الرياضي المؤسس الأول، ومثله كمثل أرسطو في المنطق القديم"⁽²⁾، و لقد كانت كتابات هذا الفيلسوف بمثابة الإضافة الأساسية للطرائق التي تهم بتحليل الخطاب اللغوي، و لذلك اكتست: "أهمية كبيرة في التحليل المنطقي و في الفلسفة التحليلية المعاصرة" ⁽³⁾.

4.2.2.1-تداخل منطق المحمولات مع التطبيقات التداولية:

لقد كان اهتمام فريجه الفيلسوف منصبا على تقريب المنطق من المنهج الرياضي، وامتدت أبحاثه إلى دراسة اللغة، إذ يعتبر كتابه **أسس علم الحساب**⁽⁴⁾، من أهم المؤلفات التي وضع فيها آراءه المنطقية و صارت من بعد ذلك منبعاً يأخذ منه دارسو علم اللغة جملة من القضايا التي يستعينون بها في تأسيس تحليلاتهم للكلام عند الإنسان، و لقد تعرض فريجه إلى العديد من القضايا التي تتعلق بدراسة المضامين اللغوية، و من أهم هذه القضايا حديثه عن اسم العلم و الاسم المحمول، و للإشارة فإن من تناول هذه القضية من الفلاسفة القدماء هو أرسطو حيث منحها مصطلحات مميزة كجعله مصطلح القضية مُمَثَّلاً للشكل العام للقول، ويتفرع عن

⁽¹⁾ . ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص18.

⁽²⁾ . ياسين خليل ، نظرية جوتلوب المنطقية، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد، ع7 ، أبريل1964، ص325 .

⁽³⁾ . ن.م.س، ص328.

⁽⁴⁾ . ن.م.س، ص328. صدر الجزء الأول سنة1893، أما الثاني سنة 1903.

هذه القضية جانبان أساسيان: و هما الاسم onoma و الكلمة rhema⁽¹⁾ و ينظر أرسطو إلى القضية⁽²⁾ على أنها تمثل الحكم، و تشكل فيها الكلمة الجزء الثانوي المتغير، أما الجزء الأساسي فيمثله الاسم، وقد لاحظ أرسطو أن الكلمة ترتبط بالاسم لكونها دائما دليلا على ما يقال، لذلك نجد الفرق واضحا بين الجملتين الآتيتين:

- الإنسان يحضر.

- الإنسان الحاضر.

إن المنطق الأرسطي القديم يقضي بوجود ثلاثة حدود لكل قضية مهما كان منبعها ومهما كانت طبيعتها، وتمثل هذه الحدود في: "الموضوع و المحمول و الرابطة"⁽³⁾، ولكن التعديلات التي أدخلت ضمن هذا المنطق من أهل العصر الحديث سطرّت نظريات أخرى، وراح الفلاسفة المنتمون إلى العصر الحديث في عملية بحث عن الطرق التي يتم بها تبسيط القواعد القديمة، و التي توصف بصرامتها المبالغ فيها، إذ نجد أن الحدود الثلاثة للقضية في المنطق تكشف عن عدم استطاعتها للولوج إلى تنفيذ بعض القضايا اللغوية، وبالتالي جاءت النظريات المنطقية الحديثة لتدخل على التي سبقتها بعض التعديلات كي يتسنى لمن يمارس البحث ضمن آليات تطبيق هذه النظريات السبيل إلى إنزال النظري إلى الواقع البحثي الفعلي، ولقد انكب أهل المنطق من العصر الحديث في بداياته من أمثال الفيلسوف المذكور سابقا-فريجه- و غيره من الذين سيأتي ذكرهم في مستقبل العنصر، لقد انكب هؤلاء على تفكيك القضية الحملية و التي مثلت الركن الأساس في المنطوق و المكتوب اللغويين، إذ كانت تشكل أحد الأبحاث اللغوية الهامة عند أرسطو، و لقد كان ظهور هذا المنحى التفكيكي للقضايا الأرسطية نتيجة الاعتقاد الذي فرضته الاجتهادات المنطلقة من الفلسفة التحليلية، و يتمثل هذا الاعتقاد أنه: "ليس تاريخ الفكر الحديث في أسسه المنطقية و الجمالية و المعرفية العامة سوى نقد للمعلم الأول"⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ يشير أرسطو إلى ذلك في كتاب: العبارة في الأورغانون ينظر تفسيراً مضافاً للقضية في: محمد مرسل، منطق المحمولات، دار توبقال للنشر الدار البيضاء المغرب، ط1/ 2003، ص8-9.

⁽²⁾ معنى القضية المناسب للمنطق، و هي القول الذي يصح أن يقال لقائله أنه صادق أو كاذب، الجرجاني، التعريفات، ص148.

⁽³⁾ ينظر: ر.ه. رويتر، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، تر: أحمد عوض، عالم المعرفة، الكويت، 1997، ص133.

⁽⁴⁾ صلاح فضل، بلاغة الخطاب و علم النص، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، 1992، ص41. المعلم الأول هو أرسطو و المعلم الثاني هو الفارابي.

عرفت الساحة الفكرية منذ أن أدرك الإنسان أهمية الكتابة تغيرات كثيرة، نتجت عنها جملة من التبلورات في المفاهيم و الماهيات، و انعكس هذا الأمر على إحداث الكثير من التعديلات و بخاصة في المنطق و علومه، إذ نجد أن أرسطو جمع طرفي القضية في مصطلحين وهما: الموضوع و المحمول، بيد أن الجيل الذي جاء مع الفيلسوف فريجه أدخل التغير الذي يجعل من القضية أقرب إلى الفهم، وبالتالي تم استبدال المصطلح الأول باسم العلم على أساس أن التعدد الذي ينتج عن الكلمات التي تحملها الجملة يطول على حسب المعنى الذي يرومه المتكلم، و مثال ذلك الجملتين الآتيتين:

1- البحري شاعر.

2- البحري أشعر من المتني.

إذا ما أردنا تحديد الموضوع في الجملتين فهو "البحري"، أما المحمول فيختلف في الموضوعين فقد كان في الجملة الأولى واحدي، و صار في الجملة الثانية متعددًا منتميا إلى دائرة جديدة وهي ذات المحمولات الإثنائية، وقد تعدد المحمولات إلى أكثر من ذلك فتصير منتمية إلى الثلاثانية كما في الجملة: توسط عمر عند أحمد لإقراض محمد مائة دينار وهكذا... إن مسألة المحمولات في الفلسفة عامة و في العلوم اللغوية بوجه خاص تتعدد كلما تتبعنا تفاصيلها الجزئية، لذلك سوف لن ننجر وراء هذه التفصيلات لأنها ليست من اختصاص البحث، و ما تم أخذه و ما سيتم أخذه هو ما رأينا أنه يسعف منهجية المعلومات في هذا البحث، وعليه فإننا نخلص من هذا النشر الفكري: أن المنطق الحديث أمدًا مساحة البحث بآليات قادرة على تهينة و تحديد التقنيات التي نجدها ضمن اللغة المستعملة بين المتخاطبين، و هذا ما يجعله يسير نحو الطريق السليم، و بالتالي فقد فتح البحث في اللغة المحمولية - لغة المنطق المحمولى - آفاقا واسعة للغة بشكل عام لأنها: "تتوفر على وسيلة لكتابة الحاميل التي تؤخذ موضوعاتها تحتها: فرادى، أو مثنى مثنى، وثلاث ثلاث، أو رباع رباع أو ما فوق ذلك حتى و إن عجزت اللغة الطبيعية الإتيان بالأمثلة"⁽¹⁾، و يعد هذا الأمر من بين الانجازات التي استفادت منها علوم اللغة، و كان للتداولية حظها من الاستفادة، و ذلك بتكريس هذا المنطق لآلية جديدة في التفريق بين الاسم العلم الذي

⁽¹⁾ محمد مرسل، منطق المحمولات، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء المغرب، ط1، 2003، ص 24، للإشارة فإن المعلومات المتعلقة بالمحمول مأخوذة بتصرف من المؤلف بتصرف ينظر الصفحة المشار إليها و ما بعدها.

لا يستخدم كمحمول، وبين هذا الأخير الذي له دائرته الخاصة، و إذا أردنا التحديد بشكل أكثر وضوحا فإن الفرق بينهما يكمن في الخاصيتين الآتيتين:

أ- أن الوظيفة المركزية التي يتوفر عليها الاسم العلم تتميز بالاستقلالية اللغوية، أي أن الاسم العلم الذي كان عند أرسطو يمثل الموضوع صار يشكل بمفرده معنى خاصا به و مميزا ومفيدا بالتعبير النحوي، أما المحمول فلا يتوفر على هذه الآلية فهو يحتاج إلى من يسعفه في تشكيل البناء الدلالي للفظ، و ذلك يعود بالأساس إلى أن المحمول هو عبارة عن تصور يؤدي وظيفة ثانوية.

ب - أما الاختلاف الثاني فيتمثل في أن الاسم العلم لا يقبل مشاركة ألفاظ التسوير في بناء الصورة اللفظية للكلام اللغوي لأنه مكتفي بنفسه دلاليا، و تقوم هذه الألفاظ بعملية الربط في الكلام، فهي كالشرايين في الجسم تمدّه بالطاقة و الحياة⁽¹⁾، أما المحمول فإنه يقبل هذه المشاركة اللفظية نظرا لاحتياجه لمثل هذه الألفاظ و غيرها، وذلك لإتمام التصور الذي سينتج عنه الفهم الصحيح المنطلق من المتكلم و المتوجه نحو السامع⁽²⁾.

ظلت مسألة المحمولات تشكل قضية ذات انتباه في الميدان اللغوي، و لا سيما مع النماء الذي عرفته التداولية التي شهدت سريان مبادئها في التحليل التركيبي و اللساني للملفوظات، و بالتالي فإن فريجه حاول أن يرسم مساحة نظرية يجمع من خلالها بين مفهومين إجرائيين و هما الإحالة⁽³⁾ و الاقتضاء، وذلك في الإطار الذي ترسمه معالم الفلسفة التحليلية، و لفريجه إضافة هامة في هذا الشأن، إذ نجده ينظر إلى الإحالة على أنها تعبير يتكون من فرعين و هما: التعبير المركزي الذي تعود دلالاته إلى مرجع معين، أما الفرع الثاني فيتمثل في التعبير المحمولي، و لقد أسس الفيلسوف هذا المفهوم انطلاقا من اعتبار مبدأ الفعلية في الملفوظ، ومثال ذلك المثالين الآتين:

- استلقى القط على البساط⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ وهي الألفاظ التي تؤدي دور الروابط في الجملة العربية، و تنضوي دونها الأدوات و الحروف. ينظر: عبد الله الزهراني،

ندوة البلاغة العربية سؤال الهوية و آفاق المنهج، ص376.

⁽²⁾ ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص19.

⁽³⁾ مبارك مبارك، معجم المصطلحات الألسنية، دار الفكر اللبناني، ط1، 1995، ص251.

⁽⁴⁾ ينظر: فرانسواز أرامينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، ص56، المثال مستوحى من الكتاب.

-طارد القطُّ الفأرَ حتى افترسه.

سنجد أن التحديد الفريجي -نسبة إلى فريجه- يذهب إلى تعيين القط و الفأر على أنهما اللذان يشكلان التعبير الموضوعي المركزي، و بتعبير أدق يشكلان البؤرة المقامية من الخطاب⁽¹⁾، أما أحداث الاستلقاء و المطاردة و الافتراس فإنها ترتبط بالتعبير الفرعي الثاني أي المحمولي، ولقد استطاع فريجه كذلك أن يقحم العديد من الإيجابيات في ميدان التحليل اللغوي، و من بينها أنه تمكن من: "الربط بين مفهومين تداوليين هامين ، هما الإحالة référence و الاقتضاء"، على أساس أن أنهما يشكلان عناصر ذات أهمية في التداولية، وبالتالي اعتبر أحد الدارسين لميدان التخاطب أن ثمة فرق بين الإحالة و الإشارة، إذ أن الأولى ترتبط بشرح القول ضمن سياق محدد الأوصاف و مُعَيّن الأجزاء، أما الثانية فتعني: "العلاقة التي تصل بين التعبيرات اللغوية و العالم الخارجي بصرف النظر عن السياق الخاص"⁽²⁾ و بالتالي ترتبط الإحالة بسياق يترع إلى العموم، بينما الإشارة فسياقها يترع إلى الخصوص.

5.2.2.1-لودفيغ فيتغنشتاين و اللغة العادية:

تشكل الحلقة الثانية الأساسية الأخرى مساحة ذات أرضية صلبة و يمثلها في هذا الشأن الفيلسوف لودفيغ فيتغنشتاين Ludwig Wittgenstein 1889-1951 القادم من النمسا، و المنازل عن ميراث والده الكبير لجمعية خيرية، تاركاً دراسة هندسة الطيران لكي يلتحق بجامعة كامبريدج لدراسة الرياضيات والفلسفة مع برتراند رسل، حيث كان يصحب معه القلم و أوراق الكتابة في جيبه عندما لا تسعفه ظروف الكتابة، و لقد كتب فيتغنشتاين أهم الأعمال التي ألّفت في الأسر و أهمها كتاب: "رسالة منطقية فلسفية- (Tractatus Logico-Philosophicus) و قد تمّ نشر هذا المؤلف عام 1921م⁽³⁾، وهي مكونة من 85 صفحة، تناقش سبعة قضايا منطقية، كل قضية من هذه القضايا تُستتبع بملاحظات وهي تؤسس المنظومة الفكرية التي رام هذا الفيلسوف تشكيلها، و لقد كُتبت الرسالة باختصار شديد بحيث لا يمكن تلخيصها أو ضغطها أكثر من ذلك، وقد مرت عليها أكثر من ثمانية عقود و تتميز هذه الرسالة

⁽¹⁾ أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص29.

⁽²⁾ محمد محمد يونس علي، المعنى و ظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2،

2007، ص103.

⁽³⁾ ينظر: عزمي إسلام، لودفيغ فيتغنشتاين، دار المعارف ، مصر، ص35-36.

بصعوبة التمكن من دلالاتها لأن: "الطريقة التي يعرض بها-فيتغنشتين-الأفكار في شكل نتائج نهائية لعمليات فكرية سابقة غير واردة في الرسالة نفسها"⁽¹⁾، وكان فيتغنشتاين يعتبر رسالته جملة حلول كل المشاكل الفلسفية التي صادفت عصره، و التي من بينها ما تعلق من نقاش مرير عن العلاقة الرابطة بين الفلسفة و اللغة و قد فندها بقوله: "الفلسفة كلها نقد للغة"⁽²⁾، و لقد أخذت هذه الرسالة من الدارسين الاهتمام الكبير حيث قدّم صاحبها نظرات جديدة حول اللغة إذ منحها مفهوما جديدا برؤية منقحة، تمثل في الالتفات إلى اللغة العادية بالطرق المنطقية، وينبغي الإشارة في هذا الصدد إلى أن ميل فيتغنشتاين إلى اللغة العادية أحدث سجالاتا فكريا عنيفا لأن القراءات التي أسقطت على رسالة الفيلسوف لم تكن متشابهة في النتائج المحصل عليها و مرد هذا السجل لعاملين: أولهما هو التباين الواضح بين الترجمات التي نقلت الرسالة إلى لغات متعددة⁽³⁾، أما الثاني فيتمثل في الكثافة الدلالية التي اتسمت بها الرسالة المنطقية التي دَوَّنَهَا الفيلسوف في ظروف جد خاصة، وليس أدل على ذلك رفض الفيلسوف للتقديم الذي كتبه راسل في بداية الرسالة على أساس أن راسل أراد اعتماد اللغة المنطقية المجردة و هو ما لم يكن نظيره فيتغنشتاين طامحا إليه⁽⁴⁾، و لقد أبرز الفيلسوف في خلال عرض آراء رسالته الهدف المروم منها و يتمثل في محاولة بلوغ: "الطريقة التي نلمس بها حدود لغتنا و نلتزم بتلك الحدود حتى تنفادى اللامعنى، و اللامعنى ينشأ بسبب أن الفلسفة تحاول أن تقول ما لا يمكن للغة أن تقوله"⁽⁵⁾، و على العموم فإن كتابات فيتغنشتاين قدمت رؤيا مفادها أن اللغة لا ينبغي لها أن تنزع إلى المنطقية المفرطة، بل ينبغي إلباسها الصفة المنطقية أو بتعبير فلسفي دقيق حاول فيتغنشتاين أن يرسم: "الشروط التي ينبغي أن تتوافر في أي جهاز رمزي كي يصبح لغة"⁽⁶⁾، و بالتالي يذهب إلى إقحام فلسفة من نوع آخر ذات تقاسيم جديدة تعيد الأنظار إلى مساحة

⁽¹⁾ .ن.م.س، ص38.

⁽²⁾ . Wittgenstein, tractatus logico philosophicus traduction préambule et notes de

ED Gallimard, 1993; G.G.GRANGER, نقلا عن: جمال حمود، فلسفة اللغة عند لودفيغ فيتغنشتاين،

الدار العربية للعلوم ناشرون ، ط1/ 2009، ص11.

⁽³⁾ . ينظر: عزمي إسلام، لودفيغ فيتغنشتين، دار المعارف ، مصر، ص37 و ما بعدها.

⁽⁴⁾ . جمال حمود، فلسفة اللغة عند فيتغنشتاين، ص245.

⁽⁵⁾ .ن.م.س، ص253.

⁽⁶⁾ .ن.م.س، ص255.

مهمة كانت قد تُركت مهملةً من طرف فلاسفة اللغة، و نقصد بها مساحة اللغة العادية⁽¹⁾، و قد حقق ذلك انطلاقاً من النهج المصطلح عليه بالوضعانية المنطقية⁽²⁾، و يذهب الرأي الذي حاول بثه هذا الفيلسوف إلى أننا يمكننا القول بصحة أشياء في تركيبة هذا العالم، لذلك يمكن أن تتشكل تركيبة لغتنا مظهرة العالم بشيء من البساطة التي تتحدد تقاسيمها في البنيات اللغوية، و عليه تصبح اللغة هي سيدة الموقف في رسم القناة التي تعبّر إلى أذهاننا بغية فتح مساحات الإفهام، راسمة لنا تمثلات عن الأشياء الموجودة في هذا العالم.

لقد ولج الفيلسوف إلى العمق الذي يحدد العلوم الإنسانية، و صارت أبحاثه توضع بمثابة طرق يتخذها الدارسون لأجل الوصول إلى تفنيد اللغة في شكلها: الكلام المكتوب والكلام الشفهي على حد سواء، و نجد إشارة إلى ذلك عند إحدى الكاتبات المهمات بالميدان التداولي و باللغة في جانبها الاستعمالي الذي يضطلع بتفسير المعاني التي تحيط بالألفاظ بالنسبة لمستخدميها و مفسريها، و ذلك في حديثها عن المحاولة التي قام بها هيرمان باريه Herman Perret الذي وضع ما يسمى بالإستراتيجية كالبديل المعرفي لمصطلح القاعدة بالمفهوم العادي للمصطلح، أي ما ينبغي إتباعه للوصول إلى هدف معين، و لقد تناولت دراسة هذا الكاتب إقحام فيلسوف الوضعانية المنطقية الذي شدد على الاهتمام باللغة العادية -مناطق اهتمام التداولية- ضمن بحثه عن الشروط الممكنة للخطاب، و بالتالي توسل من أجل ذلك عملية "التوفيق بين الاعتبار المقصدي و القرار الفيتغنشتايني، و القاضي بأن لا يقبل إلا ما هو عام، و معلم عليه لسانيا"⁽³⁾.

(1) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص20.

(2) نشأت الجماعة رسمياً سنة على يد شليك1929، بجامعة فيينا بالنمسا، و ضمت علماء من تخصصات مختلفة فمنهم الرياضي و منهم الاجتماعي و منهم الفيزيائي، و أشهر المنتمين إليها رودلف كارناب، و كارل بوبر، و كذا لودفيغ فيتغنشتاين الذي كان له التأثير القوي حتى صار كتابه رسالة فلسفية مرجعاً هاماً، و من ما دعت إليه الحلقة النبذ الضريح للميتافيزيقا لأنها خالية المعاني و دعت كذلك إلى الاهتمام باللغة المستعملة، ينظر: الموسوعة الفلسفية الميسرة، تر: فؤاد كامل و آخرون، دار القلم، بيروت، لبنان، ص527-538.

(3) فرانسواز أرامينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، ص77.

6.2.2.1- سيرل امتداد لفيتغنشتين:

مثلت المرحلة التي تمّ من خلالها التدشين الفعلي لبناء المساحة المعرفية الجديدة بين اللغة ومقتضياتها من جهة و الفلسفة من جهة أخرى لحظةً تاريخية هامة، و يعود الفضل في هذا الالتقاء إلى الاهتمام الذي انصب على مسألة الكليات من طرف أهل الفكر الذين عاصروا النهضة العلمية في الغرب أمثال من سبق الحديث عنهم، و نعي بمصطلح الكليات: "الأفكار و الألفاظ و المعاني العامة التي لها مصادقات عديدة"⁽¹⁾، ولقد عملت إشارات الفلاسفة و لا سيما إشارة فيتغنشتاين التي مفادها أن المساحة المعرفية التي ينبغي عدم إهمالها تتمثل في الشق الثاني للغة التي تتحاور بها، و نقصد به شق اللغة العادية، و لقد عرفت الفترة ما بعد الفيلسوف تغيرا في الميدان الفكري الذي انعكس على المفاهيم المتعلقة باللغة، حتى أنتج القرن العشرين فلاسفة أفادوا ممن سبقوهم من المنتمين فكريا لحلقة فيينا، ومن بين هؤلاء جون سيرل الذي أبدع في التنظير في المفاهيم التداولية، و لقد أبدى هذا الكاتب توافقا مع الرأي الذي دونه فيتغنشتاين ضمن الرسالة الفلسفية حول اللغة العادية، فتحدث بهذه الجمل التي مفادها: "اعتقد فيتغنشتاين أن الاندفاع إلى ارتكاب الخطأ الفلسفي يأتي في الدرجة من سوء فهم كيفية عمل اللغة، وكذلك من ميلنا إلى الإفراط في التعميم،..اعتقد أن هذا بعض مصادر الخطأ الفلسفي"⁽²⁾ وبالتالي تُعبر هذه الملاحظة النوعية عن عدم انقطاع التواصل بين السلف و الخلف عند الغربيين، و هذا سيرل يقف كدليل على استتمام ما بدأه سابقه فيتغنشتاين معلنا أنه سيستمر في تبيان الأخطاء التي ارتكبت في خلال الدراسات التي تحدثت عن اللغة العادية بقوله: "سأشير..إلى مصادر جديرة بالرفض أكثر من المصادر التي يقدمها فيتغنشتاين، مصادر من نوع خداع الذات و إرادة القوة"⁽³⁾، و بالتالي يَسرّ هذا على الباحثين السبل التي تجعلهم يضعون أيديهم على مكامن الداء، و للإشارة ينبغي أن نذكر أن تشديد الانتباه على اللغة العادية لم يكن من الصدف العلمية بل له ما يبرره، و نقصد بذلك أن أمثال فيتغنشتاين أسسوا هذا المنحى الجديد

⁽¹⁾ عبد الوهاب جعفر، الفلسفة و اللغة، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، ط2، 2004، ص15. و للإشارة أن الكلّ

اسم مجموع المعنى و لفظه واحد، و في الاصطلاح اسم لجملة مركبة من أجزاء، ينظر: التعريفات، الشريف الجرجاني، دار الفضيلة، تحقيق محمد صديق المنشاوي، 2004، ص156،

⁽²⁾ جون سيرل، العقل و اللغة و المجتمع، تر: سعيد الغانمي، الدار العربية ناشرون، ط2/2006، ص22.

⁽³⁾ ن.م.س، ص22.

في التعامل مع اللغة بناء على تمكنهم من معرفة حقيقة تأسست من تجاوز التحليل الذي مصدره الفلسفة الميتافيزيقية لأن هذه الأخيرة: "تهتم في الأساس بالبحث فيما وراء العالم الظاهري و بالبحث عن الوجود الحقيقي المختفي وراء المظهر"⁽¹⁾ و بالتالي يظهر تركيز الميتافيزيقا على جانب غير الظاهر دون جانب الظاهر، و هو ما يخالف الطريق الذي يرمي إليه النهج العلمي الذي يقر بأن: "العلوم تعتمد على الملاحظة و التجربة"⁽²⁾، هذا الطريق الذي رسمه فلاسفة اللغة العادية، وليس أدل على ذلك ما طرحه أحد الكتاب الدارسين للعلاقة التي تربط اللغة بمسألة الميتافيزيقا، وذلك في إطار محاولته المتمثلة في الحديث عن **ميتافيزيقا اللغة**، و بالتالي أثر هذا الكاتب أن لا يترك الأمر على حاله بدون تقديم التنفيذ له، فقدّم طرحا وافيا حول المسألة ويتلخص هذا الطرح: في أن الميتافيزيقا التقليدية لا تستقيم بإقحام نظرية اللغة إليها على أساس أنها ظاهرة، و ذلك يعود إلى تميز هذه الظاهرة بطابع التغيير، و هذه الميزة ليست من الأمور التي تستسيغها الميتافيزيقا لأن المصطلح الذي أطلق على الحقل المعرفي يتناقض مع شريعة التغيير، و لأن الميتافيزيقا تعني على حد الذين كتبوا عنها: "الفلسفة الأولى، أو العلم الأعلى الذي ينظر في الوجود من حيث هو"⁽³⁾، و لقد تمايزت مفاهيم الوجود من حقبة فلسفية إلى أخرى، و بخاصة حينما طرق الفلاسفة المسلمون هذه القضية انطلاقا من عقيدة التوحيد التي نؤمن بها، و لقد طرحت في هذا المجال مسألة الكليات من الألفاظ اللغوية و كذا الألفاظ الأعراض حيث قصدوا بالأولى التي تحمل سر وجودها فيها و لا يطرأ عليها التغيير، أما الثانية فهي التي تخضع لقانون التغيير⁽⁴⁾، و بالتالي تُشتق الثانية من الأولى و لذلك كانت مساحة الحقل الميتافيزيقي من الأمور المستبعدة عن الحقل الدراسي الذي يشير إلى دراسة اللغة بالشكل الذي عرضه أصحاب الوضعية المنطقية، إذ أبدى هؤلاء التذمر الشديد تجاه ما ترمي إليه الميتافيزيقا، و لقد عدّها أصحاب النظرة المنطقية للدراسة اللغوية على أنها من أمراض اللغة، وهي تاريخ العبارات التي لا معنى لها، و عليه عدّ هذا الفتح الفلسفي المنطلق الذي سيفتح على الباحثين إدراك العالم وما يحتويه، وذلك من أجل فهمه و ليس السيطرة عليه كما كان ينظر البعض منهم، و لقد دخلت

⁽¹⁾ دراسات في الميتافيزيقا، محمد توفيق الضوى، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية، ص 16.

⁽²⁾ محمد توفيق الضوى، دراسات في الميتافيزيقا، ص 22.

⁽³⁾ لطفي عبد البديع، ميتافيزيقا اللغة، دراسات أدبية، الهيئة المصرية للكتاب، مصر العربية، 1997، ص 7.

⁽⁴⁾ ينظر: محمد محمد يونس علي، المعنى و ظلال المعنى أنظمة الدلالة في اللغة العربية، ص 97.

الفلسفة التحليلية إلى عالم جديد من الدراسة العلمية، و أدخلت معها اللغة بمقتضاياتها إلى مناخ معرفي نوعي، حيث صار الاهتمام منصبا على العناصر التي يجب الاهتمام بها، و من بينها وجهة اللغة الإستعمالية أو كما عبّر عنها أهل الاختصاص بمصطلح اللغة العادية، وكل هذا الذي تحقق فهو بفضل جهود الفلاسفة التحليليين أمثال الفيلسوف النمساوي فيتنغنشتاين و كارناب وهوسيرل...

إن تحقق أي مشروع في المجالات العادية للإنسان مقرون بمدى ما أعده هذا الإنسان من أرضية تركز عليها المقومات الأساسية لهذا المشروع، أما و الحالة هذه التي بين أيدينا فإن الأمر يختلف لأن المشروع الذي يواجهه الإنسان النوعي لا بد و أن يكون كذلك المشروع ذاته نوعيا، أي متميزا عن بقية المشاريع الأخرى، وإذا أردنا تنزيل هذا الكلام من صيغته النظرية إلى صيغته التطبيقية فإن المقصود به هو بمثابة التوضيح للعلاقة التي تربط الشكل النوعي للمشروع بالأرضية التي ينبغي أن يؤسس عليها، فالفلسفة التحليلية أمدت علوم اللغة بالكثير من التنظير المتمثل في الآليات التي تستطيع بها أن تحقق الوجود الفعلي لها ضمن الوجود الذي يجمع الموجودات التجريدية كلها كالعادات و الأعراف، و بالتالي لقد أسهم فلاسفة آخرون إلى جانب فيتنغنشتاين في تأسيس المناخ العلمي و الفكري الذي سترعرع فيه التداولية ناهلة من هؤلاء الفلاسفة و من دارسي اللغة بما أنتجوه من نظريات معرفية، و هذا هوسيرل الذي حاول في خلال الاستفاقة الحضارية أن يرسل إبداعاته الفكرية من خلال الحركة العلمية والفكرية التي عرفت نشاطها أوروبا، فقد عُرف هذا الفيلسوف بالظاهريّة *phénomologie*، وقَدّم هوسيرل كتابات متنوعة تصب معظمها في إعادة النظر في الحالة الذي آلت إليها الفلسفة وذلك جراء الانفصام الذي أصابها بسبب هجران الدارسين لها، نقول هذا قياسا على الاهتمام الذي كان آنذاك، فلا نستطيع أن نقيس أشياء حدثت في تلك الحقبة على المخلفات التي استجدت في العصر الذي نعيشه و يعيشنا، إذن هوسيرل أراد أن يغير النظرة التي سادت في تلك الحقبة وأراد أن يشكل النظرة الشمولية التي تتصف بالطاقة التكريسية للوقائع، و لقد شملت هذا النظرة الميدان اللغوي الذي منه تنطلق المحاورات الإنسانية، و التي ستكون نتيجتها إنزال مشروع إعادة الهيكلة للعالم الإنساني، و الذي يُعدُّ بدوره المقصد الأساسي الذي يرومه المهتمون بالفكر الإنساني و لا سيما الفلاسفة، و عليه تلقت اللغة الاستفادة من هذه العملية

التكريسية، وظلّ هوسيرل يتوسل الفلسفة لأجل تحقيق فكرة هامة تتمثل في وجوب كون الفيلسوف: "موظفا للبشرية.. وراعيا لها.." (1)، أي الخادم المطيع و المستمع لها.

إن هوسرل الذي يقف على رأس الفينومينولوجيا (2) كان يروم في بداية القرن العشرين الانتقال من: "الفينومينولوجيا الستاتيكية إلى الفينومينولوجيا التكوينية" (3) حيث سيتسنى له اكتشاف مساحات هامة من المعرفة الإنسانية تتعلق بالتعامل الذي يتعلق بدوره بالتواصل، هذا الأخير كما أسلفنا الذكر هو من الأمور التي صبت التداولية جهودها في سبيل توضيحه، و للإشارة فإن المنهج الفينومولوجي ظهر بعد المنهج الرياضي الذي يعتمد على المنطق، و الذي يعتبر من التكوينات الهامة التي تلقاها هوسرل تعليمًا في لايتزيغ وبرلين وفيينا.

يكاد الطرح الذي جاء به هوسيرل يكون قريبا من الطرح الذي دعا إليه المنطقي والفيزيائي فيتغنشتاين، إذ نجد أن دعوته إلى الالتفات إلى اللغة العادية صارت تسري كذلك في الفلسفة الهوسيرية (4)، وذلك لأن كلا من الفيلسوفين كانت أبحاثهما الفكرية تدعو إلى مراجعة اللغة التي تكتب بها الفلسفة و ليس في الفلسفة في حد ذاتها، على أساس أن الأفكار التي كان يجري التعامل بها كانت قد مرت على مراحل عديدة جعلتها تأخذ صيغتها الأخيرة، بيد أن الإشكالية باقية في الوسيلة المتخذة من الفلاسفة ذواتهم لأجل تسهيل العملية التوصيلية لأفكارهم، وييدي هوسرل في هذا الشأن ملاحظات تقترب كثيرا من حرص فيتغنشتاين على اللغة اليومية التي تحتزن ما نقرر فعله على وجه المشروعية، ومن بين هذه الملاحظات تسميته للفضاء الذي تتموقع فيه اللغة اليومية بـ: "العالم المعيش" (5)، هذا العالم الذي لا نستطيع أن

(1) كريستيان ديكامب، أفكار القرن العشرين، حسن أحجيج، مدارات فلسفية 5، الجمعية الفلسفية المغربية، 2008،

من موقع: <http://philosophiemaroc.org>

(2) هي الفلسفة التي تنسب إلى هوسيرل. إدموند هوسرل Edmund Husserl و هي دراسة وصفية لمجموعة المظاهر، كما تتجلى في الزمان و المكان، و في القاموس ترجمت بالظهورية أي Phénomologie ينظر: موسوعة لالاند، منشورات ، بيروت، لبنان، ج2، ص973.

(3) هوسرل وأزمة الثقافة الأوروبية، إسماعيل المصدق، مدارات فلسفية، العدد1، الجمعية الفلسفية المغربية - جميع الحقوق محفوظة، 2008، موقع: <http://philosophiemaroc.Org>

(4) نسبة إلى هوسيرل. إدموند هوسرل Edmund Husserl

(5) ينظر: هوسرل وأزمة الثقافة الأوروبية، مدارات فلسفية، إسماعيل المصدق، مرجع سابق.

(2) ن.م.س.

نمارس عليه عملية إدراكية عادية، لأن الأشياء الموجودة فيه وجودا حقيقيا دوما ما ننظر إليها من جهة منفردة أو من جهتين أو ثلاث لكن يبقى الأمر يترع إلى الضبابية و عدم الوضوح، و ذلك لأن بقية الجهات لا نستطيع الإحاطة بها حتى و لو حاولنا ذلك، و بالتالي فالأوبة إلى اللغة العادية صارت من الضرورات القصوى، ويذهب هوسيرل إلى أبعد من ذلك حين يحدد العلاقات التي تربط الأشياء بعضها ببعض، و التي نستعملها في تكوين معرفتنا للشيء وإدراكنا له، و بالتالي فإن هذه العلاقة ذات الطابع السببي ليست وليدة المعرفة العلمية بل هي من صميم الأسلوب العام الذي يسود عالم التجربة اليومية التي نمارسها⁽¹⁾، وهكذا يلاحظ القارئ لهذا السطور أن الجزء الهام من الأفكار التي وردت في فلسفة هوسرل تأخذ توقعها في دراسة اللغة اليومية التي تدعو إليها التداولية.. سيطول بنا الحديث إذا استقرأنا هذه الأفكار لذا سيكتفي البحث بهذا القدر المعلوماتي.

يُعدُّ رودلف كارناب حلقة أساسية في فلاسفة اللغة، و سيكون الحديث عنه خاتمة فلاسفة اللغة، و سنحاول أن نسلط عليه فعلا كتابيا يتسم بالتبئير الذي يصب فيما له علاقة ببحثنا، وعليه فإننا نجد تناول هذا الفيلسوف في الكتب التي تعالج مسائل التعالق بين الفلسفة و اللغة متعلقا بإشراكه مع أسماء تركت بصماتها على الدراسات الفلسفية و لها ارتباط بطبيعة الحال بالتداولية، و مثال هذه المصادر الهامة التي تناولت هذه القضية: القاموس الموسوعي للتداولية⁽²⁾ إذ ورد في طيات صفحاته أن الفيلسوف كارناب يعد المشارك الأساسي في تشكيل النظريات التي أسست لمفهوم وماهية التداولية، و قد جاء ذكر اسمه مع اسمين بارزين لا يكاد مؤلف في فلسفة اللغة أن لا يذكرهما وهما الكاتبان الناقدان بيرس و موريس، و قد كان ذلك في سياق الحديث عن النظريات التي ساهمت في إثراء الفروق الهامة التي تتمفصل عندها العلوم الثلاث: علم التركيب syntax و علم الدلالة sémantique وكذا التداوليات pragmatiques، ولقد أنتج هذا الكم من الآراء الفلسفية جملة من التيارات التي اتخذت موضوع اللغة كي تتوسله لمعرفة مساحة الحقيقة التي تختفي وراء الأسلوب التحاوري، و هكذا فإن التحليلات اللغوية التي

⁽²⁾ Jaques Moeschler Anne Reboul, Dictionnaire encyclopédique de pragmatique Edition du Seuil p36. « ..Ces théories sont issues de la tradition néo-positiviste ou logique de l'analyse du langage ...Carnap 1942 ».

قام بها فريجه وراسل وكارناب، على أساس أن هؤلاء يشكلون حلقات متسلسلة لدراسة اللغة ضمن الفلسفة التحليلية، والتي اتخذت العلم التجريبي كنموذج للدراسة، هذه التحليلات اللغوية تريد أن تستبدل التأملات الفلسفية بنوع من الصرامة يكون بمقدورها إقصاء جميع العبارات الخالية من المعنى، و ذلك راجع لجعل كارناب و من ذُكرَ معه من المفكرين أعلاه المقولة الفلسفية و التي مفادها: "إذا كان العلم يفسر الوجود تجريبيا بنظرياته فإن الفلسفة تفسره عقليا"⁽¹⁾، جَعَلُهَا من الركائز الهامة التي يقوم عليه فكره و فكرهم على حد السواء.

أثر فريجه Frege في كارناب Carnap كما أثر من قبله في فيتغنشتاين Wittgenstein حيث تتبع كارناب محاضرات فريجه في الرياضيات والمنطق والفلسفة وفقه اللغة أو الفيلولوجية، و تسنى له قراءة كتابه أسس علم الحساب⁽²⁾، فتعلم منه العناية والوضوح في تحليل المفاهيم والتمييز بين العبارات و التمييز بما اسماء بالمدلول والمسمى، وما سماه بالمعنى والفحوى . كما ينبغي الإشارة أن كارناب قرأ بدوره فريجه، و توصل عبر هذه القراءات إلى أن المعرفة الرياضية التحليلية بالمعنى العام يكمن أساسها في طبيعة المعرفة المنطقية ذاتها، كما تبني تصورا آخر لفريجه يوصف بأنه أكثر دقة وأهمية، وهو أن مهمة المنطق والرياضيات تدخل في إطار علاقتها ببعضها البعض ضمن جملة المكونات المعرفية، والتي تزودنا بصور المفاهيم والأحكام والاستدلالات التي تتخذ شكل القانون العام.

إن البحث و التقصي في مسائل الفلسفة و العلاقات التي تربطها بالحقول المعرفية يؤدي إلى سلوك سبل متشعبة، و لا يكاد البحث الخروج منها إلا بشق الأنفس، و من أجل ذلك حاولنا ممارسة عملية انتقائية على المعلومات التي كنا نلفيها مترامية في الكتب، و ارتأينا أن نختم هذا العنصر بجملة من الاستنتاجات التي توصل إليها المهتمون بالميدان التداولي، و التي تشكلت عبر المراحل الدراسية للفلسفة التحليلية، و تمثلت هذه الاستنتاجات في شكل مطالب واهتمامات تريد الدوائر المعرفية التداولية فتحها ضمن البحث العام في اللغة، والمنتمي للعلوم الإنسانية، و يقف على رأس قائمة هذه الاهتمامات في الصدارة: الضرورة الملحة للتخلي عن التعامل مع أسلوب البحث الفلسفي بشكله القديم، وخصوصا جانبه الميتافيزيقي، هذا الأخير

⁽¹⁾ محمد توفيق الضوى، دراسات في الميتافيزيقا، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية، مصر، 1999، ص22.

⁽²⁾ تمت الإشارة إلى هذا الكتاب ضمن السياق الذي يتحدث عن الفلسفة التحليلية و التداولية ضمن البحث، ص63.

الذي أعلن عليه فلاسفة النهضة حربا دامت طويلا بحجة رأوها هم قوية، و تتمثل في أن الدعوة التي عمل على نشرها و تكريسها المهتمون بمقتضيات و تنظيرات هذا النمط الفلسفي - الفلسفة الميتافيزيقية - تميل أكثر إلى البحث في الأمور الأكثر تجريدا، و بالتالي يصبح البحث اللغوي بذلك تابعا لمساحة تجريدية هو في غنى عنها، على أساس أن الحقل التداولي يدعو إلى ردم الهوة التي أقامتها الفلسفة الميتافيزيقية⁽¹⁾ بين اللغة من جهة و الاستعمالات اللغوية من جهة أخرى، و نذكر في هذا السياق أن الميتافيزيقا قد: "لاقت نقدا شديدا بوصفها علما لا فائدة منه على يد أصحاب التزعة المنطقية و التجريبيين"⁽²⁾، أما الاهتمام الثاني الذي ترومه التداولية من الفلسفة التحليلية يتمثل في محاولة إجراء التغيير على بؤرة التوجه الفلسفي، و محاولة جعله يحقق الإنتقالة الاستمولوجية من موضوع نظرية المعرفة إلى موضوع التحليل اللغوي، الذي يعد من أساسيات الإجراء الاستعمالي للغة، و الذي يعتبر كذلك من أركان التداولية، أما المطلوب الأخير فيتمثل في السعي لإدخال التجديد و العمل على تكريس التعميق في المباحث اللغوية، و نخص بالذكر مبحث الدلالة على الظواهر المتفرعة عنه.

3.2.1- علم النفس المعرفي و تطبيقات التداولية

يدخل هذا العنصر ضمن منظومة منهجية رسمناها بناء على قراءات مختلفة لعدد معتبر من الكتابات النوعية المتناولة للتداولية، وبالتالي ارتأينا أن يكون لعلم النفس بوجه عام و للفرع المعرفي منه بوجه خاص الحظ في هذا البحث المتواضع، و يتمثل الدافع في اتخاذ هذه الخطوة في الإشارات المتكررة ضمن عديد المؤلفات عن الارتباطات المعرفية التي تعقدها التداولية مع الحقول المعرفية الأخرى، و لقد سبق الحديث عن اثنين منها و هما الحقلان الأوليان: اللسانيات

⁽¹⁾ الميتافيزيقا كلمة مؤلفة من شقين ميتا *méta* و فيزيقا *phusika* أي ما بعد الطبيعة، ولا نعني بها تجاوز الطبيعة بل العمل على التعمق فيها، والمقصود أن هناك تساؤلات تتوقف عندها العلوم، بينما الميتافيزيقا تتوفر على الآليات للدخول و سير الجواهر، ينظر: محمد توفيق الضوى، دراسات في الميتافيزيقا، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية، مصر، 1999م، ص 15.

⁽²⁾ ن.م.س، ص 14.

و الفلسفة التحليلية التي أرهقت من قراءها و حاول فهمها، و ها هو ذا العنصر الثالث المتمثل في علم النفس المعرفي الذي يمثل منهلا ذا أهمية كبرى بالنسبة للتداولية، نظرا للآليات المستخدمة من طرف هذا المنهج في تنفيذ الحوارات التي تدور بين بني الإنسان، وعليه فمن بين الإشارات الدراسية التي تحدثت عن علاقة النهج التداولي بعلم النفس المعرفي نجد كتابات مسعود صحراوي العديدة، إذ اعتبر أن علم النفس المعرفي من المناهل المعرفية التي تنهل منها التداولية بعضا من مخزونها النظري، على أساس أن هذا النهج التحليلي يمارس التبادل المفاهيمي المنهج مع هذه المنابع المذكورة أعلاه، و مرد الأمر أن التداولية تشكل المساحة المعرفية الكبيرة التي تضم مفاهيم عديدة يستعملها الباحث في تحليل المواقف الكلامية، و هذه المفاهيم تتعالق بدورها بالحقول المعرفية التي شرحنا بعضا من ارتباطاتها بالنهج التداولي، و تدرج نظرية الملاءمة⁽¹⁾ *théorie de pertinence* ضمن هذا السياق الذي تمثل فيه هذه النظرية همزة وصل بين علم النفس و المنهج التداولي.

إن الحديث عن المساحات الكتابية المتعلقة بالجانب المعرفي يختلف عن الحديث عن غيرها، إذ يتطلب من الذي يقتحم هذا الميدان أن يتحرى خلال مسيرته البحثية جانبا هاما يتمثل في اتخاذ الصرامة المنقطعة في النشر و الشرح، و من مبادئ هذه الصرامة التي تفيد البحث في عملية التحديد النظري أن يتم تبئير مساحة العنصر المراد من البداية، و من مظاهر هذا التبئير التعرض إلى المفاهيم التي تؤدي في البحث دور المعالم *les repaires* أي التوجيه نحو المعلومات، وعليه فإن هذه التعاريف التي اخترناها و سيتم عرضها لاحقا تتعالق نظريا بالمبادئ التي تتوسلها التداولية في تحليل اللغة في جانبها الملفوظي، و لنبدأ بمركز الموضوع علم النفس المعرفي.

1.3.2.1-التعريف بعلم النفس المعرفي:

لقد اهتمّ الكثير من النقاد و الكتاب بعلم النفس بالشكل العام الذي كان عليه حين ظهوره في الكتابات العربية، و منحوه تعريفات من بينها أنه: "علم يدرس ما يصدر عن الإنسان من نشاط ظاهر أو باطن"⁽²⁾، وبالملاحظة البسيطة ندرك من التعريف أن علم النفس

⁽¹⁾ ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص17، سيأتي الحديث عن هذه النظرية بالتفصيل غير الممل في البحث، و ينظر ترجمة المصطلح في: حافظ إسماعيلي علوي، التداوليات علم استعمال اللغة، ص608.

⁽²⁾ أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، در الكتاب العربي للطباعة و النشر، القاهرة، مصر، ط7، 1968، ص9.

ليس دراسة لما يكتنف الداخل الإنساني، و الذي يصطلح عليه بالنفس، بل يتعدى ذلك إلى البعيد من هذا الزعم لأن السلوكيات التي تُصَدَّر من الإنسان تحكمها سنة التعدد و الاختلاف و كذا التغير و عدم الثبات، و تحتل اللغة منزلة معتبرة ضمن سلم أولوياتها، هذه الأخيرة منحيتها التداولية الأهمية الكبرى، إذ أصبحت تتابع كل الأشكال التي يتخذها الجانب اللغوي، و لاسيما ضمن شكله الاستعمالي، و نجد أن علم النفس يتعرض إلى أهم مساحة في السلوك الإنساني وهي مساحة الأفعال التي يحققها الإنسان بالشكل التعبيري، و تتشعب عنها فروع أخرى تتخذ لها طرقا مختلفة، إذ نجد أن التداولية أخذت بالدراسة من هذه المساحة شكلا متميزا من الأفعال و نقصد به العمل القولي، أو ما تَشَكَّل فيما بعد في مصطلح نظرية الأفعال الكلامية⁽¹⁾، وبالتالي فإن الدراسة التي يتعامل بها علماء النفس اتسمت بهذه الميزة و صارت: "دراسة تهتم بما يعمل به الفرد لا بما يشعر به"⁽²⁾، و لقد ركزت هذه الدراسات المنتمية إلى علم النفس أشد ما ركزت على الإخراج التعبيري، و صار الاهتمام بالجوانب اللغوية عند الإنسان عنوان دخولها إلى الساحة العلمية المتسمة بالموضوعية، انطلاقا من أن اللغة تمثل المصدر المهم الذي يطلعنا على المخفيات النفسية لدى الإنسان، و التي يعمل على ترجمتها في شكل أعمال لغوية ضمن الواقع التحاوري، و بالتالي فإن: "الحالات النفسية لا يمكن أن تكون موضوع دراسة علمية إن لم يستطع الشخص أن يعبر عنها تعبيرا خارجيا عن طريق اللغة أو الحركات"⁽³⁾.

2.3.2.1-عوامل التعالق بين علم النفس المعرفي و التداولية:

إن علم النفس يمنح للبيئة التي تمثل المساحة الفعلية للسلوك الإنساني تقسيمين اثنين و هما على التوالي: بيئة فيزيقية اجتماعية و هي البيئة الواقعية المنقولة لنا، أما البيئة الثانية فيشترك فيها الناس كلهم و هي ذات نمط سيكولوجي، أي التي تتفاعل مظاهرها داخل النفس الإنسانية، و هي كذلك البيئة كما يدركها الإنسان و كما تبدو له فييدي هو بدوره استجابة تجاهها، و بالتالي تثير هذه البيئة انتباهنا و نشاطنا⁽⁴⁾، أو بتعبير التنظير اللغوي في التداولية تعمل على تهيئة

⁽¹⁾. ينظر الكلام عن النظرية ضمن التداولية و حقولها الإجرائية من البحث ص 95.

⁽²⁾. أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، مرجع سابق، ص 12.

⁽³⁾. ن.م.س، ص 12.

⁽⁴⁾. ن.م.س: ص 15.

الظروف المكونة للسياق⁽¹⁾، هذا الأخير قيل فيه الكثير و لا يزال يقال فيه، إذ لا نجد مؤلفاً كتب في الدراسات اللغوية الحديثة إلا و تعرّض إلى هذا المصطلح بالشرح، و ذلك يعود إلى ارتباطه بالآليات التي تستعملها هذه العلوم في التوصل إلى المعنى الذي يرومه المتحاورون، و من بين التعاريف النوعية لعنصر السياق و التي لها علاقة وثيقة بالنهج التداولي ما دونته صاحبة كتاب **المقاربة التداولية** إذ عرفته بقولها: "هو الوضعية الملموسة التي توضع و تنطق من خلالها المقاصد التي تخص المكان و الزمان و هوية المتكلمين... و كل ما نحن في حاجة إليه، من أجل فهم و تقويم ما يقال"⁽²⁾، و لقد جعل جاكبسون عنصر السياق ضمن دراساته أول العناصر التي تُكون تشكيلة الطريق الافتراضي الذي يسير عبره الكلام البشري بداية من المرسل و وصولاً إلى المرسل إليه⁽³⁾ و ذلك نظراً لأهميته في العملية التبليغية التي تهتم بها التداولية، إذن لم يغب عن علماء النفس أن يجعلوا من اهتماماتهم التعرض لعنصر السياق الذي تقمص من خلال بحوثهم مصطلحات مختلفة، من بينها البيئة كما سجلها أحمد عزت راجح⁽⁴⁾.

3.3.2.1- مساحات التلاقي بين علم النفس و التداولية:

تتواصل الدراسات ضمن دائرة علم النفس العام من العلماء المتخصصين في ذلك، و يصير لهذا العلم فروع كثيرة يمتد كل واحد منها إلى دوائر معرفية معينة، لا تبتعد كثيراً عن الحياة الاجتماعية التي يمارسها الإنسان بواسطة اللغة التي جعلها الممثل الحقيقي لطموحاته و ارتباطاته لأن: "التحليل النفسي يؤثر على اللغة باعتبارها موصلة للحقيقة"⁽⁵⁾ و تكمن أهميته في: "خلخلته بعض المسلمات، و ذلك بافتراضه أننا ليست سيدة بيتها"⁽⁶⁾، و فروع علم النفس العام عديدة و أهم فرع يهتمُ البحث هو علم النفس المعرفي الذي يلتقي في أكثر من صعيد مع

⁽¹⁾ يدعوه صلاح فضل **العامل الكيفي**، ينظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب و علم النص، ص99.

⁽²⁾ فرانسواز أرامينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، ص9.

⁽³⁾ ينظر: حافظ إسماعيلي علوي، التداوليات علم استعمال اللغة، ص559، و في الصفحة تجد الرسم البياني الذي يمثل العناصر الستة للعملية التبليغية و هي على التوالي: المرسل و المرسل إليه، و السياق، ثم الرسالة، و قناة الاتصال و أخيراً الشفرة.

⁽⁴⁾ أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، مرجع سابق، ص12.

⁽⁵⁾ جان بيلمان نويل التحليل النفسي و الأدب، تر: حسن المودن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1997، ص10.

⁽⁶⁾ حسن المودن، الرواية و التحليل النصي، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2009-1430، ط1، ص13.

النهج التداولي ذي المنحى اللغوي، على أن علم النفس المعرفي يهتم: "بشرح كفاءات التشغيل الواقعي لهذا النظام اللغوي المجرد"⁽¹⁾، و يمكن إرجاع ظهور التعالق بين المجالين المذكورين- التداولية و علم النفس - لعوامل عديدة، نذكر منها الاهتمام المنصب من طرف التداولية على ما يصدر من الإنسان من أقوال، حيث تُعد هذه الأخيرة المرادف الموضوعي للملفوظ الذي يعد بدوره منطلق التحليل ضمن المنهج المتناول، و بالتالي فإن التحليل النفسي الذي يعتبر من المشاريع المساهمة في خلق التعالق بين التداولية و علم النفس يسلط الضوء كذلك على الأقوال المنتمية للغة العادية على اعتبار: "أننا لن نتمكن أبدا من الانفصال عن ما نقوله، و مع ذلك فإننا نرسم هدفا يرمي إلى التوصل إلى حقائق بالحديث عن الإنسان وهو يتحدث"⁽²⁾، أما العامل الثاني المبرر لهذا التعالق فهو الضرورة التي دعت إلى تناول الجانب الاستعمالي من اللغة الذي تركز عليه البحوث التداولية، إذ إن من المعروف أن هذا الجانب يعمل على تفعيل الحيوية و الحركية في عدد معتبر من الآليات النفسية التي ألهمها الخالق تعالى للإنسان، و على رأسها الآلية العقلية التي تتحكم في زمام المبادرات الكلامية التي تصدر من الإنسان على شكل حوارات متعددة المقاصد، و تتحدد على حسب سياقاتها، و بالتالي فإن علم النفس المعرفي يركز اهتمامه كذلك على العناصر التي تغذي العملية الحوارية لأنه: "العلم الذي يهتم بدراسة بنية العمليات العقلية و أنشطة التفكير"⁽³⁾، أما العامل الثالث الذي يُبرر به هذا التعالق فيتمثل في محاولة التداولية الدخول إلى مساحات توصف بأنها مجردة من الإنسان، و المقصود بها تلك العمليات التي تحدث آليا أو بشكل غير آلي داخل النفس الإنسانية قبل ترجمتها إلى أقوال عادية أو إلى أقوال أفعال، و بالتعبير التداولي أفعال كلامية، و بالتالي فعلم النفس المعرفي: "يُعنى بجميع العمليات التي يمارسها الفرد عندما يستقبل المعلومات و يعالجها و يرمزها و يخزنها ثم يسترجعها عند الحاجة"⁽⁴⁾.

⁽¹⁾. صلاح فضل، بلاغة الخطاب و علم النص، ص230.

⁽²⁾ جان بيلمان نويل، التحليل النفسي و الأدب، تر: حسن المودن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 1997، ص10.

⁽³⁾ رافع النصير الزغلول و عماد عبد الرحيم الزغلول، علم النفس المعرفي، دار الشروق للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، ص17.

⁽⁴⁾ ن. م، س، ص 17. للإشارة فإن موضوعات علم النفس المعرفي هي: الإدراك، علوم الدماغ، التعرف على النمط، الانتباه، الذاكرة، تمثيل المعرفة، التخيل أو التصور الذهني، اللغة، النمو المعرفي، وحل المشكلات، الذكاء الإنساني، الذكاء الاصطناعي، أنظر الصفحات: 18، 19، 20، 21، 22، لأجل الإطلاع الشرح الوافي لها.

إن المعلومات التي يتكلف علم النفس المعرفي بتسليط الدراسة عليها، هي ذاتها المعلومات التي يركز عليها البحث التداولي و المتمثلة في وجهات النظر الأكثر عمومية، و التي في استطاعة الفرد أن يعرضها كدعامة لتأدية الفعل الكلامي، بل في هذه الحالة يجب عليه أن يفعل ذلك من أجل ضمان عملية السيرورة المفعلة للكلام الدائر بين طرفي الحوار، على أساس أن هذا الأخير يُعد من المساحات التي تنغيا التداولية الحديثة البحث في مسائلها⁽¹⁾، و يطرح المهتمون بعلم النفس المعرفي مواضيع عديدة، وللبعض منها علاقات مع التداولية، وبالتالي فإن البحث سيحاول التعرض إليها من زاوية جعلها ضمن الوسائل التي سيتم الاستعانة بها في مستقبل البحث، و التي تنغيا من وراءها تحليل المدونة الروائية المشار إليها في العنوان⁽²⁾.

إن من بين المفاهيم التي تناولها علم النفس المعرفي موضوع اللغة، هذا الأخير يُنظر إليه ضمن أطر محددة تحكمها المعارف التي توصل إليها العلماء المهتمون بالبحث عن حدود المعرفة عند الإنسان، و عليه فإن الذي يتغير في اللغة ضمن دائرة علم النفس المعرفي ليس مفهومها العام على أنها تلك المنظومة الفكرية التي تحمل في طياتها الحروف و الكلمات و التعابير و التراكيب التي يتخذها الكائن الحي وسيلة لأجل التواصل الاجتماعي، و لكن الذي يطرأ عليه التغير هو أن علم النفس المعرفي يسلط الدراسة على الكيفية التي يكتسب بها الإنسان هذه اللغة بتراكيبها المختلفة⁽³⁾، و يدفعنا الحديث عن اللغة في هذا الإطار إلى الحديث عن مواضيع أخرى كالإدراك الذي يعتبر الوسيلة الهامة في تصنيف النظرة الإنسانية إلى الأشياء، و التي ينتج عنها ممارسة عملية الاختيار لأحسن السبل الحوارية في التبليغ، و بالتالي فإن الإدراك يدخل في باب التحليل اللغوي الذي يعتبر مناهج بحثنا من زاوية أنه يُعنى: "بكيفية تفسير الإشارات الحسية و يتطلب لدى الفرد أن يكون له كفاية حسية كي تمكنه من استقبال الإشارات من البيئة المحيطة به، علما أن هذه

⁽¹⁾ ينظر: فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار اللاذقية سورية، ط1، 2007، ص22، و في الصفحة شرح للآلية التي يتخذها الخطيب -و هو هنا بمعنى المتكلم- كي يتحسس الاستراتيجيات التي تجهزها السامع كي يتسنى له الرد و التعرف على هذه المساحة من المواضع ضمان لنجاح الفعل الحوارية و بالتالي نجاح كذلك للفعل الكلامي.

⁽²⁾ المقصود بها رواية كتاب الأمير لواسيني الأعرج.

⁽³⁾ رافع النصير الزغلول و عماد عبد الرحيم الزغلول، علم النفس المعرفي، دار الشروق للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، ص21.

الإشارات تتغير بتغير المشهد و تتباين بالأهمية و الموقع"⁽¹⁾ أي بمعنى تتبع السياق الذي سيقع في دائرته الحوار الكلامي بين الطرفين المؤسسين للحوار و هما المرسل و المرسل إليه، علما أن دراسة السياق صارت من الضرورات التي ألزمتها التداولية على المشتغلين بالبحث اللغوي في صورته الحديثة، نظرا للأهمية التي تكتسبها في تحقيق عملية الوصول إلى الحقيقة القولية.

يتطرق علم النفس المعرفي كذلك إلى جانب مهم من الجوانب التي تتشارك في تكوين العملية التواصلية بين المتكلم و المستمع، و يتمثل هذا الجانب في الذكاء، هذا العنصر الذي اتخذه علماء النفس مطيةً للوصول إلى محاولة فهم الآليات التي تتحكم في العملية الكلامية الصادرة من المحاور -بجر الواو- تجاه المحاور، و يعرفه أحد المهتمين بعلم النفس المعرفي بأنه: " قدرة الفرد على التفكير المجرد و التعلم و الاستفادة من الخبرة... و تدل على الذكاء مؤشرات سلوكية كثيرة منها القدرة على فهم اللغة و إتباع التعليمات، و تحويل الوصف اللفظي إلى نشاط سلوكي "⁽²⁾. إن التعريف السابق ذكره يشير إلى ملاحظة ذات أهمية و تتمثل في الجملة الأخيرة منه، و التي مفادها محاولة ترجمة الألفاظ المسموعة من طرف المرسل إليه إلى سلوك فعلي يتم مشاهدته على ساحة الحوار الواقعي، و بالتالي فإن هذا المفهوم يتعلق بصفة مباشرة بمفهوم الأفعال الكلامية الذي يشكل من التداولية ركنا أساسيا، و لقد طرحت ضمن الفترة الأخيرة كتابات ذات صبغة مميزة يتحدث مؤلفوها عن الكيفيات التي ينبغي على الإنسان اتباعها لأجل تنمية قدراته النفسية، و من بين ما طُرح مصطلح الذكاء الكلامي⁽³⁾ الذي يروم من ورائه الفرد اكتساب القدرة على جعل كلامه ذا طبيعة تأثيرية في الآخرين، و يعتبر هذا الشأن من الأهداف التي تتغيا نظرية الأفعال الكلامية تحقيقها، و عليه فإن المتعلقات ذات الصلة الوثيقة بالتداولية و المنطلقة من علم النفس المعرفي كثيرة ومتعددة، و المقام ليس مناسبا لذكرها بالتفصيل، فالذي كنا نرومه هو توضيح مسألة التعالق المعرفي ما بين الحقلين المشار إليهما.

⁽¹⁾ ن. م . س، ص22

⁽²⁾ ن. م . س، ص22.

⁽³⁾ ينظر: توني بوزان، قوة الذكاء الكلامي، مكتبة جرير، الرياض ، المملكة العربية السعودية، 2005، ص3 .

4.2.1- التداولية ثمرة للتعلق بين اللغة و التواصل:

اللغة، هذا المكون العجيب الذي انعقدت بواسطته علاقات مختلفة بين الأفراد على اختلاف مشاربهم، و اتخذ منه الكثير من المهتمين مادة بحوثهم فكانت لمواضيعهم قيمة عملوا على تجسيدها في واقعهم الثقافي، حيث كانت الانطلاقة من أهل التراث ثم تواصلت هذه الحلقة مع الذين أتوا من بعدهم أي المحدثون، ولا غرابة في ذلك لأن اللغة جعلت لأجل هدف سَام سمو قيمة الإنسانية في الإنسان ذاته، و تجسدت هذه القيمة السامية ضمن ما دعي عند المحدثين بالتواصل، هذا المفهوم الذي تردد في الفضاء الورقي للمدونات الإبداعية و الكتب النقدية التي نبعت منها نظريات علوم اللغة، و ينبثق من المسألة ثلاث دلالات معجمية حددها طه عبد الرحمان في كتابه عن علاقة التواصل بالحجاج، أولى هذه الدلالات **الوصل**، و المقصود به هو نقل الخبر مع اعتبار مصدر الخبر الذي هو المتكلم، أما المعنى الثاني فيتمثل في **الإيصال** و هو نقل الخبر مع اعتبار مقصد الخبر الذي هو السامع، و المعنى الثالث يعمق من خلاله الكاتب النقائص التي ظهرت في سابقه، و يتمثل في نقل الخبر مع اعتبار مصدر الخبر الذي هو المتكلم ومقصده الذي هو المستمع معاً⁽¹⁾، وبالتالي صار هذا المعطى المعرفي بفروعه الدلالية الثلاثة يؤسس ما سُمي بالتواصل، و الذي يشكل بدوره المنطلق الأساسي في إعطاء المحددات التعريفية للممارسات اللغوية.

لقد عبّر القرآن الكريم عن هذا الهدف بنصوص واضحة مباشرة تحمل ميزة تعبيرية متصفةً بالتصريح البلاغي المكثف، وليس أدلّ على ذلك تواجد نص قرآني من سورة الحجرات هو قوله عزّ جل: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"² و لقد ورد في تفسير التحرير و التنوير أن الله تعالى انتقل من توضيح واجبات المعاملات إلى ما ينبغي أن يراعيه المرء في نفسه، إذ النداء كان شاملاً - يَا أَيُّهَا النَّاسُ - و ذلك لاجتناب التمييز بين بني البشر، و يعتبر اختيار القرآن للفظه شعوباً التي مفردها شعب موافق للنداء العام، لأن التركيبة الاجتماعية للعرب تنطلق من قمة الهرم التصنيفي و هو الشَّعْبُ بفتح الشين و نعي به مجمع القبائل مثل مضر و ربيعة التي تعود إلى

(1) طه عبد الرحمان، التواصل و الحجاج، جامعة ابن زهر، أكادير، المغرب، 1993، ص5.

(2) الآية 3 من سورة الحجرات.

أمة عدنان من ولد إسماعيل، ثم تلي القبيلة مثل قريش، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ مثل هاشم وأمية، من قصي، ثم الفصيلة مثل أبي طالب و العباس..و التعارف الذي يعتبر علة الجعل الإلهي يحصل طبقةً طبقةً بالتدرج، و بالتالي بيّن النص القرآني أن مراد الله تعالى من خلق البشر هو التواصل و ذلك باتخاذ الكمال الإنساني معيارا للتفاضل و ليس من طرق أخرى، و هذا ما يعنيه قوله تعالى "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ" و لا ينفي بأن لا يكون للناس مكارم أخرى لم تذكرها الآية الكريمة مما من شأنه أن يكون في النفوس مثل حسن التربية و العرافة في العلم والحضارة و حسن السمعة في الأمم بحسب ما خلده التاريخ الصادق للأمم⁽¹⁾، و تشير دلالة التعارف القرآنية إلى جعله ثقافة في المجتمع عن طريق التواصل، والتراحم، والتوادد، وحينئذ يكون ذلك ضماناً لتقويم البناء الاجتماعي، و هذا ما أشار إليه تفسير الصفوة للصابوني كذلك بقوله: "ليحصل بينكم التعارف والتآلف"⁽²⁾، و هكذا تبدو أغلب التفاسير مجتمعة على أن الخطاب القرآني إنما جاء للحث على تكثيف طرق التعارف التي تفضي بدورها إلى التواصل، و من حكمة الله تعالى في خلقه أن جعلنا على صفة القبائل و الشعوب كي يترك لنا الحرية في مد الجسور فيما بيننا، إذن معنى التعارف في الآية الكريمة ليس هو مجرد عقد اللقاءات المتتالية و التي نجني من ورائها فقط التعارف على صيغته البسيطة و السطحية، بل المعنى أبعد من ذلك بل هو أعمق، إذ إن لفظة التعارف مأخوذة من مادة عرف، و من مشتقاتها جاء مصطلح المعرفة الذي صار انشغالا من الانشغالات التي اهتم بها المفكرون و الفلاسفة، و من معاني المعرفة الاعتقاد في الشيء الذي لا يخالطه شك أو ريب، فقول أحدهنا: أعرف أن زيدا موجود في البيت لا يماثل القول: اعتقد أن زيدا موجود في البيت، إذ إن الأول مبني على قرائن خضعت للمشاهدة كأن يرى المتكلم دابة زيد مركونة عند باب بيته، أما القول الثاني فيمكن أن يكون عاريا من القرائن التي تعطيه صفة المعرفية، و لذلك تعتبر المعرفة أقوى علما من الاعتقاد الذي يركز على الظن دون اليقين، و بالتالي: "الاعتقاد يمكن أن يُستنبط من المعرفة و العكس غير صحيح"⁽³⁾، ثم إن التعارف مصدر مبني على وزن **تفاعل**، و من بين المعاني التي يشير إليها هذا الوزن معنى

(1) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، الدار التونسية للنشر، ج 25، 1984 الصفحات: من 258 حتى 263.

(2) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، شركة شهاب، البليدة، الجزائر، د، ت. ج 3، ص 236.

(3) آن روبول جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس و محمد الشيباني، ص 130 .

التشارك في القيام بالفعل المراد إنزاله على أرضية الواقع، و بالتالي يعطي القرآن العظيم لمعنى التعارف امتدادا دلاليا عميقا، إذ ربطه بصيغة الفاعلين المتكلمين، جاعلا من صيغة الفاعل بالإفراد مُضَمَّنَةً في صيغة الجمع، على أساس أن العملية التواصلية تبقى دائما متعلقة بحركية الأفراد في المجتمع التي يتم تفعيلها بتفعيل آليات الاتصال بالكلام اللغوي بين الفئات التي تُكون هذا المجتمع، و تتمثل هذه الحركية بتحديد أكثر عمقا في اللغة بمختلف مستوياتها المعرفية و لا سيما المستوى الاستعمالي منها، و عليه يصير مفهوم التعارف شاملا لمعاني أخرى تتعلق بالمحتوى اللغوي الذي يحرك فضاءات التبادل المعرفي و الثقافي بين بني البشر، و يتصف هذا الفضاء بأنه مفتوح على العديد من الاختلافات التي تُكون محل عمل الأطراف المنتمين إلى المجتمع، حيث تعمل كل الفئات على تكريس هذه الاختلافات في شكل متناغم على أرضية الواقع، و هو مفتوح كذلك على الاختلافات التي تشكل شبكة اهتمامات هذه الأطراف على كل الأصعدة سواء الصعيد الثقافي أو الاجتماعي أو الاقتصادي، ولقد كانت إشارة القرآن الكريم واضحة بكلمة "تعارفوا"، و بالتالي سيكتسب ميدان التواصل أهمية كبرى ضمن النص القرآني الذي خصَّصَ له حيزا لغويا معتبرا من إحدى السور المتواحدة بين دفتيه، ذلك بقصد التشديد على توجيه الإنسان إليه باعتباره حاملا لأداته الفعالة أي منظومة اللغة، و كأن الأمر هو لفت شديد الانتباه للإنسان لأجل أن يجعل من مقاصده بلوغ المعرفة عن طريق الاعتقاد الذي يوافق الطبيعة البشرية الخاضعة للمحاولة، و لأن المتكلمين العاديين: "لهم اعتقادات و ليس لهم معارف" (1).

وإذا عدنا إلى التعاريف الكثيرة التي طرقت ميدان اللغة كمفهوم محدد المعالم، فإن الملاحظ أنها تتناولها من زوايا عديدة في حين أن هذه التحديدات النظرية تترك خلفها زوايا أخرى للغة بدون التطرق إليها، حيث يتردد على ألسنة المهتمين بهذا الميدان تعريف ابن جني الذي يقول فيه أن اللغة: "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" (2)، وعليه تُوجَّهُ القراءة الأولى للتعريف إلى التواجد الضمني لأُمَّارات النهج التواصلية في تعريف ابن جني للغة، حيث

(1) آن رويول جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص131.

(2) بن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان. 33/1.

اعتبرها: "أداة للتواصل اليومي وتجسيدا للتعامل الاجتماعي"¹، و ذلك لأنه عبّر عن المسند إليه في التعريف بصيغة الجمع "القوم" واختار كلمة "غرض" التي تقترب من معنى القصد الذي يريد المتكلم تحقيقه عند السامع، و اللغة عند أهل النظريات الحديثة لم تتخذ مسارا بعيدا عن الذي حدده ابن جني، فقد اعتبرتها النظرية الديسوسيرية نظاما يمثل: "نسقا معيناً مضبوط الحدود وهي الجانب الاجتماعي من الكلام الخارج عن نطاق الفرد، لأن الفرد الأحد غير قادر على أن يخلقها أو أن يحورها، وهي لا توجد إلا بمقتضى نوع من التعاقد بين أعضاء المجموعة البشرية الواحدة"⁽²⁾.

لقد ضبطت التداولية ضمن اللغة السبل التي يتكسر من خلالها الاستعمال الواقعي للحوار، حيث الفضاء المثالي لإيجاد المعاني عند التداوليين، و لذلك نجد قضية استعمال اللغة تتموضع في حيز الاستعمال متجاوزاً حدود الوضع الأصلي، وإن كان يُبنى عليه، وذلك لأن مقاصد المتخاطبين لا يمثلها الوضع اللغوي المجرد فقط، ولا يمكن الوصول إليها إلا من خلال فهم اللغة في سياق الاستعمال المتجدد بتجدد مقاصد المتكلمين، يستند فيه المتخاطبون إلى الوضع اللغوي، ويتجاوزونه تلبية لمقاصدهم وأغراضهم الدلالية، و نجد سوسير يعبر عن هذه المسألة بإعطاء التداولية الصبغة الاجتماعية حيث يتكسر السياق الاستعمالي للغة فيقول عنها أنها: "نتاج اجتماعي لمكلة اللسان، وهي مجموع التقاليد الضرورية التي يتبناها المجتمع ليساعد أفرادها على ممارسة هذه الملكة"⁽³⁾، إذن تتحمل اللغة وظيفة ذات أهمية تتمثل في تكريس التواصل الإنساني، و لقد تبينت هذه المسألة من خلال الدلالات الكامنة في مقولات الدارسين لعلوم اللسان، وبالتالي تصبح اللغة بذلك: "الأداة لتمثيل المعرفة والمعلومة وإبلاغها"⁴، لأن الإنسان متمدن بطبعه، لا يستطيع العيش معزولاً عن غيره، فيحتاج إلى وسيلة لتفعيل الاتصال، و لا يمكن أن تكون هذه الوسيلة إلا اللغة و التي تروم ربط الإنسان المتكلم بالغير أي الآخرين لأنها: "بمثابة الجوهر الذي يمكن للأفكار التي لا يتسنى نقلها مباشرة أن تصبح من خلاله قابلة

(1) عبد السلام عشير، تطور التفكير اللغوي من النحو إلى اللسانيات إلى التواصل، ص 117 .

(2) نور الدين النيفر، فلسفة اللغة واللسانيات، مؤسسة أبو وجدان للطبع والنشر والتوزيع، ط1، 1993، ص 97 .

(3) فريديناند دي سوسير، علم اللغة العام، تر: يوبيل يوسف عزيز، مر: يوسف المطليبي، ص 27.

(4) آن روبول و جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد للتواصل، ص 19.

لتنقل بواسطة الجمل التي تعبر عنها"¹، و بالتالي تتشكل للغة مساحة اصطلاح جديدة تستطيع أن تتوسلها لتقمص دور تأدية الوظيفة⁽²⁾ الاتصالية والتي تعتبر حجر الزاوية في الدراسة التداولية.

لقد ظهر التواصل كفضاء معرفي نتيجة لظروف وملايسات اختلفت مظاهرها من مناخ إلى آخر، ولقد سبق الحديث عنه في القرآن الكريم على أساس استنباط الجوهر من رؤيته لموضوع التواصل، وهذا من باب الحديث عن منشأ التواصل، أما عند الغرب فقد اهتم العلماء بهذا الموضوع كثيرا نظرا للتطور المعرفي الذي عرفته أوروبا -أوروبا تستعمل هنا كرمز يُشار به إلى الغرب- وكان من مظاهر هذا التطور ظهور بدايات الكتابة النقدية في العلوم اللغوية، وقد نال بذلك التواصل حظه من هذه الكتابات، ويشير عبد السلام عشير في هذا المسار إلى أن منشأ التواصل عند الغرب ناتج عن النشاط الذي عرفته الحركة التنقلية للبضائع المختلفة بشتى الوسائل المعروفة، و لقد خضعت هذه العملية لنظام سُمي بـ **الموزع والمنظم**، ويوضح ذات المؤلف أن ذلك حدث: "نتيجة للديناميات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية"³، والتي صارت فيما بعد مشكلةً للأسس التي مثلت بدورها: "المبدأ الذي تأسس عليه فيما بعد منظور تواصل، على اعتبار أنه عامل إدماج في المجتمع الإنساني"⁴.

إن الهدف البعيد الذي ترمي إليه التداولية هو أن تلج إلى مناخ الفعل الكلامي الإنساني في محاولة فهم آلياته المتعددة، وربط هذا الفعل الكلامي الإنساني بمقاماته المختلفة، وقد ارتبطت بهذه العملية الاتصالية الحادثة بين أفراد المجتمع الإنساني مفاهيمٌ عملت على تأسيس الأرضية النظرية التي وضعت عليها أركان هذا النوع من التواصل، أي التواصل بالأفعال اللغوية، و لقد تحدثت فرانسوا أرامينكو عن هذه المفاهيم و عدّها من الآليات الفعالة التي تركز التفاعل

(1) ن.م.س، ص 19 .

(2) حدد جاكسون وظائف اللغة في ست: التعبيرية، و الإفهامية، و الإنتباهية، و المرجعية، و وظيفة ما وراء اللغة، والشعرية، ينظر: التواصل اللساني و الشعرية مقارنة تحليلية لنظرية جاكسون، ص35 و ما بعدها، و نجد آخرين حددوا لها أربعاً: التعبيرية، الإشارية، الوصفية، الحجاجية، أما هاليداي فحدد ثلاثاً: التصورية و التعاملية، و النفسية، ينظر: عبد الهادي الظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص14-15.

(3) عبد السلام عشير، تطور التفكير اللغوي من النحو إلى اللسانيات إلى التواصل، ص99 .

(4) ن.م.س، ص99 .

والتسوية بين طرفي الحوار، وهذه العناصر تتمثل في: "مفهوم الفعل ومفهوم السياق، ومفهوم الإنجاز"¹.

إن الذي يشدُّ انتباهنا أكثر في هذا العرض الكتابي للعناصر الثلاثة، العنصر الأوسط والمتعلق بالسياق أو المقام وتعرفه ذات الكاتبة المشار إليها أعلاه بأنه: "الوضعية الملموسة، والتي توضع وتنطق من خلالها مقاصد، تخص المكان والزمان، وهوية المتكلمين"²، وإذا تمعنا في عنصر السياق و الذي يُعد: "التجسيد للتتابعات اللغوية في شكل الخطاب من وحدات صوتية وصرفية و معجمية، و ما بينها من ترتيب و علاقات تركيبية"⁽³⁾، فإننا لا نلبث أن نجد أركانه المهمة والتي تشكل الأسس التي يقوم عليها، والمتمثلة في المرسل والمرسل إليه. بمبتاتهما الطرفين الفاعلين في العملية التواصلية، أضف إلى ذلك المعرفة التي يتشارك في امتلاكها و التعامل بها طرفا الحوار ضمن الاتصال، كل هذه الأركان التي تُكوِّن مفهوم السياق تتصل علائقيا بموضوع التواصل، وعليه يصير عنصر السياق بهذا ممثلا أداتيا ذا فعالية لمساحة التلاقي بين النهج التداولي كطريقة لتفكيك الخطاب، و بين التواصل باعتباره مادة للبحث.

إن إيراد عنصر "هوية المتكلمين" ضمن التعريف الذي قدمته فرانسواز أرامينكو يعتبر من حسن إدراكٍ للأهمية التي يكتسبها التعارف من خلال تفعيل عملية التمكن من هوية المتكلم، إذ بتحقيق هذا المسلك الإجرائي تَتَقَدُّ جذوة التواصل الذي يمثل مرمى الحجر الذي يصبو إليه دارسوا التداولية، و ذلك انطلاقا من اعتبار الإنسان من: "أكثر الموجودات احتياجا وبالتالي من أكثر الموجودات توابلا، إذ لا يتحقق وجوده إلا بالقول وبالفعل"⁴، ويذهب الكثير من النقاد في تحليلاتهم إلى التفصيل في موضوع التواصل بوصفه كما سبق القول إلى ذلك مناخا هاما للإنسان، يستطيع التعبير عن نفسه وعن غيره من خلاله، وبالتالي يحقق: "بذلك تحررا لذاته، وتحريرا لفكرته مما يساعده على الإبداع والبحث عن كمالاته"⁵، ولكن أيّ المفاهيم التي

(1) فرانسواز أرامينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، ص 07 .

(4) ن.م.س، ص 07.

(3) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص 40، و ينظر الأركان ضمن

الصفحات: 47، 48، 49 .

(4) عبد السلام عشير، تطور التفكير اللغوي من النحو إلى اللسانيات إلى التواصل، ص 102 .

(5) نفس المرجع السابق، ص 102.

نتقصدها من فضاء التواصل؟ هل هو المفهوم العادي المُتعارف عليه؟.. لا يخفى على أيّ باحث في هذا المجال مدى الإشكال الذي يواجهه حين ينشغل بتحديد مدلول مصطلح متعلق ببحثه، و للإشارة فإن المناهج الفلسفية الحديثة التي تهتم بمسائل المصطلح تسخر حبرا كثيفا من أجل الإمساك بعمق المصطلح و: "يشكل -المصطلح- لدى الكثير منها إشكالا محوريا، إن لم نقل البناء الفلسفي ذاته من الوضعية المنطقية، و فلسفة التحليل اللغوي إلى البنيوية إلى التأويلية"⁽¹⁾، و التواصل مصطلح مشتق معجميا من الجذر اللغوي "وصل" أي بلغ الغاية⁽²⁾، و يعتبر "التوصيل" الرديف الاشتقاقي للتواصل ممثلا لأحد المعاني التي يحملها مصطلح البلاغة، و بالتالي فتوصيل المعلومة إلى الطرف الآخر هدف تتغيا الآليات البلاغية تحقيقه، و لا يتم هذا الأمر إلا حينما نتهياً لقراءة: "البلاغة مقاميا فتصبح علما للخطابات كافة من أجل تحقيق التواصل"⁽³⁾، و عليه فمفهوم التواصل يظل خاضعا لما تمليه التحديثات و التنويعات التي تطأ الكلام الذي يتوسله الإنسان لتحقيق الأفعال الاجتماعية⁽⁴⁾.

كلما استدرج الإنسان عقله نحو الاستزادة من القراءة كلما أحدث توسيعا في المساحة اللغوية التي يكتسبها، و توسيعا في المفاهيم التي يتحصل عليها، فتنضاف هذه الأخيرة إلى سابقاتها لتتراكم كلها في الذاكرة الإنسانية المهيكلية فطريا، فيحدث داخل العقل ما يسمى بعملية التلاقح بين اللغة بتعابيرها المختلفة من جهة و بين الأفكار بحمولاتها الدلالية الآتية من اللغة ذاتها من جهة أخرى، وهكذا صار التواصل عند الكثير من النقاد لا يعني الشكل الذي يَتِمُّ بين أطراف الحوار المختلفين، والذي يكون القصد فيه فقط هو تحقيق الفعل التواصلية فحسب، فهذا يعتبر هدفا تتغيا كل اللغات على اختلافها تكريسه، و لكن المفهوم عرف تطورا و تغيرا على أساس السنة التي تتحكم في قوانين الأشياء و المنعكسة على الفضاءات المعرفية التي تغذي المعرفة المفاهيمية للمصطلحات، و صار يعني: "التواصل القصدي"⁽⁵⁾ لا التواصل العادي كما أسلفنا الذكر، و بالتالي عاقد الكلام لا يستطيع أن يحقق التواصل إلا إذا كان قاصدا التوجه

(1) عمر مهيل، إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1/2005، ص15.

(2) الرازي، مختار الصحاح، دار الكتاب العربي بيروت، ط1 / 1967، ص723.

(3) حافظ إسماعيلي علوي، التداوليات علم استعمال اللغة، ص559.

(4) ينظر الحديث عن الأفعال الاجتماعية من هذا البحث ضمن عنصر الحقول الإجرائية للتداولية، ص67.

(5) حافظ إسماعيلي علوي وآخرون، التداوليات علم استعمال اللغة، ص124.

إلى السامع، وهذا الأخير لا يحقق بدوره التواصل إلا إذا كان قاصدا التوجه إلى المتكلم للإصغاء والاستماع، وهذا يجزنا إلى الإشارة إلى النظرية القصدية التي أضافها أحد المهتمين بالتداولية وهو جون سيرل Searle الذي تابع جهود أستاذه أوستين Austin إذ اتخذ معيار القصدية intentionnalité طريقا لرسم الخطوط العريضة للإضافة التي ضمنها نظرية الأفعال الكلامية والمتمثلة في القوى المتضمنة في القول¹.

إذن التواصل الذي ينبغي أن يتعلق بالتداولية وتعلق به التداولية، هو الذي يروم من ورائه المتحاورون القصد المحدد المبني على إستراتيجية تنظيمية للحوار، كي يتفادى المتكلم والسامع على حد سواء السقوط في إفشال عملية التواصل الحوارية، وبالتالي تنطرح في هذا المقام حتمية اتخاذ القصدية⁽²⁾ كسبيل، أو بالأحرى كأرضية تتأسس عليها النتائج المرجوة من عملية التواصل و ذلك ليكون هذا الأمر ضمانا إلى حد بعيد في إنجاح العملية التواصلية مُبعدا عنها أسباب الفشل. إن التواصل جُعل أساسا لضرب أهداف كبرى في المجتمع، لأنه: "مهما تكن مظهراته المجردة، هو في نهاية المطاف يتموضع داخل مجتمع معين"⁽³⁾، ينشد أفراد أهدافا تتمثل في عقد العلاقات الاجتماعية ذات الصبغة الحميمة بينهم، و في خلق نظام تشاركي تضامني يستطيع فيه الأفراد من خلاله عقد التبادلات المختلفة، وبالتالي كل هذه المعطيات، تنغيا بناء فضاء تفاعلي و صناعة جملة من العلاقات الاجتماعية المتميزة، وعليه فالعلوم الإنسانية من فلسفة و انثربولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس وغيرها أخذت بعين الاعتبار هذا الأمر ودرست فيه الهدف الذي تنشده هذه العلوم من وراء ذلك، وهو خلق منظومة فكرية عبر التواصل، يستطيع بها الإنسان نشر ثقافة بناء العلاقات داخل المجتمع، انطلاقا من كون هذا الإنسان هو الفاعل الذي يتحكم في مسألة التغيير في هذا المجتمع، و بالتالي نجاح العمل اللغوي متعلق بمدى إنزال الحوار الكلامي إلى واقع الحياة و ترجمته إلى أفعال، كي يأخذ ميزة العمل التشاركي، و فوق كل هذا النجاح الحقيقي يبقى منوطا بمدى إقحام سبيل القصدية الجمعية

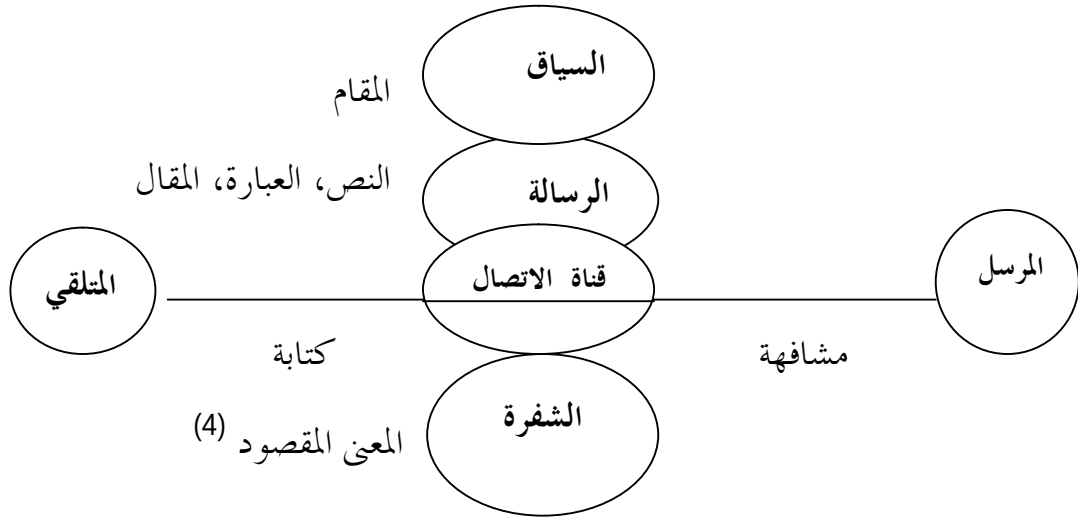
(1) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص23 سيأتي الحديث عن هذه القوى ضمن مبحث الحقول الإجرائية للتداولية في لاحق البحث.

(2) ينظر: مفهوم القصدية ضمن الحديث عن مبدأ التعاون الغرايسي -نسبة إلى غرايس Grice، في عنصر الحقول الإجرائية من البحث، ص 152 و مابعداها.

(3) مارك فيري، فلسفة التواصل، تر: عمر مهيل، الدار العربية للعلوم، ط1، 2006، ص9.

كما دعاها سيرل و هي ذلك:" الكيان العقلي الجمعي، أو روح العالم الهيغلية المطبقة أو نوع من النحن الذي تخلق فوقنا نحن الأفراد على نحو غامض و لسنا كأفراد سوى تعبيرات عنها"⁽¹⁾.

إن التواصل موضوع عام يتخصص حينما يأخذ طريقه إلى العلوم الإنسانية، التي تجعله ذا صبغة إنسانية كذلك، و يستعمل التواصل آليات مجتمعية كي يتسنى له التغلغل في أجزاء هذا المجتمع، و يروم من وراء ذلك : "إيصال رسالة معينة لكل من يهيمه الأمر عبر التراتبية الالسانية المعروفة"⁽²⁾ و التي تتكرس عبر عملية: "تحويل المعلومات من مصدر أول يدعى المرسل عبر رسالة نحو هدف محدد وهو المرسل إليه"⁽³⁾، وبالتالي تضم هذه العملية أطرافا مختلفة كلها تعد أساسية في العملية التواصلية، و لقد عمل ياكبسون على دراستها وجمعها و جعلها في شكل مرتب عبر الخطاطة الآتية التي تبين هذه الأطراف:



⁽¹⁾ عمر مهيبيل، إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2005، ص175.

⁽²⁾ مارك فيري، فلسفة التواصل، تر: عمر مهيبيل، الدار لعربية للعلوم، ط1، 2006، ص9.

⁽³⁾ patrique charaudeau et Dominique maigueneau, Dictionnaire d'analyse du discours, p109,

« la communication humaines comme un processus de transmission entre source émetteur et une personne cible du message récepteur, selon un schéma symétrique autour des notions code, canal, émetteur, récepteur, .. »

⁽⁴⁾ حافظ إسماعيلي علوي و آخرون، التداوليات علم استعمال اللغة، ص559.

لقد ضمت الخطاطة أعلاه ستة عناصر، منطلقها الأول هو " المرسل " Émetteur صاحب الرسالة وصاحب الشأن في تكوين المقصدية المنوطة بها، ثم تنطلق عناصر الرسالة و التي قد تتخذ سبيل الحديث الشفهي أو سبيل الحديث الكتابي، و ذلك في شكل مقال أو نص أدبي الذي يتشكل في صورة المحتوى الرسالي، و بالتالي يأخذ اتجاهه نحو المرسل إليه، الذي يكتسي ذات الأهمية التي يكتسيها الطرف الأول، ولكن لتحقيق هدف الوصول ينبغي على هذه الرسالة المرور عبر منهجية افتراضية مهمة، تتجلى معالمها وسط الرسم التوضيحي أعلاه على استقامة عمودية واحدة، تنطلق من السياق contexte وتنتهي إلى الشفرة code¹، و يشكل التداخل بين هذه الأخيرة مع الاستعمال مادة البحث التي تضطلع بها التداولية⁽²⁾.

إن ما يشكل الجوهر الأساس في الخطاطة السابقة الذكر هو محور اللغة، هذه الأخيرة هي الطاقة التي تبعث الحياة في الكلام بين المتخاطبين المتمين إلى المجتمع الواحد، ويتخذ هذا الكلام شكل الخطاب الذي يعتبر تيار الدارة التواصلية⁽³⁾ المحددة عناصرها في الخطاطة السابقة، و لقد حدد دوسوسير ضمن هذه المسألة مساحات التداخل بين اللغة و الكلام حيث شبه اللغة بالسمفونية التي تحتل مكانا خارج طريقة أداء الجوق لها، و اعتبر فضاء اللسان أعم و هو ذو طبيعة اجتماعية سيكولوجية محضة، ويختص بالاستقلالية عن الفرد، أما الجانب الثاني فهو فرعي ثانوي و يمثل عنصر الكلام و هو ذو طبيعة سايكوفيزياوية⁽⁴⁾ و بالتالي حينما نهّم بوضع الأشياء في أماكنها التي حددت لها، فإننا نقول أن مفهوم اللغة المقصود في هذا السياق أعلاه هو الذي يتم خلال عملية الاستعمال الخاضع للتغيير لا للثبات لأن: " اللغة هي نظام، ولكنها نظام يتغير عندما نستعملها لتتواصل بيننا"⁵، وعليه فإن الاستعمال يكسب التراكم اللغوية المختلفة

⁽¹⁾ ميمز مارتيني بين الأطراف الستة، بينما ياكبسون حدد لهذه الأطراف وظائفها الستة. ينظر التوضيح ضمن: عبد السلام عشير، تطور الفكر اللغوي، ص 45 .

⁽²⁾ ينظر: jacques moeschler et Anne Reboul, Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, Ed du Seuil ; 1994, p26 , ...la pragmatique n'a pas pour objet le code linguistique , mais son usage..cela dit, nous allons voir que les relations entre code et usages sont plus complexes que la séparation entre linguistique et pragmatique ne laisse entendre ».

⁽³⁾ ينظر: الطاهر بومزير، التواصل اللساني و الشعرية مقارنة تحليلية لنظرية التواصل عند جاكبسون، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2007، ص15.

⁽⁴⁾ فردناند دوسوسير، علم اللغة العام، تر: لوئيل يوسف عزيز، ص27.

⁽⁵⁾ عبد السلام عشير، تطور التفكير اللغوي، ص 121.

حركية ذات نوعية خاصة تتصف بالتجريد، و تتحدد معاني هذه التراكيب اللغوية من خلال الاحتكاك المباشر الذي يقع بين اللغة ذاتها وبين السياق. بمختلف أنواعه النصي، أو الوجودي، أو المقامي، أو حتى النفسي⁽¹⁾...

تسعى المقاربة التواصلية إلى تحديد الطريق الذي تسلكه اللغة بين المتخاطبين و تعمل على: "الفصل الواضح بين نظام اللغة الداخلي وبين ما يعود إلى ما هو خارج نظام اللغة"²، وتفيد التداولية كثيرا من التواصلية لأنهما يعملان على حقول الحوار المشتركة، وللعلم أن المقاربة اللسانية لا تفي بالغرض التوضيحي ما لم تلج إلى التحليل المقاربة بالأدوات غير اللسانية، والمقصود بهذه الأخيرة جملة الآليات التي تتوسل طرقا تختلف من حيث الوصف الطرق اللسانية، و تتعدد هذه الآليات بتعدد الأهداف التي يود المتكلم تحقيقها من خلال المخاطب، ومن بين هذه الآليات غير اللسانية السياق الذي يتموضع في دائرة معرفية قريبة من دائرة التفسير والتأويل المتعلقين بالملفوظات، إذ يقول بيير غيرو في هذا الشأن: "إن الغموض الذي يلف العلامة المتعددة الدلالات يزول عندما توضع في سياقها"⁽³⁾ و زوال الغموض معناه التمكن من التفسير القريب للعبارة، و بالتالي إن ثمة التناسق بين الآليات اللسانية و غير اللسانية تظهر بوضوح في تمكن المتلقي من فهم لرسالة المتكلم، وهو ما يقصد به المقاربة التواصلية أو التداولية.

وفي خلال تتبع هذا البحث للمواقع التي تلتقي فيها المقاربة التداولية بالمقاربة التواصلية، قد تمّ ملاحظة أن الاهتمام بعلم اللغة في جانبها الاستعمالي من طرف النقاد و المتعلق بدوره بالتواصل، يمثل التمهيد الحقيقي لظهور أولى مظاهر التداولية، ذلك لأن اللغة في التواصل تركز على: "الربط بين القول والسياق وبين القول والقصد وبين القصد والقول والآثار التي يتركها على ذهن المتلقي"⁴ وكذلك شأن اللغة المُكرس في التداولية لا يكاد يبتعد كثيرا عن هذا

⁽¹⁾ ينظر: تحديد هذه الأنواع ضمن عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار

الكتاب الجديدة، ط1، 2004، ص 42 حتى 44.

⁽²⁾ عبد السلام عشير، تطور التفكير اللغوي، ص 113.

⁽³⁾ علي آيت أوشان، النص و السياق الشعري، دار الثقافة للطباعة و النشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1421/1هـ-

2000م. ص 39.

⁽⁴⁾ عبد السلام عشير، تطور التفكير اللغوي، ص 113.

الاهتمام المتناول في المقولة السابقة، و لقد تناوله الدارسون بشكل أكثر منهجية وأكثر عمقا إذ قدموا تفصيلات معرفية ومنحوا لكل مرحلة من مراحل القول حقها من الدراسة، و منحوها كذلك الاصطلاح الذي تُعرف به في الأوساط الثقافية بوجه عام و البحثية بوجه خاص، و لقد أوردت نظرية الأفعال اللغوية أو الكلامية هذه المراحل التي يَمُرُّ عبرها القول بداية من تعبير المتكلم و وصولا إلى ذهن المخاطب وهذا تصنيفها: " فعل القول أو الفعل اللغوي ACTE LOCUTOIRE، والفعل المتضمن في القول ACTE ILLOCUTOIRE، وأخيرا الفعل الناتج عن القول ACTE PERLOCUTOIRE " ¹.

تقود الملاحظة البسيطة التي يمكن أن نعقدها بين المقولتين السابقتي الذكر إلى اتخاذ المقارنة سبيلا لاستنتاج مساحات التقاطع بين المقاربتين التواصلية والتداولية، على أنه ينبغي أن تضع في الحسبان أن الأولى تبقى هي التي تمثل الشكل العام، والثانية تمثل الجزء الخاص منها، وكأن التواصل فضاء عام اقتنصت منه التداولية مساحة خاصة وعملت عليها، كما اقتنصت العلوم الإنسانية الأخرى كذلك مساحات معرفية معتبرة من نفس الموضوع أي التواصل و بنت عليها بعضا من مطارحاتها النظرية، حيث نجد الإشارة إلى هذه المسألة في قاموس تحليل الخطاب، وذلك في بداية تناوله لموضوع التواصل، فبعد أن وضحت صفحات القاموس الأصل في المصطلح communication ⁽²⁾ تطرقت إلى ذكر بعض العلوم التي اتخذت من التواصل مادة من مواد بحثها، فذكرت الفلسفة، الأنثروبولوجيا، و علم الاجتماع إلى غير ذلك.. ³ كما نجد في الطرف الآخر إشارات إلى أهمية التعالق بين العمل التواصلية والعمل التداولي في الميدان النقدي المتعلق باللغة، فنجد فيلسوف اللغة العادية فيتغنشتاين L.Wittgenstein يشير إلى

⁽¹⁾ Catherine orecchioni ,Les actes de langage dans le discours,. NATHAN, paris, 2001,

p22. « C'est donc dans la huitième conférence de quand dire, c'est faire qu'Austin introduit cette distinction entre trois sortes d'actes :-l'acte locutoire, ou acte de dire quelque chose, -l'acte illocutoire, ou acte effectué en disant quelque chose,- l'acte perlocutoire, ou acte par le fait de dire quelque chose ».

⁽²⁾ التواصل يتلامس بالمصطلحين الفرنسيين communication و continuité ينظر: إشكالية التواصل في

الفلسفة الغربية، عمر مهيل، ص15.

⁽³⁾ patrique charaudeau, Dictionnaire d'analyse du discours, p109. «Mais c'est surtout dans les domaines de la philosophie, de l'anthropologie et de la sociologie que la communication a été traité en ces termes généraux de processus de construction des relations sociales »

ضرورة: "استبدال التواصلية محل التعبيرية"¹، وذلك انطلاقاً من قاعدة مفادها أن للتداولية نظرة خاصة للغة فهي تنظر إليها على أنها: "نشاطاً تواصلياً أساساً" بالإضافة إلى أنها: "ذات أصل وطبيعة اجتماعية"²، وبالتالي ترسم أمام التواصل طريق جديدة ناتجة عن تداخل منهجي بين طرفي المعادلة-أي اللغة و التواصل- وهكذا يصبح التواصل ذا صبغة فعالة كبرى في تكوين العلاقات داخل المجتمع، بل يساهم أكثر بفعالية في تعزيز هذه العلاقات الاجتماعية والمؤسسية بين الفرد والجماعة"³.

يشير الطاهر بومزبر إلى أن تناول الدراسي للغة بات يحمل في ذاته حتمية التجانس بين حقل اللغة وحقل التواصل فيقول: "لا يمكن لدارس الفن اللفظي أن يتناوله خارج منظور تواصلية"⁽⁴⁾، و يرجع ذلك إلى أن ميدان التواصل يمثل الفضاء الحقيقي الذي يتحقق فيه الاستعمال اللغوي، و يعتبر هذا الأخير من المهمات التي تكلفت المقاربة التواصلية الاضطلاع بها، و هي تعمل إلى جانب ذلك على التمييز بين صنفين أو نمطين من القواعد: "القواعد اللغوية في جانبها التركيبي والنحوي والدلالي و الصوتي والقواعد التداولية، و كل القواعد التي تحكم استعمال اللغة في تفاعلها الاجتماعي والثقافي"⁵، وبناء على ما تمّ سرده سابقاً فإن المقاربة التداولية تقترب أكثر من التواصل وذلك لتمثل الطرق التي تتخذها هاتين المقاربتين ، و فيما يلي رسم بياني يمثل المنابع الأربع للدرس التداولي:

ملاحظة: الخطاطة في الورقة الموالية.

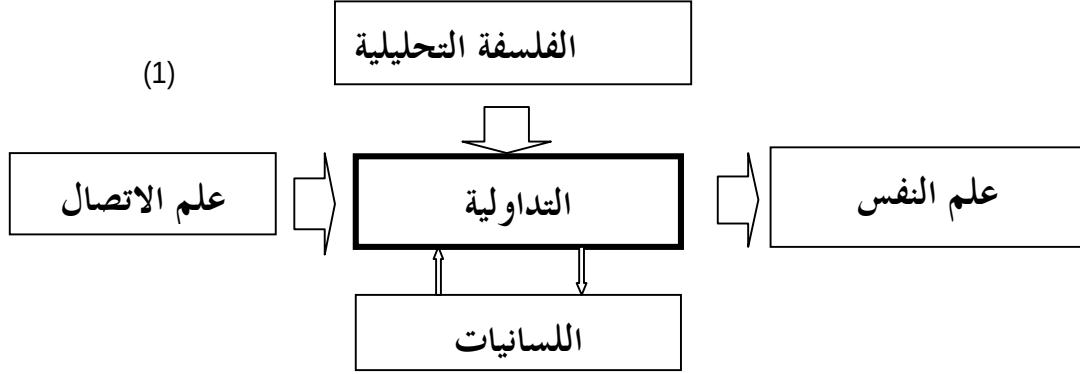
⁽¹⁾ فرانسوا أرامينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، ص 22 .

⁽²⁾ نفس المرجع السابق، ص 26.

⁽³⁾ عبد السلام عشير، تطور التفكير اللغوي، ص 103

⁽⁴⁾ الطاهر بومزبر، التواصل اللساني و الشعرية مقارنة لنظرية رومان ياكسون، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1/1428هـ، 2007م. ص15.

⁽⁵⁾ عبد السلام عشير، تطور التفكير اللغوي، ص 101



يوضح المخطط البياني أعلاه المصادر التي يتبادل المنهج التداولي معها المعارف النظرية، وقد كانت لنا جولات متواضعة مع هذه المنابع المعرفية، و كانت المحطة الأخيرة هي علم النفس المعرفي ضمن هذا العنصر، و هذا لا يعني أن الدرس التداولي يقتصر على الاستمداد المعرفي فقط من الحقول المعرفية المذكورة، بل يظل هذا المنهج اللغوي الحديث مفتوحا على كل الجبهات التي تمنح دلالات أخرى مساعدة لتأويل الملفوظ اللغوي.

تتخذ اللغة من الحقول المعرفية الحديثة مطية لها كي تكون في استطاعتها الإبانة عن ما تريده من دلالات متعددة على وجه الإثراء من وراء الاستعمال الذي يحققه المتكلم، و بالتالي فإن علم النفس المعرفي يحقق هذه المهمة في فرع من فروعها الأساسية، و لقد أطلعنا الأطر النظرية المبسطة أعلاه عن مدى مساهمة هذا الحقل في إثراء العلوم اللغوية بوجه عام و كذا التداولية بوجه خاص، وضمن هذا الإطار نجد إشارة لصالح فضل إلى المسألة بالاختصار المفيد بقوله: "الخطوات التي استطاع علم النفس أن يسهم بشكل مباشر في تنمية البحوث اللغوية و البلاغية هي تلك التي أخذ يحلل فيها آليات التلقي و التذكر... و طرق اكتساب اللغة و تمثيلها معرفيا، و ذلك باستخدام

⁽¹⁾. مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص26.

المعلومات الدقيقة عن مستويات الوعي و طبيعة الأبنية اللغوية الماثلة في اللاشعور... و اكتشاف أدوات الترميز و النقل و التكثيف و دلالات الخطأ"⁽¹⁾.

لقد كان الغرض الأساسي من النشر أعلاه المتعلق بالحقول التي أسهمت في إخراج التداولية إلى الساحة الدراسية هو إيضاح الجوانب الفاعلة في هذا المنهج، و ذلك لأجل مراعاة هذه الجوانب في التحليل الذي سيكون في لاحق البحث.. إن هذه العملية تدخل في إطار تسييج المفاهيم النظرية من جهة، و ترشدنا إلى المساحات المعرفية التي نستطيع أن نلجأ إليها من جهة أخرى، و ذلك في خلال العمل على إنشاء المسالك التطبيقية للنص الواسيني كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد.

⁽¹⁾. صلاح فضل، بلاغة الخطاب و علم النص، ص24.

التداولية

ضمن حقولها الإجرائية

- التداولية ضمن حقولها الإجرائية.
- مبدأ الأفعال الكلامية قرين للتداولية.
- الإشارات من حيث التعريف و التحديد.
- المتضمنات القولية-الاستلزام الحواري. Implication conversationnel.
- أنواع الاستلزمات التداولية.
- مبدأ الاستلزام التحواري بين غرايس و طه عبد الرحمان.
- نظرية الملاءمة.

التداولية ضمن حقولها الإجرائية:

توطئة:

نكاد ننظر إلى أنفسنا و نحن في هذا الإطار من المقاربة النقدية على أننا نضارع ذلك الطالب الباحث الذي جند جهده النفسي و الجسمي لأجل التمكن من السير على الطريق الفكرية كي يجد له المخارج للمسائل التي تعترضه طيلة الرحلة القرائية التي يقطعها في التعب القرائي و الضنى البحثي، و انطلاقا من هذا المنظور فإنه تبدو لنا مسألة التفتيش عن المساحات التي تنزل فيها الإجراءات التطبيقية لأي منهج على أنها تلك الحلقة التي تتميز تارة بالاتصال بالجانب النظري، وتارة أخرى تتمظهر على أنها منفصلة عنه، و يعود السبب في ذلك إلى الطبيعة التي تنحو إليها هذه المساحة الإجرائية فهي ذات طبيعة متغيرة على الدوام، و هذا التغير يعتبر من خصوصياتها، و تتحدد معالم هذه المرحلة أكثر حينما يتم إنزالها على النصوص اللغوية ذات المشارب المتعددة، و بالتالي تتلون هذه الإجراءات التطبيقية بألوان هذه النصوص و بخاصة إذا كانت هذه النصوص ذات سمة أدبية حيث تأخذ اللغة فيها الطرق العديدة التي ترسمها دلالات الألفاظ و التراكيب، و تتوضح خيوط هذه المسألة أكثر في المنهج الذي اقترح به علماء اللغة الجانب الاستعمالي منها على أساس أنه الحيوي، و هو المنهج التداولي، و الذي سنحاول التطرق إلى جملة المفاهيم الإجرائية العامة المتعلقة به.

تُعد مسألة المفاهيم المنتمية إلى الحقل التداولي من المسائل التي فرضت على الباحثين والدارسين على حد سواء الاهتمام بها، وذلك يعود إلى الطبيعة التي تكتسبها و المتمثلة في امتداد علاقاتها بحقول علوم اللغة التي اضطرتها الملبسات الفلسفية و الفكرية إلى أن تتفرع فرعين رئيسيين وهما: الاتجاه الذي يتناول اللغة بالدراسة من داخلها أي محاولة تسليط الدراسة في اللغة ذاتها و من أجل ذاتها⁽¹⁾ و بالتالي يوصف هذا الاتجاه بطبيعته الشكلية الصورية، و يعد ف. دوسوسير المنطلق الفكري الفعلي لهذا الطرح، و يركز أصحاب هذا الاتجاه أكثر ما يركزون على الغوص في الأبنية اللغوية و التي تشكل من الألفاظ و التراكيب مستبعدين بذلك العناصر

⁽¹⁾ ينظر: دوسوسير، علم اللغة العام، تر: يوثيل يوسف عزيز، مر: يوسف المطلي، دار الكتب للطباعة و النشر، بيت الموصل، بغداد، العراق، 1988، ص253.

الخارج لسانية و المتعلقة بالسياق التحواري و المقام الاجتماعي، أين يتكسر من خلالهما فضاء الاستعمال للغة، ونجد اهتمامات أصحاب هذا الاتجاه و أغلبهم من مناصري البنيوية structuralisme منصبةً على اللغة الاصطناعية أي اللغة غير الطبيعية langue artificielle هذه الأخيرة التي تعتمد على تكريس مفهوم التجريد للنص اللغوي le texte abstrait، و نجد كذلك تيارات أخرى حملت نفس النظرة تجاه النص اللغوي مثل النحو التحويلي grammaire générative و نحو التعلق و التبعية⁽¹⁾.

أما الاتجاه الثاني فهو الذي بنى أفكاره الخاصة من فلاسفة اللغة أمثال فريجه و راسل وكذا فيتغنشتاين، و التي تروم أساسا اللغة في الجانب الاستعمالي منها بدون إهمال الجانب اللساني الذي يشكل أرضية اللغة، مراعية بذلك التركيز على عناصر السياق الاجتماعي المتعدد الجوانب⁽²⁾، وينظر هذا التيار إلى النص اللغوي على أنه عنصر أساسي في العملية التأويلية للمعنى، و لا يجعله مناط البداية و النهاية فيها كما فعلت التيارات التي تغلغت في الجانب الشكلي و الصوري للنص اللغوي.

لقد تناولت معظم المؤلفات التي كُتبت في المنهج التداولي المفاهيم الإجرائية العديدة بتعدد الكم المعرفي الذي تحمله، و بتعدد المصادر التي تستقي منها أطرها النظرية، و نجد أن من بين الكتاب الذين تناولوا هذه المفاهيم على سبيل المثال لا الحصر صاحب كتاب **التداولية عند العلماء العرب** الذي يعددها على التوالي: "الفعل الكلامي، القصدي، الاستلزام الحوارية أو المحادثي، متضمنات القول، نظرية الملاءمة"⁽³⁾، و للإشارة فإن القائمة التي تحتوي هذه المفاهيم لاتزال مفتوحة على أساس أن التداولية لها ارتباطات بحقول معرفية عديدة، فنجد مؤلفات أخرى أضافت مبادئ إجرائية غير المشار إليها، مثل محمود أحمد نحلة الذي تحدث عن عنصر آخر يُدعى الإشارات⁽⁴⁾، و بالتالي سنحاول في النشر الكتابي تناول قدر ما استطعنا إليه سبيلا.

⁽¹⁾ ينظر: أحمد محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص57. ينظر كذلك: أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص8.

⁽²⁾ ينظر: أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص8.

⁽³⁾ مسعود صحراوي، التداولية عند العرب، ص30.

⁽⁴⁾ ينظر: أحمد محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، 2002، ص15-16.

3.1- مبدأ الأفعال الكلامية قرين للتداولية:

لا يكاد القارئ المتتبع للمصادر و الكتب التي تناولت بالدراسة المنهج التداولي، يجد في التداول الفكري لهذه المبادئ عدم التعرض لمبدأ الأفعال الكلامية، إذ تعتبر هذه النظرية العنوان اللوغو⁽¹⁾ الذي ألحقه الدارسون بالتداولية، و يمكننا رد المنطلق الأساسي لهذه النظرية إلى الإمكانية التي اكتشفها الفلاسفة الذين ينتمون فكريا إلى الفلسفة التحليلية، و المتمثلة في أننا نستطيع اتخاذ اللغة كوسيلة للتكريس الفعلي لسلوكنا الذي نمارسه في الحياة اليومية، على أساس أن القول الصادر من متكلم ما: " يستخدم ليشير إلى النشاط ذاته أو إلى نتائج هذا النشاط أي الجانب من السلوك اللغوي أو العلامة، التي يمكن تفسيرها و التي أنتجها الجانب السلوكي موضع الملاحظة"⁽²⁾، و لقد كان ظهور هذه النظرية فتحا ذا قيمة معرفية في النصف الثاني من القرن العشرين، و تعتبر المحاضرات التي ألقاها الفيلسوف الانجليزي أوستين John langshaw Austin في جامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية سنة 1955 اللبنة المعرفية الأولى في تشكيل مبدأ الفعل الكلامي ضمن المنهج التداولي⁽³⁾، و قبل الخوض في العناصر التي تشكل بنية هذه النظرية ينبغي أن نشير إلى الأصول التي انطلقت منها، إذ تطرق القاموس الموسوعي للتداولية إلى هذه الأصول، و يبين أن الذي سبق ظهور نظرية الأفعال الكلامية هو الحديث الذي خصّصه الفيلسوف اللغوي ريناخ Reinach ضمن الكتابة عن نظرية الفعل الاجتماعي، هذا الأخير عُد الأصل الذي تشكلت منه فكرة الفعل الكلامي أو اللغوي، إضافة إلى ما ذكر سابقا عن النظرية الأوستينية فإن ريناخ⁽⁴⁾ انطلق بدوره في رسم دراسته للفعل الاجتماعي من

⁽¹⁾ اللوغو بمعنى العنوان الإشهاري الذي يجلب الأنظار إلى المحلة أو الجريدة و ما إلى ذلك ، و قد يكون ضمن حركة السلع الاقتصادية، البحث.

⁽²⁾ جون ليونز، اللغة و علم اللغة، تر: مصطفى التوني، الدار النهضة العربية، القاهرة، ط1، 1987، ص226.

⁽³⁾ ينظر: Dictionnaire d' analyse du discours, p16

و ينظر: آن رويول و جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد للتواصل، ص29 حيث يشير المؤلف إلى أن هذه المحاضرات أُلقيت ضمن برنامج وليام جيمس الذي يعتبر من مؤسسي الفلسفة النفعية .

⁽⁴⁾ ينظر: Catherine Orecchioni, Les actes de langage dans le discours,

Ed.Nthan, 2001, paris, p6. « A. Reinach qui élabore au début de ce siècle une théorie des actes sociaux. »

الأبحاث التي قام بها الفيلسوف الشهير صاحب المذهب الظاهراتي هوسيرل⁽¹⁾ الذي تطرق إلى البحث في ظاهرة الأفعال الفكرية Les actes mentaux، و المقصود بالفعل الاجتماعي هو: "الفعل الذي يتم تطبيقه بالوسيلة اللغوية، وبالتالي نحاول إنزاله إلى الواقع بمجرد إخراجهم كملفوظ، و هذا الأخير يؤدي إلى خلق حقوق و التزامات التي لا يمكنها أن تتعارض مع الواجبات العقلية و الأخلاقية Les obligations Moreaux"⁽²⁾، و لقد ارتبطت نظرية الفعل الاجتماعي أول ما ارتبطت بالحقوق و الواجبات التي يقطعها الإنسان على نفسه، و هذه الأخيرة هي ليست تلك الأشياء التي تدخل في دائرة المحسوس، بل هي أشياء تتصف بأن لها ظهور مؤقت في الواقع الفعلي و ينتهي هذا الظهور بزوال الفاعل الحقيقي لها، و هكذا نجد أن الفعل الكلامي ذاته منطلق من الفرضية التي تجعل من الوعد هو الباعث الحقيقي لهذا الفعل الكلامي ذاته، و الذي يخضع إلى الواقع المرئي، و عليه فإن: "الحقوق و الالتزامات لها مسببات و تتمثل في الأفعال الاجتماعية"⁽³⁾ و تكمن انطلاقة الفعل الاجتماعي أساسا من الأفراد الذين تكون دائرة الوعي لديهم نشيطة، و هكذا ترتسم الطريق التي يمر بها هذا الفعل إلى الوجود الحقيقي و التي توصف بأنها تلقائية و طبيعية Spontanée، و ينبغي فوق كل هذا توفر شرط أساسي و يتمثل في وجود التجربة التي تأخذ في مثل هذه الأحوال مظهرين، الأول خارجي والثاني داخلي و يكوّنان: "وحدة واحدة تضم الفعل Acte و الملفوظ Enonce"⁽⁴⁾.

تشير أوركويوني في هذا الشأن إلى أن مالمينوسكي Bronislaw Malinowski 1942-1884 و هو الباحث في ميدان علاقات اللغة بالأنثروبولوجيا قد أمضى فترة معتبرة في غيانا الجديدة

⁽¹⁾ لقد تمّ التطرق إلى علاقة هوسيرل بالأبحاث التداولية، ينظر العنصر الذي يتحدث عن علاقة التداولية بالفلسفة، ص56 و ما بعدها.

⁽²⁾ ينظر: jacques moeschler et Anne Reboul, Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, Ed du Seuil ; 1994, pp43-44 « l'acte social est un acte qui a pour caractéristique d'être accompli par le langage de et l'on exécute par le simple fait de dire La parole elle-même...Crée des obligation et des droits qui ne se quelque chose. confondent pas avec des droits ou des devoirs moraux »

⁽³⁾ Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, Seuil ; 1994, p44. « ..Les droits et les obligations ont des causes et ces causes, ce sont les actes sociaux »

⁽⁴⁾ Ibid,p45 « L'acte social ne décrit pas cette expérience, mais il a un aspect interne et un aspect externe et constitue une unité qui inclut l'acte et l'énoncé. »

nouvel guinée المستعمرة الفرنسية في دراسة التواصل اللغوي بين القبائل الأصلية التي كانت تسكنها، كان هذا الباحث قد ركز على الفكرة التي مفادها أن اللغة تُحدث أفعالا في الوسط الواقعي الاجتماعي langage action، وبالتالي ينسحب هذا الأمر على الملفوظات التي في إمكانها كذلك أن تحدث أفعالا نوعية بمثابتها طرفا أساسيا من دائرة اللغة، و من بين النتائج الهامة التي توصل إليها أن العبارة في إمكانها إنزال الكثير من الأفعال إلى الواقع الفعلي، و التي كان محلها ضمن قصديتنا التي تروم تحقيقها بشكل جماعي على مدار الحياة اليومية التي نعيشها و تعيشنا في آن واحد، و عليه تصبح بذلك الوظيفة الأساسية للغة هي الإقدام على الفعل Agir بعد المرحلة القولية étape locutoire⁽¹⁾.

لقد انضمت إلى الجهود السابقة الذكر جهود أخرى أدت الدور التمهيدي الذي دفع بالنهج التداولي إلى الظهور، ونذكر إلى جانب مالينوسكي Malinowski غارديني A.H.Gardiner⁽²⁾ الذي تعتبر دراساته بمثابة تطورا للمبادئ التي ساهمت في تأسيس التداولية وبخاصة في الفترة التي عرفت الظهور الحقيقي لتيار جديد سمي بالسلوكية Béhaviorisme⁽³⁾، هذا الأخير استطاع تحويل السلوك إلى مادة خاضعة للدرس objet d'étude و بالتالي أدت هذه الإضافة المعرفية إلى تنمية الاهتمام بدراسة السلوكيات التي تعمل على ترجمتها الآلية اللغوية عند الإنسان، و صار نتاج هذه العملية يدعى فيما بعد في المنظومة المعرفية التداولية بالفعل الكلامي أو اللغوي .

1.3.1- التشكل الفعلي لمبدأ الأفعال الكلامية:

لقد تبين لنا مما سبق أن جملة الأبحاث التي أقيمت من طرف عديد الباحثين ساهمت بقوة في دفع الحركة الكتابية التي تمحورت حول البحث في الاستعمال اللغوي، و التي تكللت بالظهور الفني لنظرية الأفعال الكلامية التي كانت إرهابا لها الأولى المحاضرات التي ألقاها

⁽¹⁾ ينظر Catherine Orecchioni, Les actes de langage dans le discours Ed.Nthan, 2001, p9

⁽²⁾ ينظر: Ibid,p9

⁽³⁾ المصطلح مأخوذ من الأصل اللغوي الأمريكي الإنجليزي behaviourisme و تعني المسلك conduite أو السلوك وتستعمل في الفرنسية behaviorisme ، و تدل على اقتصار علم النفس على درس السلوك أو الاستجابات أي ردود الفعل ، و صار هذا المذهب يشكل عقيدة فلسفية ميتافيزيقية. ينظر: موسوعة لالاند، ج1، مرجع سابق، ص133.

أوستين في بجامعة هارفارد، و شكلت بدورها البنية الأولى التي انبثقت منها نظرية الأفعال الكلامية، و قد استطاع هذا العالم لفت انتباه الدارسين في حقل البحث اللغوي إلى قضايا ذات أهمية إبستمولوجية، و من بينها أن: "اللغة ليست للتواصل فقط بل للتأثير في الآخرين"⁽¹⁾ و من ثم فهي ليست أداة أو وسيلة للتخاطب و التفاهم فحسب، بل وسيلة للتأثير الذي يلحقه التغيير في السلوك الإنساني من خلال المواقف المتعددة التي تصدر عنه، و يحدث هذا التغيير حينما يتخذ الفعل اللغوي الشكل الإنجازي، و مثل هذا الأخير كمثال: "إنجاز الفعل الإداري في إطار تطبيق القرارات الإدارية"⁽²⁾، و لقد ركز أوستين على تعميق الفراغ الذي يفصل مساحة المعطى المحسوس للأشياء و مساحة الإدراك الحسي لها، و ذلك في سبيل التطبيق الحسن لنظرية أفعال الكلام بغية تطوير مجال التفكير الإنساني، و لقد انطلق أوستين من فرضية مفادها أن هناك بعض الجمل تحدث تغييرا في الواقع الفعلي الذي قيلت فيه و بالتالي هناك جمل أخرى لا تقوم إلا بوظيفة الوصف التي تسقطها على الشيء الموجود في الكون، و من الأمثلة التي ضربها أوستين: "أمرك بالصمت"، هذه الأخيرة توجهت من متكلم إلى مخاطب قاصدة تغيير سياق الكلام المتمثل في الضجيج إلى سياق آخر يسوده الصمت و الهدوء، و بالتالي ما يلاحظ على هذا النوع من الجمل هو أن تشكيلتها اللغوية مميزة عن القسم الآخر من الجمل مثل: "القط فوق الحصير أو يتزل المطر"، و عليه فإن الأحكام التي تصدر من الدارس اللغوي تجاه المنطوق اللغوي ستختلف عل حسب النوع الذي تنتمي إليه الجملة أو النص قيد الدراسة، و لقد منح أوستين مصطلحين يناسبان النوعين من الجمل المتحدث عنهما سابقا، أما الأول فدعاه الجمل الإنشائية بقوله: "إني اقترح أن نطلق عليها جملة إنجازه أو عبارة إنشائية أو اختصارا لإنشاء"⁽³⁾ و التي تتكلم بالإخفاق أو بالتوفيق، أما الثاني فدعاه بالجملة الوصفية و التي تتكلم إما بالحكم عليها أنها صادقة أو كاذبة، و لقد تواصلت جهود هذا الفيلسوف اللغوي في تطوير هذه النظرية فراح يقسم الكلام اللغوي الذي تصدر عنه أفعالا ذات آثار مرئية في الواقع إلى أقسام

(1) جون لانجشو أوستين، الأفعال الكلامية، تر: عبد القادر قنبي، نظرية إفريقيا الشرق، 1991، ص 6 .

(2) ن. م. س ، ص 9.

(3) ن. م. س ، ص 17.

لا تزال معتمدة لحد الفترة التي تجمعنا مع كتابة هذه السطور⁽¹⁾ و ذلك يعود إلى الدقة التي اتصفت بها، و هي ثلاثة :

1- العمل القولي Acte Locutoire⁽²⁾: و هو العمل الذي يتحقق ما إن نتلفظ بشيء ما، و يشتمل فعل القول بالضرورة على أفعال لغوية فرعية و تتمثل في المستويات التي تتناولها الدراسة اللغوية للجملة و هي: المستوى الصوتي، و المستوى التركيبي و المستوى الدلالي، بيد أن أوستين يسمي هذه المستويات أفعالا، ففي الفعل الأول أي الصوتي يقوم المتكلم بتأسيس حلقة من الأصوات التي تنتمي إلى لغة خاصة، أما في الفعل الثاني فيقوم ذات المتكلم بتأليف المفردات التي ينبغي أن تناسب القواعد اللغوية المنتمية إليها، أما في الفعل الثالث فإن التوظيف سيكون هو سيد الموقف إذ سيبحث المتكلم عن مناسبة الألفاظ التي ركبها للمعاني التي يريد إيصالها إلى المخاطب.

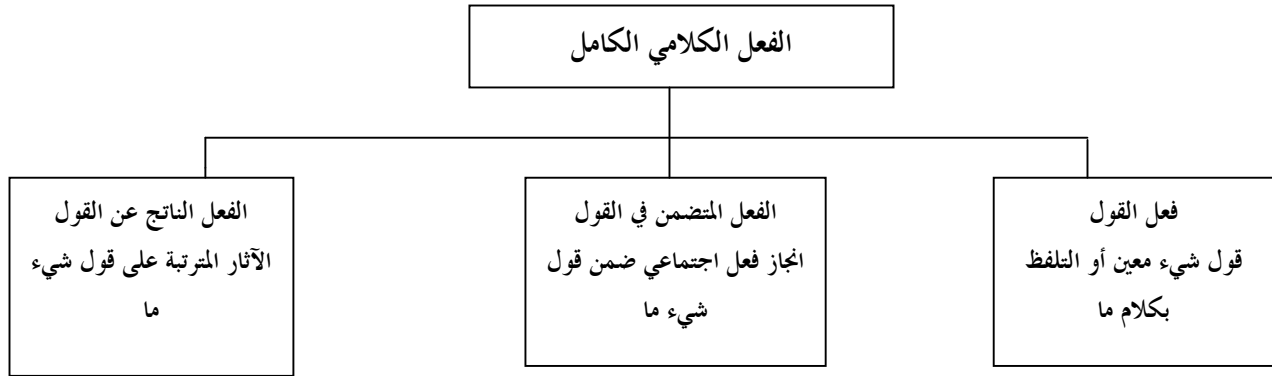
2- العمل اللاقولي Acte Perlocutoire: و يعتبر هذا القسم جوهر الأقسام الثلاثة، إذ أن العمل المراد تحقيقه تتوضح معالمه من خلاله، و قد يتبادر إلى الذهن وجود التماثل بين هذا العمل و سابقه، و الحقيقة أنهما يختلفان في أن الثاني هو القيام بالفعل ضمن القول أما الآخر فهو مجرد التلفظ بالقول فقط، وهو ما يؤديه الفعل اللفظي من معنى إضافي مع معناه الأصلي.

3- عمل التأثير بالقول Acte Illocutoire و هو ذلك الفعل الذي ينتج عن ممارسة القول، ويمثل المرحلة الأخيرة من السياق الإنجازي الذي يتكسر عبر الأفعال اللغوية، ونستطيع

⁽¹⁾ هناك من المجتهدين ممن أتى بعد أوستين من أحدث تغييرات بسيطة على التصنيف كتلميذه جون سيرل، ولكنها حافظت على الأصول التي توصل إليها الفيلسوف، سيأتي المجال للحديث عنها في لاحق البحث.

⁽²⁾ locution هي العبارة، ينظر: التداولية فيليب بلاشيه، من أوستين إلى غوفمان ، تر: صابر الحباشة، ص59 . إن مصطلح illocutionnaires نُجِتَ من اللاتينية In: في ، locution : الخطاب ينظر: فرانسواز أرامينكو، المقاربة التداولية ، تر: سعيد علوش، ص61 ، أما كتاب حافظ إسماعيلي علوي، التداوليات، فإنه يقدم ترجمته كالتالي: فعل الإنجاز: Acte illocutionnaires ، الفعل اللغوي: Acte Locutoire ، فعل التأثير Acte Perlocutoire أما في حالة تحويل هذا الأخير إلى الجمع فإن ترجمته تصير : غايات تأثيرية، ينظر: الكتاب السابق الذكر؟، ص609، و في قاموس تحليل الخطاب نجد أن illocutionnaire أو illocutoires مصطلحان يحملان نفس المعنى و هما ترجمة للمصطلح الإنجليزي illocutionary ينظر Dictionnaire d' analyse du discours, patrique charaudeau et Dominique maingueneau, Ed du Seuil ; 2002, p17

أن نميز مظاهر هذا التحقق من خلال الآثار التي يرومها قول المتكلم مستهدفا إقناع السامع أو إرشاده أو نصحه و ما إلى ذلك من الآثار النفسية، و يمكننا أن ندعوه من خلال المفهوم الذي يحمله الفعل التأثري، و عليه فإن كل هذه المراحل الثلاث المذكورة و التي تمر عبرها الجملة اللغوية يتحدد منطلقها و منتهها من منطلق أن: "الوحدة الدنيا للتواصل ليست هي الجملة.. بل هي استكمال الانجاز لبعض الأفعال" ⁽¹⁾ لأن الجمل تحمل مفهوما يكاد يكون بعيدا عن الجانب الاستعمالي للغة فهي: "كيانات تجريدية مستقلة عن السياق أي أنها لا ترتبط بزمان معين أو مكان معين ، و هي وحدات في النظام اللغوي الذي تنتمي إليه" ⁽²⁾، و لعل هذه الخطاطة تبين بإيجاز المراحل الثلاث للفعل الكلامي:



(3)

و تحسب هذه الجمل على السياق اللغوي le contexte linguistique الذي يشمل الجوانب المتعلقة بالجانب الداخلي للغة و هي السياقات: الصوتي، و الصرفي، و النحوي، والمعجمي الدلالي، و التعبيري الخاص بالنصوص الأدبية بنوعيتها الشعري و النثري، و كذا المبتكر و الأسلوبي ⁽⁴⁾، و لكل من هذه السياقات مفاهيمه و طرق تطبيقه على النصوص، و المجال

⁽¹⁾ فرانسواز أرامينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، ص 60 .

⁽²⁾ جون ليونز، اللغة و علم اللغة، تر: مصطفى التوي، ص 226.

⁽³⁾ مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 34.

⁽⁴⁾ ينظر تعاريف هذه السياقات في: عواطف كنوش المصطفى، الدلالة السياقية عند اللغويين، دار السياب للطباعة و النشر و التوزيع، لندن، ط1، 2007، ص 53 و ما يليها.

لا يسمح بالتعرض لهذه المسائل نظرا لطولها من جهة و نظرا لتعلق التداولية بعناصر السياق الخارج لغوية أكثر من تعلقها بالسياق اللساني، و على ذكر هذه المسألة فالعناصر الخارج لسانية متعددة و منها: الموقف، و العصر، نوع القول و جنسه، و اللغة و اللهجة المستعملة، و المتكلم و المخاطب، المستمع أو القارئ، و العلاقة بين المرسل والمتلقي من حيث الثقافة، الجنس، العمر، الطبقة الاجتماعية... ظروف الجو، إيماءات أو أية إشارات عضوية⁽¹⁾، والسياق ليس مجرد مكان يلقي الكلام فيه، إذ نجد الجزء الأهم منه هو السياق الخارج لساني الذي يعتبر إطارا اجتماعيا ذا عناصر متكاملة أخذ بعضها بحجز البعض الآخر، فهناك الموقف بشموله والذي يحدد ما يضمه السياق الخارجي للغة⁽²⁾.

2.1.3.1- بين تصنيف أوستين و سيرل للأفعال الكلامية:

غادر أوستين الوجود الفعلي للحياة التي كان يروم أن تتمثلها اللغة بألفاظها و تراكيبها و بقي مشروعه الذي بدأه في جامعة هارفارد، حيث كان قد سلّم المهمة العلمية لأحد التلاميذ المتبعين له فكريا و مشاريعيا، و هو الفيلسوف اليافع جون سيرل John Searle الذي أتم البناء النظري المتعلق بنظرية الأفعال الكلامية ضمن المنهج التداولي، و لكن قبل السير في سرد ما أتم تحقيقه سيرل ينبغي أن نتحدث قليلا عن التصنيف الذي اقترحه أوستين و الذي يوصف بالطول و التكرار في ذكر التفاصيل نظرا لممارسته لمهنة التعليم بالجامعة التي تتطلب ذلك، إذ نجد أن الكتب التي تعرضت لهذا التصنيف لم تختلف كثيرا في المنهجية التي اتبعتها في الطرح، و ذلك يعود لسبب واضح و يتمثل في أن المصدر الذي تستقي منه الكتب هذا التصنيف واحدا والمتمثل في المؤلف الذي تركه جون أوستين، و المتمثل في كتاب **الأفعال الكلامية**⁽³⁾، ولقد ضمت القائمة الأوستينية التصنيفية للأفعال الكلامية خمسة أقسام و هي على التوالي:

1- **الأفعال الحكمية: Verdictifs** و هي التي تتأسس على إعلان الأحكام المختلفة و من أمثلة الأفعال المنتمية إلى هذا القسم: وعد ، و قدّر ، و وصف ، أدان، قوم...

⁽¹⁾ ينظر تعاريف هذه السياقات في: عواطف كنوش المصطفى، الدلالة السياقية عند اللغويين، لندن، دار السياب للطباعة والنشر و التوزيع، ط1، 2007، ص76 و ما يليها

⁽²⁾ ينظر: كنوش المصطفى، الدلالة السياقية عند اللغويين، عواطف ص77.

⁽³⁾ جون أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا للنشر، الدار البيضاء، المغرب ، 1991.

2- التمرسية: Exercitifs و تسمى كذلك التنفيذيات، و هي تلك الأفعال التي تقوم بإعلان قرارات لصالح أو ضد سلسلة أفعال أخرى و من بينها: أمر و قاد ، دافع عن ، تأسف، أعلن عن فتح الجلسة في مقام معين...

3- التكليف: Commissifs و تدعى كذلك الوعديات، و يلتزم المتكلم من خلالها بسلسلة من الأفعال المحددة و من بينها: تمنى، أقسم، التزم، عقد، عزم ...

4- العرضية: Expositifs و هي التي تختص بالعمليات المتعلقة بالشرح و بسط الأفكار والإيضاح و ما إلى ذلك، و من أمثلتها: أجاب، اعترض، أصلح...

5- السلوكيات: Comportementaux و هي تلك الردود الصادرة كأفعال تجاه المعاملات التي تصدر عن الآخرين، و من أمثلتها: اعتذر، شكر، هنا، احتج⁽¹⁾...

في التصنيف أعلاه قد يظهر بعض التداخل بين القسم الأول أي الحكميات و القسم الثاني أي التنفيذيات، و نستطيع بالملاحظة البسيطة تمييز الفرق بينهما، إذ يكمن في أن الأخير يحتوي على أعمال تنفيذ الأحكام و ليست بأي حال من الأحوال هي ذاتها مضامين هذه الأحكام، ويبقى القسم الأول حاملا للمضمون الكلامي و الذي اصطلح عليه بالمضمون القضوي le contenu propositionnel⁽²⁾.

غادر أوستين الحدث المعرفي و غادر العالم الحقيقي برمته سنة 1960، و اهتم التلاميذ الذين نهلوا من المحاضرات التي ألقاها بجامعة هارفارد بجمع دروسه و ترتيبها و تنقيحها وإخراجها في كتاب، و ذلك بعد سنتين من الوفاة، و قد اختار لها من جمعها عنوانا باللغة

⁽¹⁾ ينظر: فرانسواز أرامينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، ص62، وفيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان ، تر: صابر الحباشة ، مصدران سابقان، ص62.

⁽²⁾ المحتوى يتعالق في غالب الأحيان مع طبيعة العلاقة التي يربطها المتكلم مع المستقبل للملفوظ le récipiendaire وهذا يحدث في ميدان التحليل الذي يقع على الملفوظات بشكل عام و هو مناط حديثنا، و قد تحدثت بهذا الطرح مدرسة بالو ألتو، « le terme contenu dans l'école palo-alto est, Couramment oppose a relation » المقصود بالتعالق الطريقة التي يسلكها الملفوظ من أجل الوصول إلى الهدف و بالتالي فإن القدر المعلوماتي الصادر من المتكلم هو المحتوى. ينظر: Dictionnaire d'analyse du discours ; p134, «on distingue dans une énonciation l'information transmise dite contenu et la relation qu'institue l'énonciation entre les actants..la relation peut s'exprimer de manière verbal ou no verbal »

الانجليزية و هو: HOW TO DO THING WITH WORD⁽¹⁾، أي: "كيف ننجز الأشياء بالكلمات"، و حاول بعد ذلك سيرل أن يملأ الفراغ العلمي و الفكري في آن واحد الذي تركه أستاذه أوستين، و حاول تسخير جهوده البحثية في بناء العملية الإستكمالية للمشروع الذي بدأه الفيلسوف والمتمثل في محاولة إخراج الدراسات اللغوية من الزاوية الضيقة المتمثلة في السياق اللغوي إلى فضاء أكثر استيعاباً للعناصر المساهمة في التفسير و التأويل اللغوي، و تمثل هذا الفضاء في النظرية التداولية التي قادها أوستين اعتماداً على الأفكار المستنبطة من طرف فلاسفة اللغة، كفيتغنشتاين الذي تأسست فلسفته الثانية والمتعلقة بكتابه **بحوث فلسفية** على استنتاج ذي أهمية كبرى انفتح بواسطته الباب الواسع للدراسات اللغوية الحديثة، وذلك انطلاقاً من اعتقاد هذا الفيلسوف في أن أصل المشكلات الفلسفية القديمة نجم عن: "سوء فهم لمنطق اللغة"⁽²⁾ و كذلك فريجه و غيرهما من المفكرين الذين أدلوا بأرائهم في فلسفة اللغة، إذن دخل جون سيرل إلى ساحة الحدث الفكرية التي وضع أسسها أوستين، و ذلك بتسليط عملية قرائية على الإنتاج الفلسفي المتعلق بنظرية الأفعال الكلامية، و التي عدّها الدارسون بمثابة المبدأ الأساسي للتداولية بشكل عام.

لقد اهتم سيرل بالخطوط العريضة التي حددت تصنيف الأفعال الكلامية و ذلك بمحاولة نقدية تتبّع من خلالها تسليط إعادة النظر إلى التصنيف الأوستيني، و كان من نتائج ذلك أن أدخل تعديلات جوهرية في العملية التصنيفية التي أجراها أستاذه، و لقد عمل على التخلي عن العناصر غير المفيدة و الزائدة، و يتمثل تصنيف سيرل في الآتي:

أ- الإخباريات: والغرض الإنجازي منها وصف واقعة معينة من خلال قضية، وهي تحتل الصدق والكذب، و يتم من خلالها تطويع الكلمات مع الواقع الفعلي، كاليقين الذي يلج نفس المستمع من تلقيه للمفوض مثل: سيأتي جارنا الطيب غدا إن شاء الله تعالى .

⁽¹⁾ لقد تمت ترجمة هذا العمل إلى اللغة الفرنسية بالعنوان: QUAND DIRE C'EST FAIRE سنة 1970. ينظر Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique ، ص53 ، أما الترجمة العربية فقد أشرنا إليها في الهامش السابق و قد قام بها عبد القادر قنيني، أما الذي جمع المحاضرات من بعد الوفاة فهو: J.Q.Urmson.

⁽²⁾ لودفيغ فيتغنشتاين، بحوث فلسفية، تر: عزمي إسلام ، مراجعة: عبد الغفار مكاوي، منشورات جامعة الكويت، د ت، ص11.

ب- الطلبات أو التوجيهات: تتمثل إنجازيتها في محاولة المتكلم توجيه المخاطب إلى فعل معين، و يتم من خلالها تطويع العالم الواقعي مع الألفاظ التي ترد في الملفوظ كالرغبة التي تعترى نفسية السامع حين تلقيه للمفوض مثل : غدا سنخرج للتجوال في الغابة.

ت- الوعديات أو الالتزاميات: تتمثل إنجازيتها في التزام المتكلم بفعل شيء في المستقبل، ويحدث من خلال هذا النوع من الأفعال الكلامية العملية العكسية السابقة الذكر أي مطابقة العالم للكلمات، و يشترط سيرل في هذا العمل صدق النية كملفوظ مثل: سوف أحضر غدا. ث- الإفصاحات أو التعبيرات: تتمثل إنجازيتها في التعبير عن الموقف النفسي تعبيراً يتوافر فيه الإخلاص، و يوافق مجمل السلوكيات.

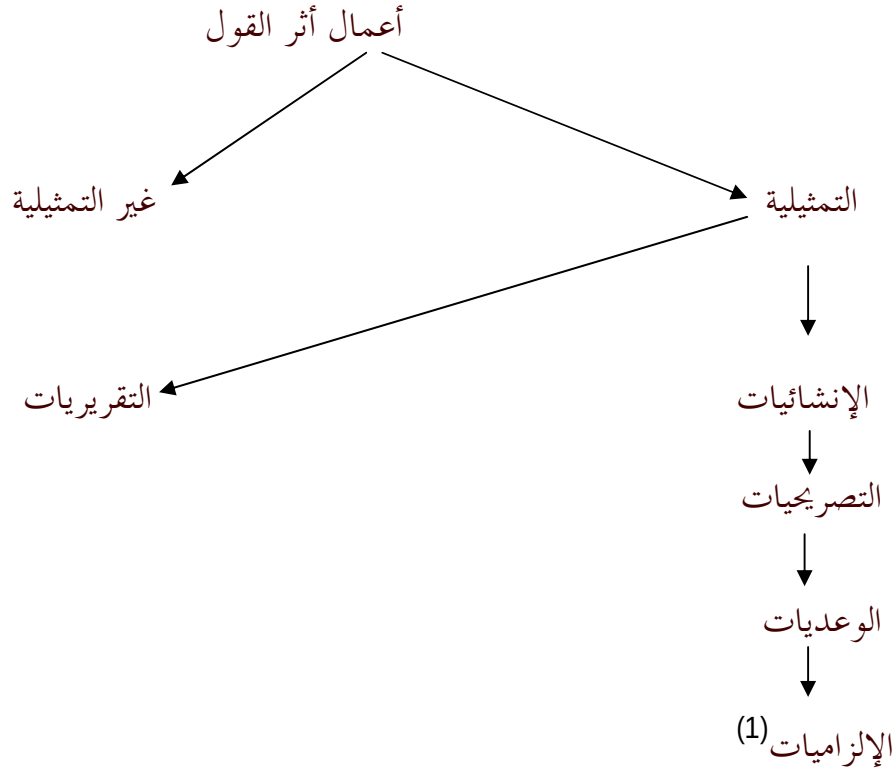
ج- التصريحات أو الإعلانات: وهي ما يطابق محتواها القضوي الواقع، وتحدث تغييراً في الوضع القائم، و غالباً ما يتم حدوث هذا النوع من الأعمال اللغوية في المؤسسات الرسمية أين يتم إصدار التصاريح المختلفة مثل قول رئيس جلسة ما: رفعت الجلسة، و يشترط سيرل في هذا الشأن التوافق بين كلمات الملفوظ و الواقع الفعلي المرئي للسياق العام للتخاطب⁽¹⁾.

لقد قدّم سيرل مجهوداً حسناً تمثل في هذا التصنيف، بيد أن هناك كاتب آخر يسير باجتهاداته في نفس الطريق التي سار فيها الفيلسوفان أوستين و سيرل، و هو فرانسوا ريكاناتي François recanati⁽²⁾ الذي حاول هضم مختلف التصنيفات التي قدمها الفيلسوفان، وجعل بذلك قراءته تتمركز على عنصر محدد من نظرية الأفعال الكلامية، و هو الأعمال اللاقولية التي منحها بناء على التصنيفات السابقة قسمين رئيسيين و هما: الأعمال التمثيلية و الأعمال غير التمثيلية، و هذا المشجر الآتي يبين القسمين بوضوح:

(1) ينظر : فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، مرجع سابق، ص66، بتصرف مكثف.

(2) فيلسوف فرنسي ولد سنة 1952، له عدة مؤلفات من بينها: الشفافية و التلفظ 1979، الملفوظات الإنجازية 1982، فلسفة المنطق و فلسفة اللغة 1991، الدلالة الحرفية 2007، فلسفة اللغة 2008، شغل سنة 1990 منصب الجمعية الأوروبية للفلسفة التحليلية . الموسوعة الحرة بتاريخ 2013/01/19.

شجرة الأعمال القولية:



أسفرت القراءات التي سلَّطها سيرل على الأبحاث التي توصل إليها أستاذه أوستين على الكثير من النتائج العلمية، و قد شمل الحديث السابق بعضاً منها، و ينبغي الإشارة في هذا الصدد أن لجون سيرل إبداعاته التي تُعد من بنات أفكاره، و من بين هذه النتائج التي توصل إليها عنصر هام أحدث إضافة ذات فعالية في المبادئ التي تَحَدَّث عنها أوستين و التي شكلت فيما بعد ما سُمي بالمنهج التداولي في التحليل اللغوي، ويتمثل هذا العنصر في اكتشافه لسر الانجاز في الأقوال اللغوية، و قد دعاه اصطلاحاً بالقوة الإنجازية *la puissance performatif*، هذه الأخيرة هي التي تحدد الدرجات التي يَتِمُّ عليها قياسُ الملفوظ في السياق الذي قيل فيه، و لقد

(1) ينظر: فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، مرجع سابق، ص67. يشير مؤلف الكتاب أن هذا المشجر موجود في كتاب الملفوظات الإنشائية لمؤلفه فرنسوا ريكانتي الصادر سنة 1981، ص106-107.

كانت لأوستين إشارات بسيطة عن هذه القضية، و مثال ذلك تركيزه على الأفعال التي تحتوي على الشحنة الإنجازية⁽¹⁾ و محاولة جعلها في التصنيف الأول على أساس أنها النموذج في إسقاط القول كفعل على الواقع المرئي.

يقتضي الإنزال الفعلي للأقوال اللغوية سياقاً مميزاً و خاصاً و نوعياً كذلك، و هذا السياق لا ينشأ من العدم بل تشارك في صنعه بعض المقتضيات التي جعلها كل من أوستين وسيرل في مصاف الشروط التي إن تحقق توافرها في السياق فإن العمل اللغوي الذي يُنجز داخل فضاء هذا السياق سيكتب له النجاح le Bonheur، و بالتالي يكون بعيداً عن دائرة الإخفاق échec، و لقد عمل كلا من الكاتبين على توضيح هذه الشروط بنوع من التصنيف الذي دُون في شكل عناصر مرتبة، و لكن الذي سنلاحظه بعد محاولة تقديم العرض الموجز لهذه الشروط أو المعايير أن أوستين كان له تحديد تميز بنوع من الاتساع، الشيء الذي يؤدي بالمتبع إلى بذل جهد أكبر في فهم مقاصده، و مرد هذا الأمر إلى أن أوستين: "لا يصنف أعمالاً بل يصنف أفعالاً... كما أنه يحلل الدلالة مع المعنى دون توفر معيار خارج اللسانيات"⁽²⁾، و بالتالي جاء خَلْفَهُ سيرل وعمل على إعادة النظر في المعايير التي حددها أستاذه، و للإشارة فإن هذه الشروط أو المعايير يصل عددها إلى الإثنا عشر، و عرضها في هذا المقام يتطلب نوعاً من تحري الدقة لأن عرضها من طرف سيرل كان متميزاً بتكثيف المعلومات، و تقف هذه المعايير كالحدود التي ترسم الفضاءات المعرفية و اللغوية على حد سواء، لمختلف أشكال الملفوظات التي تصدر عن المتكلمين تجاه السامعين و تُترجم إلى أفعال كلامية واقعية في سياق خاص، و بالتالي القائمة التي سيلبي عرضها هي من النتائج الخاص لسيرل:

1- تحديد الغاية من الفعل مثل محاولة الحصول على قيام طرف معين بشيء ما.

2- التجسيد الحقيقي لقضية التطابق بين العلامات اللغوية و العالم الواقعي الذي نعيش فيه، و نذكر في هذا المجال مسألة تحديد المصطلحات التي تتحدد من خلالها المفاهيم، فعند

⁽¹⁾ ينظر: «la force performatif» Ed.Nthan, 2001, p9 Les actes de langage dans le discours,

Catherine Orecchioni,

⁽²⁾ ينظر: فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص 63.

أوستين المحتوى الكلامي هو القول أما عند سيرل فهو المضمون القضوي contenu propositionnel.

3- النظر إلى الحالة النفسية التي يروم المتكلم ترجمتها، كمحاولة التعبير عن: الرغبة، أو اليقين أو الحسرة...

4- تحديد التكثيف اللغوي الذي ينبغي أن يناسب السياق الفعلي لعملية التواصل أو التحوار و مثال ذلك: اقترح عليك الخروج و آمرك بالخروج، و بالتالي نلاحظ أن الكثافة اللغوية الأمرية⁽¹⁾ تبدو قوية في الملفوظ الثاني بينما تبدو ضعيفة في الملفوظ الأول، و ذلك لأن صيغة الأمر كانت في الجملة الثانية بالفعل الصريح أي الإنجازي الذي يتحقق على إثره التغير في السياق الفعلي، فتصير مقتضياته تابعة للغة الملفوظ، و في اللغة العربية يصنف النحويون صيغ الأمر بجعل الفعل الأمر الصريح في المرتبة الأولى لأنه أقواها⁽²⁾.

5- الإنتباه إلى الوضعية التي يكون عليها أطراف التحوار، أي بمعنى النظر إلى المرتبة الاجتماعية لكل طرف على حدة، و هكذا يستطيع المتكلم صنع اللغة التي يتوسل إحداث الملفوظ بها.

6- الإنتباه إلى الطريقة التي يتخذها المتكلم في إجراء الحوار، إذ يلحق ذلك الأثر في تباين القوة التي يتحصل عليها الملفوظ من القائم بفعل التلفظ، و يحتزن القولُ القوة التي تتعلق بالفعل الإنجازي، وبالتالي يتحدد الاتجاه الذي يسلكه كل أثر على حدة، فالتعزيزية مثلاً يعود أثرها إلى المخاطب بمثابته هو المتلقي الأساسي في مثل هذا العمل، و التبجح يعود أثره إلى المتكلم لأن طبيعة هذا الأخير مؤهلة لأن تستقبل مثل هذه الأفعال بآثارها المختلفة.

(1) نسبة إلى الأمر.

(2) صيغ الأمر هي: فعل الأمر، الفعل المضارع المقرون بلام الأمر مثل و لتراجع دروسك، اسم فعل الأمر مثل صه بمعنى اسكت، المصدر النائب عن فعل الأمر مثل: "و بالوالدين إحساناً" الآية أي أحسنوا بهما، و يعني الأمير التكليف و الإلزام بالقيام بالفعل، و لكن قد يأخذ معاني أخرى على حسب السياق، ينظر: بسيوني عبد الفتاح بسيوني، علم المعاني دراسة بلاغية و نقدية لعلم المعاني، ج2، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ص84 و ما يليها.

7- الانتباه إلى حسن استعمال الروابط اللغوية التي تؤدي دور التقوية اللسانية في التراكيب المختلفة، وهي كثيرة في اللغة العربية و قد اصطلح عليها النحويون بالحروف⁽¹⁾، ويدخل في هذا الإطار مفهوم الأداة الذي تعني كل كلمة تربط بين جزئي الجملة، أو بينهما وبين الفصلة، أو بين جملة و جملة⁽²⁾.

8- النظر إلى الواسمات⁽³⁾ التي تؤدي دورا تحديديا للزمن الذي يدور في فلكه السياق العام للملفوظ.

9- التركيز على حسن اختيار الطريقة التي يتبعها المتكلم في توصيل الملفوظ عبر الحوار أو عبر أشكال أخرى من اللغات، كاستعمال لغة الإشارة في الردود المتباينة بين النفي و الإثبات و ذلك بتحريك الرأس في الاتجاه المناسب للفعل الذي يروم المتكلم توصيله إلى السامع.

10- الاضطرار إلى رفع الحاجة لإنزال الفعل اللغوي في السياق الذي يناسب انجازه في صورة مقبولة، كعقد الزواج عند المسيحيين الذي يتم في الكنائس.

11- الانتباه إلى إرادة أو عدم إرادة استعمال الفعل الإنشائي الذي يلحقه الانجاز مباشرة إثر التلفظ به، مثل الفعل وعد الذي يتحقق انجازه بمجرد النطق به، أما الفعل هدّد فلا يتحقق إنجازه إلا بعد مضي الزمن المناسب لمثل هذه الحالات .

12- الأسلوب الذي يتم اختياره من طرف المتكلم لإجراء التواصل الكلامي مع الأطراف الأخرى، فالفعالان: أذاع و باح لا يختلفان لا من حيث الهدف و لا من حيث المحتوى

⁽¹⁾ الحرف هو ما دل على معنى في غيره، مثل هل و في و لم و إن، و ليس له علامة يتميز بها، كما للاسم و الفعل، و هو يؤدي دور الرابط بين الكلمات لأجل تأدية دلالة معينة ينظر: مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ط4، 1997، ج1، ص12.

⁽²⁾ محمد سعيد اسير و بلال جنيدي، الشامل في اللغة العربية، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1/1981. ص66.

⁽³⁾ الواسمات و هي الموجهات الظرفية سواء للمكان أو للزمان، و يدخل في هذا الإطار الظروف التي تعني المفعول فيه لبيان زمان الفعل و مكانه، والحروف الدالة على الظرفية مثل حروف الجر، ينظر: الشامل في علوم اللغة العربية، مرجع سابق، ص581. أسماء الزمان و المكان هي ما يؤخذ من الفعل للدلالة على زمان و مكان الحدث، ينظر: مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية، صيدا-لبنان، ط4، 1997، ج1، ص201.

بل يكمن اختلافهما ضمن مسألة النمط الذي نعني به الطريقة المختارة لأجل إنزال الفعل اللغوي⁽¹⁾.

إن جملة المعايير المطروحة أعلاه تنطلق في معظمها من الأساسيات التي تركز على العملية التشاركية في الحوار اللغوي، و تجعل من السياق الفعلي للغة أي الفضاء الاستعمالي الركنَ الركين في سبيل إنجاح العملية التواصلية بين الأطراف المختلفين، و يعبر العدد الكثيف الذي عُرضت به المعايير عن التعدد الذي يلحق دوما الاستعمال اللغوي، على أساس أن النظرية المجردة حينما تنزل إلى واقع معين فإنها تتخذ أشكالا متنوعة لا تتبادر إلى الحسبان العلمي الذي يحتزنه الباحث، و بالتالي سيصير العمل الكلامي أو اللغوي متعلقا بمصيرين لا ثالث لهما و هما: النجاح أو الإخفاق و ليس التأكيد أو التصديق اللذين يتعلقان بالجميل التي تحمل ملفوظات خبرية لا إنشائية⁽²⁾.

لقد أثمرت الجهود المعرفية التي قدمها المهتمون بالبحث في اللغة ضمن المناهج الحديثة على نتائج ذات قيمة علمية، و لا سيما عمل أوستين الأستاذ و سيرل التلميذ، إذ جعل النظرية التي صيغت في أفعال اللغة أكثر وضوحا من ناحية الطرح النظري، و بالتالي جعلها أكثر قربا من عملية الإنزال إلى الواقع الفعلي للسياق الاجتماعي للمتخاطبين، و عليه برزت في بحوث نظرية للكاتبين المذكورين سابقا تلميحات تقترب كثيرا من التصريح إلى أهم الشروط المؤدية إلى نجاح الفعل الكلامي و التي توصف بأنها أكثر عمومية، و أنها من المنطلقات الابتدائية قبل تأسيس العمل الكلامي، وكأنها تمثل المراحل العملية التي يمر عبرها الفعل الكلامي منذ إنشائه في الذهن حتى وصوله إلى مرحلة إظهار الأثر على السامع، مع العلم أننا حين نشكل ملفوظ معين فإننا نحقق ثلاث أفعال: أولها الفعل الصوتي الذي تنتج عبره جملة من الأصوات اللغوية، و الثاني يتمثل في الفعل اللفظي المتعارف عليه، و عبره نستعمل الكلمات التي يتعارف عليها أهل لغة معينة مثل: كلمة **الو** **allo** التي تعني أنا أسمعك جيدا فهل تسمعي، و الهدف من هذه الكلمات

⁽¹⁾ ينظر: فرنسواز أرامينقو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، ص 64-65، و فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص 63-64-65، مرجعان سابقان، و للإشارة فإن تدوين هذه العناصر دخل إليه التصرف الشديد من طرف البحث و ذلك بغية التيسير و تذليل الصعب.

⁽²⁾ ينظر في هذا الشأن: آن روبرول و جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد للتواصل، تر: سيف الدين دغفوس، ص 30.

هو تمثين و تقريب التعالق بين المتكلم و المستمع، أما الفعل الثالث فيتمثل في: "الفعل البلاغي الذي نستعمل من خلاله تشكيلات لسانية ذات دلالات محددة، و هذه الأخيرة تتشكل بدورها جراء تعالق المعنى و مراجع هذه التشكيلات اللسانية"⁽¹⁾، و بالتالي يعلق طرفا الحوار هذه الاستعمالات بالمقام وبالسياق، و إن راع المتكلم صاحب الملفوظ هذه الضوابط فإن النتيجة الصادرة عن الحوار اللغوي ستتحو إلى النجاح لا الفشل كما عبّر الفيلسوفان عن ذلك في أكثر من موقف فكري، وتتمثل هذه المراحل العملية على رأي سيرل في الآتي:

1- فعل تلفظي acte d'énonciation: يتضمن الكلمات أو الألفاظ و الجمل والعبارات ذات الدلالة الواضحة و المحددة.

2- أفعال افتراضية actes propositionnel: تناسب المرجعية التي يتفق عليها الأطراف التي تشكل العملية التواصلية، و تتمثل في مجمل الأفكار التي تمثل العرف الاجتماعي المشترك، والذي اتخذ له بمرور الزمن صفة الإلزامية.

3- الأفعال المتضمنة في القول actes illocutionnaire: التي وضعت من طرف المتكلم لأجل جعلها تحقق الصفة الإنجازية، وعادة ما نجد مثل هذه الأفعال أكثر بروزا في الملفوظات التي لا تتحمل عمليات تأويلية أكثر من المضمون اللساني الذي تحمله مثل الأوامر، والإستفهامات، و الوعود...

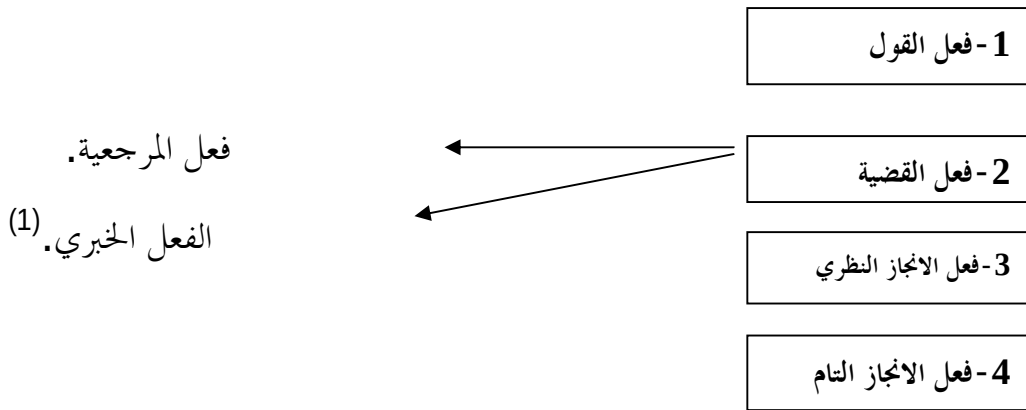
4- الأفعال الناتجة عن القول actes perlocutionnaire: التي تتضمن الأثر أو الآثار التي يروم المتكلم تحقيقها و تجسيدها في ذاتية المتلقي كي تتحول فيما بعد إلى فعل كلامي ناجح بالمقاييس العلمية و الاجتماعية التي تحترم السياق الواقع فعلا في المجتمع⁽²⁾.

لم يبتعد سيرل كثيرا عن الذي جاء به أستاذه في التقسيم للأعمال القولية من حيث ميزة الإنجازية التي تؤديها خلال مراحلها اللسانية، و وصولا إلى مرحلة التأثير في المخاطب،

⁽¹⁾ ينظر: jacques moeschler et Anne Reboul, Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, p61, «l'acte rhétorique, qui constitue à employer une certaine construction avec une signification déterminée, cette signification étant constitué par le sens et la référence des composant de la construction employée» .

⁽²⁾ ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العرب، مرجع سابق، ص44، و كذلك: Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, p64.

ولقد قدّم سيرل من خلال أعماله النظرية مسائل جديدة تمثلت في ابتكار مفاهيم أخرى، من بينها فعل القضية الذي يضم عنده نمطين و هما: فعل المرجعية و الفعل الخبري، و بالتالي سنلقي كذلك استعمال سيرل لمصطلح فعل القول كبديل نظري عن فعل التلفظ الذي استعمله أوستين، و الشكل البياني الآتي يوضح تفاصيل المسألة:



3.1.3.1- أهمية التركيز على قاعدة الانجاز النظري:

قد يُفهم من السرد النظري السابق الذي خصّ نواحٍ عديدة من نظرية الأفعال الكلامية أن البناء النظري الذي أخذ منه أوستين و سيرل تفاصيل النظرية يشير إلى ضرورة التركيز على الجانب الملموس من اللغة، الذي يمثله الشكل الكلامي للأفراد ضمن المجتمع، و بالتالي قد يذهب الظن الإستنتاجي للقارئ لهذه السطور أن التداولية ضمن مبدأ الأفعال الكلامية تدعو إلى صب الاهتمام المبالغ فيه على الشكل المشار إليه سابقاً، أي المحتوى الكلامي، بدعوى أن البارقة الأساسية الأولى في إخراج هذه النظرية إلى الوجود النقدي الكتابي تمثلت في تنبيه فيتغنشتين المهتمين بميدان اللسانيات إلى مساحة اللغة العادية، و التي يغلب عليها الجانب الاستعمالي الذي يمثل بدوره مساحة تفسير ملفوظاتها، و لكن ينبغي أن نشير ضمن هذا الحديث إلى الأهمية التي

⁽¹⁾ فولفجانج هاينه من و ديتير فيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، تر: فالخ بن شبيب العجمي، ص64.

يكتسيها الجانب الآخر من اللغة، و هو الجانب النظري اللساني منها، إذ كيف نتصور لغة كلامية تصدر من متكلم معين ضمن سياق معين كذلك أن تكون هذه اللغة بغير أسس و بغير إرهابات نظرية قامت عليها، و تم إنشاؤها قبل أن يصدر هذا المتكلم ما أصدره من لغة تحتوي على صفة الإنجازية.

إن الطرح الذي سبق النشر فيه يومئ إلى ضرورة ترتيب الشؤون النظرية لمبدأ الفعل الكلامي بوجه خاص، و للتداولية بوجه عام، إذ ينبغي أن نضع في الحسبان أن اللغة ليست حكراً على ما يدلي به الأفراد ضمن سياقات معينة لأجل إنزال مقاصد معينة يتم معاينتها ضمن الواقع الفعلي للتداول في شكل أوامر أو طلبات مختلفة الصيغ، بل اللغة أوسع من ذلك بكثير، إذ إن الفكر بالرغم من اتساع معارفه استطاعت الظاهرة اللغوية - من الوجهة النسبية للطرح ضمن هذا البحث - أن تشملته بتسجيل معظم التفاصيل المتعلقة به، و أن تقترب من استيعابه، ولقد قيل أن **اللغة وعاء الفكر**، و بالتالي فإن محاولة استصغار المرحلة النظرية للملفوظ يُعد من النواقص التي تجعل من البحث و من النظرة التي يحملها بادية بالوجه غير الإقناعي، سواء للقارئ المميز أو للقارئ العادي، و حتى لا تكون هذه الرؤيا تترع إلى الغموض فإن اتخاذ طريقة وضع الأشياء في أماكنها المخصصة لها و إنزال الأمور منازلها المنوطة بها هو بالذات ما تدعو إليه هذه الرؤية، و بالتالي فإن الجانب النظري من الأقوال قد اتخذ له مكاناً ضمن منهج نقدي يقترب من التداولية إلى حد بعيد و هو **علم اللغة النصي**، و يركز الدارسون ضمن هذا العلم على تحديد المفهوم الحقيقي للنص، و بالتالي جعله مُنطلقاً في البحث، إذ لا ينبغي اعتباره أنه الكل الذي يشكل القول الصادر من المتكلم، بل ينبغي أن ننظر إليه من زاوية وظيفية على أنه: "وحدة موظفة في إجراءات الاتصال"⁽¹⁾.

إن علم اللغة النصي يدخل غمار هذا البحث من زاوية أن المنهج التداولي يتعالق في طروحاته مع الكثير من الحقول المعرفية ذات المساحات المتشابهة في الدراسة، وكلا من المنهجين النقديين يرومان في الغالب التمكن من تفسير و تأويل النص الملفوظ بشقيه المكتوب أو الشفهي، و بالتالي فإن: "كل علم من علوم اللغة لا بد أن يكون منذ البداية و في جوهره

⁽¹⁾ مدخل إلى علم اللغة النصي، فولفجانج هاينه من و ديتير فيهفيجر، تر: فالح بن شبيب العجمي، ص5.

علم لغة نصيا، لأنه -بطريقة غير مباشرة على الأقل - يعتمد على نصوص"⁽¹⁾، و تشير بعض الدراسات التي تُصنّف بأنها نوعية في ميدان اللغة النصي إلى أن النص لا تحتكره جوانب تقنية كعلم النحو، بل يتعدى مفهومه إلى الأبعد، ومن بين هؤلاء الناقدة جوليا كريسيغا التي تقول: "النص ليس اللغة التواصلية التي يقننها النحو، فهو لا يكتفي بتصوير الواقع أو الدلالة عليه... فإنه يشارك في تحريك الواقع الذي يمسك به في لحظة انفلاته"⁽²⁾ و ما الواقع إلا عبارة عن سلسلة من العلاقات التي يصنعها الخطاب اللغوي بأشكاله المختلفة، والذي تتم مجرياته بين الأفراد المتعاشين داخل المجتمع، و كأن الناقدة تُلمح إلى الأهمية التي يكتسيها الاستعمال في اللغة، إذ إن هذا الأخير هو الحجر البحثي الأساس داخل السلم الهرمي للتداولية، و يعمل هذا العنصر على تكريس أهم وظيفة من الوظائف التي تضطلع بها اللغة و هي الوظيفة الاتصالية، و تساهم هذه الوظيفة في محاولة تحيين الفعل الكلامي مع البناء اللساني الذي يضعه المتكلم لأجل التعبير عن رغبته في السامع، و تعتبر هذه المسألة من المشاريع التي سعى سيرل في تحقيقها⁽³⁾.

يتراءى لنا من خلال هذا الجزء من البحث أن ثمة علاقة تجذب الطرح الذي يتناوله عنوان العنصر الذي نحن بصددده، و إلى ما ذهب إليه المجتهد في علم الألسنية تشومسكي من خلال تناوله لمفاهيم النظرية التحويلية، و ما يساير بحثنا منها مصطلحان تعلقا بمبدأ الفعل الكلامي التداولي، و يتعلق بمفهومي الكفاية اللغوية و الأداء الكلامي، فالمصطلح الأول يقصد منه تشومسكي: "معرفة المتكلم بالقواعد اللغوية" أما المصطلح الثاني فيقصد به: "تظهر هذه القواعد في الكلام... إذ الأداء الكلامي هو الاستعمال الآني للغة ضمن سياق معين"⁽⁴⁾، و عليه فإن المحتوى المفهومي الثاني يرتبط ارتباطا مباشرا بالأساس الذي بني عليه التداوليون معظم مفاهيمهم، و يشير تشومسكي على سبيل الاستمرار في تكوين الفكرة و توضيحها إلى أن الأداء الكلامي يستعين في تنضيد أشكاله التعبيرية بما توفّر لمساحة الكفاية اللغوية الإنسانية من قواعد متعددة تنظم الجانب الدلالي و الجانب الصوتي أي اللفظي، فيتحدد كل صوت بدلالة معينة، معتبرا أن الكفاية اللغوية تمثل: "ملكة لاشعورية تجسد العملية الآنية التي يؤديها متكلم

(1) ن.م.س، ص 7.

(2) جوليا كريسيغا، علم النص، تر: فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط 2، 1997، ص 9.

(3) فولفجانج هاينه من و ديتر فيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، تر: فالخ بن شبيب العجمي، ص 132.

(4) ميشال زكريا، الألسنية التوليدية و التحويلية و قواعد اللغة العربية النظرية الألسنية، ص 18.

اللغة بهدف صياغة جملة... طبقا لتنظيم القواعد الضمنية الذي يقرن بين المعاني و بين الأصوات اللغوية" (1).

انطلاقا من الذي تمّ البت فيه أعلاه عن الأهمية التي يكتسبها الاهتمام الشامل بالجانبين اللغوي العام و الكلامي الفردي، فإن الإيغال في تناول الدراسات اللغوية و بخاصة التداولية منها لعنصر النشاط الكلامي لدى الإنسان يجعل من اللغة غائبة من ناحية الروح التي تحملها و التي تحافظ على بقائها، و في هذا الحالة تعود السلبية التي فرضتها البنيوية على الدراسات اللغوية والمتمثلة في النظر بعين الاهتمام الأحادي للغة على أنها النظام الذي يتميز بالتلاعب اللفظي من طرف الآلة اللسانية، و بالتالي فإن الخلفية التي تعمل على حماية المعين اللغوي ستُعَيَّب ضمن هذا الطرح المححف تجاه أهم مقوم لوجود هوية الإنسان، وعليه ينبغي على الدراسات اللغوية أن تكون عادلة في شأن التناول البحثي في اللغة فلا ضرر و لا ضرار كما يقول الأصوليون، وتنطرح في هذا الميدان الحتمية التي عبّر عنها تشومسكي بقوله: "دراسة الأداء الكلامي لا بد لها أن تتقيد بالقواعد القائمة ضمن الكفاية اللغوية" (2)، هذه الأخيرة التي تتميز بميزة الثبات على غرار ميزة التغير في الأداء الكلامي، نظرا لاتصافه بصفة الإبداعية أي الإتيان بالجديد الذي يتبع ضمنه المتكلم القائم بفعل الكلام الخروج عن المعهود من الأبنية، كي يتسنى له مواءمة السياقات اللغوية الجديدة و المقامات الحالية الطارئة.

لقد سبق و أن تمت الإشارة ضمن هذا البحث إلى الأشكال الجديدة التي صارت الجملة اللغوية تتخذها بين الحين المعرفي و نظيره الآخر، باعتبارها الوحدة الأساسية للكلام، إذ إن هذا الأخير يحتم على المتكلم تضمينه معالم لغوية لتوضيحه، الشيء الذي يُيسّر على المخاطب عملية الفهم و كذا الانجاز فتكون نتيجة ذلك فعلا كلاميا كاملا و مكتملا، و بالتالي تنظر التداولية إلى الجملة في اللغة على أساس إخضاعها للتفسير، و ليس فقط للبحث عن المعنى الذي تحمله، لأن البحث عن المعنى يظل هدفا قريبا من المعنى الظاهر الذي يُستنتج من خلال التعرف على السياق، الذي ينتمي إليه القول الصادر من المتكلم، أما العملية التفسيرية فهي معقدة بعض الشيء، إذ يجب على الذي يمارسها تحري الدقة و جعل أفقه الدلالي شاسعا، و التفسير عمل

(1) ن.م.س، ص34.

(2) ميشال زكريا، الألسنية التوليدية و التحويلية و قواعد اللغة العربية - النظرية الألسنية، ص39.

نقدي يزواج من خلاله الدارس بين تحقيق البحث عن المعنى الوضعي للقول من جهة و بين إقران ذلك بتناسق هذا المعنى مع القرائن الحالية المتنوعة، و التي يُقصد بها متطلبات السياق، إذ إن قول أحدهم: **الجو حار جدا**، قد يعني بها الدلالة الحرفية للجملة، و لكن إذا وضعنا هذا التعبير اللساني ضمن سياق آخر فإن المعنى سيتبدل و يتلون على حسب السياق الجديد الذي وُضع فيه، و بالتالي قد يقصد المتكلم دعوة الحاضرين المستمعين إلى فتح النوافذ أو إحضار المزيد من الماء أو الإسراع بالمغادرة، و بالنظر إلى هذا المثال فإن الملاحظ أن معناه الحقيقي الحرفي لا يغيب عن الملابس التفسيرية للقول التي تتبع تنوعات المقام، إذ كان بإمكان المتكلم أن ينتقي ما شاء له من الصياغات المتعددة، و لكن انتقاؤه للصيغة السابقة الذكر هو انتقاء للصيغة ذات الدلالة التي تناسب المقام، و الدليل على هذا الرأي هو التغير الذي يقع في أفهام المستمعين في حال حدث التغير ضمن الصيغة اللغوية للجملة أو للقول، باعتبار أن القول هو النتاج الذي تبرز من خلاله الدلالة الأساسية التي يرومها كل من المتكلم و المخاطب، من أجل ذلك ينبغي النظر إلى البناء اللغوي بالنظرة الموضوعية على أنه الانطلاقة الأساسية في ترجمة تفسيرية للقول، و إلا وقع الدارس في الفخ الذي وقعت فيه البنيوية بالشكل العكسي من خلال تركيزها على اللغة دون النظر إلى ما هو خارج الصناعة اللسانية للمتكلم، أي بمعنى أن الدرس التداولي ينبغي أن يتغيا المكونين الأساسيين للملفوظ : المكون اللساني و المكون المقامي، وبهذين يتم التوصل نسبيا إلى الحقيقة التي يرومها القول.

4.1.3.1- إشكالية وقوع نظرية الفعل الكلامي ضمن السلوكية أو المعرفية انتماءً:

اعتبر الكثير من الكتاب في المجال اللغوي ضمن النظرة/الرؤيا المنتمية إلى العصر الحديث نظرية الأفعال الكلامية بمثابة الفتح المعرفي الجديد، حيث تمّ تسخير العديد من المؤلفات لإثراء هذا الجانب اللغوي الذي ألقى بالدراسات اللسانية إلى مساحة لم تكن للمطارحات النظرية ذات التخصص اللغوي لتلج إليها بدءا من سوسير ذاته و وصولا إلى الدارسين الذين تناولنا بعض الأسماء منهم في سالف البحث، و سوف نتناول البقية التي يراها بحثنا المتواضع أهلا للدخول ضمن الإشكاليات التي يسعى إلى محاولة إعطاء تفسيرات لها، و عليه فإن نظرية الأفعال الكلامية عُدّت العنوان الرئيس للمنهج التداولي أي بمثابة اللوغو التي يقدم النظرية للقارئ، ولقد

تمَّ في السابق القريب عرض أهم الخطوط العريضة لهذه النظرية، و ذلك بالتركيز على الجوانب الإجرائية منها .

إن نظرية الأفعال الكلامية رغم ما تحقق لحسابها على يد المؤلفين لكتب علم اللغة الحديث، لم تسلم من الانتقادات التي تختلف منابعها من باحث إلى آخر، و من بين هذه الانتقادات التي وجهت لهذه النظرية قضية المناخ البحثي الذي تُصنّف التداولية ضمنه، و لقد تناول كتاب **التداولية اليوم علم جديد للتواصل** هذا الشأن بطرح مفاده استفهام هو: أي الاتجاهين ينبغي لنا أن نضع النظرية في إطاره، هل الاتجاه المعرفي أو الاتجاه السلوكي؟ و كان تناول الكاتبين منطلقاً من آراء رائدي المنهج التداولي بوجه عام و نظرية الأفعال الكلامية بوجه خاص وهما أوستين و سيرل، و مرد هذه الإشكالية على حسب المؤلفين، هو التوجه الذي سلكته النظرية لتأسيس مكانة ضمن الدائرة المعرفية، و لقد اتسم هذا المسلك بنوع من الشمولية و الإجمال، وكذا عدم التفصيل في الطروحات النظرية التي إنبثت عليها، و التي تؤسس بدورها للتطبيقات العاملة على دراسة الكلام اللغوي ضمن الاستعمال، و لقد أدلى الكاتبان بذلك على وجه التصريح لا التلميح بقولهما: "فإن التداولية المنبثقة عن نظرية الأفعال اللغوية لا تبدو لنا إطلاقاً نظرية معرفية، فهي في بعض الوجوه أقرب إلى السلوكية منها إلى العلوم المعرفية⁽¹⁾"، على اعتبار أن الكاتبين يعتقدان في التناؤد⁽²⁾ المعرفي بين التداولية و نظرية الأفعال الكلامية، لذلك عبّراً عن الكل بواسطة استعمال الجزء، و لقد قدّم الباحثان أدلة بالغة الأهمية، تمحورت أساساً في العجز الإجرائي للطرق التي أُتخذت من التنظير المتعلق بنظرية الفعل الكلامي في تحليل النتائج التي تشكل عبر المحادثة الكلامية بين طرفين أو أكثر، وذلك قياساً على مبدأ التزاهة الذي يعتبر من اجتهادات سيرل، هذا الأخير اعتمد في تحليل الملفوظ اللغوي على شرط التزاهة جاعلاً إياه من الأسباب التي تؤدي إلى إدخال الملفوظ ضمن مساحة النجاح، و بالتالي تحييده عن مساحة الإخفاق، و لكن يبقى هذا الشرط الذي أقره الفيلسوف نسبي الطرح، إذ نجد أن التزاهة التي ترافق الصدق و الإخلاص في الكلام تتخذ مساحتها الفعلية ضمن الجوهر

(1) آن روبول و جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد للتواصل، ص43.

(2) الدِّمَعْنَى النظر أو المثل و جمعه أُنْدَاد، و نَادَّه أي خالفه، و نَدَّتْ الفكرة عني أي غابت عن ذاكرتي، بالتالي التناؤد يعني المخالفة في الرأي، و في التزيل: "فلا تجعلوا لله أنداد و أنتم تعلمون" البقرة21، ينظر: الوسيط، ص910.

النفسي للإنسان المضطلع بعملية الكلام، و بالتالي فإن تسخير الجهد لأجل التمكن من نزاهة المتكلم يُعد من الأمور العسيرة على الباحث بوجه عام و على المخاطب بوجه خاص، و لقد ربط الباحثان دراستهما لمحتوى هذه المسألة بالتفنيد عن السبب الذي يُلقى بالملفوظ ضمن مساحة الإخفاق التواصلية، و هو انحراف المتكلم عن جادة النزاهة و ميله إلى مساحة الكذب، هذا الأخير أُعتبر من طرف سيرل الجرثومة التي تفتك بثمرة النجاح التواصلية، و عليه فإن الباحثين طرحا هذه المسألة من قبيل الصعوبة التي تواجه الدارس في اكتشاف ميل المتكلم إلى التزييف أو إلى الكذب، و بالتالي اقترح الفيلسوف صاحب الطرح - سيرل - مبدأ آخر مُتوسِّماً فيه إخراج نظرية الفعل الكلامي من طريق مسدودة التي تمثلت في تعلق المبدأ بالنزاهة في الأقوال، و يتمثل اقتراحه في اتخاذ مبدأ جديد سماه: "مبدأ قابلية الإبانة، أي التعبير بصراحة العبارة الحرفية"⁽¹⁾، و هكذا يبدو من خلال هذا الطرح أن الاستنتاج الذي يرومه الباحث جراء تفنيده للملفوظ يتمثل في تحديد مصدره الحقيقي الذي ينبغي أن يكون من السلوك اللغوي للأفراد، لذلك يعتبر المؤلفان أن التفسير القريب من الحقيقة للملفوظ اللغوي ينبغي أن يُأخذ من دائرة السلوكيات الإنسانية، و ليس من دائرة أخرى، إذ إن النزاهة التي يتحدث عنه سيرل تقع ضمن مساحة النفس الإنسانية، التي تشمل الخزان الهائل للتخمينات، و التي يتم ترجمتها عبر لغة للمتكلم .

يواصل الكاتبان حديثهما عن الملاحظات التي جعلها ضمن العضلات التي وقعت فيها نظرية الأفعال الكلامية، و هذه المرة يتجه الحديث نحو المعالجة المنطقية للغة، إذ إن من ضمن الطرق التي تُتخذ لأجل التوصل إلى تأويل قريب من التفسير الحقيقي للملفوظ، الطريقة الاستدلالية التي تعتمد أكثر ما تعتمد على اتخاذ الرمز كبنية أساسية في تكوين الكلام اللغوي ضمن إطاره الضمني لا التصريحي، و لقد وقف سيرل تجاه هذه القضية موقفاً استدبارياً، و ذلك لعدم قبوله لفسح الطريق للمجالات التقنية لأنها تفسد على حد رأيه البحث في مبدأ الفعل الكلامي، لأنه يعتبر أن اللغة التي يُكون مفرداتها المتكلم تخضع أساساً لمتطلبات نفسية نابعة من العمق الذهني للإنسان، و لذلك استبعد سيرل دخول البحوث اللغوية التي خاضها ضمن الفعل الكلامي المنتمي للغة اليومية، و بالتالي سيستبعد إجراءات تطبيقية تشير إلى تناول اللغة بالشكل

⁽¹⁾ آن روبول و جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد للتواصل، ص43.

الذي يغلب عليه الجانب التقني، إذ يرتبط هذا النوع من الدراسات بالمنهج الذي أرسته البنيوية و الذي مفاده دراسة اللغة من حيث النظام الذي تعمل به و إهمال العناصر غير اللغوية الخارجة عن إطار النص، و من أمثلة هذه الإجراءات التقنية اختبار تيورنغ⁽¹⁾ المنتمي إلى بحوث الذكاء الاصطناعي ذات الصبغة التقنية البحتة.

5.1.3.1- الدعوة إلى إنشاء نظرية عربية للفعل الكلامي:

إن الداعي إلى إدخال هذا العنصر ضمن البحث ينطلق من محاولة بعض القراءات التي طرحها نقاد و كتاب ينتمون إلى الهوية ذات اللسان العربي لأجل استرجاع مكانة الهوية العربية في جانبها الأساسي المتمثل في لغتها، و قد تميز طرح هؤلاء المهتمين بعلوم اللغة بالوجه العام متأرجحا بين التلميح و التصريح، و نجد من أمثلة الكتاب الذين استعانوا بالتلميح لأجل تكوين مشروع يهتم باللغة العربية من حيث تخصيص نظرية للأفعال الكلامية خاصة، مسعود صحراوي الذي يعد من الكتاب ذوي الجرأة العلمية، و يعتبر مؤلفه الذي كان لنا خير معين ضمن هذا البحث الشاهد على ذلك، إذ تحاول هذه النظرية استمداد العناصر المعرفية الخاصة بها من التراث الذي يمثل قيمة موضوعية عالية المترلة، و لقد عمل هذا الكاتب على تأسيس البحث ضمن دائرة الكلام بنمطيه الخبري و الإنشائي، و ذلك نظرا لتعلق النظرية بهذين النمطين من الكلام، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك على سبيل الحشو والإطناب اللذين نخالهما مفيدين، و لقد استعان الكاتب بسلسلة من العلماء القدامى الذين سخرُوا أقلامهم لأجل توضيح أسرار اللغة العربية، و بيّن رأيه الخاص بانتماء نظرية الفعل الكلامي بقوله: " في التراث العربي، تدرج ظاهرة الأفعال الكلامية ضمن مباحث علم المعاني"⁽²⁾ و هذا الأخير يهتم بدراسة أنماط الكلام العربي على أساس النوعين المذكورين، و هذا منطوق الاتفاق العام للبلاغيين العرب الذين بينوا أن: " الكلام إما خبر أو إنشاء، لأن الكلام إما أن تكون نسبته خارج تطابقه أو لا

⁽¹⁾ و يسمى اختبار الغرفة الصينية، و يتضمن إدخال شخص في غرفة لوحده و ربط التواصل معه بقصاصات ورقية مكتوبة باللغة الصينية، مع العلم أن هذا الشخص لا يعلم من اللغة الصينية شيء، و إذا كُتب له النجاح فإن القدرة على فك الترميز عند هذا الشخص عالية، و يستدل الباحثون بهذا الاختبار على احتواء اللغة على جملة من الرموز التي يحتويها الملفوظ و الذي يشكل بدوره محور الفعل الكلامي، ينظر: في هذا الشأن التداولية اليوم علم جديد للتواصل، ص44،45.

⁽²⁾ مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص49.

يكون لها خارج، الأول الخبر و الثاني الإنشاء"⁽¹⁾، و لقد أشار صحراوي إلى تركيز القدماء على مبدأ الإفادة في الجملة، حيث يعتبر هذا المبدأ من صميم التداولية فقال: "و الملاحظ أن العلماء العرب عامة كثيرا ما يركزون على دعامة الإفادة في دراستهم للجملة و النص، إذ هي مناط التواصل بين مستعملي اللغة"⁽²⁾، و كذلك يعتبر تَعَامُل الدارسين التداوليين للجملة بالشكل ذاته، إذ يشترطون في دراساتها أن تكون حاملة لما دُعي من طرفهم الهوية الإنجازية، و تتحقق هذه الهوية ضمن السياق الذي انتقاه لها المتكلم بحيث تصبح الجملة مصطلحا يحدد من الكلام ما وَضَح منه، أما الذي ابتعدت عن الأذهان إفادته فهو ليس من اهتمامات لا الدرس اللغوي العربي التراثي و لا الدرس التداولي الحديث، و بالتالي فقد سجل أهل تراثنا هذه الملاحظات ضمن كتبهم و مثال ذلك ما ورد في شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك من أن الكلام هو: "اللفظ المفيد"⁽³⁾، و لم يغادر المتأخرون هذا التعريف بل زادوا عليه من المتن اللفظي ما يجعله واضحا، و مثال ذلك ما ورد في النحو الوافي من أن الكلام: "ما تركب من كلمتين أو أكثر، و له معنى مفيد و مستقل"⁽⁴⁾، كما نجد صاحب الخصائص يجعل من شروط تسمية الجملة العادية كلاما أن تكون هذه الجملة تنحو إلى تحقيق الإفادة للمخاطب فيقول: "و أما الكلام فكل لفظ بنفسه مفيد لمعناه، و هو الذي يسميه النحويون الجمل.. فكل لفظ مستقل بنفسه، و جنيت منه ثمرة معناه فهو كلام"⁽⁵⁾.

يطرح مسعود صحراوي قضية ذات أهمية ضمن البحث التداولي الذي ظهرت تعالقاته مع البحث اللغوي التراثي، و تتمثل هذه القضية في التآرجح المفهومي الذي ساد الشبكة المعرفية التراثية حول الخبر و الإنشاء اللذين يعتبران الممثلين الفعليين لنظرية الفعل الكلامي، و يبين من وراء ذلك البناء المعرفي الذي أنشأه اهتمام اللغويين العرب انطلاقا من المسألة المذكورة، و بالتالي توصل الرجل إلى أصناف ثلاثة من الباحثين المنتمين إلى التراث العربي، أول هذه الأصناف هم أهل البلاغة و النحو الذين دارت دراساتهم حول الخبر و الإنشاء، انطلاقا من

(1) عبد العزيز عبد المعطي عرفه، من بلاغة النظم العربي، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط2/ 1984، ج1، ص68.

(2) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص51.

(3) شرح ابن عقيل، تح: حنا الفاخوري، دار الجليل، بيروت-لبنان، 13/1.

(4) النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، 15/1.

(5) أبو الفتح عثمان، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 17/1.

اعتبارهما مقصدا في ذاتهما، بحكم أن تكوينهم النظري يبدأ من البناء اللغوي للأسلوبين المذكورين، أما الطائفة الثانية فتتمثل في المهتمين بالفلسفة و المنطق و قد عمل هؤلاء على تبخير الدراسة على الخبر دون غيره من الأساليب، نظرا لتمامهم حوله، أما الطائفة الثالثة فهم الأصوليون المهتمين بعلم أصول الفقه، و تميزت بحوثهم بالحديث عن الكثير من المبادئ التي دعت التداولية إلى الاهتمام بها مثل البعد المقاصدي⁽¹⁾.

لقد انتقل الحديث بالكاتب بعد ذلك إلى البحث عن المعايير و المقاييس التي بنى عليها العلماء القدامى تأسيسهم المعرفي لأجل تحقيق المفهوم البين لنمط الخبر و الإنشاء و الذي جعله بعضهم ضمن الطلب، فدرس من هذه المعايير الأهم منها، و تمثلت في خمسة عناوين وهي: معيار قبول الصدق و الكذب، ثم معيار مطابقة النسبة الخارجية، و معيار إيجاد النسبة الخارجية، و المعيار الرابع هو قصد المتكلم، أما الخامس فيتمثل في عدد النسب، و قد تناول ضمن الأول منها إشكالية اتخاذ البعض من القدماء لهذا المعيار للتفريق بين الخبر و الإنشاء، و ضرب أمودجا لذلك السكاكي (555-62 هـ) صاحب مفتاح العلوم على سبيل المثال لا الحصر، الذي أشار إلى أن هذا المعيار يُعتمد به في التعريف باللوازم التابعة لنمطي الكلام، و قد توصل من خلال ذلك إلى تعريف يجمع الخبر و الإنشاء على الطريقة التداولية مصاحبا ذلك بالأخذ من تناول العلماء القدماء فيقول فيه: "فإن تصور هؤلاء للخبر هو الكلام التام المفيد أو الخطاب التواصلية الذي يقبل الصدق و الكذب، و الإنشاء أيضا كلام مفيد أو خطاب تواصلية و لكن لا يقبل صدقا و لا كذبا"⁽²⁾، ثم انتقل الباحث بعد ذلك إلى تفنيد معيار مطابقة النسبة الكلامية للنسبة الخارجية مستعينا بأقطاب البلاغة العربية في التراث كالخطيب القزويني (ت793 هـ) صاحب تلخيص شرح المفتاح، و استنتج أن مفهوم الخبر و الإنشاء ساده بعض التغير جراء اتخاذ الكتاب للمعيار الموضح أعلاه، و بالتالي يقوم هذا المفهوم على: "أساس أن الخبر هو الكلام التام المفيد أو الخطاب التواصلية الذي لنسبته الكلامية نسبة خارجية، وأن الإنشاء ليس له تلك النسبة" و استطراد الكاتب ضمن هذا العنصر كثيرا نظرا لحساسية المحتوى

⁽¹⁾ ينظر: الحديث عن الطوائف الثلاث مع بعض التصرف الأسلوبية من البحث ضمن: مسعود صحراوي، التداولية عند

العلماء العرب، ص 56-57.

⁽²⁾ مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 61.

المعرفي للنسبة الخاريجية و التي يقصد بها ما هو موجود ضمن الواقع الفعلي الذي محله خارج دائرة الإنسان، و اهتدى بعد ذلك إلى ما جاء به الدسوقي ضمن كتابه شرح مختصر التفتازاني (722هـ - 792هـ) ، إذ أدخل هذا العالم مبدأ القصد الذي توسله لتوضيح المسألة و بالتالي إذا كان في نفس المتكلم قصدا واضحا لإجراء المطابقة الخارجية للكلام ينحو إلى اتخاذ الصبغة الخيرية، و إذا كان القصد هو عدم مطابقة الواقع الخاريجي للكلام ينحو الصبغة الإنشائية، وبالتالي يقترب أكثر من الدسوقي (653هـ - 696هـ) بطرحه هذا من المبدأ الذي اتخذته التداوليون و المتمثل في المقصدية *intentionnalité* التي تُعني برسم معالم الاتجاه الذي يتخذه الوعي نحو موضوع ما، و تُدعى بداية هذا الطريق بالقصد الأول، أما المرحلة الموالية فتدعى القصد الثاني، و يتم من خلالها إعمال الفكر في الموضوع المُدرك، و بالتالي تعني المقصدية العلاقة النشيطة التي تربط الفكر بموضوع ما و ليس الموضوع إلا الاستعمالات اللغوية المختلفة⁽¹⁾، و بالتالي يبدو من خلال هذا الطرح أن الأجيال العربية السابقة من البلاغيين تأرجحت في تكوين نظرتها للخبر و الإنشاء بين اتجاهين: الأول يتمثل في الوظيفية البنيوية، أما الثاني فيتمثل في الوظيفية التداولية، و تتجلى مظاهر هذه الأخيرة في حرصهم على مراعاة غرض المتكلم و التمييز بين المقامات المختلفة التي يُستعرض فيها الكلام⁽²⁾.

تَرَكَّزَ الحديث من بعد ذلك من طرف صاحب كتاب التداولية عند العرب حول رابع المعايير التي اتخذها الدارسون العرب القدامى، و يتعلق بالقصد الذي يرومه المتكلم صاحب أهم دور في العملية التواصلية، و ليس غريبا تناول هذا العنصر كمقياس للتمييز بين نمطي الكلام الذي يدور حولهما الحديث لأن مساحة القصد هي من الأمور التي شغلت حيزا دراسيا كبيرا عند القدماء، وعليه انتقى الكاتب من تراث علماؤنا الشيرازي ت 476هـ، الذي خُلصَ من خلال تناوله لظاهرة الخبر و الإنشاء أنه إذا كان الكلام: " غرضه الإخبار مع موافقة اللفظ إياه

(1) نجد ضمن المؤلف حديث عن طبيعة العلاقات التي تتخذها المقصدية و عددها ثلاث فأما الأولى فنفسية و الثانية هي المتعالية الترانسندالية حينما يخلق الوعي ذاته، أم الثالثة فهي الأنطولوجية و التي تكون حينما يتحمل الوعي خلق العالم الواقعي، جلال الدين سعيد، قاموس المصطلحات الفلسفية، ص 361-362، و ينظر: جون سيرل، كذلك العقل و اللغة و المجتمع، تر سعيد الغانمي، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2006، ص 128.

(2) ينظر: الحديث عن القضية ضمن: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 76.

فهو خبر، و إن كان غرضه غير الإخبار بالكلام إنشاء⁽¹⁾، ثم يصل بنا المطاف مع الكاتب إلى المعيار الخامس الذي اتخذته العرب القدامى في التمييز بين الخبر و الإنشاء، و يتمثل في عدد النسب، و المقصود من هذه الأخيرة أن الخبر يحتوي على: "ثلاث نسب: نسبة خارجية، و نسبة كلامية، و نسبة ذهنية"، و يقتصر الإنشاء على النسبتين الثانية و الثالثة، أما المعيار السادس فالحديث عنه لا يبتعد عن سابقه، و لقد اختار مسعود صحرأوي أحد العلماء العرب القدامى كي يتوصل بآرائه لتوضيح المقياس الخاص بتبعية النسبة الخارجية بالنسبة الداخلية أو الكلامية، و هو شهاب الدين القرافي (626هـ - 684هـ) صاحب أنوار البروق في أنواء الفروق، الذي تعرض إلى العمق التحليلي لظاهرتي الخبر و الإنشاء انطلاقاً من آخر ما توصلت إليه أذهان السابقين له في هذا المجال، على أساس أن المفاهيم التي تتعلق بالظواهر اللغوية تحكمها سنة التغير الذي تحدثه إضافات الدارسين لها، بداية من مراحلها المتقدمة من التحديد الدلالي وبلوغاً إلى الرؤيا المكتملة للظاهرة، و يعبر الباحث عن ذلك بقوله: "أن مصداق الخبر في الواقع الخارجي سابق عليه، و أن مصداق الإنشاء في الواقع الخارجي لاحق له"⁽²⁾.

إن الاستنتاج الذي يمكن أن نخرج به من خلال هذا السرد المسهب للمعايير التي جعلها علماءنا الأقدمون للتمييز بين ما هو كلام خبري و ما هو كلام إنشائي، يتمثل في تحديد طبيعة المنطوقات التي شكلت نقطة الارتكاز في هذا التحديد، و تتمثل في عدم انشغال هؤلاء في تحديدهم للفروق بواسطة البنية اللغوية للملفوظ دون الالتفات إلى ما هو خارج التركيب الصوري لهذا الملفوظ، و بالتالي لقد حدث التجاوز المعرفي عند علمائنا العظام قبل أن يحدث عند آباء النظريات اللسانية بداية من سوسير و وصولاً إلى أوستين و من جاء بعده من الذين تابعوا الجهود اللغوية، والذي يثبت صحة هذا الطرح هو الالتفاتة المجهرية التي سجلها القرافي والمتعلقة بالأشياء التي تقع خارج التركيب المادي للجملة، و يخلص الباحث في نهاية حديثه حول سلم المعايير المتخذة للتمييز بين الخبر و الإنشاء إلى تحديد مفهومي اعتبره زبدة ما قيل سابقاً فقال: "الخبر هو الخطاب التواصلي المكتمل إفادياً و الذي يريد المتكلم من نسبته الكلامية

(1) ينظر المرجع السابق، ص78.

(2) مسعود صحرأوي، التداولية عند العلماء العرب، ص80.

أن تطابق نسبته الخارجية، أما الإنشاء فهو الخطاب التواصلية المكتمل إفاديا و الذي يريد المتكلم من نسبته الكلامية أن توجد نسبته الخارجية" (1).

بالتالي ينبغي أن نصنف هذا الجهد ذي الصبغة التلميحية ضمن خانة الدعوة إلى ضرورة التأسيس النظري الموافق لروح اللغة العربية، والذي قدمه هذا المؤلف المنتمي إلى العصر الحديث، و يمكن أن نصنفه كذلك ضمن الرؤيا الموضوعية التي طرحها المفكر زكي نجيب محمود سليل طروحات علمائنا الأقدمين، و التي تتمحور حول توصيف النظرة إلى التراث التليد، الذي أطفأ من أجله الأجداد أنوار عيونهم بغية تكوين منظومة من القيم التي تحمل صفة الكليات المشابهة لما هو موجود في التفكير الفلسفي، و بالتالي فالحفاظة التي ينبغي أن تتجسد من الخلف -بفتح اللام- مقامها ضمن هذه القيم التي تقوم بعملية التسييج للمفاهيم العامة، و يمكن أن نبرز هذا الشأن بمثال المسطرة التي يمكن أن يستعيرها شخص ما كي يقيس بها القماش أو ما شابه ذلك بعدما كان يُقاس بها فقط الطول المرسوم على الورق، و هكذا: "تكون حالنا إذا ما استعرنا من الأقدمين قيمة عاشوا بها، و نريد اليوم أن نعيش بها مثلهم.. لكن الذي نختلف فيه وإياهم هو المجال الذي ندير عليها تلك القيمة المستعارة" (2).

لقد كان العرض السابق متمحورا حول نموذج من الكتاب الذين ضمنوا كتاباتهم دعوة تلميحية إلى محاولة وضع الحجر الأساس لتأسيس نظرية لغوية تستمد معينها المعرفي من التراث العلمي الذاتي، و لا تهمل بذلك ما أنتجته البحوث غير العربية في المجال اللغوي، و نجد أن بعضا من المهتمين العرب المنتمين إلى العصر الحديث من جعل هذه الدعوة في شكل تصريح، مرتكزا على التحليلات التي قدمها في هذا الإطار و التي منبعها تراث علمائنا اللغوي بشكل عام و البلاغي بشكل خاص، و من ضمن هؤلاء أحمد محمود نخلة الذي سجل ذلك ضمن مؤلفه المعنون بـ: **آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر**، و اختار عنوانا دالا على دعوته مفاده: **نحو نظرية عربية للأفعال الكلامية** (3)، و لقد أبدى الكاتب اتفاقا مع من سبق ذكره عن نظيره من أن المحتوى النظري لمبدأ الأفعال الكلامية يتوافق في التراث مع دراسات الخبر

(1) ن.م.س، ص82.

(2) زكي نجيب محمود، قيم من التراث، دار الشروق، القاهرة، مصر، 2000، ص7.

(3) أحمد محمود نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، دار المعرفة الجامعية، 2002، ص55.

والإنشاء، بيد أننا نُسجل طرحاً مختلفاً في بعض تفاصيله، إذ بدأ الكاتب طرحه من لفت انتباهنا إلى ضرورة مراعاة جانبيين: أولهما دعاه بعُرفية الاستعمال⁽¹⁾ و المقصود به ما تعارف عليه أبناء اللغة العربية من خلال التراكيب المتعددة، وما تتطلبه من تشكيل متنوع من السياقات التي تتوافق مع التراكيب، و يحتوي هذا العنصر على ثلاثة أنماط: العرف اللغوي الذي يكمن عمله ضمن التراكيب اللغوية كاختصاص الدابة بذوات الأربع، و ذلك بالرغم من إطلاق المصطلح على كل ما يدب على الأرض أي يتحرك، ونجد في هذا السياق إشارة لطيفة من تمام حسن إلى الخصوصية التي يتمتع بها العرف فيقول: "العرف ذاته يختلف في أي مجتمع عنه في المجتمع الآخر، مهما ضيقنا مدلول كلمة مجتمع"⁽²⁾ و بالتالي المقولة هي بمثابة الدعوة إلى المعين التراثي الذي ننتمي إليه و ينتمي إلينا و اتخاذه المنطلق، أما النمط الثاني فهو العرف الاجتماعي المتعلق بالألفاظ الدالة على الأشياء التي يتشارك في امتلاكها البشر كلهم، و كذا العرف الشرعي الذي يتمحور حول إطلاق مسميات تخص الجزء من الشيء المسمى و هي تدل على كليته⁽³⁾.

يسير الحديث بالكاتب إلى الملاحظة الثانية التي يحُثُّ على وضعها في الأذهان، إذ تعتبر من معالم طرح نظرية للفعل الكلامي ذات الانتماء العربي، و تتمثل هذه الملاحظة في فهم المقصد الذي يعمل المتكلم على تكوينه قبل الشروع في تأسيس العملية الحوارية التي يروم من وراءها هذا الطرف الفاعل التوصيل و كذا التأثير، و لقد سبقت الإشارة إلى ذلك من قبل، ولكن الشيء الذي أضافه الكاتب هو إشارته إلى توفر المتكلم على نمطين من القصد: فالأول ثابت و الثاني فمتغير، و ضمن هذا الإطار يتخذ المتكلم عدته من: "الوسائل الكلامية و غير الكلامية، كي يتسنى للسامع إدراك ما يريد"⁽⁴⁾. و عليه فالمراتب التي يتموضع ضمنها السامعون تتفاوت من شخص إلى آخر، و لذلك أصلٌ عند من سبق من العلماء الأجلاء، إذ نجد كتاب **البيان و التبيين** ينقل لنا عبره الجاحظ ما دونه بشرُّ بن المعتمر، و عرضه في مقام

(1) ن.م.س، ص85.

(2) تمام حسن، اللغة العربية معناها و مبناها، ص14.

(3) ينظر هذا التصنيف ضمن: أحمد محمود نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص85-86، و ينبغي الإشارة أن المؤلف استعان بمؤلفات أبي حامد الغزالي و من بينها المستصفى من علم الأصول، تح: حمزة بن زهير حافظ، المدينة المنورة، 1413هـ.

(4) أحمد محمود نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية-مصر، 2002. ص89.

خاص بذلك، و مما ورد فيها و له العلاقة بالبحث قوله: "وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات، فإن كان الخطيب متكلمًا تجنب ألفاظ المتكلمين، كما أنه إن عبّر عن شيء من صناعة الكلام واصفا أو مجيبا أو سائلا كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين"⁽¹⁾، و بالتالي لم يكتفي التركيب اللساني الذي حملته الصحيفة باستهداف الفاعل الحقيقي للحوار أي المتكلم، بل تعدت إلى الطرف الثاني و هو المخاطب الذي يتم به خيط التوصيل، و في كلا الأمرين تتحقق الجمالية اللغوية التي تستمد جمالها من الاستعمال الوظيفي للغة، و لقد عاين ذلك مونسي حبيب فأسس استنتاجه في شكل شرطين توافرها يحقق النجاح التواصلية فقال: "وبذلك جاءت الوثيقة أي الصحيفة، وتضافرت الإشارات فيها لتأكيد هذا المطلب- أي التوضيح الذي يروم التوصيل - إذ يتوقف الشرط الأول الوضوح على حق داخلي تترتب عنه مسؤولية المؤلف - و هو بمثالة المتكلم إذ الأصل في الخطابة الإلقاء و وسيلته الكلام - من الناحية الجمالية الصرفة، أما الشرط الثاني التبليغ فيقوم على حق آخر خارجي تترتب عليه مسؤولية أخرى، هي حق التلقي وما ينتظره من فعل القراءة والسماع"⁽²⁾.

يدخل الطرح الذي قدمه محمود نخلة ضمن دائرة كبيرة من الآراء التي دعت إلى ضرورة إيجاد معاملة متميزة مع التراث، إذ يستحضر من خلالها الدارس القيم التي رسمها الأولون ومشوا على إيقاعها المنتظم، كما أشار إلى ذلك زكي نجيب محمود، و لقد حاول بعض الباحثين في المجال اللغوي إعطاء تحديدات هذه الدائرة البحثية التي تقف كهزمة الوصل بين النتاج التراثي في اللغة و ما دونته أنامل الدارسين المحدثين في نفس المجال، و من بين هؤلاء تمام حسن الذي تحدث عن النتائج التي تسفر عنها معاملة الدارسين للتراث إذ قد يصدر منهم: "إطراء القديم

⁽¹⁾ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان و التبیین، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 135/1-136، و في المؤلف رواية تشير إلى أن بشرا كان مارا على جماعة يستمعون إلى خطيب لم ينل منه الإعجاب فدفع إليهم الصحيفة مكتوبة و مقروءة، و بعدها اعترف الخطيب لبشر بالمقدرة الخطائية، ينظر: البيان و التبیین، ج1، ص136.

⁽²⁾ بلاغة الكتابة الأدبية في صحيفة بشر بن المعتمر، مدونة مونسي حبيب، نشرها بتاريخ 25 أغسطس 2010 ضمن موقع مكتوب.

والإشادة به، و أحيانا أخرى باستبعاده و الاستبدال به، و أحيانا بالكشف عن الجديد الذي لم يشر إليه القدماء مع وضوحه أمام أنظارهم، و أحيانا نجمع الظواهر المتفرقة المترابطة التي لم يعن بها القدماء بجمعها في نظام واحد⁽¹⁾ .

إن النشر الفكري الذي سبق في الفقرات أعلاه يمثل نموذجين عن الدعوات المنطلقة من أهل الضاد إلى ضرورة العودة إلى الكتابات التراثية لعلمائنا الأجلاء، و كذا الاطلاع على الإنتاج العلمي اللغوي الغربي، و محاولة الخروج بفهم حسن لأسباب التحضر القرائي في المجتمع العربي، و الملاحظ أن ما يجمع هذين الطرحين أكثر مما يفرقهما، لأن العناصر المتناولة من طرف المؤلفين تكاد تتضارع في منابعها المعرفية التي استقت منها الطروحات النظرية، و أول مظهر للتضارع المعرفي يتمثل في اتفاقهما على تحايت مبدأ الفعل الكلامي التداولي مع ظاهرتي الخبر والإنشاء عند علمائنا الأجلاء، و لقد تمت الإشارة إلى ذلك في السابق القريب، إلى جانب تناولهما للتبلور الذي عرفته ظاهرة الخبر و الإنشاء من حيث تعريفهما، و لقد حاول البحث تبيان ذلك في الفقرات السابقة مع تبيان أهم الآراء التي اتخذوها كسند علمي، أما أهم عنصر في هذا كله فيتمثل في الاستنتاجات التي تمّ التوصل إليها من طرف الباحثين، و المتمثلة في التقارب الموجود بين دراسات القدماء و نظيراتها عن المحدثين من الغرب، إذ نجد إشارات صريحة عن تشابه الدلالات التي تؤدّيها تصنيفات الكلام مع الاختلاف في المصطلح و الذي يُعدّ غير مؤثر، فطرح صاحب كتاب التداولية عند العرب مقارنات يهدف من خلالها إلى تقريب المصطلحات عند الفريقين، منتقيا سيرل كنموذج على أساس أنه صاحب التصنيف المتطور المبني على قراءة حديثة لتصنيف أستاذه أوستين، و بالتالي يمكن إدراج الخبر على تخمين سيرل ضمن التقريريات assertifs، أما الإنشاء فيندرج ضمن الأنواع الكلامية الأخرى و هي متعددة كالأمريات directifs ويدخل ضمنها الأمر و النهي و الاستفهام، و الايقاعيات déclaratif كالألفاظ العقود، والبوحيات expressifs كالمدح و الذم و التمني⁽²⁾، و لم يبتعد كثيرا محمود نخلة في إطار عملية تقريب الأنماط الحديثة للكلام من قرينتها عند أهل تراثنا، و كان

⁽¹⁾ تمام حسن، اللغة العربية مبناها و معناها، ص9.

⁽²⁾ ينظر: هذا التصنيف في: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص83، و للتذكير فإن البحث قد أفرد لهذه الأنواع شرحا مفيدا أنظره ضمن الحقول الإجرائية في خلال الحديث عن مبدأ الفعل الكلامي.

أكثر جرأة حينما صرح بذلك فقال: "من هنا أرى أننا إذا عدلنا عن تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء، و قسمناه تقسيماً أولياً إلى أفعال يكون اللفظ بها إيقاعاً للفعل، و أفعال تصف الواقع الخارجي و تخبر عنه، أو إلى أفعال إيقاعية وأفعال إخبارية، أو إلى إيقاعات وإخباريات... فسوف نضع اللبنة الأولى في نظرية عربية للأفعال الكلامية"⁽¹⁾.

لقد كان هدف البحث من وراء العرض المختصر لرأيي الكاتبين السابق ذكرهما، هو تبيان المحاولات الحثيثة التي يقوم بها الباحثون المهتمون بلغة الضاد، إذ إن هناك التفاتات أخرى تحدث عنها آخرون ضمن نفس المجال أي محاولة التأسيس لنظريات لغوية عربية الطبع، وذلك بطريقة موضوعية تتسم بمحاولة الاطلاع على ما كتبه العلماء القدماء في الشأن اللغوي، و كذا محاولة ربطه بالذي توصلت إليه عقول الغرب في العلوم اللغوية، و كأن الطرح الذي قدمه البحث يفتح نافذة أخرى للكتابة النقدية، و يتمثل في محاولة إنزال المبادئ التداولية على الآراء النقدية ذاتها، بحيث تصبح هذه الأخيرة موضوع البحث و مدونته التي يعتمد عليها، والرأي أن الذي قام به هذا البحث ضمن عرض آراء الكاتبين يدخل في هذا الإطار، لأن السياق الذي يتوافق مع هذا الرأي يستدعي مثل هذه الدعوات لأجل استنهاض العقل العربي لتسخير جزء من الانشغال العلمي بمسألة اللغة العربية.

4.1 - الإشارات:

4.1- الإشارات من حيث التعريف و التحديد:

إن الحديث عن الإشارات في باب التحليل اللغوي يُعد مسألة ذات أهمية في الجانب التطبيقي للمنهج التداولي قيد المقاربة، إذ نجد أن المصطلح في المعجم العربي يتخذ له أشكالاً عديدة، فمن بين المعاني التي يحملها أنه يعني الإيماءة، لأن أوماً تعني أشار، و من بين معانيها كذلك الأمانة أي العلامة أو الأثر، وكل هذه الكلمات لها دلالات متقاربة تصب في المصطلح الذي بنى عليه أهل التحليل السيميائي مطارحاتهم النظرية، و نعني به السيمة و التي يقصد بها العلامة، هذه الأخيرة اتخذ منها بيرس (Charles Sanders Peirce 1839-1914) مادة للبحث وموضوعاً غرضاً لاقتحام اللغة من الأبواب التي كانت موصدة، و الحديث عن هذا المجال يطول

⁽¹⁾ أحمد محمود نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي، ص 98.

كثيراً لأن كل من سولت له نفسه الكتابة عن علوم التحليل الحديثة للغة اتخذ له من موضوع العلامة سبيلاً أضافه إلى السبل التي أختارها لبحثه، و عليه فإن الذي يطرح أهميته في بحثنا المتواضع هو مدى التعالق الموجود بين موضوع تداولي يدعى الإشارات و موضوع يخص السيميائية و هو العلامة.

لقد كان من الحديث السالف في هذا البحث ذكرُ بعض التُّفّ المعرفة الخاصة بالفيلسوف بيرس، و ذلك على سبيل ربط العلاقة بما أنتجه هذا الرجل من مفاهيم نظرية تلتقي بمبادئ المنهج التداولي، وقد ذكر من قبل أن الاهتمام الذي أولاه بيرس لموضوع العلامة كان له الأثر الشديد في لفت نظر الدارسين للجانب الاستعمالي للغة⁽¹⁾، و تظهر العلاقة أكثر بين السيميائية والتداولية في أن الأولى صنعت الأبحاث التي أرست الأرضية النظرية لمفاهيم التداوليين المتعلقة باللغة في سياقها الاجتماعي، و بذلك يظهر دور بيرس في أنه: "ألزم بوضوح الدراسة اللغوية بالمنظور التواصلية و الدلائلي الذي يسمُ المقاربة التداولية التي تُعنى بورود العلامة"⁽²⁾، وللإشارة فإن الدافع الموضوعي للحديث عن بيرس ضمن هذا العنصر من البحث يتمثل في أن مصطلح الإشارات يحمل دلالة ترتبط بمفاهيم العلامة التي انطلقت من الفضاء المعرفي لسيميائية بيرس، و الذي أظهر من خلالها اهتماماً مفرطاً تمثل في ربط حيثيات الإشارة بالطرق التي تبعث على تفعيل عملية النجاح الفعلي في الالتقاء التواصلية⁽³⁾، و إذا أردنا أن نذهب إلى بعيد على سبيل التفتيش عن الأصل المعرفي لهذه القضية، فإنه ينبغي أن نتذكر أن بيرس و من سار معه في هذا الرواق ينظرون إلى العالم الذي تُترجمُ اللغة على أنه جملة من العلامات التي تحيل بدورها إلى علامات أخرى، و بالتالي يصبح الإنسان الذي يعتبر الفاعل الحقيقي لعملية التحاور اللغوي الذي يروم من ورائه الإنزال الإنجازي للأفعال، يصبح قارئاً: "للكون المحيط من خلال علامات و يعبر عنه وسط أنظمة من العلامات نحقق من خلالها عمليات التواصل و ننجز بصفة ناجعة أعمالنا اليومية"⁽⁴⁾.

(1) ينظر عنصر المنشأ و التأصيل الفلسفي للتداولية ضمن المدخل، ص2.

(2) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، مرجع سابق، ص43.

(3) ينظر: عبد الحكيم سحاييلة، التداولية امتداد شرعي للسيميائية، ضمن الملتقى الوطني المنعقد بجامعة محمد خيضر بسكرة،

الجزائر 15-18 نوفمبر 2008، ص422.

(4) امبرتو إيكو، السيميائية و فلسفة اللغة، تر: أحمد الصمغي، ص13.

ينبغي أن نشير على سبيل احترام المنهجية أن الحديث عن الفكرة السابقة المتمثلة في إثبات الارتباط بين مسألة المبدأ التداولي المتمثل في الإشارات بالمفاهيم العلامية-نسبة للعلامة- التي جاء بها بيرس يدخل ضمن البحث عن دائرة التداخل الذي يقع بين المفاهيم التي أنتجتها معظم الحقول المعرفية التي تبحث في الجانب اللغوي ضمن النظريات الحديثة، و التي تعتبر التداولية الجزء الأهم منها، و يعود التعليل في ذلك إلى أن مفهوم الإشارات يتخذ مسارا آخر غير الذي نتوقعه من أن العلامة هي التي ساهمت في إنتاجه، لأنها تترع في عمومها إلى المنحى النظري التجريدي، بيد أن الإشارات تظهر بالشكل التقني الذي يحتاج من يريد الولوج إليه إلى الآليات الإجرائية، و يتعلق اعتماد هذه الإشارات بالسياق الذي تُستعمل فيه لأنها: "علامات لغوية لا يتحدد مرجعها إلا في سياق الخطاب التداولي"⁽¹⁾، و بالتالي فإن الدلالة التي يرومها المتكلم من وراء الملفوظ الذي يستعمله تتعلق بمدى الاستعمال الناجح لهذه الإشارات، و غالبا ما تتحدد هذه الأخيرة بجملة من الروابط اللغوية التي تستعمل في الكلام المكتوب أو الشفهي مثل الضمائر بنوعيتها المتصلة و المنفصلة و الألفاظ الدالة على الزمان و المكان سواء أكانت ظروفًا أو أسماء، و تعتبر بذلك الإشارات من أهم المصادر التي يستقي منها المخاطب التأويل القريب من الصحة، إذ يعمل المتكلم على تشكيل هذه الإشارات ضمن الملفوظ الذي يؤسسه، و بالتالي فالإشارات تمثل مساحة وصفها الشهري بأنها: "أعرف المعارف، مثل أسماء الإشارة عند النحويين، لأنها تتعرف بالقلب و العين، و غيرها يتعرف بالقلب فقط"⁽²⁾.

يكاد يكون مصطلح الإشارات قريبا من المصطلح العربي الذي نجده يتردد في الكتب التراثية و هو الأداة، و لهذا المصطلح شكل شمولي استطاع الباحثون الأوائل أن يضعوا تحت نطاقه الكثير من المفاهيم التي وردت في تعريف الحروف، فنجد ابن هشام الأنصاري يتحدث عن قضية الأداة فيقول عنها أنها: "الحروف و ما تضمن معناها من الأسماء و الحروف"⁽³⁾ كما نجد صاحب الإتيقان غير مبتعد عن هذا التعريف للأداة فيقول أن الأدوات هي: "الحروف و ما

⁽¹⁾ عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1/2004، ص80.

⁽²⁾ عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص51، لقد ذكر ذلك في خلال حديثه عن أهمية المعرفة المشتركة بين المتخاطبين أو كما دعاها بالمعرفة التداولية.

⁽³⁾ ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج1، ص17.

شاكلها من الأسماء و الأفعال و الظروف ..و يختلف الكلام و الاستنباط باختلاف مواقعها"⁽¹⁾، و بالتالي يتبين لنا من التعريفين السابقين أن ما توصلت إليه المناهج الحديثة في بحوثها اللغوية لا يختلف كثيرا عن ما توصل إليه الأوائل، بل قد نجد أن أهل التراث كانوا أكثر دقة و أكثر تفنيذا، ويظهر ذلك بجلاء في الكلمة المستعملة في تعريف صاحب الإتقان و هي: "و ما شاكلها" أي أن المفهوم الذي يتضمن الأدوات لا يحتوي كل من سقطت عليه صفة الفعلية أو الاسمية، بل فقط من شابه الحرف أو الأداة⁽²⁾ في أحد خصائصها و المينة في كتب النحو المختلفة.

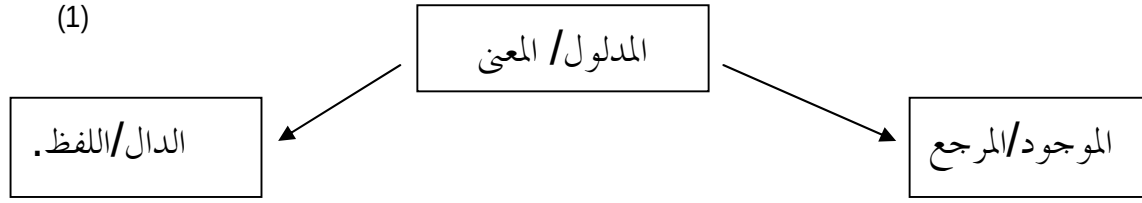
إن أنواع الألفاظ المشار إليها أعلاه تنتمي إلى المجال النحوي أكثر من انتمائها إلى المجالات اللغوية الأخرى كالدلالة، و لكن هذا لا يعني انغماسها التام في النحو بل لها تعالقات تبدو أحيانا مشكلة لفضاء معتبر في الحقل اللغوي، و أحيانا أخرى يرد ذكرها على سبيل دعم التوضيح و التبيان في المسألة اللغوية المراد تفسيرها، و يشير الباحث احمد محمود نحلة في هذا المجال إلى أن المشكلة التي تعترض عدم فهمنا لبعض الملفوظات تتمثل أحيانا في غموض ما تحيل إليه الإشارات الواردة في الملفوظ، و بالتالي دعت الضرورة الدراسية إلى ظهور نهج جديد تتمزج فيه على الشاكلة المعرفية المفاهيم الدلالية بالمبادئ التداولية، ودُعي هذا النهج بعلم الدلالة المقامي *sémantique situationnel*⁽³⁾، و الإشارات أنواع تتحدد بحسب الوظيفة التي تعمل على تأديتها في الجملة ذات المحتوى اللساني، والتي تتحدد على إثرها مواصفات المرجع *référence*، هذا الأخير جعله بيرس الطرف الأساسي الثالث في نظرية العلامة بالإضافة إلى المدلول أو المعنى أما الطرف الآخر فهو اللفظ⁽⁴⁾، و الرسم البياني الآتي يمثل القضية بشكل واضح:

⁽¹⁾ جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار عالم الكتب ، بيروت، لبنان، 145/1.

⁽²⁾ الأداة في اللغة هي الآلة، و هي في النحو كلمة تربط بين جزأي الجملة أو بين جملتين، و ذلك كأدوات الشرط والتحضيض، و التمني و الترجي، و هي قسمان: قسم يتضمن كل حروف المعاني في اللغة العربية، و كل الحروف لا محل لها من الإعراب، و قسم يتضمن كل الأسماء، كأسماء الشرط و الاستفهام، ينظر: إميل بديع يعقوب موسوعة علوم اللغة العربية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج1، ط1، 2006، ص303.

⁽³⁾ ينظر: أحمد محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص17.

⁽⁴⁾ ينظر: فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص41 .



يمثل الشكل البياني أعلاه الأطراف التي يتكون منها الثالوث العلامي و هي: "الشيء الموجود في الطبيعة خارج اللغة، و الكلمة التي هي اسم لهذا الشيء، و المعنى الذي يفهمه المرء حين يسمع الكلمة"⁽²⁾، و هكذا تتضح من خلال هذا الأمر معالم الترابط النظري بين مسألة الإشارات و المنحى البيروني في العلامة أو السيمة، و يتشكل فيما بعد حقل السيميوزيس simiosis الذي يعبر عن المسار الدلالي للفظة بمثابته منتوج لساني، و تعمل على تغذية هذا المسار العملية التوليدية للدلالات التي تشكل المفهوم العام للكلمة، هذا المفهوم هو الذي يصير بعد مرور زمن معتبر من العملية التوليدية عرفا إجتماعيا ضمن أشكال التخاطب المتنوعة، و بخاصة التي تتعامل باللغة العادية و التي تمثل مناط النهج التداولي.

لقد أظهر بيرس تقدما معتبرا في تنظيره لعملية التطور الدلالي حيث استطاع أن يحلل الأطراف التي تتشارك في هذه العملية و منحها مصطلحات مُحددة للمحتوى المفهومي الذي تحمله، فالمادة الدالة عنده: "هي التي تتكون من الحامل و المحمول support/véhicule، أما المدلول يمثل الدال، و المؤول l'interprétant"⁽³⁾، و يتعمق بيرس كثيرا في المسألة و يذهب

⁽¹⁾ المرجع حقيقة غير لسانية تستدعيها العلامة، وهو اسم مفرد واقعي يمكن أن يشار باسم مشترك، و لقد جعل ياكبسون المرجع و السياق متقاربين، أما الوظيفة المرجعية للغة فتعني ربط العلاقة بين العلامة و ما تشير إليه، ينظر: سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1985، ص97،

⁽²⁾ مبارك مبارك، معجم المصطلحات الألسنية، دار الفكر اللبناني، بيروت، ص260.

⁽³⁾ فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص41.

إلى بعيد، حيث يحدد مصطلحين آخرين يستطيع بهما التفريق بين اللغة في المجال اللساني التجريدي و اللغة في المجال السياقي الاستعمالي، أما الأول فهو: "النمط Type و يمثل العلامة بما هي كيان مجرد مثالي و تقع في اللسان"⁽¹⁾، أما المصطلح الثاني فهو الورد Occurrence وهو: "الاستعمال الملموس للنمط في السياق"⁽²⁾، و بالتالي يتضح لنا أن: "المعنى الحرفي هو النمط، أما الدلالة في السياق فهي من الورد"⁽³⁾ و الشكل التالي يوضح المسألة:

المعنى/النمط ← المحتوى اللساني المجرد.

المعنى/الورد ← المحتوى اللساني السياقي الاستعمالي⁽⁴⁾

تأخذ العلامة عند بيرس أشكالاً نوعية، و كل شكل يحمل تحديدا نظريا خاصا به، وهي ثلاثة أنواع: العلامة الرمز، و العلامة الإشارة، و العلامة الأيقونة، و يتحدد مفهوم كل طرف بحسب الوظيفة التي يؤديها أثناء إنزاله إلى الوجود الفعلي في الشكل اللساني اللغوي، و لقد حددت فرانسواز أرامينكو هذه المفاهيم فقالت عن النوع الأول أن العلامة تُعد رمزا: "إذا كان ما تمثله ملازما لها عرفا، و تلك هي حالة علامة اللغة، و الكودات الثقافية العامة، و يلزم العرف العلامة و بالضبط كما يلزم النمط المدلول"⁽⁵⁾ و بالتالي يُعوض هذا المفهوم أي الرمز عند بيرس ما كان يراه سوسير من أن العلامة تتخذ طريقا اعتباطيا، أما النوع الثاني و الذي يخص العلامة حينما تكون إشارة فإن شرط تحققها يتمثل في تحقق الاتحاد بين العلامة و الإشارة في الوجود، و المثال التوضيحي المشهور الذي يُضرب في مثل هذه المقامات هو الثنائية المنعقدة بين النار و الدخان و بين العرض و المرض، ثم يتلو ذلك النوع الثالث من العلامات و هو

⁽¹⁾ ن.م.س، ص42.

⁽²⁾ ن.م.س، ص42.

⁽³⁾ ن.م.س، ص42.

⁽⁴⁾ رسم بياني اجتهادي بناء على الحاشية السابقة.

⁽⁵⁾ فرانسواز أرامينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، ص19.

العلامة الأيقونة التي ينظر إليها بيرس على أنها تلك العلامة:" التي تقيم علاقة مشابهة مع موضوعها"(1).

إن المصطلحات المطروحة في الفقرة السابقة عن العلاقات العامة التي تربط العلامة بالأشياء الموجودة في العالم، و التي حُددت في الرمز و الإشارة و كذا الأيقونة تتمفصل بمفاهيم أخرى تتعلق بالمنهج التداولي على حسب التقاطعات النظرية بين الطرفين، و بالتالي ما يلاحظ هو أن النوع الثاني للعلامة وهو العلامة الإشارة يتعلق نظريا بالمبدأ التداولي الخاص بالإشارات، و قد تحدثت عن ذلك فرانسواز أرامينكو في مؤلفها بقولها:"و بذلك نجد للتوزيع الثلاثي الرمزي و الإشاري و الأيقوني، قيمة سيميائية، إلا أن التسليم بعلامة إشارية يجد تطبيقه لسانيا، فإحالة كلمتين، مثال أنا أو هنا تتحدد من خلال سياق وجودي، و يدرسهما جزء من التداولية كرموز إشارية"(2).

1.4.1- أنماط الإشارات التداولية: الإشارات أشكال خمسة و هي كالتالي:

1.4.1- الإشارات الشخصية: déictiques personnel و هي المتمثلة في ضمائر المتكلم الدالة على المفرد "أنا" أو الدالة على الجمع "نحن"، و تدخل في هذا الإطار كذلك ضمائر المخاطب الدالة على المفرد أو الدالة على الجمع، و تُستثنى من ذلك الضمائر المبهمة أي التي لا دلالة لها على مرجع معين بل تنزع نحو العموم، و يعود السبب في هذا الاستثناء النظري لهذه الضمائر لعدم توفرها على تفاصيل السياق الذي قيلت فيه من جهة، و للغموض الذي يعتري الدارس لها في محاولة تحديده للمرجع الذي تحيل عليه، و بالتالي تُعد ضمائر الغائب كذلك مستثناة من هذا الطرح لأن البناء الفكري للمنهج التداولي بُني على التفاصيل الفعلية التي تحدث في سياقاتها، أما و الحالة هذه فإن الغائب يظل يدل على غير الحاضر، و بالتالي تبتعد أثناء التحليل الصيغة الحقيقية للسياق، الذي يوافق أكثر ما يوافق النوعين الآخرين من الضمائر أي المخاطب و بصفة أشد المتكلم، لأنه الدال على الحضور الذي يأتي من وراءه أهم أثر يُرتجى من الطرف الثاني للحوار و هو التجسيد الإنجازي للفعل اللغوي .

(1) أمبرتو ايكو، السيميائية و فلسفة اللغة، تر: أحمد الصمعي، اقتبست من الكتاب الفروق بين الأنواع الثلاثة للعلامة، ص455، ينظر كذلك في هذا الشأن: فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص42-43.

(2) فرانسواز أرامينكو، المقاربة التداولية، مرجع سابق، ص19.

تنطرح قضية المرجع في مسألة الإشارات بقوة، إذ إننا لا نستطيع تحديد المقصود من الملفوظ حتى يتسنى لنا التحديد الواضح للأشياء التي تشير إليها الألفاظ التي عُنت بالإشارة، وبالتالي يتطلب هذا الأمر إنزال العلامة الإشارة إلى الواقع الفعلي الذي يعتبر المساحة الحقيقية للاستعمال اللغوي لأن قضية المرجع ظاهرة تتعلق باللغة في الاستعمال وليس خارج الاستعمال⁽¹⁾ وهذا الأخير هو مناط التعابير الإشارية، و يجدر بنا أن نذكر في هذا الإطار ما كتبه أمبرتو إيكو عن نفس القضية المتناولة، فبيّن أن العلامة تستقي تحديدها الحقيقي من ساحة الاستعمال اللغوي فقال: "العلامة ليست وحدة من نظام الدلالة لكنها وحدة يمكن التعرف عليها من عملية التواصل"⁽²⁾ ويضرب إيكو مثال العصا التي تعتبر شيئا من العالم الموضوعي والفعلي على حد سواء، فهذه العصا في يد الضرير ليست هي ذاتها في يد المبصر، ففي الحالة الأولى تعبر عن الشفقة و عن واجب المعاونة و كذلك عن تقديم الأولوية لحاملها، أما الحالة الثانية فتختلف تعبيراتها فتصير إلى القوة و الدفاع عن النفس إلى غير ذلك مما قد يعنيه هذا الشيء و بالتالي فـ: "العصا على مستوى النظام فقيرة جدا أما على مستوى الاستعمال التواصلية فهي ثرية جدا"⁽³⁾.

2.1.4.1-الإشارات الزمانية: Déictiques de temps الزمن عامل ذو فعالية قصوى و ذو امتداد لانتهائي، و لقد أهلك هذا الموضوع الكاهل التفكيرى للكثير من الفلاسفة، و السبب في ذلك يعود إلى الزبئية التي يتميز بها، و التي تتجلى أكثر في التعدد المفاهيمي الذي يتخذه هذا الزمن، فقد حدده بعضهم على ثلاثة أقسام عامة و هي: الزمن الفلسفي المنطقي، الزمن التقويمي الفلكي، و الزمن اللغوي، و تتحدد ماهية النوع الأول في: "الزمن داخل الوجود المادي و خارجه..أي الوجود المتصور الذي يكون تارة ذهنيا و تارة أخرى يكون مشخصا"⁽⁴⁾، أما الزمن الفلكي فهو المعروف عند عامة الناس و الذي نستطيع قياسه بآلة قياس الزمن و منه يتجلى التأريخ المعمول به في مجالات الحياة، أما النوع الثالث فهو المتعلق بالبحث

⁽¹⁾ Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, p351.

⁽²⁾ أمبرتو إيكو، السيميائية و فلسفة اللغة، تر: أحمد الصمعي، مرجع سابق، ص59. لقد ذكر الكاتب العلامة بوجه عام و بالتالي تدخل في إطارها الأنواع الثلاثة.

⁽³⁾ المرجع سابق، ص59.

⁽⁴⁾ مالك يوسف المطلي، الزمن و اللغة، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مصر العربية، بيروت، 1986، ص9.

الذي نحن بصدد الكتابة فيه، و قد اصطلح عليه بالزمن اللغوي نسبة إلى الحقل الذي يحمل الدلالات و التي تتمثل في الواقع الفعلي على شكل ألفاظ و عبارات، و للعلم فإن الحيز المكاني يتم ذكره كلما ذكر الحيز الزمني و ذلك لأنهما متلازمان و يمثلان وجهين لعملة واحدة، أضف إلى ذلك العامل المهم فيهما و هو الحركة، فالزمن: "غالبا ما يُقرن بالحركة، و الحركة تُقرن بالمكان، بحيث يموت مفهوم الزمن و يذوب في مفهوم المكان"⁽¹⁾، كان هذا العرض البسيط لمفاهيم زمنية من قبيل تعلق الإشارات بالزمن و هو الجوهر الذي تنطلق منه لأجل تحديد البؤرة الزمنية الفعلية للملفوظ، و يتمثل في مركز الإشارة الزمانية le centre déictique temporelle لذلك تسير عملية استعمال الظروف المكانية أو الزمانية في نفس الاتجاه الذي يحدده زمن التلفظ و مكان الكلام، فاستعمال ظروف ما مثل : غدا، أمس ، بعد قليل ،يمين أو يسار ، قبل، بعد ... يخضع لحيثيات السياق الذي وقعت فيه عملية التلفظ énonciation، إذن لا بد من الإحاطة بعملية تحديد المرجع الحقيقي للزمن و المكان من خلال النظر إليهما من زاوية السياق الاستعمالي للملفوظ.

3.1.4.1 - الإشارات المكانية déictique de lieu⁽²⁾: لا يكاد الحديث يختلف في

هذا العنصر عن نظيره في العنصر السابق الخاص بالإشارات الزمنية، و يعود السبب في ذلك إلى ما سبق البت فيه عن التلازم الذي يسود الفضاء الزمني مع الفضاء المكاني في السياق اللغوي، و بالتالي تعتمد الإشارات المكانية على عامل مهم في التحديد المكاني للحدث الذي ينقله المتكلم للمخاطب عبر العملية التلفظية، و يتمثل هذا العامل في معرفة إدراكية للموقع الذي يرسل منه المتكلم كلامه و كذا الاتجاه الذي يتخذه، فإذا اختار شخص ما العمل في مكان محدد بالنسبة له فإننا لا نستطيع أن ندرك هذا المكان في حالة تصريحه بالملفوظ الآتي: أحب العمل هنا، و عليه فإن الإشارة المستعملة "هنا" هي ظرف غير كاف لتحديد المكان بشكل واضح، حتى نحدد بدقة الموقع الذي يتكلم منه منشئ الملفوظ، فرمما تعني "هنا" المصنع، أو المدينة، أو الدولة ... بالتالي في حالة عدم الإدراك المكاني ستؤول العملية التلفظية إلى

⁽¹⁾ عبد الصمد زايد، مفهوم الزمن و دلالاته في الرواية العربية المعاصرة، الدار العربية للكتاب، 1988، ص16.

⁽²⁾ لقد تم نقل المصطلحات المتعلقة بعنصر الإشارات من الانجليزية إلى الفرنسية من طرف البحث.

الإخفاق بدل من النجاح، و قس على ذلك الأمثلة التي تستعمل فيها الظروف المكانية بمختلف أنواعها، و بدلالاتها المتعددة.

4.1.4.1-إشارات الخطاب déictique de discours

لقد تعرضنا في السابق القريب من البحث إلى مسألة المرجع التي جعلها بيرس العنصر الثالث المكون لدلالة العلامة، و بالتالي تنطرح هذه القضية في هذا العنصر بصفة إلحاحية، إذ إن الإشارات بوجه عام تحتاج إلى مثل هذه المراجع و ذلك لأنها تقوم بدور الإحالة فقط، و مثلها في هذا الشأن مثل الحروف في اللغة العربية التي تنعدم فيها الدلالة في حال وجودها في سياق لغوي منفرد، فهي تحتاج إلى الأسماء أو الأفعال كي تُكون لنفسها معنىً ودلالة يفيد منهما السامع، و قد يقع في هذا الأمر بعض الالتباس بين الإشارات من جهة و بين الألفاظ الإستباقية anaphore⁽¹⁾، أو الألفاظ الإلتحاقية cataphore من جهة أخرى و التي تؤدي دورا توضيحيا يقترب من الدور الذي تؤديه الألفاظ الإشارية، لكن يبقى الفرق بينهما قائما من زاوية أن هذه الألفاظ تحيل إلى مرجع موجود داخل النص الصادر على شكل ملفوظ من متكلم محدد المعالم، و غالبا ما تحيل على مرجع يدي تجاهه السامع عدم المعرفة أو يدي عدم قدرته على إدراكه، أما الألفاظ الإشارية تحيل على مراجع من خارج النص، و قد تكون هذه المراجع من الأشخاص المعنيين بالحوار، و كأن الإشارات تعمل على إدخال المرجع الجديد الذي لم يأتي ذكره في الملفوظ وقت إجراء العملية التلفظية⁽²⁾.

إن الكلام عن الإشارات التي سبق الحديث عنها يدخل ضمن مساحة المفاهيم النظرية لهذا العنصر، ذلك لأن الكثير من الألفاظ التي تمثل هذه الإشارات هي التي تُتخذ وسيلة لتحليل الإنشاء اللغوي ذي الشكّلين المنطوق و المكتوب، و من بين هذه العبارات "مهما يكن من أمر..." التي يُشار بها لقصد ترجيح رأي معين على

⁽¹⁾ anaphore و تعني بها تكرر الكلمة أو العبارة الأولى في أبيات متتالية و ذلك لغرض بلاغي، و هي تمثل الإشارة العائدة على سابق و مصطلح anaphorique هو الضمير الشخصي أو الإشاري الذي يعود على تركيب اسمي سابق أو على تركيب اسمي لاحق، ينظر: مبارك مبارك، معجم المصطلحات الألسنية دار الفكر اللبناني، ط1، 1995، ص23.

⁽²⁾ ينظر الفروق بين الإشارات و بين الألفاظ الإستباقية في dictionnaire d'analyse du discours, pp159,160.

رأي آخر، و عبارة "فضلا عن ذلك" التي تُستعمل من أجل إضافة كلام آخر إلى قضية قد أُثيرت من طرف المتكلم و تتطلب توضيحا أكثر، و هناك كذلك الصيغة التي يلجأ إليها صاحب الملفوظ لأجل إلحاق التحقير و التضعيف برأي معين و هي قيل أن، و عليه فالعبارات من هذا القبيل موجودة بقوة في اللغات بوجه عام و في اللغة العربية بوجه خاص .

5.1.4.1-الإشارات الاجتماعية⁽¹⁾: déictiques sociale يعبر هذا النوع من الإشارات على سياق واسع و فضفاض و هو السياق الاجتماعي، هذا الأخير هو ذلك النسيج التي تكتنفه الكثير من التعقيدات و الناتجة عن التداخل المنظم بين العلاقات المختلفة بين الأفراد المختلفين، و تأتي الصيغة التنظيمية لهذه العلاقات من القيم التي اتفق عليها هؤلاء الأفراد المنتمين إلى المجتمع الواحد بله على تكريسها في الواقع الفعلي، و عليه فإن اللغة تدخل في النسيج الفكري لهذه القضية بشكل أساسي لتشكيل القناة التي تنتظم عبرها هذه العلاقات، و ذلك بالاعتماد على التقسيم المنتظم للفئات في المجتمع، و يعتبر الحوار عنوان هذه الإشارات، ويتخذ الحوار الكلامي أشكالا على قدر مكانة الفئات الاجتماعية التي تستعمله، ففي ميدان المخاطبة المباشرة مثلا نستعمل كلمات مميزة لمن هم أكبر منا سنا احتراماً لهم فنخاطب المفرد بضمير الجمع بصيغة: انتم، أما إذا كانت الحالة التلفظية موجهة لمن هم مثلنا في العمر أو لمن هم أدنى منا فإن اللفظ يختلف فيصير المفرد يُنادى بصيغته الحقيقية لا المجازية، ونجد هذا الأمر معمولاً به في المؤسسات الرسمية كالإدارات و المديرات و ما إلى ذلك من الأمكنة التي تعبر عن حالات خاصة في التعامل، و الذي يرشد المتكلم إلى الصيغة الحقيقية للتعامل هو السياق الفعلي للغة أي حينما يتم إنزال الكلام الفردي إلى الساحة الإستعمالية .

يشكل التواصل في هذا المجال الأرضية الأساسية التي يبنى عليها الإنسان الممارس لعملية التلفظ البنية الكلامية التي يستعملها لربط العلاقات مع بني جنسه كمجال التحية الذي اخترناه كمثال على ذلك، و للإشارة أن مسألة اللغة و مكوناتها تعتمد أساساً على الدينامية التواصلية

⁽¹⁾ لقد أخذت أنواع الإشارات المشروحة في العنصر الخاص بها من: احمد محمود نخلة ط، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، مرجع سابق، و للإشارة فإن الأخذ كان بالتصرف الشديد، على أن المصطلحات هي محل اتفاق الدارسين من حيث المحتوى أما من حيث النقل من اللغة الأجنبية فهو محل الخلاف: ينظر من: ص 17 إلى ص 26.

التي تسري في المجتمعات، و من نتائج هذه الحركة الدينامية أنها تكسب الفرد المنتمي إلى مجتمع معين لغة اتفق عليها الأفراد الذين يشكلون اللبنة الأساسية في هذا المجتمع، و لا يستطيع هذا الإنسان الانفكاك من العملية التواضعية للغة لأنها الوقود اللساني الذي تتشكل منها الملفوظات بوجه عام، و هذا السياق يتناسب مع التواضع اللغوي الذي ينشأ من الاتفاق بين الأفراد الفاعلين في المجتمع، و بالتالي دور اللغة هام جدا في تفعيل العملية التواصلية إذ إن التحية التي تصدر الحوار الكلامي بين الأفراد و التي تتحمل أقل قدر من الألفاظ، هذه العملية إذا أحسن استعمالها فإنها تساهم في إنجاح التبادل الكلامي بين المتخاطبين، و يقول نايف خرما في هذا المجال: "العبارات المختلفة المستخدمة للتحية، و تلك المستخدمة للتأدب عند مخاطبة الغير لها وظيفة اجتماعية أخرى، فهي في كثير من الحالات تدل على الطبقة الاجتماعية أو المركز الاجتماعي الذي يشغله كل من المتكلم و المخاطب على السواء كما تدل على العلاقة الاجتماعية بينهما"⁽¹⁾.

تعتبر الأنواع التي تحدثنا عنها أعلاه عن الألفاظ التي أُصطلح عليها بالإشارات بأنماطها الأربع الأكثر تناولا في الدراسات اللغوية الحديثة ذات العلاقة بالتداولية، و هناك بعض المصادر الأخرى أشارت إلى نفس الأنواع و لكن بمصطلحات مغايرة مثل قاموس تحليل الخطاب الذي تحدث عن وجود الإشارات النصية و هي التي تبين زمن و مكان كتابة النص و لا تشير إلى الزمن و المكان المتعلقين بالتلفظ، و هذا النوع من الإشارات يتعالق في العمل مع الذاكرة التسجيلية للأحداث"⁽²⁾.

⁽¹⁾ نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، سلسلة عالم المعرفة، سبتمبر 1978، ص172.

⁽²⁾ ينظر Dominique maingueneau.dictionnaire d'analyse du discours, ibid, p160.

2.4.1- المتضمنات القولية: (1)

يعتبر هذا العنصر من المبادئ التي لم يتناولها الدارسون بصفة موسعة كما تناولوا بقية المبادئ التداولية التي سبق الحديث عنها في سالف البحث، و السبب في ذلك يعود إلى الصفة الزبئية التي تتميز بها هذه المتضمنات القولية وبخاصة في التعدد اللاهائي الذي تتخذه في شكل علاقات تخص مقتضيات الدلالة، و لقد أشار أحمد محمود نخلة إلى أمرين ضمن هذا المجال أولهما كثرة الأبحاث التي طُرحت في هذا العنصر على نحو لم يُتَح لأي عنصر من العناصر الأخرى عدا الأفعال الكلامية، و بالتالي صار عنصر المتضمنات القولية يتميز بنوع من العقم المعرفي في بعض الأحيان، أما الثاني فيتمثل في وجوبية التمييز بين تكريس المفهوم في التعامل اليومي و كذا تناوله بالدراسة في المجال المعرفي⁽²⁾، إذ لا يستطيع الذي يخوض هذا الميدان دراسة أن يحيط بالموضوع كما حاول هذا البحث الفعل مع المبادئ التداولية السابقة، و لقد وجدنا بعض الاختلاف في تناول المنهجي لبعض النقاد لهذا العنصر الإجرائي التداولي، فالمؤلف أحمد نخلة تناول هذا الأمر تحت عنوان الافتراض السابق⁽³⁾ ثم أقحم من خلاله العناصر الثانوية التي تنطوي تحته، أما مسعود صحراوي فقد رأى أن يكون تناوله ضمن عنوان آخر و هو: **متضمنات القول** و شرح على إثره العناصر الفرعية، و عليه فالذي يهمننا أكثر في هذا البحث هو التحديد المفاهيمي للعنصر، و ليس هذا التعدد الإصطلاحي في التناول لأننا لو تتبعنا هذا الأمر سننشغل بما هو أقل أولوية من التحديد النظري.

يعرف قاموس تحليل الخطاب⁽⁴⁾ متضمنات القول بأنها: جملة المعارف و المعتقدات المخزنة في الذاكرة، و التي تحصلنا عليها من خلال التجارب المتعددة اليومية، و بالتالي فإننا

(1) متضمنات القول هي les implicites، ينظر الترجمة في: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص30 و الافتراض السابق هي les presuppositions ينظر الترجمة في: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص26.

(2) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، أحمد محمود نخلة، مرجع سابق، ص27.

(3) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، أحمد محمود نخلة، مرجع سابق، ص27.

(4) النص الأصلي: «...les locuteurs disposent a un moment donne certain nombre de savoirs et de croyances stokes en mémoire, qui servent de base a leur activités...Ces présupposition jouent un rôle important dans les mécanismes de production et d'interprétation des énoncés »

Dictionnaire d'analyse de discours, p467.

نحتاج إليها في تفسير النشاطات اللغوية التي نصادفها، و تساهم هذه المتضمنات القولية في تفسير الملفوظات، و كذا في تشخيص الأشياء التي لا تظهر في السياق اللغوي للجملة، وتبدو هذه المتضمنات أكثر أهمية في ميدان المنطق إذ تعمل على تهيئة الشروط التي تسمح للمفوض ما أن يتلقى قيمة الحقيقة في محتواه اللغوي، مثل: منع زيد زوجته من الذهاب، إذن زيد كان يفترض مسبقاً أن زوجته كانت تودّ الذهاب⁽¹⁾، و يقدم مسعود صحراوي تعريفاً لا يتعد كثيراً عن الذي سبق، فيقول عن متضمنات القول أنها: "جملة من الظواهر المتعلقة بجوانب ضمنية و خفية من قوانين الخطاب، تحكمها ظروف الخطاب العامة كسياق الحال و غيره"⁽²⁾، و الملاحظ على التعريف الثاني أنه متعلق بالجانب الاستعمالي للخطاب اللغوي، و هو مناط الدرس التداولي، و يضيف ديكرودucrot على ما قيل سابقاً على أن الافتراض المسبق هو ذاته فعل الافتراض و يتشكل من أنظمة كلامية مسجلة في الملفوظ⁽³⁾ على أن لهذه الافتراضات مظاهر تتصف بها وأولها أنها تتناسب مع المعارف التي يحتفظ بها السامع في ثقافته، على أساس أن السامع هو الذي يضطلع بعملية التلقي للملفوظات التي يُضمّن المتكلم هذه الافتراضات، كي يتم له إنجاح العملية التواصلية، و بالتالي تنشأ مساحة معرفية مشتركة تعبر عن التعدد في صوت المجتمع polyphonie énonciative، أما المظهر الثاني فيتمثل في أن هذه الافتراضات لا تقبل الإزالة أو الحذف من الثقافة التي يتمتع بها المجتمع الحاوي للعملية التواصلية، وذلك لأن هذه الافتراضات هي محل اتفاق الأفراد المنتمين إلى هذه المجتمع.

لقد سبق أن أشرنا إلى ملحوظة ذات أهمية، و تتمثل في أن الافتراضات المسبقة لا تخضع إلى قواعد و قوانين تعمل على جعلها في شكل مضبوط، و هكذا يتيسر على الدارس لهذا الموضوع فهم هذه القواعد و كذا إنزالها على الكلام المستعمل في اللغة، و مثلاً هذه الافتراضات المسبقة كمثال القواعد النحوية السماعية التي لا تضبطها مقاييس معينة، و تقابل

⁽¹⁾ يشير كل من أحمد نخلة في كتابه آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص27، و مسعود صحراوي في مؤلفه التداولية عند العرب، ص31، إلى أن مصطلح الافتراض المسبق أو السابق هو من إنتاج الفيلسوف فريجه Frege و عمل على تطويره سطرورسن Strawson و هو من مجموعة أكسفورد سنة 1952، و ذلك في إطار علم الدلالة المنطقي.

⁽²⁾ مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص30.

⁽³⁾ ينظر، Herman، principes de sémantiques linguistique, paris, 1971، و dire et ne pas dire، عن

.Dictionnaire d'analyse du discours, Dominique maigueneau, ibid., p, 458.

بذلك القواعد القياسية التي تخضع لمعايير متعارف عليها في الميدان اللغوي بوجه عام و في ميدان النحو بوجه خاص، و بالتالي بقيت هذه الصفة لصيقة بالافتراضات المسبقة و صارت هذه القضية مثار تساؤلات، الشيء الذي أدى ببعض المهتمين بميدان الدراسات اللغوية الحديثة إلى البحث عن سبل تقنية تقوم بوظيفة التصنيف ضمن هذه الافتراضات.

اهتدى البحث اللغوي الحديث إلى محاولة تصنيف الافتراض المسبق على حسب الطبيعة التي ينتمي إليها و المتمثلة في اللغة بحقوقها المعرفية المختلفة، و أهم هذه الحقول هو الحقل الدلالي الذي يعتمد عليه كل من المتكلم و السامع في تفكيك المحتوى الذي يحمله الملفوظ، و بالتالي انقسم الافتراض المسبق إلى قسمين رئيسيين: أولهما الافتراض المسبق الدلالي المنطقي *presuppose semantique* الذي يعتمد أساسا في تحديده على النتائج المتوصل إليها من طرف الدراسات الفلسفية التي قام بها كل من برتراند راسل و غوتلوب فريجه، و التي أسفرت عن وضع المعنى الحقيقي للشكل المنطقي للجملة المتمثل في: "البنية المنطقية التي تقابل البنية الشكلية للجملة، على أن البنية المنطقية هي المنوطة بتحديد السياق المناسب الذي يتيح للجملة الحصول على قيمة الحقيقة"⁽¹⁾ و يتغذى القول المنتمي إلى الشكل المنطقي أساسا من قضية الصدق في محتوى الملفوظ، و الذي يتعالق بصفة مباشرة بمبدأ الحقيقة و بالتالي يصير الصدق شرطا في تحقق هذا النوع من الأقوال، بحيث إذا قلنا مثلا: المرأة التي تزوجها جارنا كانت أرملة، فهذا يعني في الجهة المقابلة أن قولنا: زيد تزوج امرأة أرملة صادق أي مطابق للواقع قياسا على القول الأول لأنه كان موضوعا في الافتراض سلفا⁽²⁾، أما القسم الثاني للافتراض المسبق فهو التداولي *presuppose pragmatique* و الذي له علاقة مباشرة بالجانب الاستعمالي للغة، و قد أثرت حول هذا القسم الكثير من المناقشات و ذلك لتداخله مع الشكل السابق ذكره، و للإشارة فإن هذا النوع من الافتراض المسبق له ارتباط علائقي بمبدأ الأفعال اللغوية الذي تم الحديث عنه في سابق البحث، و يكمن هذا الارتباط في بؤرة شروط نجاح الفعل الكلامي، و مثال ذلك قولنا لشخص ما: أغلق النافذة فهذا يعني أننا افترضنا مسبقا أن النافذة كانت مفتوحة، و في هذه

⁽¹⁾ علم الدلالة التحويلي هو الذي أنتج مفهوم الشكل المنطقي في الجملة في سنوات السبعينات و قد ربط هذا العلم البنية العميقة للجملة بالشكل المنطقي المتحدث عنه، ينظر. Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, p105.

⁽²⁾ ينظر: محمود نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، وينظر كذلك نوعي الافتراض المسبق، ص28.

الحالة:" يُشترط أن المتكلم يستطيع تقدير حالته النفسية، وحالة شريكه تقديرا صحيحا، حتى يتصرف المتكلم و السامع أساسا بشكل متضامن" (1).

يطرح مسعود صحراوي تصنيفا آخر لموضوع الافتراضات المسبقة معنونا إياه بـ: متضمنات القول **les implicites** على أساس أن المصطلح الذي اختاره يتميز بنوع من الشمولية، وقد جعل أسفل العنوان الكبير فرعين آخرين يشكلان المفهوم المركز للافتراضات المسبقة و أولهما: الافتراض المسبق **les pre-supposition** و المقصود به جملة المعطيات والافتراضات التي تحصلت على اعتراف الأطراف المتحاوره و كذا تحصلت على اتفاقهم، وتُمثل هذه المعطيات المساحة المرجعية التي تساهم في إنجاح العملية التواصلية، و الأمثلة على هذا الأمر عديدة، من بينها قولنا لشخص ما في سياق تواصلني معين: إلى أين تتوجه في هذا الصباح؟ فإذا كان الرد شافيا وكافيا بتوضيح مكان التوجه، فالخلفية التي نحملها لهذا الشخص تتمثل في علاقة مميزة كأن يكون من أحد المُقربين إلينا ممن تربطهم بنا علاقة الدم أو علاقة الصداقة، أما إذا كان الرد منا على غير ما توقعه السامع كأن نقول له: إلى مكان ما، أو هل يهملك الجواب عن هذا السؤال؟(2).. فالافتراض المسبق التي نحمله على هذا الشخص هو اعتباره من الأبعد علينا لذلك لا ينبغي إطلاعه على مكان التوجه .

أما النوع الثاني فهو: الأقوال المضمرة **les sous-entendus** ويرتبط هذا النوع من المتضمنات القولية بمقام الخطاب و سياقه العام، و للإضمار حديث طويل في الكتب التي تناولت هذا الأمر من الجانب المنطقي، فقد عُدَّ الإضمار المرادف لعدم التصريح المتعلق بالدليل، و هو يخالف الحذف و الترك و الاستتار لأن هذه الأوجه يقوم به المتكلم في حوارهِ على أساس عدم القصد، أما الإضمار فيقوم به المتكلم على أساس العلم بالشيء الذي تم إضماره(3)، ويتعلق الشيء المضمّر أكثر بالشعور الداخلي للإنسان، و الشعور في هذا الموضع نعني به العملية التفكيرية التي تتم بوجه فطري و بالتالي:" يكون لكل شعور عملي جانب مطوي عن عمد

(1) فولفجانج هاينه من وديتر فبهيجر، مدخل علم اللغة النصي، تر: فالح بن شيب العجمي، ص71.

(2) المثال المضروب من الاجتهاد الشخصي.

(3) طه عبد الرحمان، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب-بيروت-لبنان، ط1/1998. ص146-147.

يشارك المتكلم فيه المستمع، وهذا بالذات مقتضى وصفنا له بالتداولي⁽¹⁾، و يندرج المضرر عند أهل اللغة في مساحة حوارية محدودة و مفادها: " أن حذف المعلوم جائز، و متى أمكن تقديره حسن حذفه توخيا للإيجاز المرغوب فيه"⁽²⁾، و يشترط في العملية الإضمارية للمعلومات شرط رئيسي يتمثل في وجوبية ترك الشاهد على الأمر الذي حذف، و بالتالي يتمكن الطرف السامع من تتبع هذا الشاهد لكي يحصل له الفهم و يكتب للعملية التواصلية النجاح، و لقد أشار إلى هذا الأمر الألسني الأمريكي ليكان William lykan وتحدث عن الأهمية التي تكتسبها إيراد القرائن اللغوية les presumptions lexical في الملفوظ و ذلك لمساعدة الطرف المستمع من استيعاب المحتوى الكلامي، و بالتالي الإسراع إلى ترجمته إلى فعل لغوي حقيقي، و لقد اشترط هذا الكاتب أن تكون هذه القرائن في الصيغة اللفظية المادية للكلام الصادر عن المتكلم المرسل، و تكون بذلك هذه القرائن بمثابة الأشياء الأصلية في الكلام، و يترتب على إزالتها اتصاف الكلام بالإبهام و الغموض، لذلك هي غير قابلة للإزالة من المحتوى اللفظي للجمل المستعملة مثل قولنا: توقف عمر عن شرب السجائر و لكنه لم يشرب قط، و ضمن هذا المثال فإن القرينة التي تؤدي دور إيضاح المضرر le sous-entendu هي الجملة الثانية المبدوءة بـ لكن⁽³⁾ التي جاء بها المتكلم من أجل الإضراب عن الكلام السابق، و نسجل ضمن هذا الإطار خاصية أخرى من خاصيات المضمرات و هي أنها غير خاضعة لسلطة التقدير عند الإنسان، و بالتالي تنطرح حتمية استعمال القرائن في مثل هذه المواقف الكلامية⁽⁴⁾، و يمكننا بذلك ملاحظة أن ما دعاه ليكان lykan القرائن سماه طه عبد الرحمان شواهد الإضمار، و هذه الأخيرة أنواع عند صاحب المصطلح: أول هذه الأنواع الشواهد اللفظية و الثاني هو الشواهد السياقية ، أما النوع الثالث فيتمثل في الشواهد الحالية⁽⁵⁾، و كل نوع من هذه الأنواع له تحديده الخاص في العملية الحوارية.

(1) طه عبد الرحمان ، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص149.

(2) طه عبد الرحمان ، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص151.

(3) الإضراب هو أن تنسب لكن حكما للسابق مخالفا لما بعدها، مثل الماء عكر لكنه طاهر، ينظر: علي الحمد و يوسف

الزغبى، المعجم الوافي في أدوات النحو العربي، دار الأمل، الأردن، ط2، 1993، ص283

(4) ينظر Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, p108.

(5) طه عبد الرحمان، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص151.

لقد كان للعرب القدامى في تراثهم الذي هو بمثابة الخزان الثقافي الذي حفظ لنا اللغة العربية و الفكر المتعلق بها، اهتمام جَلِيٌّ بهذه المسائل إذ أنتجت لنا و للإنسان بوجه عام: المنظومة الفكرية التي أطلقوا عليها مصطلحات تحدد هذه الشواهد أو القرائن الحرفية و بالتالي: "سمى بلاغيو العرب الشواهد القولية بالقرائن المقالية، و الشواهد الحالية بالقرائن المقامية، فكل ما دُلَّت عليه قرينة مقامية أو مقالیه أو هما معا أمكن ظهوره للمخاطب، ويُعدُّ طَيِّهٌ أولى من ذكره، بما أن الإيجاز المطلوب في العربية يقضي بأن يُبين المعنى بأقل ما يمكن من الكلام من غير إخلال به" (1).

لقد كان حديث طه عبد الرحمان عن قضية المضمرات حديثا عميق التحليل، حيث بيّن الفلسفة التي تقوم عليها المضمرات ضمن الثقافة البلاغية التراثية، و نجد نظرتة إلى تعامل المتكلم مع الملفوظ من حيث الحذف تمثل الشاهد على ما نذهب إليه، إذ بتحقيق الحذف يتم تحقيق هدف معين في نفسية السامع، و مثال ذلك قولنا الجَوْ حَارٌّ قد يعني للسامع لهذا الملفوظ أنه مطالب بفتح النوافذ، و قد يعني أنه مطالب بإحضار الماء البارد بدل الموجود على الطاولة، وقد يعني كذلك معاني أخرى تناسب السياق الذي قيل فيه الملفوظ و تلائم الطبقات المقامية، وللاشارة أن ثمة وجود فرق جوهري كامن بين الافتراض المسبق و بين الأقوال المضمرة، ويتمثل في أن الأول وليد ملابسات الخطاب و تغيراته أما الآخر فهو وليد السياق الكلامي (2).

3.4.1- الاستلزام الحوارية: (3) implication conversationnel

يحمل العنوان أعلاه بين ثناياه مساحتين معرفيتين هامتين في الميدان اللغوي بله التداولية بوجه عام، و في ميدان علوم التواصل بوجه خاص، و يشكل العنوان نوعا من الثنائية الفكرية التي يُظهر حدُّها الأول العلاقة التي تربط هذه الثنائية بالميدان الفلسفي و الفكري، إذ شكل موضوع الاستلزام و لا يزال يشكل مادة مدٍّ و جزر في الميدان المعرفي، لأن الباحث في ميدان

(1) طه عبد الرحمان، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص152.

(2) التصنيف الذي تحدث عنه البحث و المتعلق بالمتضمنات القولية عند مسعود صحراوي، موجود في المؤلف المشار إليه، الصفحات: 30-31-32.

(3) ينظر المصطلح في : التداولية عند العلماء العرب و قد زاد عليه لفظة: الحادّثي، ص33، و قد استعمله صاحب : أحمد محمود نخلة بالصيغة الأولى، ينظر ، ص32.

اللغة ذي الخصوبة في الفكر يحتاج في صناعة تحليلاته إلى تقنيات عقلية يتوصل بواسطتها إنزالها إلى ساحة النشر اللغوي إلى ما يريد إثباته من أفكار متعددة، و الباحث في الحقل التداولي ليس بمنأى عن هذا الأمر فهو كذلك يستعمل مثل هذه العمليات التي تخضع إلى التسيير المنطقي لها، و لقد طرق المغربي طه عبد الرحمان المهتم بمسألة اللغة و علاقاتها بالجانب الحضاري موضوع الاستلزام، و ربطه بمصطلح قريب منه و هو اللزوم، الذي حدّد من خلاله التفريق بين سعي المتكلم للوصول إلى النتيجة و سعيه كذلك إلى الوصول إلى النتائج، و قد جعل من هذا الأخير المقصود الحقيقي للمتكلم على أساس أن النتاج هي عملية سريان الأثر في مختلف أطوار التحوار اللغوي من البداية إلى النهاية، و قد علّق الكاتب هذه العملية الانتقالية للأثر بالمصطلح الذي هو محور حديثنا أي الاستلزام، و اعتبر أن علم المنطق يمكن أن نعتبره بأنه: "علم الاستلزام"، و يعقب ذات الكاتب على هذا الأمر بقوله: "لكن يبدو أن الكلمة التي اشتهرت في هذا المعنى هي الاستنتاج.. و يمكن أن نحدّد المنطق بكونه علم الاستنتاج"، ثم يخلص هذا الكاتب إلى نتيجة ذات أهمية كبرى قياساً على التحليل الحسن الذي استعمله و المتميز بالتسلسل العقلي، و تتمثل هذه النتيجة في مصطلح يجمع فعل الانتقال بأثر هذا الانتقال، و هو الاستدلال⁽¹⁾، و بالتالي تكاد تكون المصطلحات الثلاث مشابهة لعملية تسلسلية يتحصل المتبع لها على الحظ الأوفر في تمثل نجاح العملية التحوارية.

يعتبر تناول البحث للتحديد المفهومي من الأهمية بمكان، لأن التحديد القاموسي وبخاصة المتخصص منه يظل المنبع الهام في إعطاء المساحة المعرفية التي ينتمي إليها المفهوم المراد تناوله، و بالتالي فإن مصطلح الاستنتاج نجده في التعريفات متناولاً بمصطلح الاستنباط وهو: "استخراج المعاني من النصوص بفرط الذهن و قوة القريحة"⁽²⁾، أما الاستدلال الذي تربطه العلاقة المنطقية بسابقه فهو في نفس القاموس: "تقرير الدليل لإثبات المدلول"⁽³⁾، و لا تعدو هذه المفاهيم أن تتخذ أشكالاً أخرى لكن بالمحافظة على الأصل في تعريفها، و غالباً ما يرتبط مصطلح الاستنتاج بنظيره الاستقراء بيد أنهما يختلفان في العمل على القضايا، فالأول: "عملية

⁽¹⁾ طه عبد الرحمان، 'اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص 89.

⁽²⁾ الشريف الجرجاني، التعريفات، ص 22.

⁽³⁾ الشريف الجرجاني، التعريفات، ص 18.

تتمثل في استخلاص الأفكار من المقدمات و المبادئ نحو النتائج، و نستنبط الأخص من الأعم⁽¹⁾ أما الاستقراء فهو المقابل لعملية الاستنتاج و تعريفه هو: "الحكم على الكلي لوجوده في أكثر جزئياته، أي أنه الانتقال من حقائق جزئية إلى حقائق عامة و كلية"⁽²⁾، و يبرز الفرق بين المفهومين في أن الاستنتاج الذي يرادف الاستلزام تتميز الأحكام الصادرة منه بالحجة واليقين، أما الاستقراء ففائدته تكمن في كونه يعمل على عرض أفكارنا بصورة منطقية وعقلانية.

1.3.4.1-أنواع الاستلزمات التداولية:

لقد دعت الضرورة إلى محاولة شبه الإحاطة المعجمية بالمصطلح الأساس في الاستلزام التحاوري الذي نحن بصدد الحديث عنه، و تدعو الضرورة كذلك إلى تحديد أنواع الاستلزام وذلك للنظر في أيها يمكن إقحام معالجة عنصر الاستلزام الحواري، ولقد حاول طه عبد الرحمان في مؤلفه السابق الذكر تناول هذه الأنواع بطريقة علمية سادها المنطق اللغوي، و ما وجده هذا البحث المتواضع مناسباً هو عنوان نصه: **إستلزمات مقام الكلام و قواعد الخطأ على أساس أنه يتعرض من القريب إلى عنصرين هامين من العناصر المشكلة للتنظير التطبيقي للتداولية بوجه عام، و لعنصر الاستلزام التحاوري بوجه خاص، و هما المقام الذي نعني به السياق و كذا الخطاب بمثابته يتمفصل معرفياً مع الركن الأساسي في العملية التواصلية أي الملفوظ، و لا يمكن أن تتغاضى عن الأهمية التي يكتسبها عنصر المقام في مثل هذه القضايا، إذ يشكل سبيلاً فعالاً في توضيح أمّارات الحوار التواصلية الذي تعززه المعارف التي يتشارك فيها أطراف الكلام، و لقد أشار عبد الهادي بن ظافر الشهري في سياق حديثه عن أهمية المناخ الذي يشكل الحوار التداولي إلى هذه المسألة بقوله:** "و ما نريد التأكيد عليه هو دور المعرفة المشتركة تداولياً في سياق الخطاب اللغوي، ومعرفة المرجع الذي تلتقي عنده طرفي الخطاب في مرحلة إنتاج الخطاب، وفي مرحلة تأويله"⁽³⁾، و عليه فقد حدد طه عبد الرحمان ثلاثة أنواع من الاستلزمات و هي كالتالي:

(1) جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات و الشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر، تونس، ص 38

(2) ن.م.س، ص 39.

(3) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 52.

1.1.3.4.1-الاستلزام التخاطبي المخصص⁽¹⁾: و يتألف هذا النوع من الاستلزمات

من ثلاث طبقات بعضها ينتمي إلى الصيغة اللسانية و البعض الآخر ينتمي إلى السياق التداولي، فأما الأولى فتتمثل في القول و ما يَتَّبَعُهُ من جمل منظمة ضمن تركيب نحوي صحيح، أما الثانية فتتمثل في المقام من جهة، و في قواعد التخاطب من جهة أخرى، وبالتالي لا ينبغي اعتبار اللازم الناتج عن القول جزءا من منطوق القائل فقط و لا جزءا دلاليا، بل هو لازم ناتج عن اجتماع العناصر الثلاث كلها و بالتالي دعاه باللازم التخاطبي التداولي، و مثال ذلك الحوار التالي:

زيد: هل فرغت من الكتاب، و سلمته لصاحبه؟

عمرو: لقد فرغت من الكتاب.

الملاحظ أن عمرو أجاب عن الطرف الأول من السؤال و تغافل عن الآخر الذي يتعلق بتسليم الكتاب لصاحبه، و بالتالي سترتب عن هذا فَهْمُ زيدٍ على أن الكتاب قد تمت قراءته، ولكن لم يَتِمَّ بعدُ تسليمه لصاحبه كما أوصى بذلك المتكلم، و هنا ينبغي الإشارة إلى أن عدم استكمال الإجابة لا تنتقص من الدلالة اللغوية للجملة، و لكن السياق هو الذي فرض على المجيب أن يستعمل مثل هذه الإجابة و يبقى الاستلزام تخاطبيا فقط⁽²⁾.

2.1.3.4.1-الاستلزام التخاطبي السلمي المعمم⁽³⁾: ينطلق المحتوى المفهومي لهذا

النوع من استلزام القولين ب و ج للنتيجة د رغم اختلاف القولين في الألفاظ المستعملة فيها من الأدنى إلى الأعلى مثل :

— عُني بصاحب البيت.....د

- جاء أحد المدعويين.....ب

- جاء كل المدعويين.....ج

⁽¹⁾ طه عبد الرحمان، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص 97، ينظر كذلك: استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ص 437.

⁽²⁾ طه عبد الرحمان، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص 98.

⁽³⁾ طه عبد الرحمان، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص 98.

3.1.3.4.1- الاستلزام التخاطبي الجملي المعمم:⁽¹⁾ تنطرح أمام المتكلم ضمن هذا النوع من الاستلزمات فكرة الاختيار بين استعمالين للمفوز واحد لكن باختلاف في درجة الاعتقاد في الخبر، إذ لا يترتب عليه لا تصديق و لا تكذيب، مثل:

- أعلم أن زيدا آت.

- أظن أن زيدا آت.

الملاحظ في المثال المضروب أن تفضيل استعمال المفوز الثاني على الأول لا يوجب إتيان زيد أو عدم إتيانه، و عليه فإن الأنواع الثلاثة التي تحدث عنها طه عبد الرحمان تتعلق معرفيا بمبدأ الاستلزام التحواري نظرا للتداخل الذي يشكل حلقة التقاء بين هذه الأنواع و بين ما تُحْتُ التداولية على دراسته و المقصود به الملابسات التي تعترى السياق⁽²⁾ الذي تُلقى من خلاله الملفوظات، إذ تتحدد من خلال هذا السياق الوجهة الحقيقية و بالتالي يتم للمتكلم انتقاء السامع مع انتقاء الظروف التي تعمل على إنجاح الحوار التواصلي.

2.3.4.1- مبدأ الاستلزام التحواري بين غرايس و طه عبد الرحمان

3.3.4.1- المحتوى النظري للمبدأ:

بعد التعرض إلى الدلالة المعجمية للمبدأ التحواري ثم إلى بعض الأنواع التي تتعلق بالمنهج التداولي، سنحاول الانتقال إلى المحتوى النظري و المعرفي الذي بثّه الدارسون في مبدأ الاستلزام التحواري، و قد تناولته الكتابات النقدية في معظم الأحيان مرتبطين بالفيلسوف "غرايس"، حيث أن المبادئ التخاطبية التي قدمها هذا الكاتب تبقى دالة على ذلك، إذ كانت البداية الأولى لهذا الجديد في عهده تتمثل في المحاضرات التي ألقاها الفيلسوف ذاته ضمن الندوات القرائية لوليام جيمس William James بجامعة هارفارد سنة 1967 و هي تنصُّ على أمر ذي أهمية، تُمَثِّل في ملاحظة الفيلسوف أن اللغة الطبيعية ليست كما كان ينظر إليها أهل الفلسفة التحليلية والمناطق، على أنها اللغة الأنموذج، و لكن القضية تتمحور في أن العلاقات

⁽¹⁾ طه عبد الرحمان، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص100.

⁽²⁾ ينظر التفصيل المفيد لقضية أهمية السياق في الطرح التداولي ضمن: حافظ إسماعيلي علوي، التداوليات علم استعمال اللغة، ص، 63- 85 .

المنطقية التي تنظم الملفوظات تتحكم فيها جملة من القواعد و المبادئ⁽¹⁾ التي سيأتي الحديث عنها في القريب من هذا البحث، هذه المبادئ تعمل على رسم الإجراءات اللازمة التي ينبغي أن يتخذها كل من المتكلم و السامع في تسيير العملية الحوارية، و يمكننا أن نعتبر هذه المبادئ جملة من التعليمات غير الرسمية التي تضمن نجاح العملية التواصلية في المجتمع، و لقد أشارت فرانسوا أرامينكو **Françoise aramingeau** إلى أن غرايس استلهم هذه المبادئ التي اتخذت شكل المسلمات من فلسفة كانط **Kant**⁽²⁾، و هي على التوالي:

1.3.3.4.1-مسلمة القَدْر⁽³⁾: quantité و المقصود بها الكمية الخبرية التي يريد

المتكلم أن يجعلها في الملفوظ، و تحتوي على قاعدتين و هما:

- لتكن مشاركتك تفيد القدر المطلوب من الإخبار.

- لا تجعل مشاركتك تفيد أكثر مما هو مطلوب.

و كمثال على ذلك قولنا لرب عائلة :

- يا زيد: يُشترط في من يستحق الضمان الاجتماعي أن يعول خمسة أطفال.

- زيد: عندي خمسة أطفال.

إن المثال أعلاه يبين أن المخاطب زيد احترام في الملفوظ الذي كونه في شكل جملة لغوية قاعدة الكم الخبري، و بالتالي الملاحظ هو موافقة الملفوظ للهدف الذي سطره زيد و المتمثل في محاولة إفهام المرسل أن له الحق في الحصول على منحة الضمان الاجتماعي.

2.3.3.4.1-مسلمة الكيف **qualité** : و تحتوي على توجهين يتمثلان في أن على

المتكلم أن لا يقول ما يعتقد أنه كاذب، و أن يتجنب الأشياء التي لا يستطيع إثباتها بالبرهان والدليل، و كمثال على ذلك سؤال زيد لعمرو: كم عدد الدول العربية؟ و كان قصده من وراء

⁽¹⁾ ينظر تفصيل قضية الانطلاقة الأولى لغرايس ضمن *Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique*, pp17.18.

⁽²⁾ ينظر: فرانسوا أرامينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، ص55.

⁽³⁾ قَدَر الشيء: تمكن منه و دبره، و قَدِر الشيء أي قاسه و بَيَّن مقداره، و القَدْر هو المقدار و جمعه أقدار، يقال هذا قَدْر هذا أي يساويه و يوافقه، و القَدْر هو وقت الشيء المُقَدَّر له و مكانه، ينظر الوسيط، ص718.

ذلك هو حقا التعرف على العدد الحقيقي للدول العربية، و بالتالي حينما سيستلزم المخاطب قصد السائل فإنه سيجيبه على أساس احترام مسلمة الكيف، التي يتبين مظهرها من استنتاج المرسل إليه لصدق النية عند المرسل زيد، و بالتالي إبعاد التأويلات الفاسدة.

3.3.3.4.1-مسلمة الملاءمة pertinence : و تحتوي على توجيه واحد يتمثل في

حتمية جعل المخاطب من مشاركته في العملية الحوارية ملائمة، و لقد أعطى صاحب كتاب اللسان و الميزان مصطلحا آخر لهذه المسلمة، و نصه هو: علاقة الخبر بمقتضى الحال (1)، وقاعدته على حسب طه عبد الرحمان هي: ليناسب مقالك مقامك، و الأمثلة على هذا كثيرة، من بينها مناداة صاحب المنزل للخادمة بقوله: القهوة، على أساس أن مقام البيت يناسب مثل هذه العبارات، و لقد وقع حذف الفعل -أعدّي- بناء على التفاهم بين الطرفين على تكريس مبدأ التعاون بالقاعدة الثالثة، أما إذا كان المقام مختلفا فلا يستطيع المرسل استعمال مثل هذه الملفوظات، و إلا عُذَّ هذا خرقا للمبدأ.

4.3.3.4.1-مسلمة الجهة modalité(2): و تعتبر هذه المسلمة من أكثر المسلمات

احتواء للتوجيهات، لأنها تمثل مرحلة إصابة الهدف من الحوار، و قواعدها هي كالتالي:

- تَجَنَّبْ قدر الإمكان اللبس.

- اتَّبِعْ طريق الإيجاز.

- اتَّبِعْ طريق الترتيب. (3)

و مثال ذلك توجيه الأمر من الأب إلى ابنه بفتح الباب و ذلك في حالة الطرق بقوله: افتح الباب! (1) هذا الأخير هو عبارة عن ملفوظ يستلزم منه السامع بعض الأفعال و التي تتمثل

(1) طه عبد الرحمان، ينظر اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص238.

(2) لقد تمَّ أخذ المصطلحات الخاصة بالمسلمات من: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، و لقد حاولت- باجتهادي المتواضع- من خلال ذلك التصرف في الأسلوب، ينظر ص33-34.

(3) ينظر: التداولية عند العلماء العرب، ص34-35 ، و للإشارة قد وقع التصرف في الأسلوب المستعمل و ذلك بإضافة بعض التعابير المناسبة لغرض التوضيح و التي لا تخرج المعنى على حقيقته.

أن عليه القيام إذا كان جالسا، ثم عليه الاتجاه نحو الباب، ثم الإمساك بالمقبض و محاولة إدارته باتجاه عقارب الساعة و في الأخير عليه القيام بسحب الباب، كل هذه الأعمال استلزمها السامع من خلال ملفوظ المتكلم الذي راعى فيه الإيجاز و الترتيب وهما قاعدتان تابعتان لمبدأ جهة الخبر، و لو كان في علم صاحب الملفوظ أنه يجب أن يستعمل الإطناب لكان قد استعمله، و ذلك ابتغاء لإنجاح العملية التواصلية، و بالتالي فإن من ثمار إتباع هذه المسلمات على المتكلم أن يتحصل على: "حكمة إخبارية محضة، و حكمة إخلاص، و حكمة دقة، و حكمة التصرف الجيد"(2).

4.3.4.1- انتقاد مبدأ التعاون الغرايسي مع طرح البديل:

لقد لاقت هذه القواعد التي جمعها غرايس ضمن مبدأ التعاون العام انتقادات كثيرة من طرف المهتمين بمسائل علوم التواصل اللغوية، و من ضمن هذه الإشارات ذات الأهمية ما تحدث عنه طه عبد الرحمان من أن مبادئ التعاون الغرايسية اهتمت بالجانب التبليغي على حساب الجانب التهذيبي(3)، مع العلم أن القواعد التي تهم بالتخاطب تركز على هذين الجانبين فهما بمثابة جناحي الطائر، و توافق صاحبة كتاب المقاربة التداولية على الرأي السابق الذكر ولكن تعبيرها عنه جاء بصيغة مختلفة مع توحد في الهدف المقصود، فقالت أن هذه الحكم:" تظل عامة، و غير مقعدة، و قليلا ما تمثل تقادما مباشرا للرصيد المضمن، و الذي يؤول انطلاقا من كل تواصل"(4) لأن تحقق الاستلزام متعلق بالخروج الذي تكرسه أطراف الحوار عن إحدى المسلمات السابقة الذكر، و بالتالي ينبغي إدراك هذه المسألة جيدا على أن:" انتهاك مبادئ الحوار هو الذي يولد الاستلزام"(5)، و لكن لا ينبغي أن يفهم الأمر على حرفيته، بل من واجب المتكلم و السامع أن يحققا مبدأ التعاون المتبادل فيما بينهما، و أن يكون سعيهما إلى ذلك

(1) الأمثلة المتعلقة بالمسلمات الأربع لغرايس مأخوذة من كتاب: استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2004، ص 432-433-434-435، مع إدخال بعض التغييرات في الأسلوب لأجل إخضاع مضامين العناصر لأهداف البحث دون الإخلال بمعناها.

(2) فرانسواز أرامينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، ص54.

(3) طه عبد الرحمان، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص 237.

(4) فرانسواز أرامينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، ص54.

(5) أحمد محمود نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص35.

متسما بالإخلاص، و يعود السبب في هذا الانفلات من التعاون بين طرفي الحوار إلى أن المعاني التي نتقصّد-إذا دخلنا سياق الكلام- إخراجها إلى من نريد منه أن يسمّعها و يعيها قد تنفلت منا دلالاتها أثناء إنزالها في شكل ملفوظات لغوية، و ذلك لأن: "سلوكنا اللساني سلوك جد حساس، و أكثر تعقدا.. و التضمنين هو ما يجب إضافته، لإنجاز ملاحظة تشمل جل الحِكم"(1) ثم إن ما يخرج منا على شكل تصريحات لغوية يتطلب نوعا من الزيادة في التوضيح التي لا ينبغي أن نعتبرها نتيجة عدم إتباع طريق الإخلاص في المخاطبة، بل قد تكون كما وضحت فرانسواز أرامينكو من نقص في الدراية بالأخبار و بالتالي: "ما يكشف عنه، ليس هو نيتي السيئة بل جهلي، و تلك هي خلاصة التضمنين التي على السامع العادي أن يستخلصها"(2). يقترح طه عبد الرحمان في شأن الاستلزام التحواري و المتعلق بقواعد التعاون لغرايس، أن تُضاف إلى هذه القواعد مبادئ أخرى لأجل تعميق النقص الذي تركته مبادئ غرايس، و المتمثل في إهمال الجانب التهذيبي و الاهتمام بالجانب التبليغي، و لقد تطرق المؤلف إلى جملة من المبادئ التي اهتمت بمسائل تسهيل العملية التحوارية بين أفراد المجتمع الواحد، و عقد بينها سلسلة من المقارنات التي أفضت في آخر الأمر إلى استنتاج صلاحية مبدأ تراثي واحد و هو ما تحدث عنه الماوردي في أدب الدين و الدنيا.

كانت بداية دراسة طه عبد الرحمان لمبدأ التعاون الذي يُنسب إلى الفيلسوف غرايس ذات طبيعة استقرائية، حيث سبق الحديث ضمن هذا البحث عن إهمال هذا المبدأ للجانب التهذيب الذي يعد مهما في الإيصال لتبليغي، و بخاصة عند المخاطب أثناء عملية استقبال الملفوظات، ثم كانت الإنتقالة إلى تناول مبدأ آخر يدعى **بمبدأ التأدب** الذي ينتسب إلى روبرين لاكوف⁽³⁾ robin lakov، و يعتمد هذا المبدأ على قاعدة نصها: **لتكن مؤدبا**، و تتفرع عن هذه القاعدة الرئيسة قواعد فرعية و هي على التوالي: **قاعد التعفف**، و **قاعدة التشكك**، أما القاعدة الفرعية الثالثة فتتمثل في التودد⁽⁴⁾، و يتميز طرح لاكوف لهذه القواعد بوصفها بالعالمية

(1) فرانسواز أرامينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش ص 54. استعملت الكاتبة ضمير المتكلم على أساس أنها قد ضربت مثالا عن القضية المعالجة بنفس الضمير، لذلك جاء التحليل موافقا.

(2) فرانسواز أرامينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، ص 55.

(3) طه عبد الرحمان، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص 240.

(4) طه عبد الرحمان، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص 241.

على أساس أن كل مجتمع يستطيع أفرادَه أن يكرسوا هذه القواعد ضمن علاقاتهم العامة، لكن تبقى المنقصة الوحيدة و الأساسية ضمن مبدأ التأدب بادية في إهماله للجانب العملي من التهذيب إذ: "لا نكاد نجد لديها شيئا يذكر عن الوظيفة العملية و لا بالأولى عن الوظيفة الإصلاحية في القواعد التعاملية الثلاث التي اشتمل عليها مبدأ التأدب"⁽¹⁾.

ينتقل حديث المؤلف بعد ذلك إلى محاولة البحث عن مبدأ آخر يتجاوز به النقائص التي عاينها ضمن المبادئ التعاملية السابقة، فكان وضع اليد هذه المرة على مبدأ التواجه و اعتبار العمل، و يُنسب هذا المبدأ إلى الناقلين براون و ليفينسون **Penelope brown, Stephen levinson**⁽²⁾، و يعتمد هذا المبدأ على نص أساسي هو: **لِتَصْنُ وجه غيرك** و يتكرس هذا المبدأ في الواقع الفعلي للمتخاطبين من زاويتين أولهما: زاوية الوجه، والمقصود به: المواجهة بين الطرفين، و التي يمارس من خلالها المتكلم و المخاطب عمليتين و هما عملية **الوجه الدافع** وعملية **الوجه الجالب**، أما الأولى فيبدي من خلالها الفرد دفع الاعتراضات التي تعيق سبيل تحقيق أعماله، و الثانية يستعملها الفرد كآلية لجلب الاعترافات التي ترفع من شأن أعماله، وتبني كل هذه العمليات التي سبق ذكرها من انطلاقة تجريدية واحدة تتمثل في إبعاد التهديد الذي يأتي من الطرف المقابل على أساس أن الأقوال محسوبة هنا في الجانب العملي⁽³⁾، ولكن رغم أخذ هذا المبدأ بتكريس التخاطب و التهذيب الذي أهمله غرايس و الجانب العملي الذي تجاهله مبدأ التأدب، إلا أن النقائص تظل بادية عليه من زاوية عدم تحقيقه للعلاقة الإنسانية التي تُبنى في أساسها على البراءة، إذ نجد أن اعتماد مبدأ التواجه على الوجه الذي يعبر عن: "الإرادات الأساسية التي يتحدد بها الفرد و التي هي رغبته في دفع الاعتراضات"⁽⁴⁾ و اعتماده كذلك على الخطأ و التي هي عبارة عن: "المسلوك المناسب الذي يتخذه المتكلم للوصول إلى تنفيذ هذه الإرادات"⁽⁵⁾، ونجد هذا المبدأ يلقي بالتعامل الإنساني في بوتقة هو غريب عنها، ويجعل من التهديد عنصرا أساسيا في تحريك العملية التحوارية بين أطراف المجتمع الواحد،

(1) طه عبد الرحمان، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص 242.

(2) طه عبد الرحمان، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص 243.

(3) ينظر نظرية الأفعال الكلامية من هذا البحث ضمن عنصر الحقول الإجرائية للتداولية، ص 98.

(4) طه عبد الرحمان، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص 245.

(5) طه عبد الرحمان، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص 245.

وبالتالي تصبح العلاقات الإنسانية مبنية على مدى قوة المواجهة التي تجعل من الجانب التهذيبي: "لا يطلب التقرب من الغير لأجل الألفة، بقدر ما يبذل الجهد في التحوط من التهديد"⁽¹⁾ و بالتالي فإن مبدأ التواجه قد: "قَصَّرَ قصورا عن الاشتغال بالبعد التقريبي من العمل التهذيبي"⁽²⁾.

تنتقل دراسة طه عبد الرحمان إلى التفتيش عن مبدأ آخر يتلافى النقائص التي ظهرت في المبادئ السابقة الذكر، و قد وقعت اليد هذه المرة على مبدأ **التأدب الأقصى و اعتبار التقرب**⁽³⁾، و ينتسب هذا المبدأ إلى ليتش **Geoffrey leech** الذي اعتمد من خلاله على قواعد تساهم في بناء الأرضية التي تتأسس عليها العملية التواصلية وهي: اللباقة، والسخاء، والاستحسان، و التواضع، و الاتفاق وكذا قاعدة التعاطف، وكل من هذه القواعد الفرعية تخدم سياقاً معيناً من التواصل البشري، ويرسم بذلك الناقد مساحات نظرية تلتقي فيها قواعد المبادئ التي تم تناولها في السابق مع القواعد الفرعية التي تنتمي إلى مبدأ التأدب الأقصى، و يبدو من خلال صاحب الدراسة أن الشيء الجديد الذي أتى به ليتش هو السلم المعتمد على قاعدتي الربح و الخسارة، و بالتالي سجّل طه عبد الرحمان النقص الذي تسلل إلى مبدأ ليتش، حيث صارت بذلك المعاملة التي نعقدّها مع الأطراف الأخرى مبنية على ما يعود من ربح و خسارة للمتكلّم أو للمخاطب، وكأن هذين الطرفين المكونين للعملية التواصلية البشرية صارا يمثلان دور الدائن و المدين التي تربطهما علاقة الخدمة المادية الملموسة بدل العلاقة الإنسانية التي من أجلها أسال هؤلاء الخبر على أوراقتهم و: "متى صار العمل التهذيبي قائماً على مفهوم الخدمات و المصالح ، فلا يمكن أن يكون عملاً تهذيبياً خالصاً، ذلك لأن العمل التهذيبي الخالص يقوم على القيم و المعايير المعنوية، فيرتقي الداخل فيه عن النظر إلى علاقته بالغير من جهة ما يحققه من أغراض"⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ طه عبد الرحمان، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص246.

⁽²⁾ طه عبد الرحمان، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص246.

⁽³⁾ طه عبد الرحمان، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص247.

⁽⁴⁾ طه عبد الرحمان، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص246، لقد تم التصرف في الأسلوب الذي جاءت عليه الفكرة وذلك بالتعبير عنه بالجملة التي تخدم مضامين البحث متجنّبين الإخلال. بمعنى سياق المقولة المقتبسة من حيث المضمون.

يتوصل طه عبد الرحمان في آخر المطاف التحليلي إلى أن المبادئ التي جاء بها هؤلاء المذكورة أسماؤهم أعلاه، لا تفي بالغرض المعرفي النظري و لا بالمقصود التطبيقي الذي يتخذه كل من المتكلم السامع على حد سواء لإجراء العملية التواصلية، و لقد حاولنا-بناء على طرح طه عبد الرحمان- في الفقرات السابقة إيضاح النقص الذي اعترى هذه المبادئ من خلال تركيزها على جانب واحد دون الاهتمام بالجوانب كلها، و التي تعمل على إنجاح العملية التواصلية، و للتذكير فإن الجوانب التي ينبغي على المبدأ التواصلية الاهتمام بها هي : التبليغي أو التواصلية، و التهذيبي، و العملي الإصلاحي، و جانب التقرب المخلص⁽¹⁾ من الطرف الذي نرسل إليه ملفوظاتنا.

يقتفي المؤلف أثر التراث العربي و تقع عين بحثه على كتاب ثمين في محتواه النظري، ومفيد في المبادئ التي يدعو إليها، و تبدو عليه آثار الاقتراب من التكامل في إيراد الجوانب الأساسية التي تقوم العملية التواصلية، و يسمى هذا المبدأ: **التصديق و اعتبار الصدق والإخلاص** ، و لقد اعتمد في تشكيل هذا المبدأ على مؤلفين هامين من التراث العربي الإسلامي و هما كتاب **أدب الدين و الدنيا**⁽²⁾ لصاحبه **الماوردي** 450-364هـ، و الذي بث فيه جملة من المبادئ التي تنظم التعاملات اليومية بين أفراد المجتمع، وكذا كتاب لا يقل أهمية عن سابقه و هو **إحياء علوم الدين**⁽³⁾ لصاحبه **أبي حامد الغزالي** 450-505هـ و الذي كان استكمالا هاما لقواعد التعامل الإنساني، و لقد تشكلت هذه القواعد على الأسس الآتية:

⁽¹⁾ ينظر الشرح لهذه المبادئ في الفقرات التي تنتمي إلى عنصر الاستلزام التحويري في ضمن الحقول الإجرائية للتداولية.

⁽²⁾ كتاب، أبي الحسن الماوردي، أدب الدنيا والدين. منشورات محمد علي بيضون. دار الكتب العلمية. بيروت لبنان. 2003 م، جمع فيه من الآداب والأخلاق الكثير، من آيات القرآن الكريم، والحديث النبوي، ثم بأمثال الحكماء، وآداب البلغاء، وأقوال الشعراء. سماه في الأصل كتاب البغية العليا في أدب الدين والدنيا، ولكن الاسم الذي شاع بين الناس هو كتاب أدب الدنيا والدين، و من أبوابه: في فضل العقل وذم الهوى، باب أدب العلم باب أدب الدين، باب أدب الدنيا، باب أدب النفس.

⁽³⁾ إحياء علوم الدين أشهر مؤلفات الغزالي، ويضم الكتاب بأجزائه مباحث عدة في أمور الدين. حيث يتناول فيه الغزالي أحكام الإسلام وعقائده وأخلاقه بأسلوب يعنى بأحوال النفوس وخفاياها، وأمراض القلب الروحية، مما قوى تأثيره الروحي على قارئه. ويهتم الكتاب بكثير مما يهم الفرد المسلم في أمور دينه من حيث العقيدة والعبادة والمعاملة والأخلاق . وقد بنى الغزالي كتابه على أربعة أرباع: الربع الأول العبادات، الربع الثاني العادات، الربع الثالث المهلكات، الربع الرابع المنجيات، الموسوعة الحرة.

- ينبغي للكلام أن يكون لداع يدعو إليه، إما في اجتلاب نفع أو دفع ضرر.

- ينبغي أن يأتي المتكلم به في موضعه و يتوخى إصابة فرصته.

- ينبغي أن يقتصر من الكلام على قدر حاجته.

- يجب أن يتخير اللفظ الذي به يتكلم.⁽¹⁾

و لقد استخلص صاحب المؤلف من كتاب الإحياء القواعد الآتية:

- قاعدة القصد: و التي نصها لتتفقد قصدك في كل قول تلقي به إلى الغير.

- قاعدة الصدق: و التي نصها لتكون صادقاً فيما تنقله إلى غيرك.

- قاعدة الإخلاص: و نصها لتكون في توددك للغير متجرداً عن أغراضك⁽²⁾.

تعتمد القواعد المسرودة ضمن العناصر السابقة على قيمتين أساسيتين في التعامل الإنساني و هما : الصدق و الإخلاص، أما الأولى فتشترط على من يريد اتخاذها كآلية لرسم طرق الاتصال أن يكون انعكاس هذه القيمة على الخبر و العمل، و في مطابقة الأقوال للأفعال، و بالتالي سينفتح: " باب التواصل الصادق بينه-أي المتكلم- و بين المخاطب " ⁽³⁾، أما القيمة الثانية و المتمثلة في الإخلاص فتدفع طرفي الحوار إلى أن يقدم المتكلم حقوق المخاطب على حقوقه، و بالتالي يحصل التنافس في التجرد و التنافس في التخلق و هما مكونان من طبيعة التعامل الإنساني الذي ينشد النجاح، و لا يكون هذا التنافس في القدر الذي ندفع به تهديد الآخرين عنا كما يقر بذلك مبدأ التواجه، أو في مدى تحقيق الأغراض الآتية كما يقر به مبدأ التأدب الأقصى، و بالتالي يتحصل الباحث على نتيجة ذات أهمية كبرى و تتمثل في أن مبدأ التصديق و اعتبار الصدق و الإخلاص ذي الأصل العربي الإسلامي هو الأجدر بأن يُتخذ كنموذج للتعامل الإنساني الناجح، ذلك لأنه يتجنب النقائص التي وقعت فيها المبادئ السابقة

⁽¹⁾ ينظر: طه عبد الرحمان، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص 249 حيث يشير طه عبد الرحمان إلى الصفحتين

266.667 من كتاب أدب الدين و الدنيا، لأبي الحسن للماوردي، دار الفكر، تحقيق مصطفى السفا، القاهرة .

⁽²⁾ طه عبد الرحمان، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص 250 حيث يشير طه عبد الرحمان إلى كتاب إحياء علوم

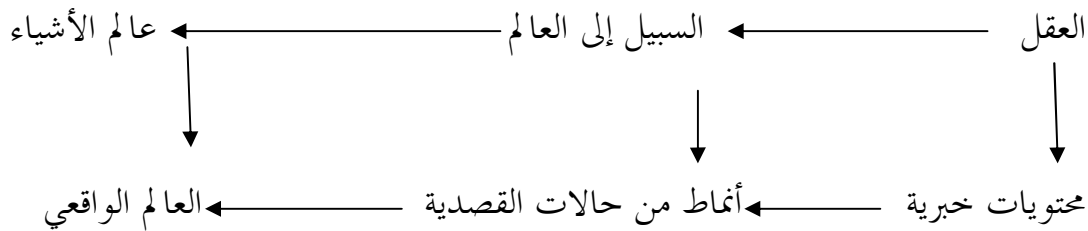
الدين دار الفكر، القاهرة، 1975، المجلد الخامس، ص 2694، 2746.

⁽³⁾ طه عبد الرحمان، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص 252.

الذكر من عدم الاهتمام بالجانب التهذيبي و العملي، و كذا الجانب الذي يبحث عن وسائل التقرب الصادق و المخلص إلى الغير، و هكذا يحتتم طه عبد الرحمن حديثه بكلام يقف كالدليل الجازم على فعالية مبدأ التصديق المستنبط من الماوردي و الغزالي، فيقول عن هذا المبدأ: " و لا عجب أن يكون هو الأصل الذي تقرر في الممارسة التراثية الإسلامية العربية، إذ معاناتها للتخاطب كانت أصدق حالا و أفسح مجالا... ألا ترى أنهم تركوا فينا الإصلاح المتميز: آداب المخاطبة؟! "(1) و هو كذلك يا أستاذ! .

5.1- نظرية الملاءمة:

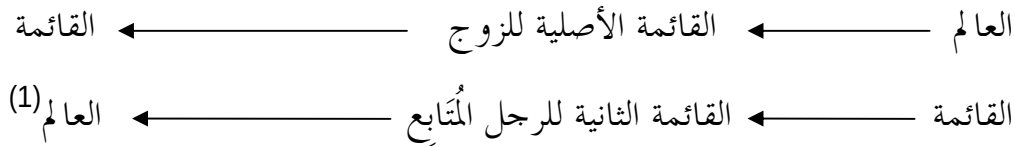
تتمتع نظرية الملاءمة بصيغة تعالقية متميزة لأنها ترتبط بأهم المبادئ التداولية التي تناووها البحث في سابق الكتابة، ويربط جون سيرل في هذا الشأن الملاءمة بمبدأ آخر لا تقل أهميته عن المبادئ السابقة الذكر، و هو القصدية، بحيث يذكر في إحدى مؤلفاته أن ثمة ارتباط بين المبدأين المذكورين، و يعلق سيرل اتجاه الملاءمة بتفريعات الأفعال الكلامية، و التي توصلت إليها الدروس التداولية، فيحدد لهذا المبدأ اتجاهين اثنين على أساس أن الكلام اللغوي يحتوي على الاعتقادات و الافتراضات من جهة، و على الرغبات و المقاصد من جهة أخرى، بالتالي يكون الاتجاه الذي تتخذه الملاءمة منطلقاً من العقل إلى العالم، و يتغير هذا الاتجاه حينما تتخذ الملاءمة مساحةً ضمن لغة الرغبات، فينطلق السهم من العالم إلى العقل⁽²⁾، و المخطط الآتي يوضح عمل القصدية:



⁽¹⁾ طه عبد الرحمن، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص 253.

⁽²⁾ جون سيرل، العقل و اللغة و المجتمع الفلسفة في العالم الواقعي، تر: سعيد الغانمي، ص 151-152.

إن الرسم البياني أعلاه يبين كيفية عمل الملاءمة ضمن مساحة الربط اللغوي الذي يتم بين الأطراف الثلاثة المحورية: المتكلم و السامع و العالم المنقول بواسطة الكلمات، و يبين سيرل هذا الطرح من خلال مثال استعاره من أنسكومبر j.c.anscombe مفاده أن رجلا قدمت له زوجته قائمة من السلع التي ينبغي إحضارها من السوق، و بالتالي على هذا الرجل التقيد بما هو مكتوب على القائمة إذ لا مجال للاجتهاد، و هكذا يكون اتجاه الملاءمة منطلقا من العالم إلى القائمة، لأن الرجل أراد أن يجعل العالم يتناغم و يجاري القائمة، و لتبيان الشطر الثاني من اتجاه الملاءمة يفترض المثال وجود شخص متابع للرجل الذي تحمّل اقتناء المشتريات بناءً على القائمة، محاولا تشكيل قائمة أخرى منقولة من القائمة الأصلية، و بالتالي فالوظيفة التي أنيطت بالقائمتين تختلف، إذ إن صاحب القائمة الثانية يريد أن يجاري واقعا موجودا مستقلا أو بتعبير آخر يريد أن تكون قائمته تمثيلا للكيفية التي توجد عليها الأشياء، بينما تؤدي وظيفة القائمة الأصلية تمكين الزوج من آلية تغيير الواقع الذي توجد عليه الأشياء، و المخطط الآتي يبين تباين اتجاهي الملاءمة:



يبين الرسم البياني الاتجاه الذي تتخذه الملاءمة متوسلة القصدية التي يشكلها المتكلم ضمن المساحة النفسية التي لا يعاينها الطرف الذي يتوجه إليه الخطاب، و تتم ترجمة هذه العلاقات الداخلية إلى لغة تتشكل في صورة أقوال فعلية، و إذا كان المثال السابق قد استعمل نموذج لقائمة السوق، فإنه و كما قال سيرل: "ما يصح على علاقة العالم بالقوائم يصح على الكلمات و العالم، كما يصح على العقل و العالم" (2).

(1) المخططان من اجتهاد البحث.

(2) جون سيرل، العقل و اللغة و المجتمع الفلسفة في العالم الواقعي، تر: سعيد الغانمي، ص154.

يمثل مبدأ الفعل الكلامي حلقة في سلسلة التعالقات المذكورة أعلاه، ويرتسم لنا التعالق من خلال تعاطي نظرية الملاءمة مع تنظيرات من علم النفس المعرفي⁽¹⁾ الذي يُعد الرافد لمبدأ الفعل الكلامي، و بالتالي فقد أشار قاموس الخطاب إلى أن مبدأ الأفعال الكلامية يساهم في تأسيسه أربعة مبادئ عامة كبرى و تحتل نظرية الملاءمة **pertinence** التي يتولى العنصر قيد التحرير الحديث عنها المرتبة الرابعة، بالإضافة إلى مبدأ الغيرية **altérité** و مبدأ التأثيرية **influence** و مبدأ الضبط **regulation**⁽²⁾، و لقد اختلف النقاد العرب المحدثين في ترجمة مصطلح النظرية المسماة أعلاه، فهناك من نقلها بمصطلح آخر غير المذكور في العنوان فدعاها **بنظرية المناسبة**، و لكن هذا الاختلاف لم يُلحق تغييرا في المحتوى المفهومي للمبدأ، بل ظلت الدلالة التي تشير إليها النظرية على حالها كما يبين حدودها الباحثان ديردر ولسن **D.wilson** البريطاني مع نظيره الفرنسي دان سبربر **D.sperber**⁽³⁾ و ذلك بالاعتماد على الدراسات التي حققها فودور، حيث قام هذا الأخير بتقسيم مراحل الاشتغال الذهني عند البشر أثناء قيامه بالعمليات الاستدلالية إلى ثلاثة أقسام وهي:

1- **المُحوّلة**: و تهتم بترجمة المعلومة الصوتية أو السمعية أم المرئية، أي بمعنى تحديد الجنس الذي تنتمي إليه المعلومة.

2- **النظام الطرفي**: و يدعى المنظومة، و هو عبارة عن آلية توزع المهام على كل قسم من الذهن الإنساني، و بالتالي تذهب المرئيات إلى القسم الخاص بها، و كذا تذهب المسموعات إلى قسمها المنوط بها، و هكذا تمر اللغة بشكليّتها إلى المساحة الخاصة بها كذلك.

3- **النظام المركزي**: يعتبر هذا القسم بمثابة الفضاء الذي تجتمع فيه التحليلات على اختلاف ألوانها، و فيه تتحصل الأقسام المذكورة أعلاه على الترجمة الخاصة بها أو على التفسير الذي أريد لها تقديمه للسامعين⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ ينظر إلى عنصر علائقية التداولية بعلم النفس المعرفي ضمن البحث.

⁽²⁾ Dictionnaire d analyse du discours, patrique charaudeau, Ed du seuil, p431

⁽³⁾ مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص36.

⁽⁴⁾ جاك موشلار و آن روبول، التداولية اليوم، تر سيف الدين دغفوس، ص 83.

لقد اختار كل من ولسن و سبربر بناء على الذي سبق من فودور⁽¹⁾ توجهها يجعل من اللغة خارج دائرة العمليات الاستدلالية، أي بمعنى عدم اتباع التوجه الذي يُقَرُّ بانتماء العمليات الاستدلالية إلى دائرة خصائص اللغة التي تتعامل بها التداولية، و عليه فإن الباحثين لم يعترفوا بوجود النظام المركزي الذي ابتدعه فودور، بل كان لهما رأي آخر في هذا الشأن، و يتمثل في وجود منظومات مخصصة في معالجة المعلومات سواء بالطريقة الإدراكية **perceptuel** أو بالطريقة التصورية **conceptuels**⁽²⁾، ولنظرية الملاءمة أو المناسبة **Principe de pertinence** بناءً نظري خاص يعتمد على تعلقها بـ: "كل فعل تواصلية متعدد الاتجاهات يروم التمكن من الافتراضات أو الاستلزامات التي تجعل ملاءمته للسياق ناجحة"⁽³⁾، و تركز هذه العملية على تفعيل ما يسمى بمساحة الافتراضات التي تناسب المقام السياقي، و بالتالي يبني المتكلم هذه الافتراضات على أساس الطرف الذي يتوجه بالحديث إليه بواسطة الاختيار الحسن لأفضل المنبهات أو المثيرات التي يرى فيها المتكلم سبيلاً لتحقيق النجاح في العملية التواصلية، و عليه يتم تفعيل الملاءمة في الملفوظ بواسطة إقحام عدد كبير من التأثيرات في دواخل نفسية السامع، إذ: "كلما كان الملفوظ أكثر إنتاجاً للتأثيرات على السامع كلما كانت مناسبته مرتفعة، وكلما تطلّب الملفوظ جهداً أقل في تأويله ازدادت مناسبته"⁽⁴⁾.

يبدو من خلال البناء النظري لمبدأ المناسبة الذي تم اقتراحه من الباحثين ولسن و سبربر أن التأثير بالمبادئ الغرائسية واضح، إذ إن النظرية الحوارية التي تعتبر من بنات أفكار غرايس قدمت مدداً نظرياً معتبراً، و نجد من ضمن العناصر المهمة التي جاءت بها دراسة غرايس **مفهوم الدلالة الطبيعية**⁽⁵⁾، و يقوم هذا المبدأ على محورين رئيسيين وهما: المقصد الإخباري الذي يروم من وراءه المتكلم حمل المخاطب على محاولة التعرف على المعلومة المبثوثة ضمن الرسالة الموجهة

⁽¹⁾ فودور هو صاحب النظرية القالبية **modularity** ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 37.

⁽²⁾ جاك موشلار و آن روبول، التداولية اليوم علم جديد للتواصل، تر سيف الدين دغفوس، ص 75.

⁽³⁾ Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, p143.

⁽⁴⁾ *ibid.*, p143. « ...plus un énoncé produit d'effets contextuelles plus cet énoncé est pertinent »

⁽⁵⁾ ومثال عن الدلالة غير الطبيعية قولنا: "بيتك يشبه الاصطبل" أي بمعنى وجود الوسخ في البيت، أما قولنا عن جلب الثلج لبرودة الطقس فهي دلالة طبيعية، ينظر: جان مارك فيري، **فلسفة التواصل**، تر: عمر مهيب، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط1، سنة 2006، ص 13.

إليه، أما المحور الثاني فيتمثل في المقصد التواصلّي و يعتبر بمثابة الخطوة التفعيلية للمقصد الإخباري، و بناء على هذه التفصيلات النظرية فقد اقترح كل من سبربر و ولسن مصطلحا آخر يبدو أكثر وضوحا من المصطلحين السابقين، و هو مفهوم يتعلق بالتواصل الإشاري الاستدلالي الذي يُعرّفه كتاب التداولية اليوم علم جديد في التواصل، بالصيغة الآتية: "يوجد تواصل إشاري استدلالي عندما يُبلغ شخص ما شخصا آخر بواسطة عمل معين مقصده المتمثل في إبلاغه معلومة معينة"⁽¹⁾.

إن نظرية الملاءمة أو المناسبة التي تمّ اقتراحها من طرف ولسن و سبربر تكاد تكون المعادل الموضوعي التعويضي الذي حلّ محل قاعدة العلاقة⁽²⁾ عند غرايس، و التي تنتمي إلى مبدأ التعاون، و بالتالي نتج عن هذه العملية التنظيرية مصطلح جديد يدعى المناسب الاستدلالي **ostensive inferential** الذي يستعمل المتكلم من خلاله: "المثير الأكثر ملاءمة، لإبلاغ افتراضاته... و المتلقي يستدلّ على القصد الإخباري، انطلاقا من المؤشرات المسوقة من قبل المتكلم"⁽³⁾، ولكن تنطرح ضمن سير هذه العملية التواصلية مسألة ذات أهمية، و تتمثل في الطريقة التي يتوصل بها الطرف المخاطب إلى صحة التأويل من خلال ما استقبله من معلومات، وبالتالي يقترح الباحثان ولسن و سبربر إقحام ضمن هذه المسألة تكثيفات نظرية أخرى لم يتوصل إليها غرايس، و تتمثل في الاهتمام بالمقدمات المنطقية من خلال حسن اختيارها من طرف المتكلم، أي انتقاء الصيغة السليمة للجملة و السياق الأكثر مناسبة للملفوظ الذي يودّ المتكلم إرساله إلى مخاطبه، و لتحقيق هذا المطلب يتوصل كل من الطرفين معرفتهما الموسوعية للأشياء لأجل إدراك واضح و تام للمقام أو السياق ذلك لأن: "المعلومات المتوافرة في السياق هي التي لها حظ أوفر في التوصل إلى نتائج كافية للحكم على قول ما بأنه مناسب **pertinent**"⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ أن روبول و جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد للتواصل تر: سيف الدين دغفوس و محمد الشيباني، ص 80.

⁽²⁾ ينظر عنصر: الاستلزام الحوارّي ضمن الحقول الإجرائية للتداولية من هذا البحث.

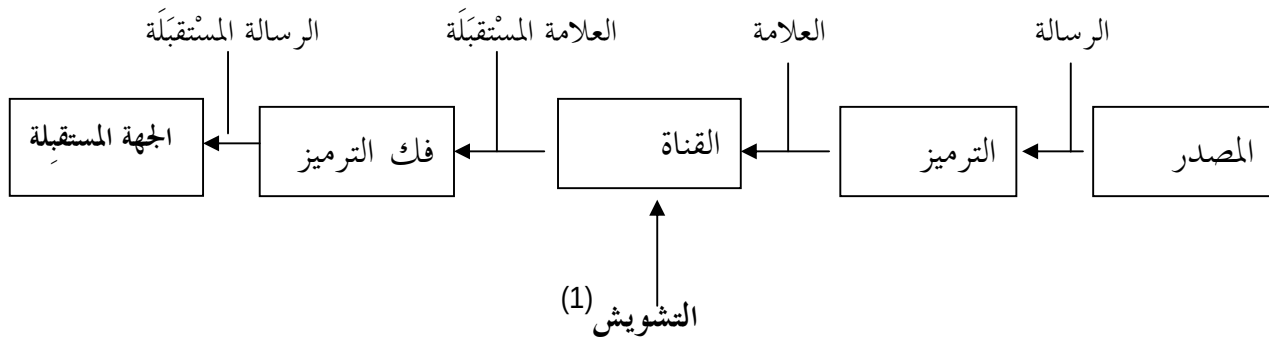
⁽³⁾ مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 39.

⁽⁴⁾ جاك موشلار و آن روبول، التداولية اليوم علم جديد للتواصل، تر سيف الدين دغفوس، ص 87.

و لقد عرفت نظرية الملاءمة تقدما معرفيا على يد الباحثين اللذين أخرجوا هذه النظرية إلى عالم الدراسة الواقعية، إذ صارت نظرة التواصل مغايرة عمّا كانت عليه من قبل، بحيث انضافت إلى فكرة الشيفرة **code** فكرة أخرى تعتبر بمثابة الإضافة العلمية المتميزة و هي الاستدلال **inference**، و بالتالي نتجت عن تعالق الشيفرة بالاستدلال آيتين لتحليل الملفوظات:

- الآلية التمثيلية: **representation** و هي المسؤولة عن جملة الافتراضات التي يُكوّنُها طرفا التواصل.

- الآلية الحوسّية الاستنتاجية: **computation** و هي المسؤولة عن الاستلزامات الاستدلالية، وسنحاول توضيح ذلك بالرسم البياني الآتي:



⁽¹⁾ Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, 4, p93.

وهذه قائمة المصطلحات الأصلية للمخطط البياني كما وردت في القاموس: المصدر source الرسالة message الترميز codeur العلامة signal القناة canal العلامة المستقبلية signal reçu فك الترميز décodeur الرسالة المستقبلية Message reçu الجهة المستقبلية Destination، التشويش Bruit.

يبين الرسم البياني أعلاه المسار الذي تتخذه الرسالة منذ انطلاقها من المتكلم بمثابة ممثلاً للمصدر الكلامي إلى الحين الذي تتخذ من خلاله شكل العلامة، ثم تنطلق هذه الرسالة في رسم طريق مرورها عبر القناة الافتراضية التي تجعلها تسير نحو المساحة ذات مهمة فك الترميز، و يضطلع بهذه المهمة الطرف الثاني من العملية الحوارية و هو المتلقي الذي يعتبر الصانع الثاني للملفوظ، و بالتالي فإن التفسير الذي يَتِمُّ استنتاجه من خلال الرسم البياني يكون ذا طابع تشاركي بين طرفي العملية التواصلية و يعتبر نتيجة لتشاكل التفسير الملفوظي مع التفسير السياقي⁽¹⁾ و هذا ما يُصطلح عليه عند ولسن و سبرير بـ **الْمُتَضَمَّنِ السياقي**، ويحدد هذا الأخير أنواعاً مميزة من النتائج المعرفية التي تشكل للمتلقي مصدر إفادة و تكوين **formation**، و تتمخض عن هذه العملية تمظهر استخدام العمليات الاستدلالية، و تتمثل هذه النتائج في إدخال إضافات معلوماتية إلى المخزون المعرفي لطرفي التواصل، و يسمى كلٌ من ولسن و سبرير هذا النوع من النتائج بالاستلزمات السياقية التي يتم تشكيلها بالتناسق مع مقتضى الحال، أي يجعل الحوار مناسباً لمكونات المقام الذي يتم إلقاؤه فيه، إلى جانب ذلك نسجل نتيجة أخرى تتمثل في التغيير الذي يطرأ على قوة الإقناع ضمن مساحة اعتقاداتنا⁽²⁾، أما النتيجة الثالثة فتتمثل في التقارع و السجال الذي يقع بين المعلومات المختلفة داخل الذهن الإنساني، بحيث تتكسر للسامع-الطرف الأساسي الثاني للحوار- ضمن سيرورة الاستلزمات إضافاً عملية تجديدية **renouvellement** للمعلومات التي كانت مخزنة في الذاكرة الخاصة به، و بالتالي تنفتح أمام المخاطب-بجر الطاء- حرية انتقاء التأويلات القرينة من قصدية المتكلم، و القرينة كذلك من فضاء المناسبة المقامية، و عليه فإن الحديث عن تفرعات هذه النظرية ذو شجون، إذا حاولنا تتبع خيوطه فإننا نجد أنفسنا في طرق عناصر نحن في غنى عنها، و الذي يهم البحث أكثر هو

⁽¹⁾ Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, p96.

⁽²⁾ هناك فرق بين الاعتقاد و المعرفة إذ أن الأول مبني على الظن الذي قد يتبين عدم صدقه فيما بعد، أما المعرفة فهي مبنية على الاعتقاد الجازم بالشيء، وهي نشاط الفكر الذي يثبت شيئاً بالإيجاب أو السلب، سواء كان الفكر كامل الإثبات يقوم على الوضوح و البدهة أو ناقصاً يعمه الغموض و الاختلاط، ينظر: جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات الفلسفية، ص433، فنقول كل اعتقاد قد يكون معرفة و العكس ليس صحيحاً، لأن المذهب الطبيعي يقضي بأن نعرف قبل أن

نعتقد، ينظر: Gabriel pomerand, le petit philosophe de poche, librairie générale française, 1962, p111. « La tendance naturelle de l'esprit humain est de croire avant de savoir ».

محاولة تقديم الأهم من المحتوى التنظري لمبدأ نظرية الملاءمة مع مراعاة جانبها الإجرائي الذي يتوسله الباحث في استخراج دلالات النصوص الأدبية و لا سيما الروائية منها، و المقولة الآتية تلخص لنا بشكل مفيد المسألة: " كلما قل الجهد المبذول في معالجة الملفوظ ازدادت درجة ملاءمة هذا الملفوظ، و كلما استدعى التعامل مع ملفوظ ما جهدا كبيرا كانت ملاءمته ضعيفة"(1).

لم يكن القصد من هذا الطرح النظري تبيان مقتضيات نظرية الملاءمة، بل كان متمحورا في إظهار الفعالية التي تضيفها هذه النظرية في حالة تطبيقها على النصوص الأدبية الروائية، و سيتم في لاحق البحث إن شاء الله، الاستعانة بإجرائية هذه النظرية، و ذلك بمراعاة ملابسات المقام و السياق اللذين تتم من خلالهما العملية الحوارية.

(1) j.moeschler et a. auchlin, introduction a la linguistique contemporaine, paris, Armand

colin, 1998, p179. نقلا عن: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص37.

الفصل الثاني

قراءة تداولية مقامية لرواية الأمير

- 1.1- توطئة.
- 2.1- توصيف الرواية.
- 3.1- فلسفة الهوية في الرواية.
- 4.1- هوية العمل الأدبي.
- 5.1- استشفاف الهوية من الفضاء المقامي لأحداث الرواية.
 - 1.5.1- تتبع الهوية من خلال مقام الحضور المتعالي.
 - 2.5.1- الحضور التفاعلي الجدلي .
 - 3.5.1- تألق الحضور المتعالي.
- 6.1- هل نص كتاب الأمير يحقق الانتماء إلى موجة الرواية الهوية؟
 - 7.1- تعالق التاريخي بالروائي في كتاب الأمير.

1.1- توطئة:

لقد كان الفصل السابق يترع إلى التجريد في طرح الأفكار، و ذلك تماشياً مع الخصوصية النظرية التي يتميز بها، إذ كان من اللازم تحديد أسس الأرضية التي سيتموضع عليها التحليل الهووي في الفصول التطبيقية اللاحقة، و التي تمثل الجانب التكميلي للبحث، و عليه فإن الحديث عن مسألة الهوية يمتاز بالتشعب لأنها اتخذت في التاريخ الإنساني مسارات مختلفة، ونظر إليها الفكر الإنساني على أنها الروح التي تسري في جسد الوجود الإنساني، و على أنها الوقود الذي يتحكم في حركية المجتمع، من أجل ذلك تشعبت الدلالات التي حملتها، إذ أنها خضعت مثل باقي الظواهر الإنسانية إلى سنة التغيير بمفهوم طرح ما هو زائد و كذا الإفادة من الخاريجي إذا كان لهذا الأخير إمكانية الإضافة النوعية، و سوف نتطرق ضمن هذا الفصل إلى التنقيب عن مكانم الهوية الخاضعة لسنة التغيير، و ذلك بعد تحديد المرجعيات الفكرية التي تستند عليها انطلاقاً من النص الروائي الذي انتقينا، و لسوف يجد القارئ لهذا القسم من البحث تناولاً لمسألة الغيرية التي تعتبر الظل لمسألة الهوية، على أساس أنها: "تخرج من طور الوجود بالقوة إلى طور الوجود بالفعل عندما يستفزها الآخر"⁽¹⁾، و يعد تناول الغيرية من باب إقحام الموضوعات الفكرية التي تساهم في توضيح العنصر الهووي في نص الرواية، لأننا وجدنا أن الكتابات التي تتناول مسألة الهوية لا تستطيع إغفال جانب الآخريّة، على أساس أن التحديد في كليهما يتم عبر رسم أرضية تلاقح بينهما، فقد تكون ذات طبيعة تكاملية أو غير ذلك كما سيرد في لاحق الفصل.

2.1- - توصيف الرواية:

يبدأ نص كتاب الأمير من الحدث التاريخي و يظل فيه حتى نهايته، و قد اختار كاتب الرواية بدايات الحقبة الاستعمارية للجزائر على أنه الزمن الكرونولوجي العام للأحداث، و قد تحدت هذه الحقبة من سنة 1838 إلى غاية سنة المنفى أي 1852، واختار الروائي لنصه هذا كتابة طبعها مزيج من السردين الروائي و التاريخي، حيث جعله الروائي على ثلاثة أبواب:

⁽¹⁾ عبد الله بن إبراهيم الزهراني و آخرون، سؤال الهوية و آفاق المنهج، جامعة أم القرى، مصر العربية، ط1433/1هـ- 2012م، ص213.

1- باب الخن الأولى: من الصفحة 7 إلى الصفحة 197:

و هو عبارة عن خمسة وقفات، أخذت الوقفة الأولى عنوان: **مرايا الأوهام**، حيث يبدأ القص من تاريخ دخول الأسقف ديبوش إلى الجزائر بصفته مُعيّنًا لخدمة الكنيسة سنة 1838، ثم يتعرض الكاتب ضمن هذه الوقفة إلى ذكر عزم ديبوش على توصيل رسالته إلى أعلى هرم في السلطة الفرنسية، و موضوع الرسالة هو طلب منح الأمير عبد القادر حريته بناء على العهود والمواثيق المقطوعة، و ينتقل الحديث الروائي إلى الوقفة الثانية المعنونة بـ: **متزلة الابتلاء و الخن** حيث يعرفنا الكاتب على الحادثة التي شكلت متزلة عالية للأمير في نفسية يبوش، و هي تبادل الأسرى في مايو 1840، ثم ينتقل السرد من الجزائر العاصمة إلى منطقة غريس⁽¹⁾ حيث كان الكل يستعد لمشاهدة إعدام أحمد بن طاهر مُدرّس الأمير لعلم الفقه و قاضي آرزو الذي نكث العهد المقطوع مع والد الأمير محي الدين، و يسجل الروائي ضمن هذا البرنامج السردى وصفا لمدينة معسكر من قبل أن تَطأها أقدامُ الفرنسيين، و تنتهي الوقفة بمبايعة عبد القادر خليفةً وأميرا على المسلمين بحضور الأعيان و العلماء، و تسير الأحداث عبر دخول معاهدة دوميشال بتاريخ 25 فبراير 1834 مسرح السرد، و ذلك ضمن الوقفة الثالثة المعنونة بـ: **مدارات اليقين**، إذ كان من ثمار هذه المعاهدة إحداث التغيير في النظام الإداري للمقاطعات من طرف الأمير، حيث قسم الجغرافية إلى مقاطعات ثلاث: خلافة معسكر و خلافة التيطري في مليانة والمدية ثم خلافة تلمسان، و لقد عرفت الحركة الاقتصادية نشاطا عاد بالفائدة على المدن التي دخلت اختياريا تحت خلافة الأمير، و لكن الرياح ترفع دوما سيف المعصية للسفن، إذ يدخل الراوي ضمن الحياة السردية الخبر الذي أحزن الأمير و هو نقض المعاهدة من طرف الجنرال تريزل 1856-1780 Camille Alphonse Trézel، الذي مسح قبائل غرابة من المنطقة الوهرانية⁽²⁾ ثم انتهى به الأمر بالانهزام في منطقة المقطع، و ضمن الوقفة الرابعة المعنونة بـ: **مسالك الخيبة** تظهر سرديا معسكر العاصمة الأولى للأمير و غارقة في الحرق والتشريد على يد

⁽¹⁾ غريس منطقة برتبة بلدية ضمن التقسيم الإداري الجزائري تابعة لولاية معسكر الواقعة في الغرب الجزائري، وتمتاز بسهولة الوصول إليها.

⁽²⁾ نسبة إلى وهران و هي مدينة ساحلية من أكبر المحافظات، تقع بالغرب الجزائري.

الجنرال كلوزيل⁽¹⁾ Bertrand Clausel في 10 أوت 1835، و يصدر الأمير أمرا مفاده هجرة هذه المدينة، ثم يأخذنا الراوي من جديد إلى الكشف عن حقائق تاريخية عبر محاورة الأسقف ديبوش للأمير ضمن مكان مغلق سرديا و تاريخيا، و هو قصر أمبواز Amboise منفي الأمير الذي أكره على قبوله، و يتعرض الأمير إلى سرد السبب الذي أدى به إلى وضع السلاح و عقد معاهدة الاستسلام مع الجنرال بيجو thomas robert Bugeaud الموصوف في الرواية بتمسكه بأخلاق العسكري، إذ ورد على لسان الأمير أن فداحة الخيانة التي تلقاها من الموالين له كانت أكبر أثرا من همجية المستعمر، و هي السبب الرئيسي في حتمية وضع السلاح، و عليه تم للأمير استلام تلمسان إثر معاهدة التافنة و تأديب الكورغليين الخونة، ثم العودة إلى العاصمة الثانية تكدامت و التي أرادها الأمير عاصمة للعلم و السلام، و بهذا يعلن الراوي عن انتهاء الباب الأول بانتهاء آخر وقفة منه و المعنونة بـ: **متزلة التدوين.**

2- باب أقواس الحكمة من الصفحة 227 حتى الصفحة 411:

يتموضع هذا القسم ضمن العالم السردي على وقفات أربع، شكّل من خلالها الروائي استمرارا لبرامج القص، مستهلا بالوقفة السادسة المعنونة بـ: **مواقع الشقيقين و المقصود بهما الأمير و ديبوش⁽²⁾**، و يمنح الروائي ضمن هذه الوقفة القسط الوافر من دور الرواية لجون موي الخادم المخلص للأسقف، حيث ينقل لنا أخبار سيده الذي أحبّ الحياة في الجزائر و أوصاه بدفنه في تربتها، و يقدم السارد من خلال جون موي⁽³⁾ ثبنا تاريخيا مهما عن مقال لجريدة

(1) عُيِّن كضابط فرنسي سامي سنة 1831 أسس فرقة الزواف المتكونة من أفراد من القبائل المختلفة، ينظر : Hani Abdelkader, Correspondances de l'émir a. e. k 1833-1888, éd dar el Gharb, 2004, Oran, Algérie, p181. « Clausel officier français chargé en 1831, de l'occupation restreinte de l'Oranie. Il crée le corps des zouaves composé à l'origine d'indigène de Kabylie. Il s'empara de Mascara 1836, »

(2) عُيِّن الأسقف ديبوش المكلف بالكنيسة بالجزائر سنة 1838، ينظر Hani Abdelkader, Correspondances de l'émir a. e. k 1833-1888, éd dar el Gharb, 2004, Oran, Algérie, p182. « DUPUCH évêque d'Alger, l'évêché d'Alger avait été créé en 1838. »

(3) جون موي شخصية من خيال الروائي، و لا علاقة لها بالتاريخ الموضوعي للأمير المسجل في كتب المؤرخين، استخدمها الروائي لأجل عقد الحوار بين الأمير و ديبوش، أدلى بذلك واسيني الأعرج ضمن حوار أجرته معه براون حبيب ضمن قناة أبو ظبي في حصة أهل المعرفة، قناة أبو ظبي، بتاريخ 12 فبراير 2012.

المونيتور (1) le moniteur يتعلق بتبيين أحداث عين ماضي (2)، التي طرد من خلالها الأمير محمد الصغير التيجاني بعد أن أعلن هذا الأخير عدم الولاء، و لقد تمت عملية إبعاد الصراع الدموي ضمن البرنامج السردى من طرف مصطفى بن قهامي صهر الأمير و أمين سره و كذا قاضي أشرف أغريس، و أسفرت النتائج على إبرام معاهدة نصت على خروج إمام التيجانية إلى واد ميزاب، بعد حصار دام من تاريخ 13 جوان إلى 12 يناير 1839، و لقد تلقى الأمير مساعدات على حسب السارد من حاكم الجزائر فالي 1773-1846 Sylvain Charles Valée و كذا من سلطان المغرب، و لقد سيطر حدث إبعاد التيجاني و حرق عين ماضي على هذه الوقفة، و كان السارد يلجأ بين الحين و الآخر إلى إقحام بعض الأحداث الأخرى مثل غزو قسنطينة من طرف تريزل و ورهير و فالي و الدوق دو مال duc de malle، و لقد تم للأمير ضمن هذه الوقفة كذلك تأليف وشاح الكتائب، و هو القانون الذي أملاه على كاتبه قدور برويلة، حيث ينص على تنظيم الجيش من المشاة إلى أعلى قائد. يعرف السير الحديث بعد ذلك تواترا عاليا أسفر على توقيع ملحق لمعاهدة التافنة من طرف الميلود بن عراش (3) سفير الأمير في فرنسا، و ذلك في إطار عملية سردية أخفاها الراوي عن شخصية الأمير، الشيء الذي أثار غضبه، و لقد كان هذا دافعا إلى عقد المجلس الأعلى لاستشارة الأعيان و أسفرت النتائج على إعلان عدم قبول الملحق، نظرا لما حملة من سد الطرق أمام الأمير تجاه مليانة و المدية، و هكذا رجع دو مال De salle خائبا من عند الأمير يحمل الرفض الذي تبعه إعلان الحرب مجددا و توقيف سريان المعاهدة. أعلن السارد للقارئ بعد ذلك ضمن حكي سري عن ما كان يراه الأمير و ما خفي عن رؤساء القبائل الذين تسببوا في إرجاع الحرب إلى المسرح الروائي، و بالتالي وصل بيجو إلى الجزائر في 15 يناير 1840 ليعلن الراوي على لسان هذا القائد عن عزمه لتدمير كل ما بناه

(1) جريدة فرنسية تأسست سنة 1798 و اختفت عن الصدور سنة 1901 ذات طابع سياسي إشهاري، موقع: La

© Bernard Coppens 2010 - waterloo1815.com - Patience - 1789-1815.Com

(2) عين ماضي إحدى البلديات العشر التابعة إداريا لولاية الأغواط الواقعة جنوب شرق جغرافية الجزائر.

(3) نصبه الأتراك حاكما عسكريا للقبائل العربية، و كان الأمير يكلفه بالمهام الدبلوماسية، ينظر. Hani Abdelkader, Correspondances de l'émir a. e. k 1833-1888, ibid. p179. « ben arach Miloud : ancien commandant des tribus du chaïrg sous les turcs. Il a été maintenu dans son commandement par l'émir lui confia souvent des missions diplomatiques »

الأمير في مرحلة السلم، و اتخذ ما سُمي في التاريخ الاستعماري لفرنسا بسياسة الأرض المحروقة، و لم تلبث السنوات القليلة تمر حتى وقع ما لم يكن يتمناه الأمير و هو إتيان جيوش ييجو على كل انجازات الأمير، فأصبحت تكدامت حدثاً بعد عين، و يعود في هذه اللحظات الحرجة من السرد الروائي جون موبى ليواصل سرده لتفاصيل حوارات سيده مع الأمير، وكانت الزمالة التي تعني العاصمة المتنقلة هي محط الأخذ و الرد ضمن الوقفة السابعة المعنونة بـ: **مراتب المهاوي الكبرى**، إذ استطاع السارد أن يخلق عملية تواطؤ بين الشخصيات المتضادة في أصولها، فنجد أن حملة لاموسير 1806-1865 Christophe louis Lamoricière التي قادها لتتبع زمالة الأمير ساعده فيها فرحات عباس، الذي كان موالياً للأمير في الماضي السردى، وعندما ضاقت السبل على القائد المقاوم أرسل أحد القادة المخلصين و هو ابن علال برسالة إلى مولاي عبد الرحمان سلطان المغرب لأجل طلب المساعدة، فكان الرد قاسياً، و اجتمع على الأمير عدوان أحدهما قريب منه و الآخر بعيد عنه، و في هذه اللحظات من السرد يعلن الراوي خضوع سلطان المغرب لإملاءات ييجو، و يتوصل بعد ذلك السارد إلى اطلاع الأمير على مجازر جبال الظهرة حيث أحرق القبطان بليسيه⁽¹⁾ Jean Jacques Pélissier حوالي 760 شخصاً من قبيلة واحدة في 24 جوان 1845، و يتوجه الأمير إلى بلاد القبائل استجابة لنداء بذل النجدة، بمثابته الخليفة الذي تلقى البيعة منهم فهو المسؤول عن حمايتهم، و أصلح ما استطاع إصلاحه و عيّن الآغا الشيخ الحسين بن عراب ثم عاد صوب تلمسان حيث الزمالة، بعد أن نجح من كمين نصبته له قوات الكولونيل كامو لولا تدخل قبيلة أولاد نايل و حلول النجدة من طرف أحد قواده الذي يدعي البوحميدي، و لقد استغرق قطع هذه الرحلة السردية سنة كاملة من الزمن الكرونولوجي ليجد مأساة ذبح المساجين قد تمت في غيابه بأمر من خليفته مصطفى بن قهامي، تحت ضغط تماطل الجنرال ييجو و محاولات جيش السلطان المغربي في الحصول على الرهائن و الاستفادة منهم. لقد أسلمنا السرد الروائي بعد ذلك بواسطة الراوي إلى الوقفة التاسعة ليعلن عن احتضار باب **أقواس الحكمة**، إذ تميزت هذه الوقفة بالتواتر

⁽¹⁾ ضابط سامي فرنسي بطل مجزرة غار الفراشيش بالظهرة بولاية مستغانم بالغرب الجزائري، عُيّن حاكماً عاماً عسكرياً لمقاطعة وهران سنة 1840، ينظر: Hani Abdelkader, Correspondances de l'émir a. e. k 1833-1888, ibid. p183. «..Aimable, Jean Jacques, duc de Malakoff : officier français participa à la guerre contre l'émir, chef d'état-major de la division d'Oran en 1840. »

السردى الطويل الممل في بعض الأحيان، لأنها ضمت حلقة مطولة من سلسلة حوارات الأسقف ديبوش مع الأمير، حيث تناولت قضية ذبح المساجين في سيدي إبراهيم في 25 أبريل 1840، والتي ألحقت حزنا آخر إلى الأحران التي تلقاه الأمير، إذ نجد السارد يطلق العنان لهذه الشخصية المحورية لتسرد بنفسها هذا الضيق النفسى الذي سببته أحداث سقوط القادة المخلصين لها، مثل محمد بن عيسى البركاني الذي قتل في طازه و كذا البوحيمى الذي مات في سجن سلطان المغرب سنة 1847. لقد صنع الروائي حلقة سردية للقس ديبوش و تركه يستمع إلى سرد الأمير عن أهم حدث و المتمثل في نجاة الزمالة، و ذلك بصنع الأمير للجسر الذي بناه في ليال معدودات، و كذا تحقيق العبور على واد ملوية أثناء موسم الأمطار و السيول، و هذا بعد ما تم له هزيمة جيش سيدي محمد ابن سلطان المغرب، رغم إمداد ييجو له بالمساعدات، ولقد وجدت زمالة الأمير قبائل بني إزناسن تنتظره لمناصرتة، و لكنه اتخذ قرارا عقلايا في هذه اللحظة السردية التي توافق شهر ديسمبر 1847، إنه قرار الاستسلام و إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الزمالة التي ضمت عوائل الشهداء.. صلى الأمير بسيدي إبراهيم الكائن بالغزوات، ثم باع أحمد السقال خليفة الأمير على تلمسان ما حملته الزمالة من أشياء لا تستطيع أن يأخذها معه إلى المنفى، بعد إبرام المعاهدة مع لاموسير و الدوق دومال الحاكم الفرنسى للجزائر.. حقا إنها حالة ضيق المسلك و انطفاء الرؤية على حد تعبير أبي حيان التوحيدى..

3- باب المسالك و المهالك من الصفحة 485 إلى الصفحة 628:

ينطلق السرد ضمن هذا الباب من الوقفة العاشرة المعنونة بـ **سلطان المجاهدة** بالحديث عن المهانة التي عرفها الأمير من خلال التنقل من قلعة لامالغ lamalgue، مروراً بقصر هنري الرابع Henri IV، و وصولاً إلى قصر أمبواز الذي يمثل القسط الأكبر من المنفى ضمن برنامج السرد الأخير، و في القصر حاور الأمير نماذج من الحضور الثقافى الفرنسى، و في القصر كذلك سمح السارد الحقيقي للرواية لشخصية ديبوش أن تصنع بقية الحوارات العالقة، و التي أتم من خلالها هذا الرجل الكنيسى رسالته إلى لويس نابليون Charles Louis 1873-1808 و بالتالى استطاعت Napoléon Bonaparte الذي اعتلى الحكم إثر انقلاب 2 ديسمبر 1851، و بالتالى استطاعت شخصية الأمير أن تفتك الحرية من الحاكم الجديد بناء على احترام فرنسا للعهد و المواثيق المقطوعة مع الأمير، اثر توقيع معاهدة الاستسلام، و هكذا يأخذنا السرد إلى الوقفة الحادية

عشر المعنونة بـ: **فتنة الأحوال الزائلة** و التي يتلقى في زمنها الروائي الأمير رسالة التحرر من لويس نابليون بتاريخ 28 أكتوبر 1852، و يعيد السارد دور الراوي إلى جون موي خادم ديبوش حيث يقص علينا رحلتين توديعيتين صنعهما ديبوش: الأولى كانت بتوديع الأمير الذي انطلق عبر البحر إلى تركيا، أما الثانية فمثلت الوداع النهائي.. خروج الأسقف ديبوش من الحياة السردية و من الحياة الواقعية، لتتم إعادة رفاته إلى الجزائر العاصمة نزولا عند الوصية التي تركها لخادمه.

لقد اختتم الروائي سرديته الأميرية بباب المهالك، و هو لفظ يشي بالكثير من الدلالات المبتوثة في ثنايا الملفوظات الحوارية، و سيعمل الجزء المتبقي من البحث على استكشافها، متوسلا بعض الآليات التداولية.

3.1- فلسفة الهوية في الرواية:

لقد سبق و أن قدمنا تعريفا بسيطا عن الهوية في الفصل السابق، و كان التركيز فيه على الجانب القاموسي أكثر من الجوانب الأخرى، و بالتالي فإن مسألة الهوية أخذت من الكتابات الفكرية حظا كبيرا و بات تحديدها ينطرح بشدة ضمن النصوص الحديثة والمعاصرة⁽¹⁾، و يعود ذلك لعوامل عديدة أهمها ارتباط المسألة بفكرة الوجود من جهة و تعدد مفهوم الهوية من جهة أخرى فهو: "ذو دلالة لغوية و فلسفية و اجتماعية و ثقافية"⁽²⁾، و بالتالي تبدو مسألة ترسيم المعايير التي تحدد لنا أنماط الهوية من الصعوبة بمكان، إذ إن التقسيمات التي لجأت إليها الكتابات النقدية لهذه المسألة ركزت أكثر على الخصائص الثانوية أكثر من تركيزها على العناصر الجوهرية التي تحدد الهوية ذاتها، فتناولت على سبيل المثال خضوع المسألة لسنة التغيير التي تتحكم في الظواهر الطبيعية، و بالتالي خضوعها كذلك لسنة النمو الإكتمالي عبر التاريخ، و للإشارة الحديث هنا يتمحور حول المحددات التي تمثل الأركان التي تقوم عليها الهوية و أهمها اللغة و الدين و كذا الوطن و التاريخ، و تُكوّن هذه الأخيرة بمجموعها مساحة فكرية تتداخل عبرها المفاهيم في شكل تكاملي، إذ لا نستطيع أن نفصل العنصر عن الآخر لأن البناء

(1) ينظر: محمد مفتاح، دينامية النص، تنظير و إنجاز، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط1/ 1987. ص157.

(2) جون جوزيف، اللغة و الهوية، عالم المعرفة، تر: عبد النور خراقي، عالم المعرفة، ع342، المجلس الوطني للآداب و الفنون و اللغات، الكويت، 2007. ص7.

الهووي يتطلب الأركان المذكورة، و لكن ما ينبغي الإشارة إليه هو التصنيف الذي تخضع له هذه العناصر من حيث أولويتها التشاركية في البناء الهووي.

حينما ينظر الإنسان إلى العناصر المذكورة أعلاه يجد نفسه في خيار حتمي يفرض عليه وضع ترتيب تصنيفي لها على حسب الأولويات، إذ بموجب هذا الترتيب يتسنى له المضى نحو رسم برنامج العمل الذي يتغيا من ورائه التشكيل و التكوين لهويته، و عليه فإن التاريخ يشكل في العناصر أعلاه حجر الزاوية التي تدم العناصر الأخرى بالمعين الذي يجعلها تنتقل من الوجود الإمكانى لتملك الوجود التحقيقي⁽¹⁾، ذلك لأن التاريخ هو الفضاء المميز و الوحيد على حمل ذاكرة الشعوب التي تعيش من أجلها و بها، و بالتالي فالمجتمع الذي لا يملك تاريخا لا يملك ذاكرة يستمد منها وجوده، والتفريط فيه معناه تعرض المجتمع إلى ما يسمى بالعمى الحضاري⁽²⁾، و يُعبر التاريخ عن هوية الشعب بالاعتماد على الصرامة اللغوية المتخذة من طرف المؤرخ في كتابة الأحداث الموضوعية، و للإشارة فالتاريخ الذي نتحدث عنه هو الحقيقي وليس الذي عبثت به الأهواء الإيديولوجية، لأجل ذلك تأتي الرواية كجنس أدبي إنساني لتساهم في إظهار الحقائق من التاريخ بالاعتماد على تكريس الالتقاء بين اللغة التاريخية الصارمة مع اللغة الحكائية التخيلية، و يؤكد هذا الالتقاء شكلا آخر من اللغة يتداخل من خلالها السرد الروائي بجملة من الخيالات التي تحقق بدورها للقارئ المتعة القرائية و الإفادة المعرفية، و هذا ما عملت الموجة التجريبية للرواية على تكريسه، فالتاريخ و الرواية يمثلان مصدرين للإفادة و الحقيقة من جهة و للترفيه و التسلية من جهة أخرى⁽³⁾، و يصير التاريخ بذلك يمثل الظاهر الذي تستند عليه الشعوب في تكوين وجودها بله هويتها و كينونتها، كما نجد أن كلا من المؤرخ و الروائي يعملان على تكريس خصوصيات جنسيهما على الكتابة، فالأول يعمل على إفراغ خصوصيات الموضوعية على شكل كتابته بفرض سلطة معينة على القارئ، أما الرواية فتفتح أمامه كل الاحتمالات متناولة تاريخ الاغتراب الإنساني المظمور في الزمن، أما الشخصية في التاريخ فتبقى على حالها، ويتحتم على المؤرخ في بعض الأحيان إلى أن ينسب إليها بعض

(1) ينظر: عبد السلام أقلامون، الرواية و التاريخ، سلطان الحكاية و حكاية السلطان، دار الكتاب الجديد المتحدة بنغازي، ليبيا، ط1/2010، ص37.

(2) ينظر: عبد السلام أقلامون، الرواية و التاريخ، ص34.

(3) ينظر: عبد السلام أقلامون، الرواية و التاريخ، ص30.

الوقائع المتخيلة خدمة لأديولوجيا معينة، أما الرواية فالعكس من ذلك، إنها تنسب الوقائع الحقيقية إلى شخصيات مُتَخَيَّلَة و شتان بين الأمرين، و هي بذلك تعمل على رصد التداعي المتسع الذي يغض الطرف عنه المؤرخ، ثم إن الروائي يوضع التاريخ الحقيقي في الحاضر المعيش أما المؤرخ فيسردها على أنها الماضي الذي انقضى .

إن الكتابة ضمن مقارنة الهوية في النصوص السردية تضع البحث ضمن حتمية تناول دراسة الآخريّة التي تمثل المقابل الموضوعي للذات، مع العلم أن هذه الأخيرة تمثل بدورها المساحة التي تحوي مشكلات الهوية، و لقد جاء في تعريف لالاند للآخر على أنه النقيض للذات⁽¹⁾، و بالتالي يرتسم توجه الخطاب الهويي نحو البحث عن محددات الأنا و نحن و الهم⁽²⁾ ضمن ثنائية المكان و الزمان اللذين احتويا الإنسان الساعي إلى التعرف على ذاته و هويته، من خلال الإنتاج الثقافي للمجتمع الذي يُكِن الانتماء له، و يحمل بذلك خطاب الهوية مفهوما تجميعيا: "للعلامات الدالة و الشعارات المعبرة عن كل الذات إقصاء و تحييدا و الدخول تبعا لذلك في دائرة الصراع تغايرا فاعترافا"⁽³⁾، و لقد حاول هذا الإنسان تكوين هويته عبر طرق كثيرة أبرزها الكتابة بمختلف أشكالها و لا سيما الكتابة السردية التي تمثلها الرواية أحسن تمثيل، فمن رواية زينب التي ظهر سردها من الأرض التي حلّ بها نابليون إلى بقية الروايات التي حاولت تسجيل مسيرة الذات العربية لمكابدات التاريخ، و نذكر في هذا المجال نماذج روائية طرقت مسألة الهوية على سبيل المثال لا على سبيل الحصر: "عصفور من الشرق، للحكيم، وأديب، لطف حسين، و قنديل أم هاشم..."⁽⁴⁾، و تواصلت الكتابة الروائية متناولة هذا الجانب، بداية من الرواية التقليدية التي حاولت أن تعيد إنتاج الوعي السائد في فترة زمنية ماضية، ثم تلت الرواية الحديثة و التي حاول أصحابها أن يشكلوا تصميما يجسدون من ورائه رؤية تمتاز بالوثوقية في نظرتها إلى العالم، حاملة معها مبدأ الإيهام بواقعية العالم الفني الذي يصف من ورائه الروائي تفاصيل و جزئيات الحياة التي تعيشها الشخصيات في أشكالها البسيطة،

(1) أندريه لالاند، الموسوعة الفلسفية، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 2001، بيروت، لبنان، ص281.

(2) حاتم الورفلي، بول ريكور الهوية و السرد، التنوير للطباعة و النشر، بيروت - لبنان، 2009، ص5.

(3) حاتم الورفلي، الهوية و السرد، ص5.

(4) الشاذلي عبد السلام، شخصية المثقف في الرواية العربية الحديثة، دار الحداثة، لبنان، ط1، 1985، ص41.

ثم تأتي المرحلة الثالثة التي تعبر عن النضج الفني الذي أنتج رؤية مخالفة لكل ما هو سائد و تعبر كذلك عن اللايقينية في العالم⁽¹⁾، و تعتبر هذه المرحلة منط البحث لأن رواية كتاب الأمير التي اتخذناها كمدونة تنتمي إليها بحكم توفرها على العديد من خصائص الرواية الجديدة التي تعمل على إبراز جمالية السرد، و على رسم التعالق بين المتخيل و الواقعي من جهة، و بين الأدب و الواقع من جهة أخرى⁽²⁾، لأجل إيجاد السبيل الذي يعيد للذات وجودها.

4.1- هوية العمل الأدبي:

تحدد هوية العمل الأدبي من خلال المعالجة اللغوية للتييمات المشكلة للعناصر المتواجدة في السياق الاجتماعي، و الذي ينتمي إليه الأديب بفعل حتمي، و بالتالي لا يستطيع المبدع أن يخرج عن هذا السياق الذي يعبر عن أصوله التكوينية، و تقف على رأس هذه الأخيرة مسألة الهوية أو الكينونة، و يملك الروائي العربي ضمن هذا الطرح خيارات متعددة يجدها ضمن التراث المكتنز بأنواع كثيرة من السرد، إذ تسعفه في إغناء الجانب الإبداعي، و تعتبر الرواية الجديدة إحدى الأنماط المهمة المنتمية إلى هذا النوع من الكتابة التي تتخذ التراث السردى مرجعا تنهل منه لتثري برامجها السردية، و لقد أشار بول ريكور إلى المسألة بقوله: "التراثية هي المفتاح لتشغيل النماذج السردية، و بالتالي لتحديد هويتها"⁽³⁾، و تعمل الرواية الجديدة على تبوء مكانة ضمن موجة صيحة التجريب ساعية على البحث عن العنصر الجوهري الذي يخرجها إلى عالم القراءة في شكلها الفني، و ذلك بالاعتماد على تفعيل آلية اللغة في الرواية من حيث محاولة إقحام لمسات المبدع و كذا بصماته، و من خلال تفكيك الموروث السردى الذي هو عبارة عن تخیلات سردية أنتجت لنا منظومة رمزية محكمة من القيم و الآداب، و ظلت هذه تستجيب لتخیلاتها و ليس لواقعها⁽⁴⁾، و نص كتاب الأمير يعمل صاحبه ضمن هذا الإطار، و يكرس من خلاله النصية الإبداعية التي تؤدي دور الوساطة بين الإنسان و العالم⁽⁵⁾، و تصبح

⁽¹⁾ ينظر: شكري عزيز الماضي، أنماط الرواية العربية الجديدة، عالم المعرفة، المجلس الوطن للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، ع355، سبتمبر 2008، ص14.

⁽²⁾ ينظر: شكري عزيز الماضي، أنماط الرواية العربية الجديدة، ص14.

⁽³⁾ عبد الله إبراهيم، السردية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1/ 2003، ص83.

⁽⁴⁾ عبد الله إبراهيم، السردية العربية، ص83.

⁽⁵⁾ عبد الله إبراهيم، السردية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1/ 2003، ص85.

الرواية حاملة بذلك لرؤية مفادها اعتبار الهوية: "صورة مجازية لا جوهرًا ثابتًا"⁽¹⁾، وهذا النص الروائي يُعنى بتفتيت البنية الصنمية للتاريخ التي عمل على إنشائها المؤرخون، و يؤرخ لجملة من التقلبات و الاختيارات و الانقسامات السرية و المظلمة⁽²⁾، و يتوسل الروائي في سبيل تحقيق هذا الأمر فضائية اللغة التي تؤدي دور الربط الوهمي بين المتخيل و الواقع و مرد ذلك أن: " معرفة الواقع تتطلب معرفة اللغة.. لأن اللغة دون مرجعية واقعية تظل صورية.. و الواقع دون مرجعية من لغة التخاطب يظل أخرسا و عاجزا"⁽³⁾، و إذا كان الواقع يشكل تعالقا مع اللغة فإن هذه الأخيرة تعمل على إبراز عناصر الهوية التي تتجلى في الجانب الوظيفي⁽⁴⁾ أكثر، و ينتج عن هذا التداخل بين الواقع و الهوية و اللغة ، ما سماه أحد دارسي مسائل الانتماء بالهوية اللغوية⁽⁵⁾، و يكاد يدور تحليلنا لنص كتاب الأمير حول هذا الطرح، نظرا لاهتمام المنهج التداولي بتحليل التفاعل التخاطبي بين بني البشر و بالتالي فإن: "ارتباط عملية الهوية اللغوية ارتباطا وثيقا بالتفاعل اللغوي بين الناس يجعل منها على ما يبدو، نوعا متفرعا من التواصل"⁽⁶⁾، و ينبغي أن نضع في الحسبان أن الأمر يصل إلى أبعد الحدود، إذ إن ممارسة اللغة و التعامل بها سواء في المجال الكتابي أو الشفهي، يفرض على المتلقي نوعا من التقمص القصري لما تحمله هذه اللغة من دلالات و تمثيلات في الواقع، و ينتقل هذا التقمص إلى الإبداع لأنه: "ليست اللغة في الأدب مجرد تشكّل أو قالب... بل هي جوهر الإدراك نفسه، و من ثم فهي التي تصوغ هوية العمل الأدبي"⁽⁷⁾، و يذهب محمد مفتاح إلى أبعد من ذلك عن تعامل المتلقي للنص الإبداعي، فيجعله هو صاحب التحديد الهووي انطلاقا من توفره على السليقة التي

(1) عبد الوهاب المسيري، الهوية و الحركة الإسلامية، تحرير: سوزان حرفي، دار الفكر، دمشق سورية، ط1/2009. ص146.

(2) عبد الله إبراهيم، السردية العربية، ص72.

(3) حسن خمري، المتخيل و الواقع، منشورات دار الاختلاف، الصندوق الوطني لترقية الفنون و الآداب، الجزائر، ط1/2005. ص44.

(4) الوظيفتان الرئيستان للغة هما: التواصل مع الغير، و تمثل الكون؟ لأنفسنا في عقولنا، ينظر: اللغة و الهوية، ص55.

(5) جون جوزيف، اللغة و الهوية، ص36.

(6) جون جوزيف، اللغة و الهوية، ص36.

(7) ادوار الخراط، في البحث عن هوية الأدب الفرانكفوني، مجلة العربي، المجلس الوطني للفنون و الآداب، الكويت، ع438، ماي 2000، ص79.

تزود بها من الطبيعة و المجتمع⁽¹⁾، و ينبغي الإشارة هنا إلى نقطة مركزية في النصوص الروائية، وتتمثل في الصعوبة التي يلاقيها الروائي في كتابة النص، و بخاصة إذا كان نمط النص يمتح من التاريخ الموضوعي للإنسان، مثل النص المعالج في هذا البحث، و تتمثل هذه الصعوبة في إيجاد الأرضية التي يثبت من خلالها الروائي قناعاته، و كذا قناعات الشخصيات التي تشغل المراكز في الرواية، على أساس وجود الفروق بين مقصدية المؤلف و مقصدية النص⁽²⁾، و يضع جون جوزيف عملية تشكل الهوية في المجتمع الإنساني ضمن المرتبة الثالثة من وظائف اللغة بعد التواصل والتمثل، و يعلل الكاتب هذا الطرح بحديثه عن الحضور الذي يحققه الناس من خلال ممارستهم للغتهم الأم، فيعلق عن هذه في المسألة رابطاً إياها بتكوين الهوية في أشكال اللغة بقوله: "إنهم حاضرون-الناس على اختلافهم- دوماً في ما يقولون و في الفهم الذي يبنونه على ما يقولون، إن هويتهم تتأصل في صوته و يكون ذلك ملفوظاً أو مكتوباً، أو موقعاً signed"⁽³⁾، و لقد حدد الكاتب هذه الحالات الثلاث لأجل الدلالة على إظهار الفضاء التي تثبت من خلاله اللغة حيويتها و حركيتها، و ذلك ضمن الملابس السياقية التي أنشأت فيها ألفاظ الحوار بشقية الداخلي و الخارجي، و بالتالي تنطرح في هذا الصدد مسألة تحليل لغة كتاب الأمير في مرحلتها التلفظية، و معرفة هذه الأخيرة يتطلب: "الكشف عن طبيعة العلاقة المتآينة أو المتزامنة (القائمة بالفعل) بين المتلفظ و ملفوظاته، من جهة، و بين الكائن المتلفظ و ملفوظاته، والمتلفظ فيه (مقام التلفظ و سياقه)، و المتلفظ له و لأجله (مقصدية التلفظ و الغاية النهائية منه)، والمتلفظ إليه (المخاطب أو السامع الفعلي أو الضمني)"⁽⁴⁾، و يبدو من خلال المقولة السابقة أن مركز الاهتمام في كل ما ذكره هي الذات الفاعلة التي تؤدي دور المحرك لخيوط الحكمة، و بالتالي منح الروائي للأمير هذا الدور الذي استطاعت أن تتمظهر به في الحياة السردية في شكل مواقف مختلفة مع شخصيات متعددة المشارب، هذه المواقف هي التي شكلت قسماً

(1) دينامية النص، محمد مفتاح، ص157.

(2) دينامية النص، محمد مفتاح، ص157.

(3) اللغة و الهوية، جون جوزيف، ص43. كلمة signed بالانجليزية و بالفرنسية signée أي موقعة و قد أقر بها.

(4) ما الخطاب و كيف نخلله، عبد الواسع الحميري، دار الزمان للطباعة و النشر، دمشق-سورية، ط2009/1، ص11، للإشارة للعلاقات المبنية في المقولة ساقها الكاتب في خلال حديثه عن تحليل بنية التخاطب في ملفوظ الخطاب البياني بيد أن البحث اعتمدها على أنها منهجية سليمة لتحليل نصوص سردية مثل كتاب الأمير.

الهوية التي أراد الأمير أن يظهرها في التاريخ الفعلي، و التي حاول السرد التخيلي إظهارها على هذا النحو، وبالتالي جاء خروج كتاب الأمير إلى عالم القراءة عبر عملية امتزج من خلالها السرد التاريخي الموضوعي مع السرد الروائي الذي يخضع للنظام الذي يفرضه الراوي، و لقد توسلت الكتابة الروائية في هذا الشأن آلية اللغة بأنماطها المتعددة سواء الفصيحة المكتوبة في رسائل الأمير، أو في المحاورات التي كان يعقدها مع بقية الشخصيات على الساحة الورقية، أو من النمط الدارجي الذي كان يتعامل به أفراد ذلك الزمن، أو حتى باللسان الفرنسي و الذي شكّل مساحة ضئيلة جدا، و لقد عمل الروائي على إنشاء هذه الأنماط من خياله مستعينا بما اطلع عليه من التاريخ الفعلي للأمير عبد القادر، و مُجّليا أن: "العودة إلى تاريخ وطني محدد هو بمثابة تصريح بهوية بعيدة قادرة على التحدي و البقاء"⁽¹⁾.

إن مدار الحديث حول الهوية اللغوية⁽²⁾ التي نعتبرها منطلق التأسيس الهوي في نص كتاب الأمير يرتكز على أساس حُدد من طرف تراث القدماء الذي نجد له ظلالة و ارفة في الرواية، و نجد للمصطلح نظائر عند النقاد فقد دعاه عبد السلام أعلامون بالهوية الحكائية⁽³⁾، على أساس أن هذه الأخيرة تتجسد ضمن لغة الحكاية التي نجدها ضمن النصوص الروائية لا سيما الروايات التاريخية، و يكتشف القارئ آثار التراث التناسي الفكري في نص كتاب الأمير ضمن توظيف الروائي لأحداث التوحيد في الحياة السردية على هيئة الشخصية الغائبة عن الأحداث و الحاضرة فيها بالاسم، و لقد مثلت هذه الشخصية مكونا من المكونات الأساسية للمرجعية الفكرية التي كان الأمير ينتمي إليها مع مَنْ كانوا يمثلون نموذج الأمير آنذاك، ولقد اتخذ الأمير هذه المرجعية كمعين و كقوة معرفية يستند إليهما، و يستمد منهما الدلالات التي ييشها في ملفوظاته، كي يتسنى له مساهمة بناء الذات على قدر ما استجد من الأحداث، فكان عبد القادر كلما رأى أن الطرق تُسَد أمامه يلجأ إلى كتبه التي لا تغيب عنه سواء في الحل

⁽¹⁾ فيصل دراج، الرواية التاريخية العربية السياق و الشروط، ندوة التاريخ والرواية ، مهرجان الدوحة الرابع عشر، المجلس الوطني للثقافة و الفنون، 2005، ص161.

⁽²⁾ لقد أفرد جاك دريدا بحثا مهما ضمن الهوية التي منطلقها اللغة، من منطلق أنه يهودي الديانة و جزائري المولد و فرنسي اللغة. ينظر: جاك دريدا، أحادية اللغة، تر: عمر مهيب، الدر العربية للعلوم ناشرون، بيروت-لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1429/1هـ-2008م، ص12.

⁽³⁾ ينظر: عبد السلام أعلامون، الرواية و التاريخ، ص101.

والترحال، و يسجل الروائي ذلك على لسان الأمير ما مفاده: "لدي إحساس كأني دفنت عزيزا على القلب... سأرتاح قليلا مع التوحيدى"⁽¹⁾، قالها الأمير بعد أن أحس بأن الوقت الذي كان في حاجة إليه لإتمام التجديد في البنية التحتية للدولة الجديدة التي عاصمتها معسكر قد زال من الوجود الروائي و كذا الواقعي، و يقصد بالعزير الذي فقده معاهدة دوميشال التي كان الأمير يتمنى أن تمتد مدتها كي يستغل العشر السنين المتفق عليها⁽²⁾ في بناء التشكيل التجديدي للمجتمع، و يظهر التجانس بين طرفي المعادلة المتمثلان في اللغة بألفاظها و دلالاتها من جهة وبين الواقع بأحداثه الموضوعية من جهة أخرى، و يعمل الروائي على تسخير هذا التجانس في توزيع الأدوار على الذات الأميرية التي تشكل مركز السرد الحداثي، و يعمل السارد ضمن هذا على متابعة هذه الشخصية ضمن الحياة الورقية، و يجعل القارئ يعاين بذلك ما مارسه عليها الأحداث المؤلمة في أكثرها و السارة في أقلها، الشيء الذي كان يؤدي بها إلى الإحساس بنوع من الانقسام النفسي و المفروض عليها بصفة طوعية، و لقد أشار فوكو إلى هذه المسألة من خلال رسم العلاقة بين العبارة اللغوية و الذات التي تقوم بالفعل، و تتحدد هذه العلاقة من خلال اعتبار هذا الناقد الذات على أنها موضع، أو عبارة عن موضع أو مكان يتغير تبعا لنوعية العبارة و عتبتها، و المؤلف ذاته ليس سوى موقع من تلك المواقع الممكنة... لذلك فمن الممكن أن يكون للعبارة الواحدة نفسها عدة مواقع⁽³⁾، و هذه المواقع لا تعني عدم الثبات على الموقف الصائب الذي يمثل المبدأ في تسيير الحياة، بل هي من قبيل فقه شخصية الأمير لما رآته من تحضر في الجانب المادي، و لقد تمظهر هذا التبدل في المواقع في أشكال التعدد السياقي في الرواية .

تَبَدَّى من خلال الحديث عن هوية العمل الأدبي قضية تكتسي أهمية مثل نظيرتها السابقة، وتتمثل في الصراع القائم بين طرفي معادلة الهوية في النص الأدبي، إذ يحاول صاحب النص الإبداعي أن يجعل من نصه ملكية خاصة يسدل عليه آلية التحكم متى أراد هو، بحيث يمارس عليه عملية انتقاء الألفاظ و الجمل التي يريد أن تُظهر الدلالات القابعة في فضاء مقصديته، على أساس أن اللغة تمثل شكلا من أشكال التصرفات الإنسانية المقصودة و الموجهة بطرق

⁽¹⁾ الرواية، ص169.

⁽²⁾ ينظر: شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر: أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، 1974، ص300.

⁽³⁾ عبد الواسع الحميري، ما الخطاب و كيف نخله، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ط1430/1هـ-2009م ص31.

اجتهادية من ذاتية المتكلم⁽¹⁾، و بالتالي يحقق الكاتب من وراء ذلك الابتعاد عن عمله الأدبي كي يترك للشخصيات الحرية في التحدث، و لكن إذا كانت الحالة هذه، هل استطاع صاحب نص كتاب الأمير أن يكرس هذه العملية في الحياة السردية، و بخاصة إذا علمنا أن الأمر متعلق بمسألة الهوية التي تعتبر عنصرا لصيقا بالفرد؟ للإجابة عن هذا التساؤل ينبغي الإشارة إلى التباين بين الذات المتلفظة و كذا المبدع صاحب النص، إذ ناقش عبد الواسع الحميري هذه المسألة وتوصل إلى نتيجة بعد تناوله لجملة من الآراء المتعلقة بفوكو الذي قال بالوسط المؤسسي الذي يجمع جملة آراء مجتمع ما في قضايا العالم، و التي للفرد الحق في الاستعانة بها في تأسيس محاوراته، و قد خلص المؤلف إلى نتيجة مفادها يتمثل في قوله: "ومهما اختلفت الأفكار و تضاربت الآراء حول شكل الذات المتلفظة، و هوية المؤلف المبدع، تظل العلاقة الحميمة بين صور هذين الفاعلين المتبادلة دوما قائمة في مرآة ملفوظ الخطاب الأدبي العميقة حاضرة في نسيج الدلالة الثقافية"⁽²⁾، و القارئ لنص كتاب الأمير يتلمس من خلال متابعة برامج السرد التغييب الذي مارسه مؤلف الرواية على الذات الأصلية التي يظهر بها الروائيون في نصوصهم، حيث لا يفتأ راوٍ على إتمام سرده للأحداث حتى يتسلم آخر مفاتيح مَهْمَة الرواية - من روى يروي فهو راوٍ - و قد يطول سرد الراوي لفترة طويلة من الحياة الورقية كما حدث للخادم جون موبي الذي تحمل سرد وقفات بكاملها⁽³⁾، و كذا أجزاء كبرى من وقفات أخرى، و يُعد التغييب الذاتي الذي مارسه واسيني تقنية اجتهادية روائية حاول إنزالها على نص الأمير تحت ظل فسحة الحرية التي تتيحها الرواية التجريبية، و هو إذ يفعل ذلك فلأن السياق يتطلب تطبيق تقنيات إدخال الذات المضطعة بالتأليف ضمن بوتقة عدم الحضور في الحياة السردية، لأن طبيعة الرواية التاريخية تتطلب الحضور الحداثي للتاريخ أكثر من الحضور الروائي، مع العلم أن التدخل الذي يسجله الروائي في نصه يظل ظهوره قليلا، و لكن بشكل فعال انطلاقا من أن: "الأدب لا

⁽¹⁾ John Searle, sens et expression, traduction : Joëlle Proust, éd :minuit, paris, 1979, p16. Le texte «...Le langage est une forme de comportement intentionnelle dirigé par des règles constitutives »

⁽²⁾ حسن حمري، المتخيل و الواقع، ص49، الواقع: هو الحيز الذي تنسج فيه مجموعة من العلاقات تحدد هوية المرحلة التاريخية، و تشهد على الوضع الحضاري، نفس الصفحة.

⁽³⁾ ينظر: الوقفة الأولى، مرايا الأوهام الضائعة، ص25 و ما يليها.

يصف الواقع بل يكشف عن العلاقات التي تحكم الواقع" (1)، و بالتالي التاريخ الذي تنقله لغة الرواية عن مسيرة الأمير كان ذات يوم واقعا عايشته الشخصيات التي صنعت الأحداث، ولا يزال هذا التاريخ محافظا على واقعيته و حقيقته لأن هذه الأخيرة تعمل دائما على إبطال مفعول قانون التقادم الزمني، و عليه فالتاريخ يمثل: "سؤالا داخليا في الرواية العربية، و هو - ذاته - سؤال الهوية الذاتية الثقافية المأزومة" (2)، و المشحونة بمخلفات الأحداث الأليمة، و تعمل الرواية التاريخية على الكشف عن هذه المخلفات، و ذلك بتحمل مهمة إحياء الأحداث متوسلةً طريقَ وصفِ تعقد حالات الوعي الذاتية للشخصيات، و هي في إطار مواجهة المشاكل التي تتجاوز قدرتها، و لا تملك عليها سيطرة و لكنها تتحمل آثارها (3).

لقد سلّم الروائي مقاليد تمثل الهوية للشخصية الأميرية المركزية، و النامية في الرواية، و التي كانت تسير نمو الأحداث من بدايتها إلى نهايتها النسبية، و جعل من هذه الشخصية النموذج الذي يتمثل فيه القارئ الجزائري حقيقة الانتماء التاريخي الذي تشكّل ضمن مقام التلفظ الذي يعبر عن: "إطار سوسيوثقافي حضاري من شأنه أنه يحوي أو يحتوي أو ينظم و ينتظم، ينظم أحوالنا نحن - المتلفظين - و تنتظم خلاله علاقاتنا بعضها ببعض، و يصوغ تفكيرنا، بطريقة تلائم انتمائنا... و يسهم في ترسيخ انتمائنا العضوي" (4).

5.1- استشفاف الهوية من الفضاء المقامي لأحداث الرواية:

اعتمد التداوليون في تحليلاتهم للنصوص الأدبية على النظر في مسائل اللغة على أنها السبيل الذي يوصلنا إلى التعبير القريب من الحقيقة الواقعية، لأن اللغة في شكلها التخاطبي ضمن الحياة اليومية هي ذاتها اللغة التي يحاول الأديب أن يكتب بها معتمدا على الدلالات التي ييئها أهل التجربة فيها، و هذا الذي يجعلها تعبر عن جماليات معانيها، و لقد سبق و أن أشرنا في الفصل النظري إلى الأهمية التي يكتسبها عنصر السياق في تحليل الخطاب على الطريقة التداولية، إذ تدرس هذه الأخيرة الاستعمال بمثابة المُشكّل للمساحة الفعلية للغة، متتبعة آثار دلالاته المتغيرة

(1) عبد الواسع الحميري، ما الخطاب و كيف نخلله، ص 37.

(2) فيصل دراج، الرواية التاريخية العربية السياق و الشروط، ص 101.

(3) إلياس خوري، التاريخي و الإنشائي، مجلة النقد الأدبي، ع 63 شتاء-ربيع 2004، ص 286.

(4) عبد الواسع الحميري، ما الخطاب و كيف نخلله، دار الزمان للطباعة و النشر، دمشق، سورية، ط 2009/1، ص 66.

ضمن تباين ملابسات الظروف التي يصنعها المتخاطبون، و يصنف طه عبد الرحمان عنصر السياق المرادف للمقام ضمن التداوليات الدلالية، و يشكل هذا العنصر الفرق البسيط في التنظير بين هذا الفرع من التداوليات و بين الدلاليات الصرف المعهودة⁽¹⁾.

تشكلت في نص كتاب الأمير مقامات مختلفة صاغت لغا الروائي بمشاركة الشخصيات المختلفة، و لقد كان الأمير في الرواية بمثابة الحادي⁽²⁾ الذي انقادت إليه برامج السرد المتداخلة في عملية تشاركية للشخص فيها، بحيث حددت هذه الشخصية لنفسها منذ البداية مسارات ترصد عبرها المخاطب بأشكاله المختلفة، و تبدي على إثر ذلك المواقف المناسبة متوسلة الإمكانات اللغوية التي تنطرح في الذهن من خلال صراع الدلالات، و لقد اختارت هذه الشخصية أن تجعل من راهنها واقعا قرائيا تؤسس من خلاله التحديدات العامة لهويتها، و تعمل رواية واسيني على ترجمتها عبر النشاط اللغوي بالمستويات المختلفة على قدر الشخصية المتحدثة داخل الفضاء الروائي، لأنه: "باللغة يظهر الكائن المتكلم ما هو، و بها يتأسس وجوده و وجود الأشياء"⁽³⁾، و لإدراك هذه المسألة ارتأينا أن نخوض مغامرة تحليلية تتعلق بمقاربة المقامات المتنوعة التي ارتسمت ضمن الأحداث الروائية تناسبا مع طبيعة السير الحداثي في الرواية، والمتمثل في الوقفات و ما لهذه الأخيرة من تعالق بالمقامات⁽⁴⁾ الصوفية، و هي على سبيل المثال لا الحصر: "التوبة، و الورع، و الزهد، و الصبر، ..."⁽⁵⁾ و لهذه المقامات حضور في تمظهرات شخصية الأمير ضمن الرواية، و لا غرابة حينما نجد اختيار لفظ "المسالك" من طرف الروائي ليضعه أسفل العنوان الرئيسية للنص الروائي، إذ إن شخصية الأمير تمثلت بنفس المظهر الذي كانت عليه في واقعها الفعلي، الشيء الذي أدى بمؤسس النص الروائي إلى تكريس ذلك، وباتت أقسام الرواية تنتقل من وقفة إلى أخرى على أساس أن السائر بين هذه الوقفات يسمى السالك عند أهل الصوفية، و لا يستطيع هذا السالك أن ينتقل من مرحلة إلى أخرى أو من

⁽¹⁾ طه عبد لرحمان، اللسان و الميزان و التكوثر العقلي، ص42.

⁽²⁾ بمعنى: المركز الذي تدور عليه الأحداث الروائية، و الحادي هو الشخص الذي ينشد الشعر كي يجعل الإبل تنقاد إليه في السير، فيكون قائدها و حاديه، ينظر ابن منظور، لسان العرب، ج13، ص168.

⁽³⁾ عبد الواسع الحميري، في آفاق الكلام و تكلم النص، ص41.

⁽⁴⁾ الجرجاني الشريف التعريفات، تح محمد الصديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، 2004، ص266.

⁽⁵⁾ ينظر: عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط5، 2006، ص1279.

مقام إلى آخر حتى يستنفذ مستلزمات المقام الذي كان حالاً فيه⁽¹⁾، هذا شأن الأمير عبد القادر الذي عكس دور المريد السالك، و نجد بالإضافة إلى المقامات التي ذكرنا أمثلة منها سابقا المقام اللغوي الذي جسده الروائي من خلال التخاطبات المختلفة ضمن البرامج السردية، انطلاقاً من أن: "حالة الإنسان في اللغة حالة متفردة"⁽²⁾ كما عبر عنها إميل بنيفست Emil Benveniste.

لقد انطلقنا في ترتيب عناصر هذا المسار من فرضية الاهتمام المنصب من طرف التداوليين على تحليل السياق للوصول إلى تأويل قريب من الحقيقة للملفوظات⁽³⁾، وسيجد القارئ لهذا البحث إشارات ذات فائدة عن عنصر المقام في الفصل النظري تتعلق بصفة مباشرة مع عناصر التحليل اللاحقة، و يشير عبد الواسع الحميري في هذا الإطار إلى وجود أنظمة ثلاث من التفاعل/التواصل السوسيوثقافي، و تعبر هذه الأنظمة على مقامات ثلاث، و هي على سبيل الاختصار المفيد: المقام الأول يحتوي على موضع لإقامة المتلفظ و سقوطه في عالم ما يتلفظ عنه، أما المقام الثاني فهو عبارة عن موضع لإقامة المتلفظ و مقاومته، و الثالث فهو عبارة عن موضع لإقامة المتلفظ و قوامته أو قيمته⁽⁴⁾، و في نص كتاب الأمير توزعت هذه المقامات على البرامج السردية متخذة مصطلح الوقفة الذي لا يتعد كثيراً في الدلالة عن عنصر المقام، و لقد أوكل الروائي مهمة إثبات عنصر الهوية ضمن هذه المقامات إلى الشخصيات التي تشكل المعامل المرتفع la coefficient في معادلة الصراع الحضاري الذي تحدت جوانبه ضمن أحداث الرواية، و نقصد بها الأمير من جهة والأسقف ديبوش من جهة أخرى، أما ما بقي من الشخصيات فكلها تابعة للصوتين الرئيسيين في الرواية، مع بعض التفاوت في مواقف التطرف أو الاعتدال، و قبل الخوض في تدوين تفاصيل التحليل المقامي نود من خلال معاينة الرواية تسجيل أربع ملاحظات ستظهر أهميتها من خلال التحليل التطبيقي في لاحق البحث و هي:

⁽¹⁾ ينظر: عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، مرجع سابق، ص1279.

⁽²⁾ ينظر: صابر الحباشة، لسانيات الخطاب الأسلوبية و التلفظ و التداولية، دار الحوار، دمشق، سورية، ط1/2010. ص138.

⁽³⁾ ينظر: حافظ إسماعيلي علوي، التداوليات علم استعمال اللغة، ص63 و ما يليها حيث نقرأ المصطلح النقدي: نظرية المقام، و: علي آيت أوشان، النص و السياق الشعري، دار الثقافة للطباعة و النشر، ط1، 1421هـ-2000م.

⁽⁴⁾ ينظر: عبد الواسع الحميري، ما الخطاب و كيف نخلله، ص64.

1- الهندسة المقامية التي شكلها الروائي كانت مواتية إلى حد بعيد مع ما جرى من أحداث في ماضي التاريخ الفعلي للمقاومة الأميرية لفرنسا، مع تسجيل بعض التجاوز و التدخل من طرف الروائي مستعينا بمساحة التخيل التي ترغم التاريخ على إخراج القراءات المسكوت عنها.

2- لم يكن الانتصار دائما يرافق الأمير بمثابته صاحب القضية العادلة، بل كانت ترافقه كذلك الهزائم التي تَعَوَدَ عليها أثناء سير أحداث السرد الروائي، و من خلال ثنائية النصر والهزيمة كانت تتشكل عملية وعي العالم الجديد الآتي من وراء البحار على متن السفن الفرنسية، و تشكلت كذلك معها عناصر أخرى غدّت مساحة الهوية.

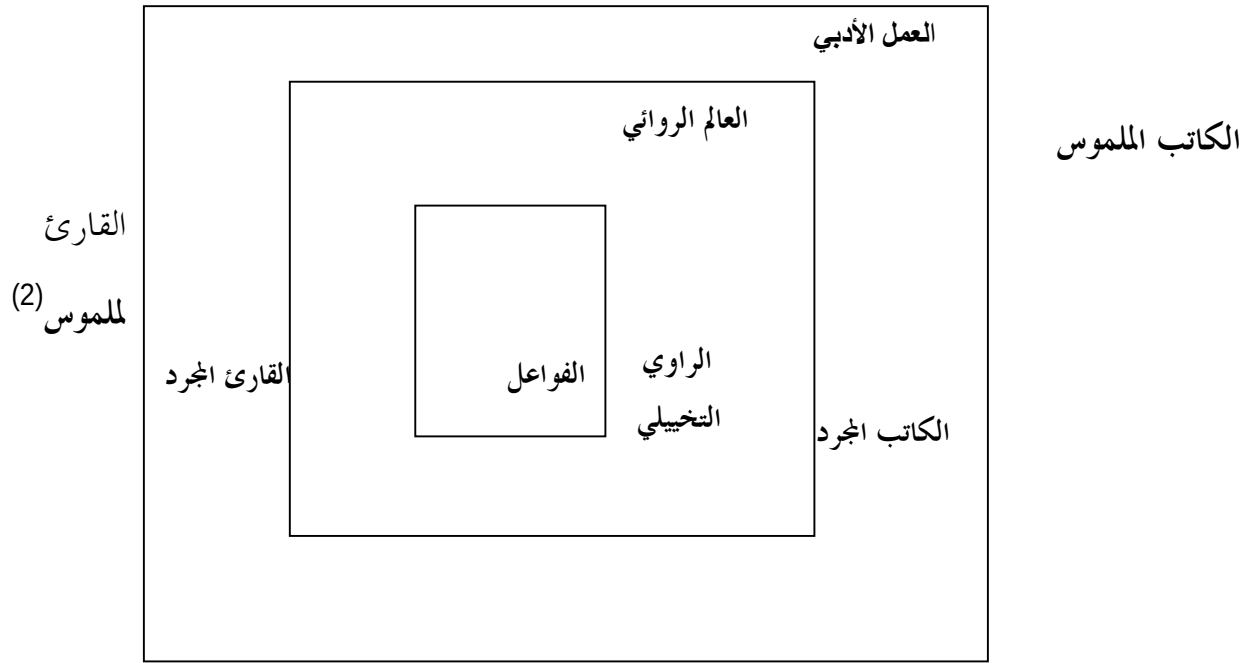
3- لقد تم إقحام ضمن التحليل التداولي عناصر من سيميائية الكلام نظرا للتقارب النظري بين البابين، إذ يتم التركيز ضمن هذه السيميائية على تناول الملفوظ كأثر للتلفظ و ليس كذات ماقبل-خطابية pré-discursif، و تهتم أكثر بالإنجازية التي تعمل على تخطيب المشاعر عبر تشخيصها في شكل مُعينات و جهات و كذا أفعال كلام⁽¹⁾، و الذي دفعنا أكثر إلى الاستعانة بهذا النوع من السيميائيات هو اعتماده في التحليل على دراسة السبيل الذي يسلكه الملفوظ انطلاقا من تَكُونِهِ ضمن دخيلة المتكلم، و مروراً عبر خضم الظروف المحيطة به ووصولاً إلى مساحة المخاطب، وبالتالي محاولة إلحاق التأثير به كي تظهر بعد ذلك ثمرة العمل الإنجازي، و للإشارة فإن المراحل المنهجية التي عمل على ترتيبها محمد الداوي انطلاقاً من اجتهادات هرمان باريت H.Parret، تبدأ من دراسة سيميائية العمل ثم سيميائية الهوى و أخيراً التعرض إلى سيميائية الكلام⁽²⁾.

4- سيحاول البحث الاستفادة بالشيء اليسير من الجهد الذي قدمه جاب لينتفلت J.H.Lintvelt الذي اعتبر من العلماء الذين استوعبوا السردية بما تحتويه من عناصر هامة بداية من جبرار جينيت و وصولاً إلى ميك بال، و بالتالي لقد تم الاعتماد على لينتفلت

¹ ينظر: محمد الداوي، أسئلة التحليل الروائي، ص16.

² ينظر: محمد الداوي، أسئلة التحليل الروائي، شركة النشر و التوزيع المدارس، الدار البيضاء-المغرب، ط1427/1هـ- 2006م. ص 36، و في الصفحة إشارة إلى الخطوات التطبيقية المتبعة لبلوغ مقاربة سيميائية الكلام، و سيظهر في البحث بين الحين و الآخر الاستعانة بمضمون هذه الخطوات.

على أساس اقتراحه لنموذج تداولي للتواصل ضمن تحليل النصوص السردية⁽¹⁾، و لقد قدم هذا الناقد منظومة فكرية ملائمة جامعة للجهود المبذولة من طرف اللسانيين الذين سبقوه، و كذا الذين عاصروه، ويعتبر من الجيل الثاني من السرديين، و هذه الخطاطة تبين هذه المنظومة الفكرية:



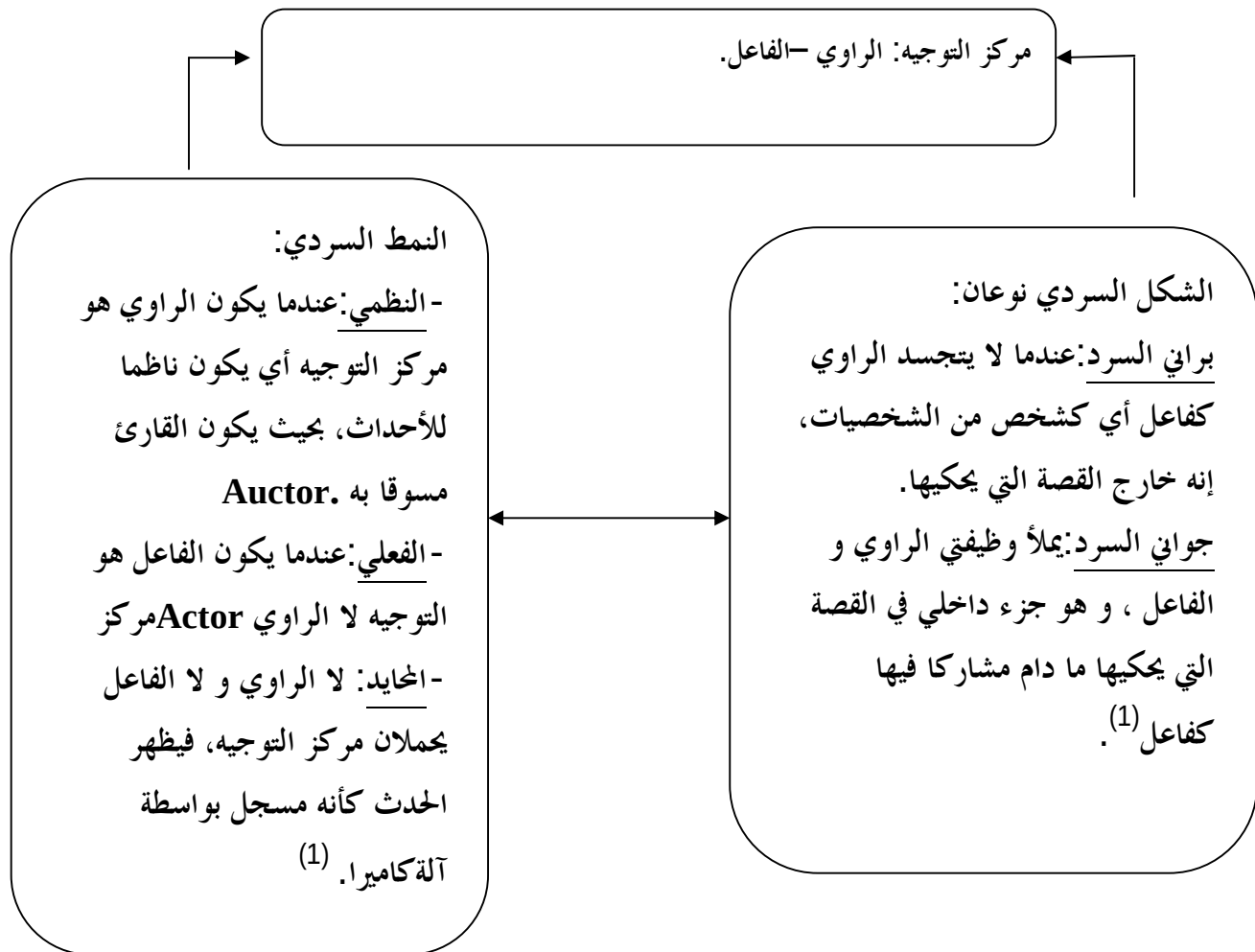
يشير اللساني فرانز شتانزل Franz Stanzel ضمن هذا الإطار إلى مفهوم المقام السردى situations narratives الذي يقترب من حيث المفهوم من الطرح المتعلق بالتحليل المقامي الذي يتخذه البحث كإطار للمقاربة التحليلية، و عليه فإن المصطلح أعلاه فتح على باحث آخر أبواباً نظرية أخرى و المقصود به: جاب لينتفلت الذي أقترح منظومة من المفاهيم لا تبتعد كثيراً عن سابقه، و تتكون هذه المنظومة من مصطلحات ثلاث و هي: مركز التوجيه، و الشكل السردى، و النمط السردى، و نجد أسفل كل مفهوم عناصر تابعة له، كما نجد أن المفهوم

¹ ينظر: سعيد يقطين، السرديات و التحليل السردى الشكل و الدلالة، المركز الثقافي العربى، الدار البيضاء، ط1،

2012، ص87،

² ينظر: السرديات و التحليل السردى الشكل و الدلالة، سعيد يقطين، ص86 .

الأول يمثل حجر الزاوية في المنظومة، لأنه مفهوم محوري يدور حوله المفهومان الآخران، و هذه الخطاطة توضح المسألة بشكل عام: (1)



يُظهر الشكل أعلاه الجهد الذي حققه لينتقلت في تحديد المفاهيم التي عمل بها ضمن التشكيل التحليلي للنصوص السردية، و إننا إذ نقدم هذا ضمن البحث فهو لأجل اتخاذه كخلفية نظرية ثانوية على أساس أن الخلفية النظرية الأساسية قد توضحت معالمها ضمن الفصل النظري، و هي المتعلقة بالتحليل التداولي بوجه عام، و التحليل المقامي بوجه خاص، و بالتالي سوف لن نخوض كثيرا في تبيان المعاني التي تحتويها المفاهيم أعلاه إلا بالقدر الذي يقدم الدفع

¹ الشكل البياني مأخوذ من: سعيد يقطين، السرديات والتحليل السردى، مع بعض الاجتهاد في إيراد المفاهيم، و يدعى النمط النظمي **auctoriel** أما النمط الفعلي فيدعى **actoriel**، ص91.

البسيط للتحليل التداولي، و سوف نتحدث خلال استعمال هذه المفاهيم عن ما تحمله من محتويات نظرية كلما دعت الحاجة إلى ذلك، لأجل تسييج المستوى التحليلي للبحث، و عليه سنشرع من المقام الأول و هو الحضور المتعالي.

1.5.1-تبع الهوية من خلال مقام الحضور المتعالي:

تعتمد الكتابة الروائية عند صاحب كتاب الأمير قياسا على هذه المقامات على جعل الذات الأميرية تسلك طريقا مشروطا يتضمن إلى جانب الرغبة شروطا أخرى أخرى، وهي المعرفة و القدرة و الواجب و كذا الانجاز، أما الرغبة فاتخاذها من أجل أن ترتقي هذه الذات إلى مرتبة التحقق أي الفعل بالكلام، و أما المعرفة فتتمثل في اتخاذ المتلفظ للسبل التي تجعله يتحصل على القدر الكافي منها لمواجهة المخاطبين، إلى جانب ذلك هناك القدرة على إنزال اللغة الذاتية إلى ساحة المحاورة، و جعلها تحمل سمة الخطاب، أما الشرط الثالث فيتمثل في الواجب الذي يدفع المتلفظ إلى جعل الكلام مناسبا للمقامات المختلفة، و يبقى الشرط الأخير والمتمثل في الانجاز الذي يجسد الذات في شكل آثار لغوية و خطابية ملموسة⁽¹⁾، و عليه هل تحقق للأمير عبد القادر نيلُ القسط الكافي من هذه الشروط ضمن المسرح الروائي، و الذي سيمكّنه خلال الرحلة السردية التي قادها السارد بالقارئ من إظهار الهوية التي عمل على تكوينها طيلة فترة التعلم و المثابرة؟ إن الإجابة عن هذا السؤال لا تتم إلا عبر تسليط قراءة نوعية على الرواية، تتسم باقتفاء الآثار الكتابية التي تطلعننا على مدى التحقق للشروط الخمسة المذكورة سابقا، قصد معاينة انتقال الذات من مرحلة الكمون إلى مرحلة التحقيق⁽²⁾.

ظهر الحضور المتعالي في الرواية على نمطين انطلاقا من إثبات القيومية الذاتية، وانطلاقا مما أصطلح عليه بـ: **كون الأكوان**⁽³⁾ الذي تسعى شخصية الأمير لتشكيله بجمعية السارد، و يضم هذا الكون المساحة التي تتحقق من خلالها مكاملة الذات من جهة، و كذا مكاملة الآخر بمختلف أشكاله و أنماطه من جهة أخرى، و هذا الذي كان يتغياها صاحب نص

¹ ينظر: محمد الداوي، أسئلة التحليل الروائي، ص52. في الصفحة جدول تفصيلي للشروط الخمسة المذكورة.

² ينظر: محمد الداوي، أسئلة التحليل الروائي، ص51، و يجد القارئ في الصفحة المربع الذي يصف المراحل التي تنتقل عبرها الذات من الخمود إلى الفعل.

³ ينظر: عبد الواسع الحميري، في آفاق الكلام و تكلم النص، ص43.

كتاب الأمير من وراء كتابته لهذا النص، أي تفعيل الحوار بين الأديان أو بين الهويات المتأينة⁽¹⁾، على أساس أن من منطلقات تشكل الهوية أن لا تكون هذه الأخيرة عبارة عن أسوار تفصل الذات عن الآخرين⁽²⁾، و بالتالي تعمل الهوية الوعي و القدرة على نقد الآخرين من دون استلاب أو انبهار أو انغلاق عليهم⁽³⁾، أي بالمحافظة على الكينونة الحقيقية أو الهوية المشار إليها سابقا، إذن هناك إثبات للحضور المتعالي الداخلي، و هناك في الجهة المقابلة إثبات للحضور المتعالي الخارجي، و بين الحضورين يظهر التكامل و الانسجام و لنبدأ بالأول :

1.1.5.1- الحضور المتعالي الداخلي⁽⁴⁾:

تمظهر الذات ضمن اللغة بالضمير "أنا" الذي لا يعبر إلا على الراهنية و على واقع التخاطب، و بالتالي يظهر الشكل المتعالي من الحضور ضمن أحداث البرامج السردية التي دارت بين الأمير و آله المقربين من جهة، و بينه و بين البقية من الرعية من قادة و من تبعهم على حسب الترتيب التنظيمي لمجتمع الأمير، و قد ظهرت شخصية الأمير من خلال هذا النوع من المقامات متعالية عن الكينونة المتلفظة عن عالم التلفظ المنتمية إليه، بمثابة: "وحدة تتعالى على مجموع التجارب المعيشة التي تؤلف بينها، والتي تضمن محاثة الوعي"⁽⁵⁾، و المقصود من التعالي هنا هو مجانبة القيم التي وقعت محل اتفاق بين الفاعلين في المجتمع انطلاقا من انعكاس آثارها الإيجابية على حياة الإنسان في مجتمعه كالخير و الحق⁽⁶⁾... و لقد كان حظ مقام الحضور المتعالي من الرواية قويا نظرا للطبيعة التي يتضمنها هذا المقام، و المتميزة باتخاذ الوسائل الممكنة و غير الممكنة في سبيل تحقيق أهداف المتلفظ و من يتلفظ باسمهم، إذ يعتبر التلفظ الأثر الذي يكشف عن هوية الذات و عيانتها الإيديولوجية و الدلالية و القيمة⁽⁷⁾، و يتأرجح تمظهر هذه

¹ عبّر عن ذلك واسيني الأعرج ضمن حوار أجرته معه براون حبيب ضمن قناة أبو ظبي في حصة أهل المعرفة، بتاريخ 12 فبراير 2012.

² عبد الوهاب المسيري، الهوية و الحركة الإسلامية، ص 148.

³ ن. م. س، ص 148.

⁴ تقسيم الحضور المتعالي إلى داخلي و خارجي من اجتهاد البحث قياسا على وقوف الأمير في مواجهة جبهتين الأولى تتعلق بمن والوه و الثانية بالاحتلال الفرنسي .

⁵ صابر الحباشة، لسانيات الخطاب، دار الحوار، سورية، ط 1، 2010، ص 137.

⁶ ينظر: عبد الواسع الحميري، ما الخطاب و كيف نخلله، ص 223.

⁷ ينظر: محمد الداوي، أسئلة التحليل الروائي، ص 35.

المسألة على حسب حاجة الروائي في استخدامها من أجل بلوغ الغايات غير المعلنة في السياق السردى للأحداث، و يتعلق الأمر بالمواقف التي شكلت أُلغازا في حياة الأمير عبد القادر، وكانت بداية التعالي الموقفي من الإعلان عن إمارة عبد القادر على القبائل التي كانت تحت طاعة الوالد الشريف محي الدين⁽¹⁾، و بالتالي سارت هذه الشخصية في عملية التأسيس السلطوي لأجل تحقيق المفارقة الذاتية عن العالم الذي تتلفظ فيه بين من كان يُسمى عبد القادر الفارس المحارب ضمن الجيش السلطاني، و بين عبد القادر الذي تقلد مفاتيح الإمارة بدل السلطنة احتراماً للأصوات الأخرى في الرواية، و التي حملت مثله دور قيادة شعوبها لأجل إثبات هويتها و كينونتها⁽²⁾، بيد أن الشخصية المركزية للرواية أبت إلا أن تتفرد في التأسّي بأخلاق الأمراء، و ذلك باتباع أسلوب التعالي على الخطاب الواقعي الذي كان سائدا آنذاك و الذي يضم منظومة من خصائص الحياة التي يعيشها الأمراء و الملوك، و بالتالي أنتج هذا الأمر ثورته على الراهن التي أحدثت بدورها تغييرا ظهر في التعليمات التي أصدرها للعشيرة المقربة في شكل أقوال تحمل في داخلها قوة انجازيه هائلة، انطلقت من كفاية لغوية ثابتة و راسخة و كذا من أداء أميرى متفرد⁽³⁾، و قد تظاهرات في التطبيق المباشر و الفوري لأوامر الأمير الجديد، و قد جعل السارد عنوان هذه التعليمات الجديدة على لسان الشخصية ببناء أمرى: "ابتداء من اليوم كل شيء سيتغير لسنا في حاجة إلى البذخ لكي نحارب الآخرين"⁽⁴⁾، و أضاف الأمير إلى تعليماته الجديدة وصيةً في شكل شديد اللهجة للوالد قائلا: "يا أبي و شيخي الكبير، قل لأعمامي أن يقللوا من مظاهر البذخ و أن يرتدوا ألبسة أكثر ملائمة للمعركة، الغزاة يملكون

¹ هكذا كان يلقب والد لأمر عبد القادر على أساس رجوع نسبه إلى إدريس الأكبر الذي هاجر من المشرق جراء بطش الخليفة الهادي العباسي و قد لاقى هذا الرجل ترحاب قبائل كثيرة من المغرب و بايعوه على الإمارة و انتشر خبره و نسبه في أمصار المغرب العربي، المسألة مفصلة في : الأميرة بديدة الحسني الجزائري، أصحاب الميمنة إن شاء الله، ص40 و ما يليها.

² الرواية، ص90 المقصود بالاحترام هو سلطان المغرب الهاشمي الذي كانت علاقته طيبة مع الجزائر قبل دخول فرنسا.

³ ينظر: ميشال زكريا، الألسنية والتوليدية و التحويلية، ص35. و الكفاية اللغوية في المؤلف هي : ملكة لا شعورية تجسد تجسد العملية الآنية التي يؤديها متكلم اللغة بهدف صياغة جملة، طبقا لتنظيم لقواعد الضمنية الذي يقرن بين المعاني و بين الأصوات اللغوية.

⁴ الرواية، ص94.

الآلات التي لا نملك و نملك حيلة أبناء الأرض التي تنقص قوتهم و جبروتهم⁽¹⁾ و تستند شخصية الأمير في هذا الشأن على فرضية أن التعالي يفرض على المتلفظ أن يرفض الواقع الخارجي، و أن يعمل على الانسحاب منه إلى ما هو أفضل⁽²⁾، و بالتالي تحقيق المفارقة⁽³⁾ التي ظهرت في تبديل العادات التي ظلت عليها القبائل مدة طويلة من الزمن قبل أن تتسلم الشخصية المركزية مقاليد القيادة في الحياة السردية، هذه العادات هي التي كانت السبب في تعطيل حركية الإبداع، أي الإتيان بالجديد ضمن الحقل الذاتوي للهوية، و ذلك انطلاقاً من أن المجتمع الذي لا هوية له لا يمكنه أن يبدع، لأنه يستعمل منظار الآخرين في التمييز بين الأشياء بدل استعمال المنظار الخاص⁽⁴⁾ به أي الذي يناسب مكونات هويته، و يواصل السارد بمعية الأمير في تشكيل برامج السرد الذي كانت نتيجة لتسلمه مسؤولية الإمارة، إذ نقرأ ضمن الوقفة الثالثة من السرد سياق إصدار التعليمات⁽⁵⁾، التي غالباً ما تصدرها الذات التي تسلمت مقاليد السلطة معبرة عن بعض المبادئ التي تؤمن بها، و بالتالي كلف الأمير مستشاره ضمن هذا البرنامج السردى أن يصدر أمراً بوقف الإغارة على القبائل لأنها كانت تمثل عامل ضعف لا قوة، فصرّح متوسلاً اللغة الدارجة، و مخاطباً أخاه مصطفى الذي أقبل على الأمير متذمراً من التعليمات التي أصدرها الأمير بخصوص وقف الإغارة و ذلك بعد فراغه من الصلاة: "خلاص كل شيء لازم يتغير، هَذَاك العهد اللي كنا فيه نأخذ مال الناس بغير حق، راح.. القبائل صارت منّا، و من لحمنا، و صرنا منها، أخوة الخير و الشر"⁽⁶⁾، فما كان من الأخ إلا التسليم و عدم المقاومة، لأن الحقيقة هي ما وافقت مقالة الأمير في الرواية، و لقد اختار الكاتب الروائي الألفاظ الدارجة كآلية تخاطبية أنيطت بها شخصية الأمير للرد القولي الذي يروم من ورائه إلحاق الأثر البالغ في نفسية

¹ الرواية، ص 96.

² ينظر: عبد الواسع الحميري، ما الخطاب و كيف نخلله، ص 224.

³ ينظر: حديث مفيد عن المفارقة التي تعني الجمع بين المتناقضات في فضاء تعايشي ضمن كتاب: شكري عزيز الماضي، أنماط الرواية العربية الجديدة، ص 23-24-25.

⁴ ينظر: عبد الوهاب المسيري، الهوية و الحركية، ص 148.

⁵ يصنف أوستين هذا النوع من الأقوال الإنجازية ضمن التنفيذيات و يضع قيد الانتماء إلى مؤسسة كشرط في تحقق العمل القولي، و عبد القادر أخذ القوة الإنجازية لأقواله من مؤسسة الإمارة، ينظر: صابر الحباشة، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص 61 و ص 65.

⁶ الرواية، ص 93.

السامع و المتمثل في أخيه مصطفى، و الظاهر أن كاتب نص الأمير كان يتغيا من وراء ذلك تبيان حرص الأمير على جعل مقصديته تنحو إلى إبلاغ الرسالة بالشكل الأكثر وضوحا، لأن المقام تناسبه الدارجة أكثر مما تناسبه اللغة الفصيحة، و بالتالي ما كان من الأخ إلا الرضوخ للأمرية الصادرة من السلطة العليا رغم ما يحمله الأخ من مكانة تُخَوِّل له بعض القرب السلطوي من الأمير، و لكن المبادئ التي كان يريد الأمير تكرسها سرديا في أوساط الرعاية ترفض الإيمان بمثل هذه العلاقات في سياق القيادة و الإدارة، بمثابةما يمثلان مقاما نوعيا لا يستطيع المخاطب من خلاله أن يبدي عدم التطبيق و عدم الانجاز، و بخاصة إذا كان الأمر الصادر مجانباً للصالح العام، و نجد ضمن الرواية هذا التسخير لآلية الدارجة المحلية على لسان الأمير على أساس أن الشخصية ابنة المقام الذي نشأت و ترعرعت فيه⁽¹⁾، و يأتي استعمال هذه الآلية في سياق تحقيق النقل الأمين للموقف الذي صنعه السارد بواسطة إعطاء الأمير دور المتكلم و أخيه مصطفى دور السامع و المخاطب في ذات الوقت، بحيث يستطيع القارئ للنص السردى أن يتوسل اللغة المستعملة للتعرف على حالة الغضب التي كان عليها الأمير، و تعبر هذه الحالة النفسية عن مضمون انفعالي قوي تَقَصَّد من ورائه الأمير إلحاق التوبيخ⁽²⁾ بالمخاَوَر المتمثل في الأخ، و ذلك لأجل بيان هفواته و نقائصه في تقدير الأشياء، و لقد بدا انفعال الغضب على الأمير واضحا من حدة لغة التعقيب الذي سمعه من الأخ، و قد نتج عن ذلك حالة الإحباط النفسي التي صار عليه الأخ السامع، و لو شغَّل القارئ خياله قليلا لتصور في مشهد حيّ المخاطب باديا مطأطئا الرأس منكسرا أمام نفسه، و بالتالي نلاحظ أن التبدل الذي يحدثه الروائي في أنماط اللغة ضمن نصه فهو لتحقيق أغراض تداولية بالدرجة الأولى، قياسا على النقل الموفق للسياق عن طريق اللغة، و الذي تطلب بدوره عملا شاقا في الصناعة الأسلوبية من طرف كاتب النص، و هذا مرده للأهمية التي يكتسيها المقام الجامع بين الأخوين، و عليه فالنجاح الإنجازي الذي يتحقق على المستوى الداخلي هو الدافع لتحقيقه على المستوى الخارجي من حيث أن التغيير المنشود يبدأ من أقرب المقربين ثم يمتد إلى من هم دون ذلك أو أعلى من ذلك، و تتواصل المواجهة الأميرية مع المقربين من بني جلدته ضمن الحياة السردية بمستويات

¹ ينظر: ميشال زكريا، الألسنية التوليدية و التحويلية، ص37

² ينظر جدول تصنيف الأهواء أو الإنفعالات ضمن كتاب: محمد الداوي، أسئلة التحليل الروائي، ص31.

متباينة من حيث الشدة، و يظل الأمير في هذه الحالة مبدئياً سلوكاً نابعا من ثقافته الإسلامية العميقة و يتمثل في للمفاصلة⁽¹⁾ الفكرية و الشعورية عن بني جلدته الذين تذبذبت مواقفهم حتى وصلت إلى حد الترهل البائن، و تعد هذه المفاصلة شكلاً من أشكال التعالي عن الراهن تحت مظلة إثبات وجود هوية متفردة و متميزة، إذ لا خير في هوية خالية من التفرد و التميز، ولقد أبدت شخصية الأمير في شكل حديث صريح للأسقف ديبوش الموقف الخطير الصادر عن هؤلاء فقال مجيباً عن تساؤل محاوره في قصر أمبواز الذي يعتبر المنفى و السجن المفروض على الأمير: "ضع نفسك مكاني، و تأمل المشهد قليلاً تضع اليوم خليفة و في الغد يأتيك الخليفة مدحجاً بالأسلحة للفتك بك و عليك أن تبحث عن شخص آخر لتعويضه. لقد خانني الخليفة مزارى و قبله خائناً مصطفى بن اسماعيل⁽²⁾ الذي احتمى بكروغلي المشور⁽³⁾ قبل أن يستقبل الفرنسيين في مداخل تلمسان.."⁽⁴⁾، و يصرح الأمير في وقفة مواجه الشقيقتين عن ذات الحالة بقوله: "الذين وضعوني على رأسهم تنكروا لي، و الذين وضعتهم باعوني، الأكثر من ذلك، هم

¹ لقد استعمل هذا المصطلح سيد قطب و يركز على عدم تميع الحدود والفواصل بين ما هو حق وما هو باطل، وإشاعة حالة من الهلامية، التي لا يستطيع الفرد خلالها أن يمسك شيئاً محسوساً بيديه، فيقول عنه، وهو يصره بعين عقله هذا حق... أو هذا باطل، ينظر سيد قطب كما قرأته و فهمته، محمد الحضيف، شبكة فلسطين للحوار، كُتب المقال في 21-06-2012، و نُقل إلى البحث في -01-01-2013، www.paldf.net.

² إنه مصطفى بن إسماعيل ولد في العامرية سنة 1769 و توفي بالبيضوية بوهراة سنة 1843، خدم الأتراك و حكم قبائل المخزن و سنة 1830 عين آغا قبيلتي الدواير و الزمالة، حالف الفرنسيين بعد دخولهم الجزائر، رُقي إلى رتبة جنرال سنة 1839، تحول آلة عدو للأمير بعدما كان خليفته في تلمسان، توفي على يد أفراد من قبائل القليلة. ينظر الحاشية رقم 1 من: التاريخ العسكري و الإداري للأمير، أديب حرب، ص 138.

³ قصر المشور بن يغمراسن بن زيان قصر المشور في أوائل ق 13م عند مغادرته القصر المرابطي الذي كان موازياً للجامع الأعظم، فقد وصف التنسي منازل الجليلة وحداثته النظرة، هدم بعض حجراته باي الجزائر، إثر ثورة قام بها التلمسانيون على الحاكمين، ثم قضى على مابقي منها الفرنسيون سنة 1843 واتخذوه معسكراً إلا أنهم تركوا صومعة قصيرة جميلة تدل على أنه كان للقصر مسجداً. ينظر: الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، محمد بن عمرو الطمار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1983، ص 243. و لقد قامت هيئة الآثار الجزائرية بترميم كلي للقصر في إطار تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية 2011، و فُتحت أبوابه للسياحة، البحث.

⁴ الرواية، ص 203.

يكفرونني.. يتهموني بالتقاعس عن الجهاد"⁽¹⁾، و كان هذا رداً على إثارة محاوره الأسقف ديبوش لقضية ظلم الأقارب.

إن القارئ لنص كتاب الأمير يكتشف التصاعد التوتري للأحداث كلما سارت البرامج السردية نحو النمو عبر استعمال الكاتب السارد للشخصيات النامية⁽²⁾، و الشيء نفسه كان يحدث للكاتب الحقيقي للرواية حينما كان يمارس عملية التحرير، و بالتالي ظلت الشخصية المركزية تواجه العقبات التي كانت تعمل على الإعاقة السردية، و لكن الخنكة التي اكتسبتها هذه الشخصية من مخالطة الأسفار⁽³⁾ مع الوالد منحتها القدرة على إيجاد الحلول التي تقلل من الخسائر و تقرب الحدث إلى الخروج الموفق، و هذا بفضل الإيمان المتجذر في دخيلة الأمير بأهمية تكريس التعالي عن المواقف التي تعيقه لتحقيق الوجود لهوية الأمة العربية الإسلامية التي ينتمي إليها، و التي تحمل مفهوم: "السمات الإنسانية المختلفة التي قد تسم جماعات إنسانية أخرى، و لكنها توجد بشكل معين و بترتيب محدد يعطي الهوية العربية فرادتها"⁽⁴⁾، و نقرأ مع الأمير ضمن نفس الوقفة ما وصلت إليه نفسيته من الانكسار جراء توقيع ابن عراش سفيره بفرنسا على وثيقة رسمية يتم بموجبها فتح الممر المؤدي إلى قسنطينة، و مفاد هذه الوثيقة هو ملحق اتفاقية التافنة⁽⁵⁾، و كان لهذا التوقيع وقعا سيئا على الأمير و سائر الخلفاء نظرا للأثر السلبي المُنجر عنه، و المتمثل في فتح المنافذ لحملة ييجو كي يُنم مشاريعه الاحتلالية، و هذا

¹ الرواية، ص243-244.

² الشخصية النامية أو المدورة و التي تعني المركبة المعقدة التي لا تستقر على حال.. لأنها متغيرة الأحوال و المتصفة بالشجاعة.. المقبلة على اقتحام لتناقضات" ينظر: عبد المالك مرتاض، نظرية الرواية بحث في تقنية السرد، ص101.

³ من أعظم الأسفار التي قام بها الشاب مع أبيه رحلة الحج، سنة 1823 إذ تجمع خلق كبير في نهر جديوية بالشلف بالغرب الجزائري لأجل المرافقة و لكن حال دون ذلك حجر الداوي حسين عليهما، و قد استأنفا الحج سنة 1925 عبر الإسكندرية و التقى الأمير بمحمد علي، ينظر: شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص42 إلى ص45.

⁴ عبد الوهاب المسيري، الهوية و الحركة الإسلامية، ص146.

⁵ 30مايو 1837 هي المعاهدة التي انعقدت بين الأمير عبد القادر والجنرال توماس روبري بعد تعرضه لخسائر فادحة بسبب المقاومة الجزائرية، و نصت على أن يعترف الأمير عبد القادر بسيادة الإمبراطورية الفرنسية في أفريقيا. ومقابل ذلك تنازلت فرنسا عن ثلثي الجزائر: إمارة الجزائر Régence d'Alger ولايات وهران، القليعة والمدينة وتلمسان، ونتيجة تلك المعاهدة هو احتفاظ بعدة موانئ، و قد جاء النقص من الملك لوي فيليب الأول في نوفمبر 1837، و أمر باحتلال قسنطينة، الأمر الذي أشعل القتال بين الأمير عبد القادر و فرنسا في 15 أكتوبر 1839، ينظر: الأميرة بديعة الحسني، أصحاب الميمنة، ص104 و ما يليها.

ما نهض الأمير و من معه لأجل منعه، و في حوار إخباري و تفسيري⁽¹⁾ مطول بين القائد وسفيره ابن عراش تلقى هذا الأخير لوما شديد اللهجة على هذا السلوك غير المبرر، و الذي أوقع الأمير ذاته في الحرج، فعبر عن ذلك الراوي بلغته الخاصة مستخرجا المونولوج الذي حصل في دخيلة الأمير، و جاء الوصف بقوله: "كان الأمير يعرف أن الثمن سيكون غاليا، وأن الحروب القادمة لن تشبه الحروب الفائتة"⁽²⁾، و هكذا و بعد أن تصاعد التوتر إلى أشده رجع المبعوث الفرنسي مع ابن دوران⁽³⁾ إلى الحاكم فالي باتفاق الخلفاء على إعلان الحرب من جديد، و على الرغم من عدم قبول الأمير لهذا القرار إلا أنه فضلّ التعالي عن الموقف الذاتي الذي أفسدته نية القادة الفرنسيين في إعادة إشعال نيران الحرب، و ضمّ اختياره المعاكس لأننا ذات الموقع المتعالي عن الأنت⁽⁴⁾، و بالتالي جاء تصريحه السري و الجلي لابن دوران ضمن الحوار المشار إليه سابقا بالقول: "يا سي ابن دوران، هل تظن أي مناصر للحرب؟ أعرف أن الحروب مدمرة و أننا سنذوق المرارة القاسية. الخلفاء عزموا على الحرب، و كلُّ فعل معاكس سيسمى مروقا وخروجا عن الدين"⁽⁵⁾.

¹ للحوار وظائف عديدة أهمها: تقديم الشخصيات d. Présentatif، وظيفة إيعازية d.injonctif، و وظيفة تصويرية d.illustratif، و أخرى تأويلية d.interpretatif، أخرى استبطانية d.introspectif، و وظيفة تتعلق بالزمن synchrone ينظر: الصادق قيسومة، طرائق تحليل القصة، ص226.

² الرواية، ص 296.

³ يهودي جزائري يتقن الحديث بالفرنسية لأنه تربى على أرضها، عينه الأمير كوكيل أي قنصل بالجزائر بعد معاهدة دوميشال و ظهر دوره جليا بين سنتي 1834 و 1837، و قد ساهم في تحضير معاهدة التافنة، و قد نال من فرنسا مكافئة مالية قدرها ستون ألف فرنك فرنسي جزاء ما قدم، و نال من الأمير الخطوة التجارية و بالتالي أدت هذه الشخصية دورا بوجهين متناقضين، و توفي سنة 1839، ينظر: Hani Abdelkader, Correspondances de l'émir a. e. k 1833-1888, éd dar el Gharb, pp179-179, « Ben douran Juda juif algérien élevé en France et parlant couramment le français. L'émir le désigna comme oukil-consul a Alger après le traité Desmichels très habile il joua un rôle important dans les affaires algériens de 1837. Il participa également a la préparation du traité de la Tafna après la signature de ce traité, il obtint du gouvernement français une gratification de 60.000 franc et de l'émir le monopole du commerce des bestiaux, concession qui lui fut retiré après une protestation du gouvernement français. Il continua toute fois a garder de bonne relations avec les français tout en servant au mieux les intérêts de l'émir. certains virent dans cette situation un double-jeu. Il mourut 1839 à Miliana »

⁴ ينظر: صابر الحباشة، لسانيات لخطاب، ص138.

⁵ الرواية، ص299.

2.1.5.1- القيومية ثمرة موقف التعالي:

إن مصطلح القيومية⁽¹⁾ يستمد جذره اللغوي من مادة قام التي تعني الانشغال بالشيء حتى إتمامه، و من معانيها العزم و المواظبة، و القِيم هو سائس الأمر في الجماعة، و القوام نظام الأمر و عماده⁽²⁾، و من نفس المادة جاء مصطلح المقام و هو بالفتح الموضع الذي نقيم فيه مؤقتاً، أما بالضم فالإقامة دائمة و مديدة⁽³⁾، و بالتالي يَتَبَيَّنُ على عنصر المقام⁽⁴⁾ تحليل المواقف التي أنشأها السارد في نص كتاب الأمير، و من خلال القراءة المتأنية للرواية يمكن تتبع تشكل المرجعية الفكرية للهوية من خلال نمطين من القيومية التي تأخذ في المجال التداولي معنى الاهتمام بالسياق من حيث حسن اختيار المتكلم للظروف التي يلقي من خلالها خطابه للسامع، بحيث يضمن بذلك نسبة كبيرة من النجاح التبليغي الذي ينجر عنه انجاز الفعل عبر الكلام على أنه الأثر المرجو من المتكلم⁽⁵⁾ act perlocutoire، و لقد ميزنا نمطين من القيومية: الأول يتمثل في إنزال هذه القيومية على المستوى الداخلي، أما الثاني فيظهر تكريسها على المستوى الخارجي⁽⁶⁾، و تتم العملية ضمن الحياة السردية عبر ترتيب إستراتيجية لرسم علاقات التعامل بين جملة المحاورين المتمين إلى مجال الأنا، و كذا مع المتمين إلى مجال الآخر، و من وقفة مدرات اليقين سجّل السارد مع القارئ محطة مؤقتة كي تتم له عملية معاينة القيومية القيادية التي أظهرتها شخصية الأمير عبد القادر من خلال سنّ التنظيم الإداري الجديد لجغرافية الجزائر، والذي جعله يضم ثلاث مقاطعات، حيث جاءت تفاصيل هذا التنظيم على لسان السارد، لأن السياق الذي

¹ ينظر: سعيد يقطين، السرديات و التحليل السردى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1/ 2012. ص88-89.

² ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج12، على التوالي الصفحات: 497-501-502-504.

³ ينظر ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص506، و في الترتيل: "أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا" الفرقان 75-76، و"وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا" طه 79.

⁴ و نعي به في البحث السياق بملاساته.

⁵ هناك ثلاث مراحل يعبرها الفعل الكلامي حتى وصوله إلى السامع و هي: الفعل القولي acte locutoire أي الإدلاء بمحتوى الخطاب و الثانية الفعل المُتَقَصِّد acte illocutoire أي إفراغ القصد في الفعل الكلامي أما الثالث فهو الفعل التأثيري acte perlocutoire أي الذي يلحق الأثر في المخاطب، ينظر: dictionnaire d analyse du discours,

ibid., p17.

⁶ التقسيم من اجتهاد البحث.

يمر عبر اللغة الرسمية المتحدّث بها عن السلم الإداري و التنظيمي يتطلب متكلمًا عليهما بما يدور في الكواليس السردية، وبالتالي لا يوجد من يضطلع بهذا الدور إلا الراوي العليم⁽¹⁾، القادر على طرح لغةٍ تفصيليةٍ لحياة الشخصيات داخل الأحداث، و يبدأ التنظيم الذي حدده الأمير بتقسيم الجغرافية المكانية في السرد إلى ثلاث مقاطعات كما سبق، بداية من خلافة معسكر بقيادة مصطفى بن قمامي، ثم خلافة التيطري بقيادة سيدي علي الخلاطي، أما الثالثة فتتمثل في مشروع لإقامة خلافة تلمسان بقيادة البوحميدي الوهاصي⁽²⁾، و بالتالي أظهر السرد القدرة التي كانت تتمتع بها شخصية الأمير، و التي ظهرت بواردها منذ طفولته أين سجل التفوق على أقرانه في الفروسية و التحصيل العلمي، و حتى في الظهور الأخلاقي المتميز⁽³⁾، و مع نمط الحضور المتعالي الخارجي تتوضح مواقف الأمير أكثر.

3.1.5.1- الحضور المتعالي الخارجي:

ما نقصده من الحضور المتعالي الخارجي هو جملة المواقف التي حبكها السارد مع الطرف الذي يمثل الآخريّة⁽⁴⁾ Altérité في الرواية، و حاول موضوعة الأنا الأميرية ضمن التحوار، التحوار، و مقصود الحديث يتوجه نحو الشخصيات التي مثلت الاحتلال الفرنسي ضمن الحياة السردية، و بالتالي انتقلت المواجهة الأميرية من الساحة الداخلية إلى ما هو أشدّ باعتبار ما سبق و أن ما لاقاه من رفض قراراته من طرف المقربين، و قد أقحمه السارد في مواجهة نوعية مع أحد القادة الفرنسيين و هو الماريشال بيجو الذي رضح رغم صفتي التعنت و الشدة اللتين اتصفا بهما لإبرام معاهدة التافنة⁽⁵⁾ الشهيرة، و نجد لهذا الحدث التاريخي تسجيلا ضمن وقفة مثزلة التدوين التي تعتبر خاتمة القسم الأول من الرواية، و في الحوار الذي دار بين الطرفين يسجل الأمير موقف التعالي في الهوية الوطنية من خلال ظهوره أمام بيجو بالمظهر اللائق لمثل

¹ ينظر مصطلح الراوي العليم ضمن: الصادق قيسومة، طرائق تحليل القصة، ص154.

² الرواية، ص119.

³ ينظر مناقب الأمير ضمن: هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، الصفحات 40 حتى 47.

⁴ هناك من يستعمل الغيرية نسبة إلى الغير كما أن هناك من يستعمل الآخريّة و المقصود بها الأطراف التي تمثل الاختلاف عن الذات في مجالات مختلفة كالدين و اللغة و التاريخ، ينظر: مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار الثقافة الحديثة، القاهرة، ط2، 1971، ص157

⁵ ينظر التفاصيل التاريخية لمعاهدة التافنة ضمن: أديب حرب، التاريخ العسكري و الإداري، ص254 و ما يليها.

هذه المناسبات مطالبا من الخصم إنزال المتفق عليه إلى الواقع الفعلي كي يقوم هو بالمثل، فيوجه الكلام لبيجو قائلا: "تُفتح -أي ممرات العاصمة- عندما تعيدون إليّ تلمسان"⁽¹⁾، و قد حدث ذلك و تم للأمير عملية تنظيف هذا الإقليم الهام من الكروغليين⁽²⁾ الذين خرجوا عن الطاعة و أظهروا المعاونة للعدو بعدما كانوا بالأمس السردى القريب أصدقاء الجزائريين أهل الأرض التي كانت لهم المأوى الحميمي لمدة طويلة من الزمن الفعلي التاريخي، و تتواصل حلقة التمظهر للموقف المتعالي من طرف الشخصية المركزية المتمثلة في عبد القادر الذي تسلم الإمارة إثر بيعة شرعية حضرها القبائل التي كانت قد سلمت قيادها للوالد⁽³⁾، و لقد أتاح الروائي للأمير أن يثبت موقفا متعاليا آخر مع الشخصية التي تسلمت دور النديّة و المتمثلة في الأسقف ديبوش الذي ملأ ذكره الفضاء الحداثي للسرد، و بالتالي نطالع ضمن وقفة مثّلة الابتلاء تفاصيل اللقاء الأول بين الشخصيتين، إذ دعت الحتمية التاريخية و كذا نظيرتها السردية إلى جعل صفة اللقاء كتابية عبر الرسالة التي وصلت إلى الأمير يطلب من خلالها ديبوش إطلاق سراح زوجة ماسو *Massot sous-intendant militaire* التي أبدت ضعفا و خورا أمام الأسقف، كي تحقق رغبتها في استجلاب العطف و الرأفة، و كان لها ذلك إذ عبّر ديبوش بملفوظ تَقَصّد من ورائه طمأنة الطرف المُحاور المتمثل في المرأة قائلا: "ما سمعته عن هذا الأمير يؤهله لرتبة قائد و ليس حراميا، و لا اعتقد أنه سيقتل زوجك ما دام سجيننا لديه، الذين هربوا أو الذين أطلق سراحهم يؤكّدون على قوام أخلاقه العالية"⁽⁴⁾، و مادام أن الطمأنة جاءت من الأسقف الذي يمثل المقام المحترم ضمن المجتمع الفرنسي المسيحي، فإن الأثر الذي كان يتغياه المتكلم قد تحقق و بنجاح، بدليل خلود المرأة الشاكية للنوم مع ابنها تحت ضيافة ديبوش الذي تلقى من الأمير ردا ما كان ليردّ في توقعات المسيحي، و كانت النتيجة من هذا الأخير تلقي الأثر النفسي عبر الملفوظ

¹ الرواية، ص 215. لأن من ضمن بنود الاتفاقية فتح ممرات العاصمة مقابل إعادة تلمسان للأمير، ينظر في هذا الشأن: أديب حرب، التاريخ العسكري و الإداري، ج1، ص318.

² الكروغلي بمعنى ابن العبد في التركية، و هم أبناء الأتراك الذين ارتبطوا بالجزائريات، ينظر: صالح عباد، الجزائر أثناء الحكم التركي 1514-1830، صالح عباد، ط2، دار هومه للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر.

³ ينظر في شأن بيعة الأمير عبد القادر: الأميرة بديعة الحسني، أصحاب الميمنة، ص42 و ما يليها.

⁴ الرواية، ص 54. ملخص الحادثة أن امرأة تَرَجّت الأسقف لكي يطلب من الأمير أن يطلق سراح زوجها فما كان من الأمير إلا أن رد عليه بخطاب أصيب القس على إثره بالذهول، حيث طالبه بالحديث عن كل المساجين بدون استثناء و كذا أردف الحديث عن المساجين العرب المضطهدين، ينظر الرواية الصفحات: 54 حتى 58.

الأميري الكتابي و المتمثل في الذهول الذي صاحبه الإعجاب، و قد عبّر الراوي عن هذه الحالة النفسية بقوله: "شعر مونسينيور ديبوش بامتعاض في بطنه. كيف غابت عنه تلك الأفكار؟ وعاودته الصور القديمة.. رأى سجن قلعة القصبة الذي امتلأ بالسجناء العرب المكدرين"⁽¹⁾، وعليه كان للملفوظ الأميري الأثر الإيجابي الذي تمثل فيما بعد في مراجعة ديبوش لقناعاته التي يحتفظ بها لنفسه، و ما كان من هذا الأسقف إلا أن باشر في ترجمة الشحنة القوية التي تلقاها من لغة الخطاب التي حاصرت كل القوى المقاومة داخل نفسيته، فبدأ بأعمال سردها لنا الراوي بقوله: "طلب أثناء صلواته بكنيسة سانت فيليب saint Philippe من كل ذوي البر و الإحسان مساعدة السجناء بالألبسة... قبل أن يقنع السلطات العسكرية بضرورة إطلاق سراح السجناء العرب في مضيق موزايا الذي حُدِّدَ كمكان لتبادل الأسرى"⁽²⁾، و قد حدث هذا التبادل التاريخي بين الطرفين المتباينين في التوجه، و قد ظهر هذا التباين جليا في الحياة السردية ضمن برنامج حكايتي تميز بالاستباق الحدثي، و قد اختار السارد لإيراده ضمن بدايات زمنية الرواية على الرغم من وقوعه كرونولوجيا شهر مايو من سنة 1841م، و قد تعمد السارد ذلك نزولا عند الحتمية التي فرضتها عليه المقصدية العامة من الرواية، فأقحم بذلك عملية تناصية يستطيع القارئ معاينتها من خلال التأوهات التي كانت تنبعث من ديبوش جراء التألم من الحالة القاسية التي عاشها الأمير عبد القادر هو و أهله و المقربين في أماكن المنفى بفرنسا، و بالتالي اندفع هذا الأسقف إلى تدوين كتاب عنوانه بـ "عبد القادر في قصر أمبواز"، و لقد أشار إلى ذلك الروائي ذاته و اقتبس منه العبارة الآتية على لسان ديبوش: "لو أن كل الفرنسيين عرفوا عبد القادر مثلما أعرفه اليوم، لأنصفوه في أقرب وقت"⁽³⁾، و لقد عبّر في غير مرة ديبوش ضمن برنامج سردي مكثف عاطفيا عن رغبته في تخليص عبد القادر من محنته فقال: "كم أتمنى أن يمنحني الله قليلا من العمر لأرى الأمير خارج أسوار سجنه"⁽⁴⁾، و عبّر كذلك عن إعجاب مفرط بمواصفات الأمير إذ قال للخادم موبى: "أرأيت كيف كانت عيناه.. بريق عينيه ظل متقددا بقوة مليئا بالحياة لم

¹ الرواية، ص 56.

² الرواية، ص 57.

³ الرواية، ص 21.

⁴ الرواية، ص 41.

يكن يبدو عليهما أي ارتباك أو أية رغبة في إخفاء الحقيقة المرة"⁽¹⁾، وقال في موضع آخر: "كيف يمكن نقل هذا العقل الصافي و هذه الموضوعية إلى الرئيس نابليون"⁽²⁾، و لقد بلغ الأمر بديوش إلى مقارعة بني جلدته لأجل إثبات صدق قضية الأمير، فنقل لنا معظم الشهادات التي قالها القادة الفرنسيون في حق عبد القادر، و منها شهادة النقيب دوسانت ايوليت le capitaine de saint-Hyppolyte الذي أقر بالمتزلة الروحية التي يتمتع بها الأمير⁽³⁾، و يبدو من خلال هذا الحضور المنظم أن شخصية ديوش تكاد تظفر بكل موقع استراتيجي ضمن الرواية، و كأن الأمير شخصية حملت على عاتقها المركزية الروائية بصفة مجازية أما المركزية الحقيقية فهي موكلة من طرف الروائي لديوش الذي أدى ضمن الخطاب الدلالي للرواية دور المخلص، مع العلم أن العقيدة المسيحية تعتقد في النبي عيسى عليه السلام في أنه مخلص البشرية من آثامها التي أقرتها⁽⁴⁾، و أنه كذلك قدّم التضحية بنفسه الغالية عليه من أجل البشرية، و بالتالي تبدو على الخطاب الدائر في الرواية الميزة التوجيهية التي تضطلع بها كتابة الروائي قبل أن تضطلع بها حركية الشخصيات في الحياة السردية على الرغم مما تتميز به موجة الرواية الجديدة من إلحاقها فضاء الحرية صفة الامتداد، كي يتسنى للشخصيات التعبير عن نفسها بطلاقة، و المعروف أن في إمكان الرواية: "أن تطلعنا عن الشفاهية الداخلية للفواعل، و ترصد المراحل الماقبل خطائية التي تَمُرُّ منها الذات"⁽⁵⁾، و لقد أدى الأمير القائد دوره نزولا عند رغبة الذين أودعوا الثقة فيه، و أثبت للأسقف⁽⁶⁾ لديوش أنه المتعالي بموقفه، بحيث استطاع برسائله القوية ذات المضمون المضمون الإنجازي القوي أن يتغلغل إلى دواخل هذا الأسقف الذي صَوَّرَ الخيال الروائي بطباع طيبة، إذ انفتحت أمامه ذكريات أليمة فـ: "رأى سجن القصة الذي امتلأ بالسجناء العرب المكდسين، رجالا و نساء شبه عراة، تتسلق على صدورهم كائنات صغيرة مثل الدود

¹ الرواية، ص104.

² الرواية، ص209.

³ ينظر: الشهادة في الرواية، ص150.

⁴ ينظر: برسوم حنا، معجم الكتاب المقدس، كتاب الكتروني من موقع الدراسات القبطية، ص31.

⁵ محمد الداوي، أسئلة التحليل الروائي، ص60.

⁶ الأسقف رتبة كهنوتية في المسيحية الأولى، برسوم حنا، معجم الكتاب المقدس، كتاب الكتروني من موقع الدراسات

القبطية، www.knowingllah.com، ص29.

المرتخي"⁽¹⁾، إنه موقف مشهدي قاسي على نفسية مثل التي يملكها ديبوش، لأجل ذلك نسمعه متمتما في حديث نفسي داخلي قائلا: "كيف يستقيم الكلام بين صرخات و بكاء هذه المئات من الوجوه المنكسرة من النساء و الأطفال التي تتدافع نحونا بدون أن تفهم لغتنا"⁽²⁾، و عليه بدا الاقتناع الكامل في موقف ديبوش بإعادة النظر في المساجين بوجه عام فرنسيين كانوا أو عربا، و توصل بعدها إلى حتمية تسخير الجهد لإنقاذ الكل و ليس فقط الأسير زوج المرأة الشاكية.

كثيرة هي المواقف التي أبدى السرد من خلالها شخصية الأمير متعالية عن تفاصيل الواقع الأليم الذي كان يحيط به و بشعبه، و لقد أدت القوة اللغوية التي وظفتها الرواية في شكل ملفوظات تناسب المقام الذي استعملت ضمنه إلى إظهار التفوق الأميري في إثبات جدية المشاريع التي تقرر إنجازها على الصعيدين الداخلي و الخارجي، لأجل إبراز الذات في شكل قوي و قادر على حمل هوية متميزة، و إذا رحنا نعدد هذه المواقف فسيطول بنا المقام و يدفعنا ذلك عن الابتعاد عن مقاصد البحث المتمثلة في استنطاق السرد الروائي لتجلية الرؤية التي بثها الروائي في نصه، و عليه سنحاول الانتقال إلى تتبع مواقف تُناقض التعالي الإيجابي الذي أبدته شخصية الأمير، و سنحاول التعرض إليها ضمن النمط الثاني من المقامات و هو الحضور التفاعلي الجدلي.

2.5.1- الحضور التفاعلي الجدلي⁽³⁾:

يضمُّ هذا الفضاء مواقف المقامات التلفظية التي حاول من خلالها السارد أن يظهر الكائن المتكلم ضمن عالم التلفظ بين خيارين، أحدهما: التمتع بحق حرية الذات، أما الثاني: فيتمثل في لجوء اضطراري من طرف هذه الذات إلى عالم الضرورة لتتوزع الرغبة الكامنة فيها في تحقيق الأثر في الآخرين بين الاتصال بعالم التلفظ و بين الانفصال عنه⁽⁴⁾، و بالتالي تدخل الذات التي تود تحقيق كينونتها ضمن دائرة من القلق و التوتر، لأن المواجهة التي تلاقيها هذه الذات في هذا المقام تبدو أشد من السابقة، حيث كانت تتمتع بأسباب القوة و التعالي، فهي

¹ الرواية، ص 56.

² الرواية، ص 56.

³ نجد تناولا لهذه المقامات ضمن كتاب: عبد الواسع الحميري، في آفاق الكلام و تكلم النص، ص 28.

⁴ ينظر: عبد الواسع الحميري، ما الخطاب و كيف نخله، ص 106.

تعمل في هذه الحال على تجاوز وضعها الراهن المتميز بالجدل و الدائرة مجرياته ضمن مساحة الآخرين أيا كان اتجاههم، فقد يكون الآخر المختلف من الأفراد التي تلتقي معهم في المكونات الأساسية للوجود كاللغة و التاريخ و الوطن، و إذا عدنا إلى نص الأمير فسنلقي برامج حكاية تعبر عن حالة الوقوف الجدلي للذات الأميرية، التي واجهت ضمن وقفة متزلة الابتلاء الكبير إعدام أحمد بن طاهر قاضي آرزو عبر حكم صادر من الأب الذي كان يمثل السلطة العليا المنتخبة عبر مبايعة القبائل، و لقد تم إصدار هذا الحكم لمخالفة المحكوم عليه لأوامر السلطان محي الدين، و التي تقضي بعدم التعامل الاقتصادي مع الغزاة النصاري، فما كان من عبد القادر حين شهد وقعة إنزال الحكم إلا إبداء نوع من عدم القبول الداخلي، إذ لم تسعفه اللغة على التعبير على رأيه إلا عندما انقضى المشهد بكامله، إذ أبدى القائد العائد بالنصر وجهة نظره بعد أن تدلى جسد القاضي من أعلى شجرة الزيتون، و للإشارة فإن أحمد بن طاهر كان من ضمن من لقن الأمير مسائل الفقه المتشعبة، و قد اعترف عبد القادر متحسرا بفضل المدوم عليه ضمن البرنامج السردى الذي سرد الحادثة قائلاً: "كان الله يَرْحَمَهُ أستاذي و مرجعي في الفقه، خسارة.. ألم يكن هناك حل شرعي أقل سوءاً من الإعدام"⁽¹⁾، هذا ما كانت ذات الأمير تريده أي حل آخر غير الإعدام⁽²⁾، و لكن ما كان لرغبة الذات أن تتحقق مقابل السلطة العليا التي يمثلها الوالد، و كذا مقابل حجم الخطأ الذي وقع فيه هذا القاضي، و الذي استعمله السلطان على منطقة آرزو الساحلية، و عليه فالذات تظل في هذه الحالة المعبرة عن الموقف الجدلي: "غير راضية أو غير مطمئنة إلى وضعها في إطار ما تتلفظ عنه أو به، و كأن صفة الوعي الضدي تنطبق على هذا السياق من السرد على أن الكائن الواعي يتحول إلى وعي ينفي نفسه في فعل نفي غيره"⁽³⁾ لأن الشاب القائد كان قد أبدى الموقف المخالف للإعدام، و لكن بعد أن أوضح له الوالد الأمر متوسلاً بحجاج علمي و منطقي تمثل في تبرير مفاده أن الخطأ الصادر من رجل تم تعيينه على القضاء بين الناس غير مغتفر، لأن أثره يبلغ الأفراد الذين يضعون ثقتهم فيه على

¹ الرواية، ص70.

² ينظر تفاصيل الحادثة تاريخياً ضمن: أديب حرب، التاريخ العسكري و الإداري للأمير، ص95.

³ عبد الواسع الحميري، لذات الشاعرة في شعر الحداثة العربية، المؤسسة الجامعية للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص16.

خلاف الخطأ الذي ييدر من فرد عادي و الذي يظل أثره فيه و لا يتجاوزه⁽¹⁾، و لقد أورد السارد هذا التبرير على لسان شخصية الوالد فقال مخاطبا الابن: "لا حق للحاكم أن يلعب بسلطان ليس ملكه بل ملك للذين وثقوا فيه، لو لم أفعل لارتدت كل القبائل ضدنا و لما اعترفت بسلطاننا"⁽²⁾، و هكذا انبرى الوالد يمنح الابن المقدمات الأساسية التي يحتاجها الرجل في قيادة الرعية و إدارة شؤونها، و الملاحظ أن الروائي خصص مساحة ورقية معتبرة لهذه الحادثة نظرا للأهمية التي تكتسيها القضية المتناولة فيها و المتمثلة في احتفاظ الأمير مذ كان تابعا للوالد على جانب كبير من الإنسانية، و قد برز ذلك أكثر في الحوار الطويل الذي عقده مع الوالد المتقمص لسلطة الحكم و التلقين القانوني، و بالتالي لقد وقعت الذات الأميرية قبل توليها الإمارة في التناقض الذاتي الذي يشكل عنصرا أساسيا ضمن الموقف الجدلي فانقسمت الشخصية إلى أنوين: الأنا الأولى وهي المسؤولة و الواعية التي تريد أن تتلفظ على هواها، أما الأنا الثانية فهي الخالية من المسؤولية التي تريد التمرن و التمرس على تمثيل هوى الآخرين الذين تمثلهم أو تنطق باسمهم⁽³⁾ في مستقبل الحياة السردية، و ينمو الصراع ضمن هذا البرنامج السردى داخل نفسية عبد القادر الأمير المستقبلي، و يظل في حوار محتدم مع الوالد على عقوبة التأديب التي قضى بها الوالد على قاضي آرزو⁽⁴⁾، و بالتالي تَبْجَسُ عن هذا الاضطراع غير المرئي لشخصيات الرواية أنا ثالثة اتخذت طريقا وسطا بين الأنوين السابقين، من أجل ضمان وصول الخطابات التي سيتحمل تشكيلها و توجيهها إلى الرعية، مبتغيا من وراء ذلك تحقيق أثر الطاعة في نفوسهم، وتقف هذه الأنا موقف المتلقي للخطابين الصادرين عن الأنوين المذكورين سابقا، و المتميزين

¹ ينتمي هذا التبرير إلى نمط الحجج المؤسسة على بنية الواقع، و يستخدم الحجج شبه المنطقية للربط بين أحكام مسلم بها و أحكام يسعى الخطاب إلى تثبيتها و جعلها مسلم بها، بحيث لا يمكن التسليم بأحد الأحكام دون الآخر. و هي حجج وصل أو قائمة على الاتصال، و الحجج شبه المنطقية لا تصف الواقع بقدر ما تعرض الآراء المتعلقة بهذا الواقع، ينظر: مقدمات في الحجاج و النص، عمر بلخير، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري بتيزي وزو، 2011، ص13.

² الرواية، ص 72.

³ ينظر: عبد الواسع الحميري، ما الخطاب و كيف نخلله، ص108.

⁴ منطقة تقع بالساحل الغربي للجزائر و بها ميناء تجاري هام و تبعد عن معسكر العاصمة الأميرية الأولى بحوالي 450 كلم.

تارة بالتزوع إلى البوح و الإفصاح، و تارة أخرى بالتزوع نحو كبت الرغبة السلطوية⁽¹⁾، وبالتالي يعد ظهور هذه الأنا الثالثة بمثابة التوازن و التوافق بين تدافع الأنوين، و لذلك أظهرت شخصية الأمير بعض التفهم لمقالة الأب الهادفة إلى تقديم التبريرات و التعليقات حول حادثة الإعدام التي اعتبرها الأمير أول درس يتلقاه من الوالد صاحب الحنكة القيادية في إدارة كواليس السلطة الشرعية ضمن الحياة السردية، و قد بدا الخطاب الملفوظي في شكل قوي لأن الكاتب استعان بآراء ابن خلدون صاحب المقدمة ليجعلها أقوالاً أفعالا ذات تأثير فعال في الأمير المستقبلي، إذ نجد التوجيه الأبوي صادرا بالشكل الصريح ومفاده: "تَذَكَّرْ كلام أستاذك ابن خلدون جيدا، العصبية هي التوفيق بين العشائر بالشعور العضوي"⁽²⁾، ولقد فعل هذا الملفوظ فعلته في نفسية الأمير، نظرا للقوة اللغوية التي احتواها في تركيب بنيات كلماته، و ليس أدلّ على ذلك وجود فعل الأمر تذكر الذي يفيد الطلب من المحاور القيام بالفعل على وجه الإلزام لأنه صادر من أعلى سلطة المثلة في السلطان محي الدين، و موجهة إلى طرف أدنى و هو عبد القادر الذي ما اعتلى بعدُ لحد اللحظة السردية المطروقة كرسي الإمارة و القيادة، إذ وجد الوالد باستعمال هذا النمط من الملفوظات طريقا يسلكه إلى دخيلة ابنه، و تمثل في بسط ما قرآه عن تحليلات ابن خلدون عن طبائع العصبية عند العرب، و كذا الطرق السليمة لسياسة ميزة العصبية الكامنة في نفوسهم و توظيفها في المقامات المناسبة لها كالحث على مقاومة الاحتلال ونصرة من يحمل نفس مواصفات الهوية التي تحملها شخصية الأمير في مرجعيته الفكرية، وهكذا يواصل السارد طرح أحداث نص كتاب الأمير جاعلا من شخصيات الرواية التاريخية الفعلية منها أدوات بين يدي الشخصية التي تصنع التاريخ في أصوله⁽³⁾ و لا يصنعها التاريخ المجرد وهي بطبيعة الحال عبد القادر الفارس المتعلم المشهود له بالذكاء⁽⁴⁾ و الإخلاص، هذا الشاب أعلم عن طريق برنامج حكائي من طرف شخصية الوالد محي الدين أن الشورى اتفقت على تسليمه مقاليد القيادة، و أنه مُلزم أمام من شهد بيعه الشجرة بالدفاع عن حماهم و الذود عنهم، لذلك

¹ ينظر: عبد الواسع الحميري، ما الخطاب و كيف نخلله، ص109.

² الرواية، ص 72.

³ إذا ضاعت الأصول التي أنشأها الإنسان ضاع التاريخ كليا، و هي متروكات- التراث- الأقدمين المكتوبة و غير المكتوبة ينظر: أسد رستم، مصطلح التاريخ، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 2002، ص15.

⁴ الأميرة بديعة الحسني، صحاب الميمنة، ص41.

كانت الانطلاقة بالجيش لتأديب الدرقاوين⁽¹⁾ الذين شقوا عصا الطاعة و أوهموا الناس بخرافات ابتدعوها و الحقوها بقائدهم الذي زعم أنه مخلصهم من الاحتلال الفرنسي.

تتواصل سلسلة البرامج الحكائية ضمن نص كتاب الأمير، و تستمر معها المواجهة التي تبديها الذات تجاه الشخصيات التي تشكل عراقيل أمام سير وتيرة الأحداث قياسا على رغبة الأمير، و في لحظة سردية ذات سياق حرج يصل خير⁽²⁾ غير سارٍ إلى الأمير عبد القادر مفاده أن الجنرال تريزل⁽³⁾ عزم على تدمير الجيش الأميري، و كذا الاستيلاء على الأرض كلها وبالتالي إبداء النقض الصارخ لمعاهدة دوميشال التي فسحت المجال لمشاريع الأمير أن تبدأ في التحقق، و ظل الأمير ضمن هذا الموقف المخرج يواجهه الأنا التي تمثل الضمير الجمعي والتي تقضي بالمواجهة العسكرية، و الأنا الأخرى التي تقف تصنع مشهدا مخالفا يتمثل في الحرص على المحافظة للسير الحسن لبنود المعاهدة، لأجل استثمار الوقت في بناء الوسائل التي تسمح للأمير في تحقيق النصر على الغزاة، و هكذا يحتدم الصراع غير المرئي بين الأنوين داخل نفسية الأمير و يسفر عن إنتاج أنا أخرى ثالثة لا تُغلبُ طرفا على طرف، بل تقف في خط وسط مواجهة عالم التلطف الذي يعبر عن التحقق و الانجاز، متوسلة اللغة بتراكيبها المتنوعة، و بالتالي تعمل هذه الأنا في ظل هذا التناوش الداخلي في الهوى و الأفكار على توليد خطاب ملائم للمقام، و تتولد هي بنفسها عن هذا الخطاب، و لأجل هذا الأمر سحب الأمير ذراعه الأيمن مصطفى بن التهامي ضمن برنامج

¹ قائد الدرقاوين الخارجين على الأمير هو أبو موسى و يلقب بأبي الحمار، لأنه دخل منطقة المديّة على حماره سنة 1835، و سافر مع الأتراك لنجدة عرب المغرب العربي من الأسباب ثم خرج عليهم و كون معارضةً ضد فرنسا و الأمير، و بالتالي سارع الأمير لإخماد هذه الثورة في 25 أبريل 1835، و عيّن الأمير محمد بن عيسى البركاني على مليانة، ينظر: أديب حرب، التاريخ العسكري و الإداري للأمير عبد القادر، ج 1، ص 148 و يليها.

² للخبر تأثير في نفسية المتلقين إذ يحرص المتكلم على شحن الحدث بصورة تجعل السامعين يتزلون إلى الحالة التي أرادها أن تكون، و كأن الأمر يتعلق بصناعة مقام أو سياق ضمن مساحة التلطف الأميرية التي تشكل آخريّة المحتل الفرنسي، مع العلم أن مصدر الخبر من هذا الأخير، ينظر دراسة مفيدة للخبر ضمن: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 129 و ما يليها.

³ يعتبر تريزل من القادة الذين وقفوا ضد الأمير معلنين الاحتلال الكامل للجزائر و كذا القضاء على المقاومين، و لقد مُني هذا القائد بهزائم على يد الأمير أشهرها معركة غابة مولاي إسماعيل -واد الهيرة- سنة 1835 الواقعة بالقرب من سيق التي تبعد عن معسكر بجوالي خمسين كلم، و بعدها أعيد هذا القائد إلى فرنسا بدون نصر و بدون قيادة. ينظر تفاصيل أكثر ضمن: هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص 94 و ما بعدها.

حكائي إلى زاوية من المكان، و شرح له موقفه المتمثل في عدم الرضا من الانتصار الذي حققه على الجنرال تريزل، فما كان من بن التهامي إلا إبداء التعجب و الحيرة ، و لكن ما خفي عن التهامي هو أن هجوم تريزل غير الموفق ما هو إلا ذريعة لنقض المعاهدة-دوميشال- و بالتالي فسح المجال واسعا لعودة النزاع الدموي الذي تنبأ الأمير بشدته و ضراوته، و حينما ولج الاقتناع إلى التهامي تساءل عن الحل فأجاب الأمير مفندا التساؤل:" أن نهبئ الناس لمغادرة معسكر و كل الضواحي المحيطة بها و أن يستعيدوا لرحيل، الله وحده يعلم متى ينتهي، لقد بدأت الحرب من جديد"⁽¹⁾، و صدق التنبؤ الأميري في المستقبل السردى و تم الزحف على معسكر العاصمة و تدميرها وللحظ الحسن ما وجدوا إلا آثار ساكنيها⁽²⁾، وبلغة صادعة يصدر الأمير ملفوظا أوجز من خلاله النتيجة المنطقية للحدث قائلا:"ربحنا الحرب و لكنهم أجبرونا على خسران معركة السلم"⁽³⁾، وهي المعركة المهمة في التزاعات العامة بين الجيوش التي تمثل آخرية متبادلة، و لكن الأمير يدرك أن المسألة:" لا تتعلق مع الآخر، فهذا أمر محسوم، و لكنها خاصة بالعلاقة مع الذات التي تحتاج إلى قراءة نقدية صارمة"⁽⁴⁾، ولتحقيق ذلك يلتجأ الأمير كعادته حينما يصاب بالانتكاس و يحس أن ما كان يتغيا انجازه فشلاً بفعل الظروف الإعاقية على المستويين الداخلي-مع بني جلدته- و الخارجي-مع الاحتلال بوصفه الممثل للآخرية- للبرامج السردية، إلى قراءة المؤلفات ذات المعنى و المبنى الصوفيين، و قد وقعت يد الأمير هذه المرة على كتاب الإشارات الإلهية لأبي حيان التوحيدي ضمن باب الغريب⁽⁵⁾ الذي يصف فيه حاله وذاته التي ضاقت بها السبل فلم تجد من يتحملها و لم تجد من يؤنسها و يواسيها، فأحست بالغرابة في عقر موطنها، و هي لعمرى قمة الغربة، و الأمير لا يقل حالا عن ما وصل إليه التوحيدي من المعاناة، فالأول غرقت نفسه في الفقر و اللامبالاة الاجتماعية، أما الثاني فقد سعى إلى إيصال رؤاه إلى مخاطبيه لأجل صالحهم، و لكن مبادرته قوبلت بالرفض و قوبل

¹ الرواية، ص167.

² ينظر: شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص101.

³ الرواية، ص 168.

⁴ الرواية، ص 179.

⁵ ينظر: باب الغريب كاملا مشروحا ضمن: جمال الغيطاني، مختارات التوحيدي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 1995، ص186.

خطابه الكلامي و الحوارى بالفشل، و قد تسبب هذا الفشل فى الانفصام الأنوى لشخصيته، وقال حينما أحس أن معاهدة دوميشال باتت فى مرحلة الاحتضار: "لدى إحساس كأننى دفنت عزيزا غالبا-يعنى به السلم -على القلب"⁽¹⁾، و يظهر من خلال استعمال التكرار الدلالى بين لفظى عزيزا غالبا أن الملفوظ الذى استعمله الأمير شُحن بقوة بلاغية تنبئ عن الأهمية الكبيرة التى كانت يكتسبها المحمول المتمثل فى معاهدة دوميشال التى تمنح شخصية الأمير فضاء معتبرا من الزمن الحقيقى، و الذى كان ينوى استغلاله فى إعادة هيكلة وسائل الجيش الذى سيقاوم معه و به الاحتلال الفرنسى، و تمثلت القوة البلاغية الإنجازية فى مجيء الخبر الملقى من طرف الأمير إلى ابن التهامى على الصيغة الإنكارية لوجود أكثر من مؤكد واحد فيه⁽²⁾، و ما ذلك إلا لأن السارد جعل من الأمير شخصية عليمه⁽³⁾ بما يدور فى أذهان التابعين له، و كذا بما يدور بأذهان قادة الاحتلال، لأنها تتوفر على آلية الرؤية من كل الاتجاهات بفضل التكوين العلمى الذى سهر الوالد على تلقينه إياه، أضف إلى ذلك التمرس على مخالطة الحياة من منابعها الأصلية الحية كالسفر الذى عقده مع الوالد إلى البقاع المقدسة، حيث وقف على معاناة الرحلة و كذا متعتها، و لقد عمل الروائى على تسجيل حضور هذا الأمير بكل ثقافته و تجاربه فى الملفوظات التى جاءت على لسانه انطلاقا من أن: "الإنسان كائن، كينونته كائنة فى فعل التكلم الخاص، أى متحققة فى الوجود، فى عالم الكلام الخاص به"⁽⁴⁾ أى ضمن ذاته العميقة، و ما الانفصام الذى أصاب الذات الأميرية إلا دليل على ذلك لأن من طبيعة القائد الحكيم الحزم فى التدابير الصادرة عبر الملفوظات ضمن سياقاتها الملائمة لها، و كذا فسح المجال واسعا قصد إنزالها إلى الواقع، و تجنب تضيق سبل الوصول إلى الوقوف على آثار هذه التدابير على أرضية الواقع الفعلى عملا باتخاذ التوسط فى الأمور، لأجل ذلك نجد التردد الذى طبع هذه الشخصية فى الكثير من القرارات، و هذا ليس بسبب الضعف و الخور فى الذات الأميرية، بل مرَدُّه من جوهر الحرص الذى يناقض التعجل و الارتجال فى إصدار التعليمات، و عليه لقد أتاح السارد للأمير امتلاك

¹ الرواية، ص 168.

² ينظر: أحمد الهاشمى، جواهر البلاغة، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص57. المؤكدات متعددة والملفوظ المختار احتوى على أكثر من مؤكد: استعمال الأداة كَأَنَّ و تكرار اللفظة بمعناها: عزيزا غالبا.

³ ينظر: الصادق قيسومة، طرائق تحليل القصة، 157. فى الصفحة تفصيل مفيد عن مسائل الرؤية.

⁴ ينظر: عبد الواسع الحميرى، فى آفاق الكلام و تكلم النص، ص41.

آليات تفهم التكوين المقصدي الذي يخزنه كل من المخاطبين القريبين منه-التابعين- والمخاطبين البعيدين عنه-قادة الاحتلال الفرنسي- و بالتالي فصناعة الملفوظ من طرف الذات الأميرية تتم عبر تفهم المرامي التي تتغيا الأطراف المذكورة تحقيقها على حساب القناعة التي تؤمن بها الأنا الأميرية، و تضمن هذه العملية بذلك للأنا المتكلمة القدر المقبول من الحصول على خطاب موفق و ناجح بأثر مرئي وفعلي على من يتوجه إليهم الخطاب، و لقد كان هذا الموقف جدليا متأرجحا بين نمطين من الحضور وهما:

1.2.5.1- الحضور الجدلي الإيجابي:

إن هذا النمط يشكل الحيرة و التردد اللذين يسكنان نفسية الأمير أثناء مواجهة القرارات التي تتعلق بمصير الأمة من حيث حفظ حياتهم و أموالهم و أراضيهم و ممتلكاتهم⁽¹⁾، وبالتالي يقابل القارئ ضمن هذا العنصر الموقف الذي صنعه برنامج سردي محله وقفة مسالك الخيبة، و يتعلق الأمر بالتصرف الذي اتخذته الجنرال تريزل المبعوث من طرف الحكومة التي تساند الرأي القاضي بالاحتلال الكلي و القضاء على المقاومة مهما كان شكلها، و قد جاء رد فعل تريزل هذا بعد أن تلقى الهزيمة من الجيش الأميري بمنطقة المقطع⁽²⁾، و بالتالي راح يجمع العدة الأقوى كي يتسنى له تدمير العاصمة معسكر كخطوة أولى للقضاء نهائيا على المقاومة الأميرية، و حينما تم إعلام شخصية الأمير من طرف الراوي على ما كان يعتزم تريزل فعله أخذ يفكر في القرار الذي يتخذه كي يواجه هذه الحملة القوية من شخصية وصفها السرد بالتعنت⁽³⁾، و كان شعور الأمير في هذه اللحظة السردية متأزما نظرا للخيانة المتكررة من طرف من بايعوه، فهذا أنموذج من هؤلاء الخليفة مزاربي الذي كان على قدر تعبیر الأمير يقاتل في صفوف أهل الأرض فإذا به ينقلب على عَقَبَيْهِ، و يسير جنبا إلى جنب مع الغزاة ضد

² ينظر تفاصيل المعركة التي انهزم خلالها جيش الاحتلال ضمن: أديب حرب، التاريخ العسكري و الإداري للأمير عبد القادر، ج1، ص186 و ما يليها،

³ كان الرجل قد أمضى حياته في الحروب و المواجهات، و قد حارب مع نابليون، و تم تعيينه في أواخر أيامه في أيار سنة 1847، و كان يعارض دارلون حاكم الجزائر العام في تعامله مع الأمير عبد القادر، و كان تحالفه مع قبيلة الدواير و الزمالة من أهم الأسباب التي أبطلت مفعول معاهدة داميشال، و بالتالي أخذ يسعى إلى الإطاحة بالأمير بكل الوسائل رغم عدم موافقة الحاكم العام لذلك، ينظر: أديب حرب، التاريخ العسكري و الإداري للأمير عبد القادر، ص157 و ما يليها.

خلفائه الذين تربطهم وإياه مساحة الهوية الواحدة، فتصاب الأنا الأميرية ضمن مساحة تلفظ هذا المقام بنوع من الوهن الذي مرده ضعف من خارج الذات المتكلمة، أي من الذين منحوا البيعة للأمير ثم نكثوها بفعل التكوين الهش لشخصياتهم، و حينما أحس الأمير بالضعف يسري إلى الداخل اتخذ قرارا لم يعجب جمهور المخاطبين الذين مازالوا على بيعتهم للأمير، و يتمثل في توجيه خطاب التنحي عن الإمارة، و قد بدا ذلك بوجه صريح من خلال قوله: "...لأعلمكم برغبتي الصادقة في التنحي، أشعر أني غير مؤهل لقيادة أمة... لتختر القبائل خليفة لي و سأنصاع لأمركم و سأموت بينكم... و بدأت أشعر أن عالما آخر بدأ يظهر، فأتوا بمن يستطيع فهمه"(1) وفي هذه اللحظة السردية تنطلق أصوات من الحضور الممثلة للضمير الجمعي المستمع للأمير متوسلة ملفوظات متباينة في لغتها و متشابهة في غايتها، و مطالبة إياه بمحاولة التراجع عن رغبته التي ما وجدت صدى القبول، و يختار الراوي للتعبير عن حالة الضيق النفسي التي أصيب بها المستمعون ملفوظا مناسبا للمقام و هو قوله: "كان هذا الخبر كالصاعقة... فجأة ارتسمت صفرة كبيرة على الوجوه و ارتبكت الألسن..."(2)، و هكذا رسم السارد للأنا الأميرية مشهدا غير مقبول من طرفها و لكنه تداوليا مفروض من الواقع الفعلي الذي سطره المتخيل و عمل على إقحامه ضمن التاريخي في الرواية، إذ يعتبر إعلان التنحي حدثا عرضيا بالنسبة لمسار التاريخ الموضوعي لمقاومة الأمير عبد القادر، و لكنه يعتبر بالنسبة للسرد الروائي أكثر أهمية، لأن مثل هذه الأحداث العرضية تعمل الرواية على إخراجها إلى ساحة المقروئية التي تعتبر الفضاء الخاص للمتلقي، و يتخذ هذا الأخير من لغة هذا الفضاء سبيلا لوعي الواقع الدائر حوله(3)، من باب أن اللغة تُظهر ماهية الكائن المتكلم(4)، و بها يتأسس وجوده ووجود الأشياء، ويسهم استدراج مثل هذه الوقائع المتحدث عنها سابقا من جهة أخرى في بناء ركن أساسي في الرواية و هو الحكمة .

¹ الرواية، ص178،

² الرواية، ص178. يذكر هنري تشرشل أن الأمير أقدم على هذه الخطوة حينما تخلى عن عاصمته الأولى لاعتبارات إستراتيجية ثم اتجه إلى منطقة كاشرو -سيدي قادة حاليا- لا تزال لحد الساعة مزارا للناس نظرا لاحتوائها على أماكن القيادة الأميرية و ضريح جد الأمير عبد القادر- و لكن رغبة القبائل في إبقائه لأجل الحفاظ على الدين جعلته يتراجع عن قراره بشرط تأديب الخرجين و الخائنين، ينظر: هنري تشرشل، حياة الأمير، ص102.

³ ينظر: الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، ص157. في الصفحة تفصيل مفيد عن مسائل الرؤية.

⁴ ينظر: عبد الواسع الحميري، في آفاق الكلام و تكلم النص، ص41.

يُعبّرُ المشهد الذي تحاول الأنا المركزية في الرواية أن تنسحب منه عن شكل من النفي السليبي، لأن الأنا تحاول من خلال ذلك أن تنفي أنها نفيًا نهائيًا من ساحة الحضور الفعلي للأنت التي تشكل مساحة الحضور الفعلي المهيمن ضمن المقام التلفظي العام⁽¹⁾، و لكن سيتبين لنا من خلال المستقبل السردى أن هذه المحاولة باءت بالفشل نظرًا للتدخل الفعال لشخصيات ذات أهمية في البرامج الروائية، و بالتالي فما كان من المستشار الأول للأمير إلا تسجيل الموقف الايجابي الذي تمثل في محاولة فض هذا الانسداد الذي وصل إليه السير الحداثي في الرواية، وذلك بإقحامه للمفوض خاطب به الأمير ذاته، بحيث اختار له محمولًا يقيس في القوة التأثيرية ما أقدم عليه الأمير عبد القادر في خلال إعلانه عن الانسحاب من ساحة التلفظ في الرواية، و التي تتمثل في القيادة و الإمارة اللتين مُنحتا لعبد القادر عبر الشورى و المبايعه، و تتمثل القوة التأثيرية لخطاب مصطفى بن قهامي في حملها لميزتين: أولهما أن المتكلم عمل على مزج قيمتين أساسيتين في لغته وهما القيمة الإخبارية و القيمة الحجاجية⁽²⁾، أما الثانية فتتمثل في حسن اختيار المحتوى القضوي ذي القيمة النوعية⁽³⁾، و يتعلق هذا المحتوى بتذكير الأمير أن اتباع خطاب التخلي عن القيادة ليس من الإملاءات الحقيقية للدين الإسلامي، أي بمعنى أن ما أقدم عليه الأمير يعتبر من المخالفات الدينية التي ينبغي الابتعاد عنها، و للعلم أن الأمير عبد القادر كانت نشأته دينية بحتة، لأجل ذلك وجد ملفوظ ابن قهامي طريقه ممهدًا إلى دخيلة الأمير عبد القادر، و تقف الخطابات المستعملة⁽⁴⁾ في الرواية شاهدة على مدى التشبع الذاتي بالتعاليم الدينية من طرف الأمير، إذ أن قانون البيعة الذي جعل من عبد القادر خليفة على الناس هو من الطرق التي أبدعتها السياسة الشرعية للإسلام⁽⁵⁾، وهاهو الوالد محي الدين يجمع الأعيان للشورى ويأخذ منهم عهدًا قويا على المحافظة على اختيارهم للأمير كبديل لخلافة الوالد، و بالتالي البيعة

¹ المقصود بالخطابات هنا التمثيلات التي تظهر في التصرفات الصادرة في شكل أفعال واقعية عن الأمير جراء التشبع بالشريعة الإسلامية و الإيمان بها.

² ينظر : Jacques Moeschler et Anne Reboul, Ed du Seuil, Dictionnaire Encyclopédique de la pragmatique, 1994, p87. « Pour exprimer, les choses d'une manière lapidaire on dira que la valeur informative d'un énoncé est second par rapport à sa valeur argumentative définie comme primitive ». و ينبغي الإشارة إلى أن القيمة الحجاجية تبقى أولى من الإخبارية.

³ ينظر: حافظ إسماعيلي، التداوليات علم استعمال اللغة، ص191.

⁴ ينظر: عبد الواسع الحميري، ما الخطاب و كيف نخلله، ص122.

⁵ ينظر: الأميرة بديعة الحسني، أصحاب الميمنة، ص50 و ما يليها.

و الخلافة والإمارة كلها عناصر ذات أهمية أتى بها الروائي من المعجم السياسي الإسلامي، و لا يخفى على القارئ للتاريخ الحضاري للإسلام التموّج الفعال لهذه المصطلحات ضمن الكينونة السياسية، و في القرآن الكريم نجد مخاطبة الله تعالى لآدم بمصطلح الخليفة دلالة واضحة على انتماء هذا المصطلح إلى دائرة المعجمية الإسلامية و هو قوله تعالى: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ"⁽¹⁾، و هكذا استطاع الأمير من خلال البرنامج السردى الذي عبّر من خلاله عن مقصدية التنحي أن يضمن وصول الخطاب الأنوى الحقيقي للسامعين التابعين له، و استطاع كذلك بفضل الإقدام النفسى القوي على مجانبة الصواب من الأحكام أن يتعرف على ما كانت تضره النفوس تجاهه من خلال وضعها أمام الأمر الواقع، وبالتالي سمع الأمير من خلال المحاوراة الشفافة صوت الضمير الجمعي ينطق بالملفوظ الآتي: "نحن معك حتى الموت يا أمير المؤمنين، نحن معك..."⁽²⁾، وبقدر ما اطمأنت شخصية الأمير لهذا الملفوظ بقدر ما زاد انزعاجها و قلقها، و ذلك لأن المسؤولية الملقاة على هذه الشخصية زادت تبعثها و باتت مطالبة بتفعيل الحضور الأكثر فعالية و الأكثر قوة ضمن مساحة التلفظ الروائي، و التي عرفت بدورها اتساعا و باتساعها زاد تعقدها و تأزمها، إذ تأكد للأمير أن المواجهة ستتخذ مسارا آخر في المستقبل السردى، ذلك أن الآخر المحتل عمل على التموّج ضمن الذاكرة السلبية للعرب⁽³⁾، و سيعمل هو بدوره على تفعيل حضوره ضمن الساحة الروائية التي تتوافق مع الساحة الفعلية في التاريخ الموضوعي، وهي ضمن هذا الأخير محاولة تزييل و بيعجو بسط السيطرة الكاملة على جغرافية الأنا التي كانت تحت قيادة الأمير عبد القادر، و ذلك باتخاذ وسائل أكثر قوة و أكثر فعالية، و بالتالي تعرف بذلك الساحة السردية نوا سريعا لأنها عرفت منعطفًا خطيرا سيكلف الأمير و أتباعه سلوك مغامرة الخروج منها غير مضمون، و دلالة ذلك إصدار الأميرة الأميرية بإخلاء العاصمة معسكر عن آخرها، و بالتالي تحقيق التخلي عن المكان

¹ سورة البقرة الآية 29 من رواية ورش عن نافع.

² ينظر: الصادق قيسومة، طرائق تحليل القصة، ص 157. في الصفحة تفصيل مفيد عن مسائل الرؤية.

³ يتخذ الآخر أشكالاً عديدة ومن بينها الشكل الاحتلالي كما وقع للأرض الذي نافح عنها الأمير، ينظر في هذا الصدد:

سيار الجميل، التحولات العربية إشكالات الوعي و تحليل التناقضات خطاب المستقبل، الأهلية للنشر، الأردن، عمان، ط1

/ 1997. ص 115 .

الذي رتعت فيه الهوية، وبهذا بدأ الأمير رحلة البحث عن مكان آخر أكثر أمناً و أكثر مناعة، لأجل التفكير في الوسائل التي ينبغي اتخاذها في مواجهة ضراوة وسائل المحتل، إن هذه الحالة تعبر عن مواجهة عمل على إظهارها السارد قبل ميعادها الطبيعي، و ذلك رغبة في تحقيق التعميم في حكاية الأحداث، و تتيح هذه العملية للقارئ تجنب تسلل الملل إلى النفس و بالتالي تفعيل آلية توضيح الرؤية لديه.

يبدو المكان الجغرافي في الرواية بمثابة مساحة التلطف المتنازع عنها بين الأطراف المتصارعة، سواء على الصعيد الداخلي أي بين الأمير الأحق بالشرعية بفعل المبايعه و بين من يريدون إبطال هذه الشرعية للفوز بها لأجل تحقيق أهداف آنية و غير مهضومة من طرف الضمير الجمعي الذي يساند قرارات والد الأمير عبد القادر، أو على المستوى الخارجي الذي يمثله الاحتلال الدخيل بكل القيادات المذكورة في الرواية، و يشهد المتلقي هذا الصراع محتداً على الساحة السردية التي تحتوي على مزيج من الحقيقة التاريخية الموضوعية و من الكتابة السردية⁽¹⁾ التي يغلب عليها التخيل.

2.2.5.1 - الحضور الجدلي السلي:

يُعبّر هذا الموقف عن إقدام الأنا التي تمثل رهانا قويا في السرد على تسجيل المخالفة تجاه الضمير الجمعي الذي يمثل المجتمع التي تتمتع فيه هذه الأنا بـمميزة الانتماء و المواطنة، وبتملك الهوية المتميزة و الخاصة و المتفردة، و لكن قد يقع ما لا تتوقعه الأنا التي تنظر إلى مجتمعها على أنه الملاذ الوحيد لها، إذ قد يخالف الرأي الجمعي الرأي الأنوي، و بالتالي يتخلق الصراع الداخلي و بخاصة إذا كانت هذه الأنا تمثل معاملاً مرتفعاً ضمن الحياة السردية كعبد القادر في نص كتاب الأمير، و عليه فإن الالتجاء إلى البحث عن الحلول داخل الخطاب الروائي السردية⁽²⁾ أمر مفروض على الشخصية، و الحل المزمع اتخاذه ينبغي أن يكون يترع إلى الحكمة،

¹ ينظر: فيصل دراج، الرواية التاريخية العربية السياق و الشروط، ص157.

² تشير الترجمة الفرنسية إلى أن الحكائي بالمعنى العام، أما السردية فبالمعنى الخاص، لذلك سيستعمل البحث المصطلحين ونعني بهما الرواية التي بين أيدينا، فالحكائي عام ويكون بالإيماءة أو بالحركة أو بالصوت، أما السرد فيتطلب الصيغة كما يشير =جيرار جينيت، و الخطاب الروائي هو جزء من السرد، ينظر: سعيد يقطين، السرديات و التحليل السردية الشكل والدلالة، ص53، 54.

و يتمثل في إصباح هذا الحل بصفة التوفيقية التي تَصَحِّبُهَا الصرامة في الكلام، لأن الأمير عبد القادر صار معروفا في الآن الروائي المتصاعد على أنه القائد الذي تنضوي تحت قيادته عامة الناس و خاصتهم التي تمثل الطرف الرئيس في الصراع المقابل للآخر، و بالتالي هي معركة من طبيعة خاصة تتمثل في توفير كل الوسائل لإنجاح مشروع الإثبات الهووي ذي المسحة العربية الإسلامية الأميرية المُحِبَّةَ للسلم و للإنسان، إذ ليس النصر على حسب مرجعية الفكر لدى الأمير كامن في النيل من العدو تنكيلا لأجل تحقيق هذا الإثبات، بل النصر هو الذي لا يكلف طرفي الصراع الخسائر الكبرى تحقيقا للصالح للجميع، فما رفع الأمير السيف إلا حينما أحس بالآخر الفرنسي يريد أن يتحصل على أرض الأنا العربية الجزائرية بكل الوسائل و لو على حساب إزهاق روح الإنسان و كرامته، و الشاهد على ذلك يَتَبَيَّنُ في أثناء مواجهة شخصية الأمير في رحلة حوارية حجاجية كان الأمير فيها هو المسؤول بله هو المُحَقِّقُ معه من طرف ديبوش، و من ضمن المسائل التي أثارها هذا الأسقف مع الأمير مسألة الجهاد⁽¹⁾ الذي أعطاه الأمير مفهوما دقيقا و محددًا يبتعد عن المزايدات التي أَلصقت بها إذ قال عنها: "الجهاد لا أن تحمل سيفًا و تشهره في وجه أول من تصادفه، الجهاد أن ترفع سيفًا عندما تنغلق في وجهك سبل السلم"⁽²⁾.

ييدي الأمير في البرنامج السردى الذي أنشأه السارد الذي يدخل ضمن سلسلة المحاورات الأميرية لديبوش، والتي كان مكانها المنفى المتعدد بفرنسا نوعا من الصراحة التي أخفاها في أغوار نفسه طيلة مرحلة المقاومة، متناولا موضوع الإعداد الحربى لطرفي الصراع إذ بيَّن أن أناه المتفردة كانت تعتقد عكس ما يعتقد غالبية التابعين له، فقد صرح لديبوش عن رأيه حول مسائل الصراع الحربى فقال: "لم تخفني ألتكم الحربية لكن الذي أخافني جهلنا المتزايد بقوتكم، إذ كنت أستمع إلى القصائد و هي تمجد السيوف و أضحك في أعماقي... كنا نظنكم تعيشون في الجاهلية فاكشفنا الجاهلية فينا سيدي"⁽³⁾، إنها تصريحات كلامية تحمل نظرة المتفحص للأشياء بعين الموضوعية، و لقد أحسن الأمير حينما اختار المقام المناسب لها أمام

¹ هناك مسائل عديدة أثبتت خلال الحوار و لقد اخترنا الجهاد نظرا لقربه من الموضوع المتناول ضمن عنصر الحضور الجدلي السليبي، ينظر الرواية، ص243 و ما يليها.

² الرواية، ص244.

³ الرواية، ص244.

ديوش الذي حمل مع الأمير خلال الرحلة الحكائية همومه و مآسيه، و كان لها الوقع الحسن والتأثير الفعال إذ ظهر التأثير على ديوش من خلال المشهد المنقول لغويا من طرف الراوي، فما كان من هذا الأخير إلا أن أبدى الموافقة و أردف إلى ذلك إبداء الإعجاب بالشخصية الأميرية، و لو ألقى الأمير ما صرح به للتابعين له و مناصريه لما وجد ملفوظه الكلامي التأثير الذي وجدته عند ديوش، لأن الضمير الجمعي الوطني كان كلما أراد أن يجعله يسمع منه - بصفته المتكلم الرئيسي - الرأي الموضوعي و العقلاني في مسائل المقاومة، يتهمه بالخيانة و الجبن فقد جاء في إحدى ملفوظاته الموجهة لاستفسارات ديوش قوله: "...الذين وضعوني على رأسهم تنكروا لي والذين وضعتهم باعوني. الأكثر من ذلك هم يكفرونني... يتهموني بالتقاعس عن الجهاد..."⁽¹⁾، و للإشارة لا ينبغي أن نعتقد أن حضور الأسقف وحده كان الكفيل في نجاح وصول الملفوظ إلى المستمع، بل هناك عناصر سياقية أخرى ساهمت في ذلك و من بينها المكان و الزمان، وكذا تغير الظرف و التكوين المقصدي المتمثل في فراسة الأمير بوجود شخصيات تتميز بقوة التمييز و حسن الاستماع، و لقد حقق الأمير من خلال الملفوظ السابق الذكر الانفصام عن قومه أهل هويته لا نبذا لهم و لكن ابتغاء إيقاظهم، و بالتالي ما لم تستطع الأنا أن تنجزه باللغة ضمن الجماعة التي تنتمي إليها استطاعت أن تنجزه بذات الآلية أي اللغة ضمن محيط غريب عن هويتها، و يتمثل في محيط الآخر، غير أن المقام كان خاليا من عنصر الحرية الذي يعد ركنا ركينا من التأسيس الهووي، و هو مقام للمنفى، و من كانت هذه حاله فهو مسلوب الحرية، أو قل إن فضاء الحرية و التعبير عنده يكاد يكون ضيقا أو حرجا كأنما يصعد إلى السماء كما عبّر عن ذلك القرآن الكريم⁽²⁾.

لقد حاولت شخصية الأمير أن تُظهر رؤاها حول قضايا الحرب و السلم ضمن مسرح الأحداث السردية لأجل إقناع الأطراف التابعة أو غير التابعة له بقصد العدول عن تحريك المعركة، أو بقصد الابتعاد عن هذا الخيار، و لكن الظروف المقامية كانت تقف في بعض الأحيان كالعوائق في طريق خروج البرنامج الحكائي سالما و ناجحا، و هذا ما كان يقع للأمير عبد القادر أثناء بزوغ مواجهة جديدة في السرد، فكان يترك الأمر إلى الشورى، ثم يمضي على

¹ الرواية، ص243.

² ينظر : سورة الأنعام 126.

إتمام الاتفاق الذي خرج به الأعيان بمثابتهم الممثلون لقبائلهم التي أعلنت الولاء لإمارة عبد القادر، و كان هؤلاء الأعيان يمثلون في بعض الأحيان العوائق، إذ كان الأمير يمتنع عن فرض رأيه على الرغم من أن الأحداث التي كانت تعقب الشورى تُصدِّقُ الرأيَ الأميري، و تخالف الرأي الشوري المتفق عليه، لذلك كانت شخصية الأمير تعمل على نفي الرأي الاندفاعي الذي تُعْضِدُهُ الشجاعة المتهورة من العالم التلفظي الداخلي الخاص بها، و بالمقابل تعمل على عدم بث هذا الأمر لتجنب تسلل جرثومة الفرقة في الصفوف، و هذه أشد ضررا عند الأمير من السير نحو رأي خاطئ و غير مصيب، و قد بدا من مآله الفشل و اللانجاح، و لقد عمل السارد على تكريس هذا الأمر على شاكلة: "نفي الأنا لأنها من ساحة الحضور الفعلي للأنث"⁽¹⁾ هذه الأخيرة محسوبة على المخاطب الفعلي المتمتع بالحضور المهيمن على يد الأمير ضمن الحياة السردية، و يسجل السارد ضمن هذا البرنامج الحكائي شكلا آخر من النفي الأنوي السليبي .

3.5.1- تألق الحضور المتعالي⁽²⁾ :

إنه النمط الثالث من المقامات، و تحاول من خلاله الشخصية أن ترتفع بكينونتها ضمن مقام التلفظ الذي يتم إنشائه من طرف السارد، و التعالي في هذا الموضع لا يُعنى به فك الارتباط مع الأطراف المحاورة، بحيث يُنشأ المتكلم تسييحا سلبيا حول منظموته الحوارية، الشيء الذي يؤدي به إلى إقحام الذات داخل حلقة عزلة رمزية، و بالتالي تنتفي من المقام أهم خاصية له وهي الالتقاء الحوارى التواصلى الذي يصنع المتكلم من خلاله محيط المقام بتشكيل الملابس المناسبة له، و إنما يأخذ التعالي الذاتي مفهوما مغايرا يتمثل في محاولة هذه الذات تمييز الخطاب الخاص بها بإبعاده عن التعلق ببقية خطابات الأطراف التي تملأ ساحة التلفظ، و نعي بالتعلق أي الإحساس بارتباط الكينونة الذاتية بكينونة الآخرين من حيث الوجود، و قد يصل التعلق إلى مرتبة الاستلزام نظرا للعلاقة التي ارتبطت بين الرعية والأمير عبد القادر الذي صار مسؤولا عنها بفعل قانون البيعة من جهة، و من حيث محاولة السعي نحو تملك مساحات كبيرة من الساحة التلفظية لأجل إلحاق الأثر بنفسية المخاطب من جهة أخرى، و تأخذ هذه العملية الصراعية صفة الرمزية والمجازية ضمن النص الروائي، حيث تدور وقائعها على الساحة الورقية، وكل

¹ عبد الواسع الحميري، ما الخطاب و كيف نخلله، ص122.

² ن. م. س، ص 223.

طرف يسعى من خلالها لتحقيق وجوده ضمن الفضاء الأكبر من الساحة التلفظية بقصد إعطاء القوة الإنجازية الكافية و المناسبة للملفوظات التي يتغيا إرسالها إلى السامع، و هذا الذي كان السارد يعمل على تكريسه على يد شخصية الأمير في جملة من البرامج الحكائية المتناثرة ضمن النص الروائي، و كنموذج على ذلك ما وقع في وقفة مواجه الشقيقين حيث وقف الحضور الأميري ضمن تحدي خطير أوقعه بين رأي القبائل بمحاربة الخارج عن الطاعة المدعو التيجاني ولد محمد الصغير في زاوية عين ماضي⁽¹⁾، و بين الرأي المخالف الذي قاده أخوه سيدي محمد السعيد مرابط أغريس، و القاضي بمحاولة إرجاع التيجاني عن رأيه و فتح مفاوضات معه، لأجل تلافي الصراع الدموي و الذي يحمل لواء خسارته على حسب أخ الأمير محمد السعيد أهل الأرض فقط بما فيهم الطرفان المتنازعان، و يتحصل العدو الحقيقي على النصر المهدى له من طرف المناوئين له، لقد استقبلت الدائرة الأميرية الفكرية رأيين يكادان يختلفان، و أخذت هذه الدائرة في تنفيذ الحثيات العامة للطرحين اللذين صنعا معا ساحة تلفظية جديدة، بعدما كانت هذه الساحة تحمل فقط الرأي القاضي بتدمير و دحر قوى زاوية أفلو⁽²⁾، و ما كان من الأمير إلا استعمال الحكمة في مثل هذه المواقف، بحيث أخذ يستمع للآراء المتعددة من الخلفاء الذين خرجوا معه إلى القتال، وقد ذهب معظمها إلى اختيار المواجهة العسكرية، و بالتالي تبادل الطرفان تسلم وظيفة الكلام، حيث يؤسس كل طرف من وراء ملفوظه لعملية التأثير في المخاطبين، و لقد عمل كل طرف على شحن الملفوظات المستعملة بجملة من التراكيب التي تمنح القوة الإنجازية الكافية لإيصال الملفوظ إلى السامعين، و كان على رأس الرأي القتالي مستشار الأمير ليون روش، الذي استعمل ملفوظا قويا تمثل في تذكير الأمير بين الحين و الآخر برسالة الإهانة التي تلقاها البريد الأميري من التيجاني مقدم-أي المسؤول و القائم بشؤونها- زاوية أفلو و هذه جملها: "عندما كنت سلطانا لم تكن أنت إلا غرا و لا أفهم ما الذي أتى بك إلي؟ ربما تظن بأنك أمام نساء لا حول هن و لا قوة، ستري أسود هذه المدينة التي لن تعود

¹ محمد الصغير بن سالم التيجاني من التيجانيين من أشرف المغرب، انتقل والده السيد أحمد في آخر المائتين بعد الألف من فاس إلى بني توجين أصحاب تاهرت و تاكدت من البربر إخوان بني زينان ملوك تلمسان، و بني مرين ملوك المغرب الأقصى..و اشتهر بعلمه و صلاحه و له كتاب الكناش، ينظر الحاشية الأولى: أديب حرب، التاريخ الإداري و العسكري للأمير عبد القادر، ج2، ص25 .

² أفلو منطقة برتبة دائرة تابعة إداريا لولاية الأغواط الواقعة بدورها في الجنوب الشرقي الجزائري .

لها"⁽¹⁾، و بالتالي كان يشعر الأمير عندما يذكره ليون روش بها بنوع من الإحباط النفسي، وكان يدفعه هذا إلى تغليب الحل التدميري رغم طبعه المسالم، و كان الطرف الذي يغلب الحل السلمي يستعمل بدوره خطابات تحمل قوة انجازها من المبادئ الإسلامية التي تشرّبها الأمير منذ تكوينه العلمي في زوايا التحصيل، و بالتالي حاول مصطفى بن التهامي و محمد السعيد و هما الممثلان الفعليان للحل السلمي أن يوصلا الرأي الذي يُغلب التفاوض إلى الساحة التلفظية الأميرية، و قد توسلا في سبيل تحقيق ذلك بملفوظات متعددة الدلالات تهدف في كليتها إلى التأثير على الأمير لأجل حمله على التراجع عن المواجهة الحربية، و عليه عمل التهامي على تذكير الأمير بالحالة التي آلت إليها البلاد جراء التوسع الاحتلالي للأرض العربية الجزائرية وبخاصة في اتجاه قسنطينة، أين يقف أحمد باي مقاوما حيث انتهى به الأمر مستسلما، و زاد التهامي على ذلك بملفوظا أكثر قوة في الانجاز من سابقه تمثل في قوله: "إنهم من ديننا يا سيدي، فلنمنحهم مخرجا على الأقل"⁽²⁾، و لكن خطابه لم يجد إلى الأمير منفذا، و بالتالي صار في عداد عداد الخطابات التي لم يحالفها التوفيق، و يواصل ابن التهامي المحاولة، و لكن هذه المرة يختار أن يضم خطابه إلى خطاب محمد السعيد أخ الأمير ليكون الخطاب موحدا و أكثر قوة في الانجاز، فأخذا يسردان عليه حالة التعب التي وصل إليه المقاتلون و بالتالي حاجتهم إلى الراحة صارت ضرورية، و اقترحا عليه أن يكونا المفاوضين المباشرين، فوافق الأمير وتحقق للملفوظ الذي غلب أصحابه السلم التوفيق و النجاح، و أسفرت المفاوضات على تجنب الحرب، و لكن ظلّ ملفوظ الإهانة الذي كان ليون روش يُذكر به الأمير بين الحين و الآخر يَرِنُ في أسماع الأمير حتى وجد له منفذا، فأعطى الأمير أوامره لليون روش بإلحاق الحرق و الدمار الشامل بالمدينة بقوله: "أنت تعرف ماذا بقي لك أن تفعل لم أكره مدينة في حياتي مثل هذا الوكر الملعون، حرقها لا يخسر الأمة شيئا"⁽³⁾، كان هذا بعد أن استفرغ الأمير جملة من القوى الداخلية و سخرها لأجل تحقيق

¹ الرواية، 264.

² الرواية، 272.

³ الرواية، 278.

تحقيق الحضور المتعالي على الخطابات التي كانت تحاول التسلل إلى داخل الساحة التلفزية التي أسستها إمارة عبد القادر⁽¹⁾.

1.3.5.1- جدول توضيحي لمسيرة الأحداث مع تحديد أنماط المقامات من خلال

مواقف الأمير:

الحضور المتعالي	الحضور التفاعلي الجدلي	تألق الحضور المتعالي
1- انضمام جملة من القبائل إلى صف الأمير، ص 114.	1- موقف الرفض الذي أبداه الأمير تجاه إعدام قاضي آرزو من طرف الأب ص 67-68-69. 2- فشل الأمير في الدفاع عن قبائل غرابة التي أبادها دوميشال، ص 112. 3- إقرار الأمير بقيادة دوميشال رغم إحراقه للمحاصيل و إبادته لقبائل غرابة، ص 118. 4- نجاح الأمير في تعامل مقايضة القمح بالسلاح و عدم نجاحه في تعامله مع دار لوسي، ص 125. 5- مواجهة الأمير للقبائل الموالية بمحادثتهم إلى الهدنة مع دوميشال لأجل تقوية الجيش. 6- إحساسه ببعده المسافة بينه و بين التحضر الفرنسي اثر خروجه لتأديب موسى الدرقاوي الذي ادعى أنه المخلص، ص 139. 7- مقارنة الأمير بين البطش بالبروتسنت وكذا نظيره بالخلفاء و بالعلماء في الأعصر	1- مراسلة ديوش للأمير بشأن إطلاق سراح ماسو زوج المرأة التي جاءته متوسلة إياه، و كذا الرد الأميري الدامغ الذي مفاده: الواجب على الأسقف ديوش الحديث عن كل الأسرى و ليس البعض، ص 56 2- تفضيل عبد القادر لقب الأمير بدل الألقاب الأخرى، ص 90. 3- إصدار الأمير لتعليمية تقضي بتوقيف الإغارة على القبائل، و كذا محاولة نشر بدّل ذلك ثقافة التوحد، و نُصَحُّه لأفراد العائلة بالتقليل من الإنفاق، ص 93-94. 4- إعلان الأمير للتقسيم الإداري الجديد، ص 119. 5- بسط الأمير للسيطرة على منطقة وهران الممتدة، ص 156. 6- استعادة تلمسان من طرف الأمير مقابل فتح ممرات العاصمة و ضواحيها لبيجو،

¹ دخل الأمير حصن عين ماضي في 12 يناير 1839، بعد حصار طويل، ينظر: أديب حرب، التاريخ العسكري و الإداري للأمير، أديب حرب، ص 32.

و معاينة الخونة من الكروغليين، ص217. 7- تأسيس الأمير لتكدامت العاصمة الثانية و محاولة جعلها للعلم و البارود و الكتب و الحصانة، ص250. 8- خروج الأمير لتأديب سلطان عين ماضي محمد ولد الصغير التيجاني، و فرض الحصار ثم دخول المدينة سلميا إثر وساطة مصطفى أخ الأمير ثم الأمر بدك و حرق بوشاية ليون روش المدينة. 270 إلى 275. 9- تأليف كتاب وشاح الكتائب الذي يضم القانون التنظيمي للجيش، ص173. 10- إبداع نظام الزمالة أي العاصمة المتنقلة من طرف الأمير، ص331. 11- يسمح الأمير بأسقف لمؤازرة السجناء الفرنسيين بطلب من ديوش، ص326. 12- نجاح حرق جيش ابن ملك المغرب الأمير محمد "العقون"⁽¹⁾ و اجتيازه لواد ملوية عبر بناء الجسر من ص440 إلى 455. 13- المجاهدة و المقاومة القانونية	الإسلامية، ص147. 8- اضطرار الأمير لمغادرة العاصمة معسكر اثر نقض القوات الفرنسية لمعاهدة دوميشال. ص169. 9- عسر الحال على الجيش الأميري من حيث النقص في التموين. 10- اعتراف الأمير لديوش بتموضع الجاهلية في ضمن الذات العربية، ص244. 11- تلقي الأمير لرفض سلطان عين ماضي للدخول تحت البيعة، ص254. 12- صعوبة إقناع الرعية بجدية تقليد التنظيم العسكري الفرنسي كما فعل الأجداد مع التنظيم الروماني و الفارسي، ص277. 13- احتقان تبعه إحساس بالإحباط من طرف الأمير لما أقدم عليه بن عراش من توقيع ملحق معاهدة التافنة، و اتفاق على الحرب من جديد، و كذا إقدام الجيش الفرنسي على تدمير المنشآت الأميرية ص300. 14- شعور الأمير بالإحباط نظرا للتدمير الذي لحق بكل ما له صلة بالعمران الذي سخر له الأمير الجهد الكبير، "ص349" وتزامن هذا بورود خبر إبادة دائرة أحد أشد المخلصين للأمير و هو ابن علال من طرف لاموسير أبو هراوة، ص360.	
---	---	--

¹ تعني كلمة "العقون" في الدارجة الجزائرية المتهور الذي لا يحسن تقدير الأشياء و بالتالي يكون مآله الفشل في كل المواقف، كما حدث لابن الملك المغربي و تنبأ له الأمير متعجبا بقوله: "عقون - agoun يسوق مصير أمة؟ الله يحفظ جيش السلطان من جنون هذا المصروع-الذي أصيب بمرض الصرع-" ص387، من الرواية.

التي أثرت بنيل الأمير لحريته هو و من معه، ثم اتجأه نحو تركيا ومنها إلى سوريا، من ص560 إلى آخر الرواية.	15- فشل محاولة الأمير لإقناع، ابن ملك المغرب للمشاركة معه في معركته ضد الجيش الفرنسي، وبالتالي حدوث الانهزام، ص386. 16- مخاطر حجة مر بما الأمير ضمن هذه المرحلة، بداية من سقوط قبائل العريبي، و كذا مكوثه سنة كاملة بعيدا عن الدائرة لأجل مساعدة بني سالم في بلاد القبائل، وكذا إنقاذه من طرف البوحميدي من كمين النقيب كامو، و أعظم من ذلك تخلص ابن التهامي من الأسرى في سيدي إبراهيم أثناء غياب الأمير، ص405. 17- وقوع الأمير بين فكي كماشة بين الفرنسيين و سلطان المغرب و كلُّ يطالب برأسه، فأين الحل؟ ص423. 18- رجوح كفة الاستسلام و بالتالي وقوع الأمير مع حاشيته في الأسر، من 500 إلى 525.	

2.3.5.1- تقريب بيانات الجدول:

يبين الجدول أعلاه مختلف المواقف التي شهدها الأمير خلال المسار الحكائي بداية من تلقيه البيعة من طرف أعيان القبائل التي كانت توالي أباه محي الدين، و وصولا إلى لحظة الحل التاريخي العقلائي، أي الاستسلام المشروط الذي اندفع إليه الأمير على أنه الخيار الوحيد والأوحد استراتيجيا، نظرا لجفاف منابع النصره سواء من بني جلدته الذين بايعوه أو من السلطان المغربي الذي تلقى منه الأمير الخذلان خوفا التهديد الذي تلقاه من الجيش الفرنسي، ولقد اعتمدنا في تصنيف المواقف على معيارية خاصة تمثلت في اختيار الأحداث التي شكلت منعطفات هامة في المسار الحكائي، و تجاوزنا الأحداث التي تبتعد من حيث علاقتها مع الأمير، و لقد احترمنا السير الحدثي الروائي رغم مخالفته للسير الحدثي للتاريخ الموضوعي، و بالتالي كنا

نتعمد إظهار الأحداث الإستباقية أي التي تظهر سابقة للتاريخ الموضوعي لها، و بالتالي فالملاحظ أن خانة الحضور المتعالي تكاد تكون فارغة إلا من حدث أو حدثين، أما الخانتين المتبقيتين فتحصلتا على نصيب وافر من أحداث السرد، و هذا يدل على القمة الصراعية التي وصل إليه الأمير عبد القادر، و كلما ازداد الصراع ازدادت معه مرتبة الشخصية الممثلة لهذا الصراع ارتقاءً و تأزماً، فما يكاد الأمير يخرج من مخنة حتى يواجه أخرى أشد منها، و مثال ذلك حينما فرغ من توحيد المقاطعات الثلاث تحت إمارة واحدة التيطري و معسكر و كذا تلمسان، إذ بموسى الدرقاوي يعلن الخروج و عدم الطاعة، و لم تتوقف هذه الحروقات طيلة مسيرة الإمارة الجهادية، و بالتالي تَنَم كثرة الأحداث الدالة على الجدل عن القوة النفسية التي كان يتميز بها الأمير عبد القادر، و الدليل اهتدأؤه إلى حل العاصمة المتنقلة أي الزمالة، و ينم كذلك عن كثرة الجبهات التي أعلنت المواجهة، كلٌ بدافع معين، فهناك من واجه بدافع فهمٍ قاصرٍ لما كان يقوم به الأمير مع الاحتلال كعقدة لمعاهدة دوميشال التي رأى فيها بعضهم موالاة للنصارى كموسى الدرقاوي و غيره من أهل الزوايا المتصوفة، و هناك من كان طامعاً في المنصب القيادي كمصطفى بن اسماعيل الذي لم يفلح في تحقيق غايته، و هناك من رأى في صدِّ الأمير عن السير حفاظاً على إمارته و ملكه كما حدث لسلطان المغرب الذي أرسل الجيوش لقتال عبد القادر، و هناك من التزم الصمت و عدم الحركة نظراً لعدم توفر الجانب الهووي بشكل قوي في دخيلة نفسه، و بالتالي يعتبر الفهم المنصب على الهوية في هذه التبدلات السياقية المحرك الأساسي للأمير، الشيء الذي أعطى للآخر بكل أطيافه انطباعاً غير ثابت عن الأمير تمثل فيما قاله السارد ناقلاً الحدث من باريس أين امتطى الأمير القطار متوجهاً إلى الميناء ثم إلى تركيا فقد ظهر: "تارة مقاوماً شرساً، و ملاكاً، و روحانياً، و تارة مارداً قاتلاً و دمويًا يتلذذ بدماء خصومه الذين يذيقهم كل ألوان التعذيب.." ⁽¹⁾، و أراد ديبوش أن يجعل الأمير في صفه، ولكن ما استطاع نظراً لشعلة الهوية الإسلامية الحقيقية المتقدة في داخله، و التي كان يذكيها حبُّه بل و كَهْه بالحرية إذ قال لديوش: "أحتاج إلى قليل من الحرية فقط" ⁽²⁾، و لقد عبَّر الأسقف في أواخر السرد

¹ الرواية، ص 570. و لقد ورد ملفوظ يشابه دلالياً الملفوظ ذاته: "هذا الرجل الذي تحدثت عنه الصحافة، أحياناً كمسيح جديد و في أحيان أخرى كشيطان رجيح، لا يرتاح إلا إذا ارتوى بالدم. الملاك الذي حام على قلوب المرضى فداوها و القاتل الذي استل سكينه ذات ليلة لبتزع أكثر من مائة رقبة كانت تنتظر نجدة لم تصلها أبداً". الرواية، ص 554.

² الرواية، ص 556.

بملفوظ يبين ما كان يتمتع به الأمير فقال: "كنت أريده مسيحياً يخدم رسالة المسيح العالية، وكنت مستعداً أن أرحل بصحبته إلى البابا لتعميده ليصير واحداً منا.. لكنه كان أقوى من أن يكون رجل دين واحد، فقد كان مسلماً في قلب كل المعارك الكبرى لمصلحة الإنسان"⁽¹⁾، نعم كان مسلماً منتتماً إلى دينه الإسلامي الذي أبان له الكيفيات المتعددة و الناجحة في التعامل مع الوجود بوجه عام.

6.1- هل نص كتاب الأمير يحقق الانتماء إلى موجة الرواية الهوية⁽²⁾؟

إن الإجابة على السؤال تقتضي منا محاولة التعرف على الخصائص التي تميزت بها الرواية الجديدة التي أنتجت لنا عبر التجريب نمطاً أدبياً يتناول مسائل الهوية، و لقد لقي المصطلح السابق الذكر- التجريب- من بعض النقاد عدم الرضا بحجة عدم اتخاذ الروائيين العرب لتقاليد واضحة في الكتابة السردية، و بالتالي اتباع ما جادت به المستجدات الآتية من الغرب المهتم روائيوه. بموجة التجريب في الرواية، و لقد نتج عن ذلك تعدد في المصطلحات فمنهم من دعاها بالنصوص المفتوحة، و منهم من دعاها الرواية الشيعية، إلى غير ذلك من المسميات⁽³⁾، ويدخل نص كتاب الأمير ضمن هذه الموجة من الرواية، و سنحاول ملاحظة مدى تكريس هذه الخصائص من طرف الروائي على الساحة الورقية، و للإشارة فإن تناولنا لهذا العنصر مرّده تواجد اللمسة الهوية في رواية **كتاب الأمير**، و تظهرت هذه اللمسة من خلال التناول المعقّق لمتعلقات الذات⁽⁴⁾ التي تمثل خزان عناصر الهوية، و عليه سيكون التركيز الشديد على الخصائص القرية جدا من التكريس الهوي في النص.

إن نزوع الروائي العربي إلى التجديد مرده البحث عن أشكال مغايرة في التعبير، بعدما أدت الأشكال السابقة دورها في مراحل تاريخية روائية سابقة، و هذا لا يعتبر تنكراً من

¹ الرواية، ص 615.

⁽²⁾ المصطلح على أساس ربط النص الروائي بموضوع الكتابة و ليس على أساس الإضافة النقدية، و سيأتي الحديث أكثر وضوحاً حينما نتطرق إلى جانب التاريخ في السرد، و الذي يعتبر أمارة هذا النمط من الروايات.

⁽³⁾ ينظر: جهاد عطا نعيصة، في مشكلات السرد الروائي، ص 27.

⁽⁴⁾ استعمال مصطلح الذات هنا على سبيل المحافظة على معجمية البحث، و للإشارة يوجد من استعمال مرادفات أخرى لهذا المصطلح و هذا مرّده الاستخدام العشوائية للمصطلح، و بالتالي فالأسلم استخدام البديل الواضح أي هوية، ينظر لتفصيل أكثر، اللغة و الهوية، جون جوزيف، الصفحات: 27، 28، 29.

الروائيين الجدد للسابق من التقاليد، بل هو من باب النهوض بالجنس الروائي إلى مراتب النمو الكتابي بحيث يكون مساهماً للمستجدات التي تطرأ في الأوساط النقدية استجابة للجدد في السرديات، و يعتبر واسني الأعرج من الذين اعتنقوا هذه الموجة التجريبية الجديدة، و قد ظهر ذلك في نصوصه و بخاصة المتأخرة منها، و لا سيما نص كتاب الأمير الذي أفرغ فيه الروائي ما تحصل له من ممارسة مريرة في الكتابة السردية ذات اللسانيين العربي و الفرنسي، متابعا سيره مع المد التجريبي الذي اعتنقه عن إيمان منه بأنه يمنح قدرا معتبرا من الحرية التي تعتبر العامل الهام في الممارسة الروائية، إذن يلتجأ واسني الأعرج إلى الجنس التاريخي كي يسلط الضوء على المساحات التي لم يوليها علمُ التاريخ أهمية، و قد تميزت هذه الرواية بميزات جعلت الكتابات النقدية تعتبرها من الموجة التجريبية الجديدة، و من بينها التمرد على القوالب المألوفة و محاولة خلق أشكال جديدة مناسبة للتيمة الروائية⁽¹⁾، و لقد اختار صاحب كتاب الأمير نظاما كتابيا لم يُمارس من قبل في المجال السردية، و هو نظام الوقفات ذي الأصل الصوفي، إذ تعني الوقفة: "الحبس بين مقامين، و ذلك لعدم استيفاء لحقوق المقام"⁽²⁾ الذي خرج منه، و عدم استحقاق دخوله في المقام الأعلى، فكأنه في التجاذب بينهما"⁽³⁾ وهذا الذي وقع للأمير و سيقع له في بقية البرامج السردية، ولأنه بطل الرواية فقد تشبّع في الواقع السردية و الفعلي على حد سواء بالثقافة الإسلامية التي كانت تُمنح مبادئها لطلبة العلم في معاهد خاصة تدعى عند سكان المغرب العربي بالزوايا⁽⁴⁾، و هذه الأخيرة كانت تتميز بنظامها الصارم في تلقين أساليب التعامل في الحياة و كذا طرق التكوين الثقافي المتميز بالروح الإسلامية ذات الضوابط الصارمة، و قد أعلنا الراوي في غير مرة عن الرحلة العلمية التي خاضها الأمير الشاب و يخوضها أقرانه، وكانت هذه بمثابة الثقافة التي تسري آنذاك في المجتمع، فنجد من شواهد صحة هذا الطرح ما جاء ضمن برنامج سردي احتوى على حدثٍ تنفيذ حكم الإعدام في حق أحمد بن طاهر قاضي آرزو، إذ ورد على لسان الأمير ملفوظا عبّر عن خلاله عن تأثره لما لحق بالمعدوم فقال: "كان

(1) ينظر: شكري العزيز الماضي، أنماط الرواية العربية الجديدة، ص 16.

(2) ينظر مسألة المقام العرفاني عند الصوفية في كتاب: عبد الواسع الحميري، ما الخطاب و كيف نخله، ص 56.

(3) الشريف الجرجاني، التعريفات، ص 212.

(4) ينظر: أبو عمران الشيخ، قضايا الثقافة و التاريخ، منشورات ثالة، الأبيار، الجزائر، ط 2/ 2006. ص 101.

الله يرحمه، أستاذي و مرجعي في الفقه"⁽¹⁾ و بالتالي لم يُعْضُ الساردُ الطرف عن تسجيل هذه الملاحظة التي تدل على حرص الآباء آنذاك على تكوين الأبناء في الزوايا أي المعاهد العلمية المتخصصة في العلوم اللغوية و الشرعية⁽²⁾، و إلى جانب ما ذكر من ميزات التجديد التجريبي هناك خاصية التباين الذي يطبع أعمال الروائي، فلا نكاد نقف على التشابه بين عمليين، إذ تخضع هذه الأعمال لعملية ترجمة الغموض الذي يعترى الروائي بمثابته أحد الممثلين للنخبة في المجتمع، و يكمن هذا الغموض في الحركية التي تعمل على تسيير الواقع، و التي تنذر بذوبان الذات الفردية و الجماعية على حد السواء⁽³⁾، و بالتالي تُسارع نصوصٌ روائية من مثل كتاب الأمير إلى إيقاف هذا الذوبان لعلها تظفر ببقية مما ترك التاريخ للهوية الوطنية، انطلاقاً من أنها تظل: "عالماً من الإمكان أو فسحة من الحرية"⁽⁴⁾، و تظل خاضعة كذلك لكل ما تحقق للمرء من نجاحات و ما أصيب به من إخفاقات، و تسعى الرواية التجريبية ذات المنحى الهووي إلى إيجاد قارئ نوعي يتصف بميزة مراقبة الأحداث⁽⁵⁾ لا متابعتها فقط، و يتصف كذلك باستعداده للاندماج في صيرورة البرامج السردية التي تتأسس من خلال ترتيب يناسب النص الروائي فحسب، و لا يلتفت إلى الأشكال التي سبقته إلى الظهور، و نجد لهذا الأمر بعض التحقق في كتاب الأمير، إذ نلفي التغييب الذاتي المتعمد من طرف الروائي ضمن نصه، فلا نجد إلا الشخصيات المشاركة في حبك الأحداث ممارسةً لدور الراوي الذي يتقمص الأشكال المختلفة و التي تضطلع بعمل الحكيم، و من أمثال هؤلاء المضطلعون بدور الراوي جون موبى خادم الأسقف ديبوش و الأسقف نفسه و حتى شخصية الأمير ذاتها⁽⁶⁾... و تتيح بذلك عملية التغييب التغييب الذاتي من طرف الروائي ضمن نصه للقارئ السبيل للارتقاء بالشكل المباشر في الأحداث الروائية بحيث يرتفع ذلك الحرج الذي غالباً ما يصيب القارئ حين يطالع نصاً روائياً في ميزان نص كتاب الأمير، فيصبح مشاركاً في السرد بدلاً من أن يقف قارئاً فقط، لأن

(1) الرواية، ص70.

(2) للإطلاع على مراحل التكوين العلمي للأمير ينظر: هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص39 و ما بعدها.

(3) ينظر: شكري عزيز الماضي، أنماط الرواية العربية الجديدة، ص14.

(4) علي حرب، خطاب الهوية، الدر العربية للعلوم ناشرون و منشورات الاختلاف، الجزائر، بيروت، لبنان، ط2/

1429هـ-2008م. ص207.

(5) ينظر: شكري العزيز ماضي، أنماط الرواية العربية الجديدة، ص16.

(6) ينظر: نموذج على اضطلاع جون موبى بدور الراوي ضمن الصفحات: من39 حتى 42.

الرواية لا تسلم مفاتيح الدخول إليها إلا للقارئ الذي وعى أهمية التيمة التي تطرحها هذه الرواية، و بالتالي فنص الأمير يمارس على القارئ نوعا من الإرغام الطوعي في الدخول إلى ساحة الحكيم كي يتم له اكتشاف المحددات التي ترسم هوية الفرد داخل المجتمع الإنساني بوجه عام، و هوية المنتمي إلى رقعة جغرافية تولى الأمير عبد القادر إمارتها باقتراح أبيه محي الدين و باختيار القبائل المبيعة، و في نص كتاب الأمير يذيع السارد هذا الأمر فيجعله من البدايات الهامة للنص الروائي، إذ نطالع في الرواية ما قرره الأب ضمن مونولوج صنعه الروائي يقول فيه محي الدين: "كنت أتمنى أن أعفيه من رؤية هذا المشهد-أي مشهد إعدام قاضي آرزو- و لكن ليكن، هذا سيعجل من بيعته"⁽¹⁾، و لم يمر من عمر السرد إلا القليل حتى وافقت القبائل التي كانت تحت خلافة محي الدين على ما كان يدور في خلد الأب⁽²⁾، و سُمعت زغاريد النساء تعبيرا عن الفرح.

7.1- تعالق التاريخي بالروائي في الرواية:

تكاد تكون الرواية قيد الدرس نصا إبداعيا من صنف متفرد، إذ نجد فيه تكريسا لمكونين أساسيين للرواية ذات المنحى التاريخي، و هما المكون التخيلي و المكون التاريخي، ولقد عمل الروائي على تقسيم أدوار هذين المكونين ضمن المساحة الكتابية على حسب ما تمليه ملاسبات الأحداث التي ينقلها السرد اللغوي للقارئ، و على حسب ما يمليه الراوي المتعدد الأصوات من برامج سردية تظهر في شكل تضافي⁽³⁾ جمالي، و بالتالي افتكت الرواية من الساحة القرائية مكانتها ومزلتها التي كان ينبغي أن تناط بها، إذ إن الرواية التاريخية تأخذ من الروائي الجهد المضاعف في إنشائها، لأن عملية إقحام العنصر التخيلي المتميز بنوع من المجازية في الطرح الكتابي ضمن التاريخي المتميز بالصرامة في النقل الحدثي تبدو عسيرة في تشكيلها، وذلك يعود إلى التنازع الذي يحدث في ذهن الروائي خلال الكتابة، و كأن العملية تشبه تناسا ذا مخاض عسير، و يمكننا إدراك هذا الأمر من خلال إدراك طبيعة كل من التخيلي و كذا

⁽¹⁾ الرواية، ص 68.

⁽²⁾ ينظر: الرواية، ص 90.

⁽³⁾ ينظر: المصطلح في: أحمد يوسف، الأدبي و الإيديولوجي في رواية التسعينات، أعمال الملتقى الخامس، المركز الجامعي بسعيدة 16/15/2008، منشورات دار الأديب، وهران، الجزائر. ص 240.

طبيعة التاريخي، و بالتالي محاولة العمل من خلالها على رسم المسارات التي اتخذتها تظاهرات الهوية، إذن ما طبيعة كل منهما؟

1.7.1 - طبيعة التاريخي والتخييلي في نص كتاب الأمير:

يمنح أمرتو إيكو Umberto eco مصطلح العنصر التخييلي مرادفاً آخر و هو : النصي نسبة إلى النص الإبداعي الذي يشكل حلقة الوصل بين الإنسان و العالم، و يقر بفضل التخييلي على النصي فيقول: "إن العوالم النصية تقتات من العوالم التخييلية"⁽¹⁾، و بالتالي حينما يلتجأ الكاتب الروائي إلى السرد التاريخي فهو يرسم حدوداً تتشابك مع ما يفعله المؤرخ من إخضاع ما حققه الإنسان في صراعاته مع الإنسان الآخر خلال التاريخ لكتابة تنحو الجدية المفرطة في وضع الأحداث، لأن التاريخ علم إنساني يعمل على بناء الحقيقة بناءً على الوثيقة⁽²⁾، لذلك نجد أن الخطاب التاريخي يخضع لسلطة الزمن التسجيلية التي تؤطره، أما طبيعة الزمن في الخطاب الروائي فتتميز بالدائرية، وعليه تتخذ مساحة الرؤية في كلا الحقلين مساراً متبايناً، فهي أحادية ضمن التاريخي نظراً للهيمنة التي تفرضها خطية الأحداث على الدارس، و هي إلى جانب ذلك ذات طابع متعدد ضمن الروائي/التخييلي، نظراً لتعدد القراءات التي تطرحها الشخصيات من خلال البرامج السردية⁽³⁾، ففي نص الأمير تتحدث الشخصيات بحرية مطلقة عن الرؤى التي تحملها على وجه الاعتقاد بالرغم من الخطية التي اتخذها السرد في عرض الأحداث الروائية المزوجة بنظيرتها التاريخية، و يلمس القارئ ذلك في الحوارات المتعددة التي صنعتها الحبكة الروائية، و بخاصة حينما كان البرنامج السردى يفتح على قصر أمبواز، المنفى الإكراهي للأمير، حيث أثّرت مسائل تاريخية تحملت قراءات كثيرة مثل قضية ملحق وثيقة معاهدة دو ميشال التي أثبت الأمير عبد القادر صحتها على أساس أنها أُعتبرت من الوثائق المزورة من طرف سلطة الاحتلال الممثلة في شخص دوميشال⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ عبد الله إبراهيم، السردية العربية، ص 62.

⁽²⁾ إلياس خوري، التاريخي و الإنشائي، مجلة النقد الأدبي، ع 63، شتاء، ربيع 2004، ص 280.

⁽³⁾ ينظر: سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ص 266.

⁽⁴⁾ الرواية، ص 146. ينظر: تفصيل المراسلات التي تدل على ذلك ضمن: Abdelkader et les relations entre les français et les arabes en Afrique d'insén, Ed. Anep, 2001, pp44-45-46.

إن القراءة التي تتراءى للمطلع على نص كتاب الأمير تفضي إلى الصعوبة المنهجية التي يواجهها الدارس الذي يروم تكريس عملية الفصل بين ما هو تاريخي خطي و ما هو روائي تخيلي، و ذلك يعود إلى التقنية العالية التي تعتمل داخل ذهن الكاتب و التي يصعب علينا إدراكها، إذ يصور الروائي الإنسان المتقمص لدور الشخصية في الرواية بشكله العادي و هو يدي الردود اللغوية البسيطة بوصفه المستقبل المفوظ غيره، أو حتى صانعا للمفوظاته ضمن مناخ التعاملات المتعددة، و قد صارت هذه التعاملات اللغوية بعد ذلك محل اهتمام من الدارسين لعلم النفس، ولكن بقيت النتائج التي توصلت إليها مجرد مقاربات تمنح للدارس بعض الومضات عن الكيفية التي صنع بها هذا الإنسان هذه الردود، و فيما سبق ذكره من البحث من الآليات التي توصل بها علم النفس المعرفي إلى الولوج في حيثيات المنهج التداولي لخير شاهد على هذا الطرح، و عليه فإن الروائي يُحسب في المجتمع على الطبقة المتميزة ذات الحضور الكثيف في شتى مجالات الحياة، و ذلك لأنه يحمل بين يديه وسيلة فعالة في ترجمة الأفكار لبقية الفئات الاجتماعية، و تتمثل هذه الوسيلة في إتقانه لأسلوب الحكيم، و كذا تحويله إلى سرد روائي يُمتع القارئ و يوسع من دائرة وعيه، و بالتالي تنطرح في خضم هذه القضية مسألة الكتابة التاريخية ضمن الجنس الروائي، حيث يمارس الكاتب من خلالها لعبة المزج بين المتخيل/ الروائي و الواقعي / التاريخي/ الموضوعي لكي يتحصل على نص روائي يُصنف نقديا ضمن خانة الرواية التاريخية ذات اللسان العربي التي باتت تبحث عن السير نحو المستقبل عوض الركون في الماضي (1).

لقد أشرنا فيما سبق إلى الأهمية التي يكتسيها التاريخ في تحديد قسّمات الهوية لدى الفرد النخبوي أو ذلك المحسوب على الطبقة التي تمارس التفكير، انطلاقا من التقاطع الذي يحدث بين مساحتي التاريخ و الزمن، و بالتالي تتشكل الهوية من تلاقي ثلاثية الوجود و الزمان و السرد التي تتغيا طريقا تأويليا لترجمة التجربة الإنسانية، و ذلك بواسطة تفعيل آلية التخيل (2)، هذه الأخيرة تستمد تفاصيلها من فضاء المتخيل الذي يُعد: "بناء ذهنيا و منتوجا

(1) ينظر: فيصل دراج، الرواية و تأويل التاريخ، ص52. و يرى الكاتب أن الزمن الغربي مفتوح أما الزمن العربي فموصد.

(2) ينظر: حاتم الورفلي، بول ريكور الهوية و السرد، ص7.

فكرياً⁽¹⁾ و يقابل هذا المتخيل ما يسمى بالواقع الذي يُعد معطى حقيقياً و موضوعياً و يشكل: "الحيز الذي تُنسج فيه مجموعة من العلاقات تحدد هوية المرحلة التاريخية، و تشهد على الوضع الحضاري"⁽²⁾، و يتعلق المتخيل مع التاريخي في أنهما يحلان على بعضهما البعض، و تظهر صور هذه الإحالة في جنس الرواية الذي يترابط عضوياً مع التاريخ تارة في شكل حميمي، وتارة أخرى في صورة التنكر لأحداث التاريخ⁽³⁾، حيث نجد واسيني يمارس هذين الموقفين و قد أسقط هذه الممارسة على الواقع الورقي مترجماً ذلك على لسان الشخصيات، ففي الشكل الحميمي نلغي النقل الأمين لجملة الأحداث بالتواريخ التي وقعت فيها و المسجلة في المصادر المهمة بالتاريخ، مثل المعاهدة التي عقدها بطل الرواية مع الجنرال دوميشال سنة 1834⁽⁴⁾ من شهر ماي، و هو تحديد زمني يقع ضمن محل اتفاق دراسي التاريخ، أما التعبير بموقف التنكر للأحداث فهو مناط فضاء المتخيل ضمن برامج السرد في الرواية التي صارت: "أداة بحث، بها يمكن استكشاف العالم و التاريخ و الإنسان... حتى أصبح العالم بأجمعه موضوعها"⁽⁵⁾، و يفتح بذلك الروائي لنفسه قدراً معتبراً من الحرية، التي تعتبر شرطاً أساسياً في بناء المتخيل عن طريق تفعيل حوارية باختين بين الشخصيات في الرواية، الشيء الذي يخلق عالماً تخيلياً متعدد الأصوات: "فيضع الروائي على لسان الشخصيات كلاماً و الشخصية تقترح عليه كلاماً لا يرضى عنه"⁽⁶⁾، انطلاقاً من أن احتكار الكلام شيء مذموم في العالم الروائي و التعدد مطلوب وممدوح إذ: "لا حرية بلا تعدد و لا تعدد بلا حرية"⁽⁷⁾، و يواجه مُنشئ السرد في ذات الوقت مسؤولية تحرير القارئ من ضيق العالم كي يسهل عليه الرحيل إلى العالم المتخيل⁽⁸⁾ حيث

(1) حسن خمري، المتخيل و السلطة، ص43.

(2) حسن خمري، المتخيل و السلطة، ص49.

(3) التاريخية الزمن الروائي رديف التاريخ الموضوعي لذلك لا يستطيع الروائي التملص منه، ينظر: عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، ص210.

(4) ينظر الرواية، ص122، و ينظر كذلك لأجل الربط بين الحدث التاريخي و الحدث الروائي: شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر: أبو القاسم سعد الله، ص300 .

(5) عبد الله إبراهيم، تقنيات السرد ووظائفه السرد و التمثيل السرد في الرواية العربية المعاصرة.

(6) فيصل دراج، الرواية و تأويل التاريخ، المركز الثقافي العربي، ط1، 2004، ص31.

(7) فيصل دراج، الرواية و تأويل التاريخ، ص31.

(8) ينظر: مشري بن خليفة، سلطة النص، منشورات الاختلاف، جويلية 2000، ص96.

يستطيع أن يقرأ مع واسيني الأعرج ضمن كتاب الأمير المساحات التي عجز التاريخ على نقلها بقصد أو بغير قصد، و إذا عدنا إلى طرح مرتاض⁽¹⁾ الذي مفاده أن الرواية الجديدة تمارس نبذ القيم و الكفر بالزمان و التنكر للتاريخ، فإن المسألة لا ينبغي أن تفهم من ظاهرها على أساس ممارسة التزييف و التحريف على الأحداث التي صنعت التاريخ الرسمي للأمة، و لكن الرواية تمارس هذا التنكر بالطريقة الايجابية، بمعنى أنها لا تقبل الجاهز من الفضاء التاريخي، و لكن تمارس عليه النقد و القراءة اللذين يفضيان بالروائي إلى الدخول إلى المناطق التي تجاوزها الدرس التاريخي، و إلا ما الفائدة المرجوة من إعادة كتابة التاريخ على صورته المعهودة، وتتوسل الرواية كي تحقق ذلك المادة السردية المنشأة كي تمنح للمتخيل امتدادا في الزمن، و بالتالي يتسنى للروائي باستعمال هذا المتخيل رفع الحصانة و العصمة عن المادة التاريخية، و تصبح هذه الأخيرة: "استعارة لشيء انتفى و صار ذاكرة"⁽²⁾، كما حدث للتاريخ الذي سجلته رواية كتاب الأمير، و لكن المتخيل في هذه الحالة يمارس على هذه الذاكرة فعل الإحياء حيث يبعث السرد الذي يشكله الروائي حياة جديدة لهذا التاريخ المنسية حقائقه، و التي هي محل بحث وفضول من طرف القارئ الذي يقاسم نص كتاب الأمير هويته المطروحة أجزاءها ضمن الوقفات التي اختارها الروائي لجعلها هيكل تنظيم البرامج السردية، و يتخذ الكاتب الروائي خلال طرحه لهذه البرامج تقنية المحافظة على المخطات التي يضبطها الزمن الخطي، و بالتالي نجد كتاب الأمير نصا مفعما بالتواريخ التي تتعلق بأحداث شارك في صنعها الأمير أو كان هو صانعها، و ذلك انطلاقا من أن التاريخ يصنعه المنتصرون على حد زعم شخصية بواسوني الذي شارك الأمير زيارته للمتحف في مدينة باريس، حيث كان له رأي على اللوحة التي صورت سقوط الزمالة في معركة واد الهبرة، و بالتالي استفهم الأمير الضابط المرافق له بواسوني عن سبب تركيزهم على إخفاء تاريخ الهزائم، و الكشف عن تاريخ الانتصارات فكان الرد من بواسوني قائلاً: "أنت تعلم يا سيدي، المنتصر هو الذي يحدد دائما شكل الأشياء"⁽³⁾.

(1) ينظر: عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، ص62.

(2) واسيني الأعرج، الرواية التاريخية و أوهام الحقيقة، ندوة الرواية والتاريخ، مهرجان الدوحة 14، ص10.

(3) الرواية، ص583.

إن الرواية ظهرت كجنس أدبي لتتجاوز السائد من المظاهر الأدبية، و هذه ميزة أصحاب الرواية الجديدة، فهم يمارسون الكتابة ضمن الرواية التاريخية لأجل إقحام نصوصهم في معركة: "انتزاع شرعية الخطاب"⁽¹⁾، فيصير التاريخي في الرواية محكوما بمنطق غير المنطق الذي كان يبدو به في كتب التأريخ، بحيث يتبدى هذا المنطق ضمن النقطة الصفر التي يستهل بها الكاتب نصه ثم تسير العملية السردية إلى مصير التماهي داخل المتخيل، لقد كانت نقطة الصفر في كتاب الأمير هي النهاية التي أعلن عنها الراوي في البداية و المتمثلة في تاريخ إعادة رفاة الأسقف ديبوش إلى مدينة الجزائر⁽²⁾ نزولا عند وصيته التي تركها لخدمه جون موبى، و لا غرابة في ذلك إذ إن النص الذي بين أيدينا لم ييدي طاعةً للسلطة التاريخية لمجرد أن الموضوع التيمي للرواية ظهر في معظمه مستمدا من تاريخ الأمير الحقيقي الذي دونه أهل الاختصاص، و بالتالي أظهر الروائي نوعا من التكسير للخطية الزمنية، و قد استسلمت هذه الأخيرة للخطية الخاضعة للمتخيل الروائي الذي يتغيا من وراء ذلك ممارسة هدم الزمني في الرواية ثم إعادة تشكيكه من جديد لاكتشاف ما خفي من سيرة رجل جعل الأحداث تسير على منوال آمن به و سار عليه، إنه الطريق الذي ما اختاره بنفسه و لكن ضرورة الراهن أقحمته في الحدث فسار على منواله، فنجدته بعد رجوعه من قتال الاحتلال الاسباني المتحالف مع الأتراك بوهران أعلن له الأب محي الدين أنه يعتزم تسليمه مقاليد قيادة الرعية، و لم يكن من موقف الابن الوفي إلا الطاعة⁽³⁾ برده البسيط الداريجي: "ربي يُجيبُ الخير"⁽⁴⁾، و هذا ديدنه في الواقع بشقية الفعلي منه و الروائي، إذن ابتدأ الأمير الحياة الروائية بغير ما كان يتمناه، لقد أحب الكتب و في خلال السير السردى سوف يتخلى عنها لبعض الوقت، أو سوف يُقسم قسمةً ضيزى⁽⁵⁾ الوقت الذي كان مخصصا للتوحيدى و ابن خلدون مع مهمات القيادة و الجهاد و الذود على الحمى، وهكذا يعطي الراوي الضوء الأخضر لعبد القادر للولوج إلى مسرح الرواية بصفة من يتسلم

⁽¹⁾ واسيني الأعرج، المتخيل الروائي و التاريخ: ندوة الرواية والتاريخ، مهرجان الدوحة 14، ص50.

⁽²⁾ ينظر: الرواية، ص9، والتاريخ هو 8 جويلية 1864.

⁽³⁾ ينظر: الرواية، ص9، والتاريخ هو 8 جويلية 1864.

⁽⁴⁾ ينظر: الرواية، ص84. الدراجي نسبة إلى الدارحة أي لغة التخاطب اليومي في المنطقة الغربية في معسكر.

⁽⁵⁾ ضيزى من سورة النجم الآية 22، و تعني القسمة غير العادلة و الجائرة، ينظر: صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ج3، شركة شهاب، البلدة-الجزائر، د، ت، ص275.

زمام الحكم بعد الأب، و لكن عبد القادر اختار أن يُلقب بالأمير لا بالسلطان⁽¹⁾، و كان لرأيه احتراماً و طاعة، و سار لقب الأمير على السنة كل من اتخذ حديثاً عن تاريخ الجزائر المقاوم، و بالتالي صارت عملية صياغة الأحداث الروائية موكلة إلى الشخصيات السردية لأن: "معنى التاريخ يظهر في مآل الشخصيات و ليس في إيراد تاريخ محدد في الرواية"⁽²⁾ على أساس أن الإنسان يظل هو الصانع للحدث و الحدث صانعه، و كلا من العمليتين تساهمان في البناء الهووي، و يظهر تكاملها بشكل جيد في النص السردى لأن: "التاريخ رواية وقعت، و الرواية تاريخ قابل للوقوع"⁽³⁾.

تناول المبحث أعلاه جملة المواقف الحضورية للأمير من خلال وقفات الروائي، التي حاولنا أن نظهر من خلالها الصلاية التي اتصفت بها هذه الشخصية التاريخية، ومدى تكريس هذه الصفة ومناقب أخرى في الفضاء التخيلي السردى، و لقد كانت استعانتنا بالجدول أعلاه لأجل توضيح توزيع المواقف ضمن الكتابة الروائية، وكانت النتيجة أن هذه الأخيرة وازنت بين الكفتين، و ذلك من خلال تسليط الضوء على حوارات الأسقف ديبوش مع الأمير و التي غطت أغلب مراحل الأحداث التاريخية ضمن التخييل الروائي، و عليه سناول السير مع التحليل السردى التداولي مع تشكيل الفصل الثالث ذي الطبيعة التطبيقية، و ذلك بتناول عنصر هام يتمثل في الأنماط الهووية التي تظهت من خلال النص السردى.

⁽¹⁾ ينظر: الرواية، ص 85.

⁽²⁾ فيصل دراج، الرواية و تأويل التاريخ، ص 167.

⁽³⁾ فيصل دراج، الرواية و تأويل التاريخ، ص 167.

الفصل الثالث:

أنماط الهوية من خلال السرد في نص كتاب الأمير

1.1- أنماط الهوية ضمن الهيكل السردية.

2.1- قراءة الأنماط الهوية في نص كتاب الأمير على ضوء تصنيف

هشت. MICHAEL HEKHT

3.1 - المنحى الحجاجي في منظومة التلفظ الأميرية.

4.1- الهوية المشتركة.

توطئة:

يتواصل البحث مع الفصل الثالث الذي نرومه الأخير إذا لم يطرأ على الكتابة التغير الذي يدفعنا على الاضافة، و عليه سنحاول ضمن هذا القسم من البحث أن نتعرض إلى الأنماط الهوائية التي سجلت الظهور في الساحة الكتابية لرواية كتاب الأمير انطلاقاً من أن: "تاريخ الرواية تاريخ كشف.. مقرون بالاستكشاف.. لأنها أعادت الاعتبار لهوية طواها النسيان"⁽¹⁾، و قد اتخذ مفهوم الهوية أبعاداً عميقة ضمن البحث العلمي العام، فقد اكتسح في بحر بضعة عقود مجمل العلوم الإنسانية، و اقتحم جميع المجالات، و صار موضة علمية بمواصفات الحل السحري لجميع الإشكاليات حيث تدافعت العلوم الإنسانية من انثروبولوجيا وسوسيولوجيا و سيكولوجيا و علوم سياسية لاستلهاام المفهوم رغبة في الظفر بنصيب من النجاح الذي حققه في مقارنة آليات التغير و ميكانيزمات حل المشاكل، و فرض هذا المفهوم نفسه حتى غدا بمثابة التخريج العجيب لكل القضايا العالقة في المجتمع، وذلك في تحليل حقائق جد متنوعة مثل علم نفس الأفراد، وتحولات الأديان، والعلاقات بين النساء والرجال، وموضوعات المهن، والحياة الأسرية، والهجرة، والصراعات العرقية، و يشهد على ذلك ما يكتب من افتتاحيات كثيرة عن هذا الموضوع، و لكن كل هذا الخضم من الخطابات المتنوعة التي ألفت بأشرعتها لمعالجة مسألة الأنماط الهوائية لم يتوصل البعض الكبير منها إلى التمكن من المناطق العميقة، إذ بولوج الخطاب الأدبي ساحة المعارك التحليلية صارت هذه المناطق تتبدى للقارئ بالشيء اليسير بشكل أقرب إلى الواضح، و يرجع السبب في ذلك إلى اعتبار الخطاب الأدبي ذي المنحى السردى التاريخي الوحيد الذي يستطيع الاضطلاع بهذا الدور، نظراً لتوفره على آليات فعالة للولوج إلى المناطق المسكوت عنها من طرف الذين تُنسب إليهم الموضوعية ضمن خطابهم التاريخي، و يتميز الخطاب الأدبي السردى على وجه الخصوص بميزة تؤهله لفعل ذلك، و تتمثل في نزوعه عن الثبوتية و التقريرية بل تجاوزها: "إلى جوهر المجالات الوجودية

⁽¹⁾ عبد الله إبراهيم، السردية العربية، ص73.

المكبوتة في الأنوات الفردية و الجماعية و المنتجة، بالضرورة إلى تنوع سياقي للخطاب الأدبي تدل على تفرد و تشعبه إن حسب لغته و جنسه⁽¹⁾.

1.1- أنماط الهوية ضمن الهيكلية السردية :

المقصود بالأنماط الهوية الأنواع التي تؤدي دور تصنيفات ضمن حقل الهوية المنطرحة كقيمات كبرى في الرواية، ولهذه الأنواع قدرة تشاركية في عملية تحريك البرامج السردية التي تعمل على إنشاء منظومة خطابية يستمد من خلالها القارئ المطلع جملةً من القراءات التي يشبع بها فهمه المعرفي، و هذا يجري على المستويين من القراء إن على القارئ العادي، أو على المستوى النوعي ضمن البحوث الأكاديمية مثلما هو جار ضمن بحثنا المتواضع، و للإشارة فقد تناولنا ضمن الفصل النظري أهم العناصر التي تعمل على تشكيل الهوية لدى الفرد، و بالتالي تظهرت في النص السردى المتناول هذه التشكيلات المتعددة من خلال تفصيلات السرد، و سيعمل البحث على استكشاف أماكن ورودها في كتاب الأمير بواسطة تناول جملة التليونات اللغوية التلفظية التي تهندس على شكل حوارات بين الشخصيات.

تعددت المعايير التي تحدد تصنيف الهويات المختلفة، و في ظل هذا التعدد حاولنا أن نختار المعيار الذي نستطيع من خلاله أن نجتمع معظم الأنواع التي سجلت حضورها في الرواية، و بالتالي اهتدينا إلى التصنيف الذي وضعه ميكائيل هشت Michael Hecht الباحث في علم النفس الاجتماعى، و قد بنى هشت أنماط الهوية على أساس تصنيفي متميز، إذ ينطلق مقترحه من الذات الممثلة للخلفية الفكرية لجوهر الهوية، بخلاف معظم التصنيفات التي تعرضت للآثار الناجمة عن الهوية، و اتخذت دراسة هشت الذات منطلقاً لها و ظلت تسبح في فضاءها، و قبل الخوض في سرد أنماط هذا الدارس ينبغي أن نشير إلى أن نص كتاب الأمير لم يعص في التخيل حتى ليظن القارئ أنه يقرأ رواية خيالية، كما أنه لم يسرف في تحميل الرواية من السرد التاريخي أكثر مما تطيق حتى ليظن القارئ أنه إزاء نص تاريخي موضوعي، بل ظل هذا النص يراوح بين

⁽¹⁾ البشير بويجرة، إستراتيجية وعي الذات الأنا و الآخر ، مداخلات و إبداعات الأسبوع الثقافي لولاية معسكر بالجزائر، من 19 إلى 23 أبريل 2007، منشورات الأديب ، وهران، الجزائر، ص50.

فضائي التخيّل الروائي و التوثيق التاريخي⁽¹⁾ الموضوعي، و قد ساهم هذا في تقمص الرواية الشكل السردى للخطاب الذي ينبذ الإحراجات التي تصادفها بقية الخطابات⁽²⁾.

لقد صنف هشت أنماط الهوية إلى أربعة أقسام، معتمدا المعيار التأصيلي في التكون الهوىي، بحيث لم يعلق هذه الأصناف بالفضاءات التي تستمد منها الهوية حضورها الفعلي ضمن عالم المجردات لدى الإنسان كالتاريخ و القومية مثلا، بل كان اعتماده على ربط التصنيف بمفاهيم التواصل، هذا الأخير الذي يعتبر نقطة التقاء المنهج التداولي مع بقية الحقول المعرفية الأخرى التي تروم هذه الحقول دراسة الآليات التي يتم بها هذا التواصل بين الإنسان والآخر الذي يقابله، و كذا تحديد المراحل الذي يمر عبرها، و محاولة التمكن من الطرق التي تضمن فرص الوصول للخطاب الرسائل إلى السامع، الشيء الذي يجعل المضطلع بعملية التكلم العملي يدفع ملفوظاته إلى سلوك سبيل النجاح في التوصيل و الابتعاد عن الفشل، و تتمثل هذه الأنماط في أربع عناصر:

1.1.1- الهوية الشخصية: و المقصود بها التحديد المفهومي الذي يكونه الفرد عن ذاته الشخصية، و بالتالي يكرس الفرد بهذا التحديد شكل وجوده ضمن المجتمع الذي يعيش فيه، و يضبط هذا الفرد الفاعل في مجتمعه من خلال هذا النمط: " ماهية الشخصية الذي يظن أنها تمثل وجوده"⁽³⁾، و يتكون للمرء من خلال هذا النمط الهوىي الشعور و الإحساس بوحداية هذه الذات و تفردّها عن غيرها، و في مقابل ذلك يتكون لديه كذلك الشعور بالانسجام و التآلف مع إنّيّتها⁽⁴⁾.

2.1.1- الهوية المُعبر عنها: و تعمل الذات من خلال هذا النمط على البحث عن السبل التي تُعبر به عن نفسها أمام الآخرين، و ذلك لأنها تعتبر نفسها ذلك الجزء الذي يُكوّن بالإضافة إلى الأجزاء الأخرى اللبنة الفكرية الأساسية للمجتمع، و تسعى الذات كذلك

⁽¹⁾ ينظر: عبد الله إبراهيم، السرد و الاعتراف و الهوية، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص89، لقد أخذت الفكرة من المصدر المشار إليه مع إضافة تغيير بسيط تطلّبه عنصر البحث.

⁽²⁾ ينظر: حاتم الورفلي، الهوية و السرد، ص12.

⁽³⁾ جون جوزيف، اللغة و الهوية، تر: عبد النور خراقي، ص118.

⁽⁴⁾ ينظر: حاتم الورفلي، الهوية و السرد، ص19.

إلى تحديد هويتها بعد أن أرسى دعائم المعرفة الداخلية، و تتغيا من وراء تكريس هذا النمط الهوي إلى تقديم الوفاء إلى ثقافتها الأصلية أمام العناصر التي يظهرها فضاء الآخر المتشكل ضمن البرنامج السردى⁽¹⁾ و المتموضع في ثنايا الرواية في شكل تحديات تتقصد إدخال الأنا في دائرة الاستلاب.

قد يلتبس من خلال النمطين المذكورين سابقا الأمر فيتظاهر التشابه بينهما، و لكن بتدقيق قرائي بسيطٍ تبين جملة من الفروق بينهما، و أولها أن الهوية الشخصية هي التي تظهر من خلال التصور الذاتي، أما المُعبرُ عنها فهي التي تظهر من خلال تصور الآخرين للذات، أو بتعبير مفاده: مَنْ أنا في تصور الغير؟ لأن الهوية تتحدد بالنسبة إلى الغير⁽²⁾، أما الفرق الثاني فيظهر في افتقار الهوية المُعبرِ عنها إلى المؤول النوعي، لأننا نلغي تواجدَه ضمن الهوية الشخصية، و بالتالي تتعدد الرؤى من الأطراف الأخرى للذات، و قد تتطابق هذه الرؤى لتصورات الذات لذاتها و قد تختلف معها، و بالمقابل تسير هذه الرؤى إلى التوحد في زاوية واضحة المعالم حينما يتعلق الأمر بالهوية الشخصية لوجود المؤول الواحد و تفرد و تميزه⁽³⁾، و قد اعتبر هشت الذات هي المنتج و المستهلك لهوياتها المعبر عنها، في إشارة منه إلى الأولوية التي تكتسبها الهوية الشخصية على أنها تأتي أولا ثم تأتي المُعبرُ عنها بعدها في المرتبة الثانية.

3.1.1- الهوية العلائقية: يمنح هشت هذا النمط مرتبة مغايرة على غرار النمطين

السابقين، ذلك لأن العلائقية قد تكون الجزء من أحدهما، و لا يمكن أن تأخذ مرتبتهما أو أن تكون بديلا لهما، و تظهر ملامح هذا النمط بوضوح حينما يتم التطرق إلى التعريف بهوية ذات معينة بالاستناد إلى الاختلاف عن الذات الأخرى، و بالتالي تصبح الهوية الناتجة عن التحليل منتمية إلى النمط الثاني و إلى العلائقية، باعتبارها مشتركة، و يمكننا أن نضيف إلى ذلك أن العلائقية تتميز بصفة التبادلية، أي بمعنى أن الذات تعمل على إنشاء مساحة تتبادل من خلالها المكونات التي تحتاجها لبناء أسسها مع الهويات الأخرى، بفعل عمليتي التأثير و التأثير اللتين تنتجان من خلال الاضطلاع بعملية ممارسة الكلام اللغوي بين الأطراف الصانعة للحوار.

(1) ينظر: شرف الدين ماحدولين، الفتنة و الآخر، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2012، ص33.

(2) ينظر: ، علي حرب خطاب الهوية، ص52.

(3) ينظر: هذه الفروق ضمن: جون جوزيف، اللغة و الهوية، ص119-120.

4.1.1- الهوية المشتركة⁽¹⁾: تعتمد الذات في تكوين هذا النمط على الهويات ذات

المناح المتميز و الذي يسود الجماعة التي تتعايش معها هذه الذات، و قد تصبح بذلك الآراء الصادرة عن هذه الجماعة بمثابة المعتقدات التي تدخل ضمن البرمجة الفكرية للفرد ضمن دحيته، و بالتالي تتمظهر هذه المعتقدات في شكل سلوكيات فعلية تُلحق التأثير بالأفراد إيجاباً أو سلباً على حسب التركيبة المقصدية التي يُكِنُّها المتكلم في ذاته، و التي تعمل اللغة بأساليبها على الكشف عنها و فضحها، و لكن تنطرح أمام هشت إشكالية مفادها: هل كل ما تعتمد الجماعة عليه في التكوين الداخلي الفكري الخاص بها ينبغي أن يكون محل الاعتقاد للفرد أيا كان نمط انتمائه؟ و يربط جون جوزيف هذه المسألة بعملية التلقي عند المستمع، بحيث يضطر المتلقي أن يضع اختياره ضمن أحد الخيارين: أولهما أن يُلحق فهمه بالمعنى الذي يود المتكلم تكوينه في نفسية المستمع بواسطة التلويينات الأسلوبية في اللغة، أما الثاني فيتمثل في ميل المستمع إلى تحليله الذاتي و ذلك بإخضاع المعنى الملفوظي للثقافة الخاصة بالفرد، و بالتالي تتخذ الذات ضمن هذا المضمار طريقاً واحداً إما أن تكون تابعة للهويات التي تؤمن بها الجماعة التي ينتمي إليها بشكل إطلاقي، أو العمل على إبداء الرفض و محاولة الشك في هذه الجماعة من حيث الهويات التي تتخذها كلبنات تكوينية لها، و في خضم هذا الجدل في تحديد كيفية تعامل الذات مع الهويات المشتركة ارتأى الكاتب أن يتخذ الحل الوسط والمتمثل في أن: "المعنى الذي يتوخاه المؤلف و استجابة القارئ على حد سواء، لهما وظيفة في تحديد المعنى، و الشيء نفسه ينطبق على الهوية: فكل من هوية الذات و الهويات التي يشكلها الآخرون لنا تسعى إلى صنع هويتنا الحقيقية"⁽²⁾.

⁽¹⁾ أنماط الهوية مأخوذة بالتصرف من : اللغة والهوية، لجون جوزيف، الصفحات: 118-119-120-121.

⁽²⁾ اللغة و الهوية، جون جوزيف، ص121.

2.1- قراءة الأنماط الهوية في نص كتاب الأمير على ضوء تصنيف

هشت Michael Hecht :

حينما ينشغل البحث بسرد العناصر النظرية المتعلقة بالموضوع المتناول يتراءى لمنجز البحث أن أمر تطبيق هذه المسائل النظرية يبدو يسيراً، بناء على اعتقاد مفاده أن الجزء النظري هو الذي يشكل المرحلة الحاسمة، هذا ما يقال أثناء الانهماك في تحرير المسائل النظرية، أما حينما ينتقل الباحث إلى مرحلة التطبيق الفعلي للطروحات النظرية فإن الإشكالات - بمعنى الصعوبات - تبدأ في نسج خيوطها، من حيث التفكير في الكيفيات التي يتوسلها الباحث لأجل إسقاط ما توصل إليه من خلال القراءات ضمن المسائل النظرية، وهذا الذي سنصادفه خلال البحث عن الأنماط التي تمثل بناء الهوية ضمن نص كتاب الأمير، ولقد التجأنا إلى تصنيف هشت للهوية على أساس أنه ينزع إلى التجريد النظري الذي يساعدنا على تجميع أكبر عدد من الأنماط الهوية و التي اتخذت لها شكل التيمات الكبرى في الرواية ليسهل علينا تناولها، و لو اعتمدنا التقسيمات الشائعة بالنظر إلى المكونات الهوية كالتاريخ مثلاً فنقول هوية تاريخية، أو كالدين فنقول هوية دينية إلى غير ذلك..، ففي هذه الحال سنضطر إلى عدم التعرض إلى أنماط لا تبدو إلا في النص الروائي على أنها تنتمي إلى التجربة الواسينية⁽¹⁾ التي تبوّأت مرتبةً ضمن موجة الرواية التجريبية، هذه الأخيرة يعمل أصحابها على تسجيل التشكيلات الهوية ضمن مساحة التخيل التي تعتبر الأرضية المناسبة لنشوء الهوية الذاتية، وكذا المناسبة لترعرعها بله تميزها و تفردتها، الشيء الذي يعطيها الضوء الأخضر لأجل الولوج ضمن سلم المفاهيم الإنسانية، و قد أشار نادر كاظم إلى هذه المسألة من جانب ارتباط الهوية بفضاء التخيل، على أساس أن الهوية هي قرينة تشكل الجماعات في أوليتها أي ضمن بداياتها التأصيلية، و عليه فإن هذا الشكل يعتمد على معيارين الأول يوصف بالايجابية، و ذلك باعتماد الهوية على خصوصياتها بدون عقد المقارنة مع الطرف الذي يمثل الآخريّة، أما المعيار الثاني فالهوية تعمل ضمنه على تشكيل تميزها بالاعتماد على مدى اختلافها عن الآخرين، و بالتالي تصبح الهوية حاملةً لصفة الواقعية المتخيّلة

⁽¹⁾ نسبة إلى كاتب الرواية واسيني الأعرج.

التي تتعد عن الحقيقة الموضوعية الواقعية الثابتة⁽¹⁾، و لقد نظر علي حرب إلى هذه القضية بالرأي الثاني، أي أن التكون الهوي لا يتشكل إلا ضمن المساحة التي تجمع الأنا مع الآخر، بحيث وصل يقينه إلى أن: "الآخر حاضر في الذات بقدر ما هو غائب عنها، و قريب بقدر ما هو بعيد...و أن لا تشابه بإطلاق و لا تباين بإطلاق"⁽²⁾.

1.2.1- رصد فضاء الهوية الشخصية:

ينطلق تتبع البحث لهذا النمط من الهوية من فرضية مفادها أحقية حيابة و تملك كل فرد في أي مجتمع لهوية مستقلة، على أساس أن محاولة إقحام الهوية ضمن الحركة التاريخية للمجتمع من طرف هذا الفرد تنطلق من الإيمان بأن الهوية تمثل إنتاجا مجتمعيا لا معطى⁽³⁾ بعيدا عن التقديس قريب من العقلنة⁽⁴⁾، و يبدأ تكوينها من الذات التي تمثل مركز التفاعلات غير المرئية و التي تعمل على إنتاج ما يسمى بالخلفية الفكرية، هذه الأخيرة تتمثل في المزيج الداخلي المنتظم لمختلف التلويحات القرائية المستمدة من مدرستي الحياة و الكتب، و التي خلقت في الرواية ذاتا متأملة عملت على تأسيس نموذج معرفي بديل يحدد هويتها الفكرية⁽⁵⁾، و يبدأ التحديد الهوي للشخصية بتسجيلها باسم العلم الذي عُرفت به على مدار التاريخ، و هذا شأن نص كتاب الأمير الذي توسل فيه كاتبه تعليق الشخصيات بأسمائها الحقيقية، فبعد القادر ابن محي الدين هو الاسم الحقيقي للشخصية التي وقفت مقاومةً لفرنسا الاحتلالية في الجزائر مدة طويلة، و كذا ديوش هو الأسقف الذي ربط علاقة الصداقة مع الأمير حتى امتدت إلى قصر أمبواز بفرنسا حيث المنفى الأميري، و هكذا أغلب الشخصيات تظهت في الرواية بأسمائها الحقيقية، الشيء

⁽¹⁾ ينظر: نادر كاظم، الهويات بين التحريك السردى و التشكيل الإيديولوجي، نزوى، العدد33، سنة 2009.

⁽²⁾ ينظر: عبد السلام أقلامون الرواية و التاريخ، ص114.

⁽³⁾ Martina Avanza et Gilles Laferté *Dépasser la « construction des identités* Genèses 61 *»* P135. décembre 2005 « L'identité est un construit pas un donné »

⁽⁴⁾ تتعدد مقاربات الهوية على حسب المرجعيات الفكرية و الثقافية و الخلفيات الإيديولوجية و السياقات التاريخية و غيرها، فنجد البعض يقرأ الهوية بمنظور تقديسي بعيدا عن الفهم العقلاني للتاريخ وهذا الطرح هو الذي سيتكرس في الخطاب السردى الأميري ضمن نص كتاب الأمير، و الذي سيحاول التحليل تبينه في لاحق البحث، ينظر المنطلقات الثلاث لفهم الهوية ضمن: ندوة البلاغة العربية، سؤال الهوية و آفاق المنهج، جامعة أم القرى، مصر العربية، ط1، 1433هـ، 2012م، ص209-210.

⁽⁵⁾ ينظر: عبد الله الزهراني و آخرون، ندوة البلاغة العربية سؤال الهوية و آفاق المنهج، ص449.

الذي يُقوي ظهورها الهوي في البرامج السردية لأن اسم العلم: "هو الذي يعين الشخصية ويحدد طبيعتها، و يبين جوهرها و يجعلها معروفة و فردية"⁽¹⁾ و في السرد التخيلي: "يعكس الاسم الشخصي الشخصية الروائية بشكل دلالي و مرئي بكل أبعادها الدلالية و الاجتماعية والفردية"⁽²⁾، و نلمس هذا التقديس المُستحق للهوية من خلال نص كتاب الأمير، إذ عمل صاحبه على نشر الفضاء الديمقراطي متخذا إياه كوسيلة للتكريس، هذا الفضاء الذي تجد من خلاله الشخصيات فسحة الحرية الذي عبرت من خلاله عن قناعاتها، و نعين في هذا الإطار فصلا بين المنظور الروائي و منظور الكاتب ضمن البرامج السردية، و بالتالي يسمح هذا بتقديم نماذج من شخوص الحياة و أفكارها و أصواتها، و تعكس الرواية بذلك العينات الواقعية المكونة للمجتمع، راسمة ديمقراطية حكاية تستمد معينها من ديمقراطية واقعية⁽³⁾.

تتوزع تظاهرات الهوية الشخصية في النص الروائي على الوقفات التي اختارها المؤلف لأجل تنضيد عمله، و تطرح الرواية من خلال النمط الشخصي ما تميزت به شخصية الأمير دون غيرها بمثابقتها الفاعل الرئيسي في حبك البرامج السردية، و لقد أبدت هذه الشخصية من أول دخول إلى الرواية ما كانت تُكِنُّه من أفكار و آراء و وجهات نظر حول القضايا التي سادت تلك الفترة العصبية من تاريخ الجزائر، إذ بمجرد رجوع الأمير من مهمة عسكرية قتالية تأديبية لبعض القبائل أبدى امتعاضه الشديد تجاه حكم الإعدام⁽⁴⁾ الذي أصدرته السلطة العليا المتمثلة في الوالد الخليفة محي الدين في حق قاضي آرزو، ولقد شاهد عبد القادر الفارس الواقعة و هي ما تزال جارية في مسرح الحياة الفعلية، لذا كان تعبيره عن هويته الشخصية أقرب إلى التصريح أبعد منه إلى التلميح، الشيء الذي دعا الخليفة الوالد إلى الإحساس بذلك و بالتالي راح يبحث ضمن معرفته الذاتية عن أسلوب كلامي يخاطب به ابنه

⁽¹⁾ جميل حمداوي، سيماء اسم العلم الشخصي في الرواية العربية، موقع المظلة إبداع و نقد. www.reditt.digg.blog.

⁽²⁾ جميل حمداوي، سيماء اسم العلم الشخصي في الرواية العربية، موقع المظلة إبداع و نقد. www.reditt.digg.blog.

⁽³⁾ خطاب الهوية، علي حرب، ص43.

⁽⁴⁾ هناك كتاب آخرون يقولون بعكس ذلك أي أن الأمير عبد القادر هو الذي استقدم القاضي بن طاهر و أقام عليه حكم الإعدام بحجة تعامله مع النصارى المحتلين، ينظر: Abdelkader et les relation entre les français et les arabes, A.V.dinesen, ed.ANEP, Alger, p40. « ..Il le fut amener ben Tahar a mascara ou, après plusieurs mois de détention, celui-ci fut finalement étranglé. »

الذي كان يُعده لمستقبل القيادة، فما كان منه إلا التفتيش في القراءات التي نهل منها ثقافة الوالد و ثقافة الابن على حد سواء، و قد اهتدى محي الدين إلى مخاطبة الابن بما قرأه عن ابن خلدون فقال له: "يجب أن لا تسمح للخيانة أن تنبت في دارك و أنت في بداية مشوارك.... تذكر كلام أستاذك ابن خلدون جيدا، العصبية⁽¹⁾ هي التوفيق بين العشائر بالشعور العضوي"⁽²⁾، و لما سمع الأمير المستقبلي ما سمعه من أبيه حتى تحقق الأثر الفعلي للملفوظ فيه acte perlocutoire، و تمثل في ركون نفسه إلى الوقوف عند بعض المحطات الثقافية ضمن حياته العلمية التي أمضاها في زوايا-أي المعاهد التعليمية- العلم، و لم يكن من الأمير إلا إعمال الفكر فيما ذكره الوالد عن ابن خلدون، فراح يتساءل عن نزوع صاحب المقدمة إلى هذا الرأي فقال في حديث نفسي داخلي: "هل كان ابن خلدون غبيا إلى هذا الحد الذي يعمي فيه بصره و بصيرته؟ لا اعتقد. هناك شيء في المجتمع الذي درسه ما يبرر موقفه"⁽³⁾ نعم قد يكون هذا الشيء متحققا ضمن الوجود المعرفي الخلدوني و قد لا يكون، على أساس أن الوالد اعتمد في إصدار فتواه بالإعدام على ما تحصل له من قراءات فقهية و كذا قراءات تاريخية متنوعة، هذه الأخيرة كان ابن خلدون هو المنتقى منها كي يتم موضعه ضمن المقام الاستشهادي و الحجاجي⁽⁴⁾ الذي عمل على تكوينه السارد بمعية شخصية الوالد الممثل للسلطة الآمرة، و التي توسلت التركيب اللساني القوي لأجل تحقيق النجاح للفعل الكلامي، ولقد كان اعتبارنا لموقف الأمير الراض للإعدام على أنه من بنات أفكار هويته الشخصية، بناء على السياق الذي تضمن طرفي الحوار في البرنامج السردى، و تجدر الإشارة ضمن هذا العنصر أن الهوية الشخصية ليست من المفاهيم التي تعين بواسطة تعبير لغوي محدد كالذي نتوسله لأجل تحديد دلالة أي مصطلح نقدي أدبي، و بالتالي النمط الشخصي و غيره من الأنماط التي سيتم الحديث عنها في هذا البحث، تضارع كلها الكلمات الجامعة المانعة التي تتعين عبر جملة من

⁽¹⁾ ينظر تفاصيل مفيدة عن العصبية الخلدونية ضمن: جاسم سلطان، الفكر الاستراتيجي في فهم التاريخ، مؤسسة أم القرى للترجمة و التوزيع، ط1، 2005، ص28-48.

⁽²⁾ الرواية، ص72.

⁽³⁾ الرواية، ص74.

⁽⁴⁾ المقصود بالمقام السياق الذي صنعه الوالد من خلال المخاطبة التي جرت بينه و بين الطالب الفارس عبد القادر، ينظر الرواية، ص64 حتى ص74.

التصرفات و الأفعال الصادرة من جهة معينة، و تتمثل هذه الجهة في الشخصية المثلثة للصوت الذي يعمل على صياغة شكله كل من الروائي و السارد على حد سواء، و كذا الشخصية بما تمثله من حضور داخل الفضاء السردى للرواية، إذن ينبغي أن نضع في الحسبان أن الحديث عن الهوية من حيث الأنماط المحددة سابقا هو حديث تجريدي يقترب إلى المفاهيم الفلسفية، لأجل ذلك تمثل الشخصية في الرواية جملة من الهويات بدل هوية واحدة، و لكنها تعمل بشكل متكامل في إبراز الفرد من حيث وجوده الفعلي ضمن مجتمعه أو ضمن احتكاكه مع الآخرين ممن يمثلون الآخرة المتميزة، كما هو الشأن عند الأمير عبد القادر أو عند الأسقف ديوش. بمثابة الفاعلان الرئيسيان في النص الروائي، إذ إن كل منهما كان ينظر إلى الهوية على أنها الحقيقة التي تسعى الأطراف السردية إلى إدراكها، وقد أضاف السارد بمعية شخصية الأمير بعدا آخر للهوية تمثل في ذلك: "الميكانزم الفعال في خلق الجدلية الوجودية بين الذات الجزائرية و بين المحيط و الكيانات المتقاطعة معها عبر العصور و الأزمنة"⁽¹⁾.

لا يستطيع الفرد في المجتمع أن يظهر بجزء من هويته أو بجزئين أو أكثر، لأن الهوية تكتل من الأجزاء كلها، فهي كالعبادة التي لا تثبت إلا عبر ممارسة الفرد لجملة من الأوامر والنواهي الواردة في القرآن الكريم و السنة عندنا نحن المسلمين مثلا، و يلتجأ الفرد لأجل إظهار هذا التكتل ذي الصفة التجريدية إلى إخراجه في شكله الفعلي إلى التكريس الكلي لا الجزئي للسلوكات، و بالتالي الحديث عن الهوية هو حديث عن الهويات، هوية وطنية، و هوية قومية، و هوية دينية، و هوية ثقافية⁽²⁾ إلى جانب الأجزاء التي يكتسبها المرء من خلال ممارسة صيرورته في الحياة، و قد تمثلت هذه الأجزاء في أشكال متباينة وضحتها البشير بويجرة في قوله: "هوية المدنية و مرجعياتها و مؤشراتهما، و هوية اللغة الفرنسية و دثار الآخر بها حضاريا و فكريا وأيديولوجيا في مقابل هوية اللغة العربية"⁽³⁾، ولقد استطاعت اللغة السردية التي بنى أساليبها الروائي أن تُظهرَ هذه التباينات في شكل متناثر عبر وقفات نص كتاب الأمير، الذي تَجَسَّدَ من

⁽¹⁾ البشير بويجرة، إستراتيجية وعي الذات الأنا و الآخر، بحث في سردية. مداخلات و إبداعات الأسبوع الثقافي لولاية معسكر بالجزائر، من 19 إلى 23 أبريل 2007، منشورات دار الأديب ، وهران، الجزائر، ص49.

⁽²⁾ ينظر الهوية و الاندماج القومي ، حيدر إبراهيم علي، موقع مركز التنوير المعرفي، <http://www.tanweer.sd>

⁽³⁾ البشير بويجرة، إستراتيجية وعي الذات الأنا و الآخر، بحث في سردية، مصدر سابق، ص51.

خلاله تفعيل الوعي الداخلي لدى الأمير، و المتوافق آليا مع النمط الشخصي للهوية، لأن هذه الأخيرة لا تترسخ ضمن الواقع الشخصي للفرد إلا بتوافر شرط الوعي بها، أي يتمكن الفرد ذاته من القواعد التي تبني هذه الهوية و كذا التعرف على السبل التي ينبغي سلوكها لأجل تحقيق وجودها بالقوة، و يعتبر الوعي بالهوية رديف ما يسمى الإيمان بها، و كذا الاعتقاد في جدية وجودها، و إلا بدا الأمر و كأنه تجربة في الحياة سرعان ما يطويها الزمن، و يعمل الوعي في الفرد عمل المهمة التي تدفع هذا الفرد إلى استسهال الصعب، لأن الإثبات الهووي هو نوع من المواجهة العسيرة و بخاصة إذا كانت هذه المواجهة منطلقة من الذات الفردية للإنسان، وهذا حال عبد القادر الفارس الطالب الحذق الجاد و الفاهم و الواعي لما قرأه على حصير الزوايا العلمية، و هو الذي حُمِّل الإمارة و لمّا يبلغْ بعدُ العمرَ الذي يؤهله لذلك، إذن ينبغي أن يرافق الوعي الهوية⁽¹⁾ في مسألة التحديد المفهومي، هذا الوعي بالكيونة الهوائية عملت شخصية الأمير على تكريسه ضمن الحياة الورقية في كتاب الأمير، واضعةً في ذهنها أن حقيقة الهوية تبقى غير مُدْرَكَةٍ في جوهرها، و ما تَمَّت معرفته عن هذه الهوية ما هي إلا تاريخيةٌ لأشكال هذا الإدراك⁽²⁾ إلى اللحظة التي يتم استكمال الإدراك الكلي و يمكن تمثيل هذه المسألة بالشكل التالي:

المخططات السردية ضمن برامج الرواية = أشكال إدراك الهوية

مواجهة الداخل المتخلف و الآخر المتحضر و المتغطرس.

الذات —————> حقيقة الهوية⁽³⁾

إعمال الوعي الذاتي

⁽¹⁾ البشير بويجرة، إستراتيجية وعي الذات الأنا و الآخر، بحث في سردية، مرجع سابق، ص50.

⁽²⁾ آليات إنتاج النص الروائي، عبد اللطيف محفوظ، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت-لبنان-منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1/ 1429هـ-2008م، ص165.

⁽³⁾ الشكل من اجتهاد البحث.

يوضح الشكل البياني أعلاه السعي الذي تبذله الذات من أجل تحقيق التغيير على قدر الزاد الثقافي المتحقق لها، من خلال التمازج الذي يحصل لها بين العالم الداخلي و العالم الخارجي، فالأول يتمثل في مجموع الأحاسيس و المشاعر و التصورات الخاصة بكل ذات حول العالم، أما العالم الخارجي فيتمثل في المعطى المدرك بواسطة المعرفة المسبقة به⁽¹⁾، و للعالم الأول القدرة على تحديد عناصر العالم الثاني، و لقد انطلقت شخصية الأمير فور تنصيبها رسميا كخليفة للوالد الذي كان يشغل السلطة العليا صوب تحديد اللقب الذي ينبغي لها، على أن يكون موافقا للحمولة الفكرية التي تحتزنها و الموافقة لقناعاتها، و بالتالي اختار عبد القادر أن يُنادى بالأمير دون السلطان ابتغاء للتميز و التفرد الذاتي، و اتقاء للشبهة التي قد تعطي فرصا اعتقادية وهمية لأطراف أخرى، على أن عبد القادر يريد أن يعلن نفسه حاكما على الجهة المغربية بوجه شمولي، و قد تحدث السارد عن هذا الأمر بشكل أكثر من تصريح، حيث امتازت لغته بالمباشرة التي لا تدعو إلى التأويلات في فهمها فقال: " في مساء اليوم نفسه و قبل أن تنطفئ الشمس وراء سهل أغريس، أعلن عبد القادر سلطانا و أميرا للمؤمنين"⁽²⁾، و قد تعالت هتافات القبائل بالموافقة على ذلك مهللة: " الله أكبر. الله أكبر. عبد القادر سلطاننا..."⁽³⁾.

لقد تقيدت الشخصية الأميرية باتباع المسلك الواقعي في صنع الأفعال عبر الكلام اللغوي المتمظهر في شكل تصريح علي، تمثل في حوارات الأمير مع بقية الشخصيات، واتخذت شخصية الأمير الأحاديث النفسية المتميزة بالتعبير التلمحي المتواري أسلوبيا كوسيلة لتحقيق ذلك، و لقد عمل الراوي على استخراج هذه الأحاديث من العمق الذاتي للأمير لكي يستعملها فيما بعد ضمن المتن الروائي، و يعبر الشكلاان العلي و المتواري عن الخلفية الثقافية التي تشكل أرضية الهوية الشخصية عن وجهين لعملة واحدة نتج عنهما المسلك الواقعي الذي سلكه الأمير و الذي تميز بشيء من الزئبقية، نظرا للتسارع الذي عرفته الأحداث ضمن كتاب الأمير، و بخاصة ما تأسس من وقائع تاريخية اضطلعت الرواية بتسجيلها بلغة السرد التخيلي،

⁽¹⁾ ينظر: عبد اللطيف محفوظ، آليات إنتاج النص الروائي، ص166. ليس من العالم الخارجي الأشياء المحسوسة فقط، بل الأشياء الرمزية كاللغة و الدين و الأيديولوجيات... ينظر نفس المصدر، ص167.

⁽²⁾ الرواية، ص89.

⁽³⁾ الرواية، ص89.

ولقد تناول عبد اللطيف محفوظ هذا الواقع الذي تنتجه الرواية و اقترح أن يُدعى **بالمبتدي**⁽¹⁾ بدل مصطلح **الواقع**، على أساس أن الأحداث ضمن الرواية تظل تعترتها حالة التغير الدائمة، إذ نجد الأمير عبد القادر يعبر في السرد الروائي عن رؤاه الشخصية بين الحين و الآخر حينما تناح له فرصة التعبير، و كان الأمير كلما أراد أن يشرع في إحداث التغيير في التركيبة الاجتماعية للجماعة التي ينتمي إليها يختار آلية التعبير بالأحاديث النفسية، لأنه كان يرى الحالة الراهنة للقبائل التي بايعته تنحدر إلى السلبية بتكريسها لمظاهر التشتت الاجتماعي كإلغارة وما إلى ذلك من العوائق الحضارية التي تحجب عن أفراد شعبه الرؤية السليمة للمستقبل، و نجد أشد هذه العوائق جملة المعتقدات التي تكونت جراء النزوع الديني المبالغ فيه نحو التصوف السليبي، والذي ساد المجتمع العربي فترة من الزمن و المجتمع الجزائري على وجه الخصوص، و من نتائج هذا النزوع الديني المتطرف ظهور شخصيات فاعلة تدّعي أن بيدها الحل لكل المساحات المتأزمة التي كان يتخبط فيها المجتمع آنذاك، بله التأزم الاحتلالي المتمثل في الحملة التي قادتها الأطماع الفرنسية لأجل الاحتلال و الاستغلال، و بالتالي أظهر لنا الراوي ضمن وقفة **مسالك الخيبة** نموذج عن هذه الشخصيات، و تمثل في شخصية محمد ولد الصغير التيجاني و ما أحدثته من ضجيج صوتي ضمن فضاء الأصوات الروائية، الشيء الذي أدى بالأمير إلى إنزال الجيش بالأغواط، و هي المنطقة التي تحصن فيها هذا المارق عن الاتفاق الذي عقدته القبائل مع الأمير يوم البيعة، و قد كان الإنزال العسكري الأميري لأجل تأديب و إرجاع التيجاني عن آرائه التي كان الأمير يراها من أكبر المثبطات و المعوقات على معاينة الهوية الحقيقية، و لقد شكّل الأمير ضمن هذا الإطار ملفوظا اختار السارد أن يجعله من سلسلة الأحاديث النفسية التي تتناثر ضمن النص الروائي، ويدخل توسل الأمير للأحاديث السرية ضمن سياق استكمال مشروع التهيئة النفسية للأفراد الذين بايعوه بالإمارة كي تصير لديهم القابلية لذلك، وقد بدأ الأمير هذه التهيئة كتأسيس حضاري سطره لأجل جعل الرعية تعي بما ينبغي فعله تجاه الوضع الراهن، والذي يُعتبر الفعل الاحتلالي الذي قام به الآخر الفرنسي من أبرز مظاهره، و بالتالي لم تشأ شخصية الأمير أن تبوح برأيها ضمن خطبة رسمية علنية مسموعة، بل اختارت المحادثة الداخلية البينية التي عادة ما يعقدها الأمير مع أحد أعضائه الخلفاء الأوفياء، و قد توسل الأمير ملفوظا مناسباً لمقام

⁽¹⁾ ينظر: عبد اللطيف محفوظ، آليات إنتاج النص الروائي، ص168.

الحديث البيني، فقال عن موسى الدرقاوي الذي استلهم عقول بعض القبائل بكلامه: "كلما سمعت أن مجنونا احتل عقليات الناس، اشعر بهول المسافة التي مازالت تفصلنا عن أعدائنا الذين تسيرهم المصلحة و العقل"⁽¹⁾، و قد بيّن الأمير من خلال هذا التصريح الملفوظي مدى انشغاله بمسألة الأمة التي ألفت على كاهله مسؤولية القيادة في ظرف عسير جدا تزامن مع الدخول الاحتلالي غير المتوقع للآخر الفرنسي من باب تصدير المشاكل الداخلية نحو الخارج، كي لا يكون لها التأثير السلبي في الداخل الفرنسي، ولقد سجّل موسى الدرقاوي⁽²⁾ منعطفًا هامًا ضمن الأحداث الروائية، و قد نصّ السرد الروائي على شكله و المتمثل في تكريسه لخيانته لهويته العربية الإسلامية، بتعاونه مع الاحتلال الفرنسي، و بالتالي مثّل الدرقاوي بداية سلسلة الحملات الأميرية التأديبية للقبائل التي خرجت عن الطاعة، و التي لم تكن قد وعت بعد الأبعاد الإستراتيجية التي كان الأمير يحرص على مراعاتها في خلال عملية البناء التّحضّري للمجتمع، وهكذا يسجل الكاتب الراوي في نهاية سرد حادثة تأديب موسى الدرقاوي⁽³⁾ ضمن وقفة مسالك الخيبة ما عزم الأمير على فعله، و المتمثل في تحقيق فعل إزالة هذا النوع من الآراء التي تعمل على عرقلة مشروع إثبات الهوية العربية الإسلامية أمام الآخر الفرنسي.

1.1.2.1 - اللغة و الهوية الشخصية:

تطرح فئة من الفلاسفة الباحثين⁽⁴⁾ فكرة الهوية الشخصية من وجهة أخرى غير بعيدة عن مقتضيات اللغة التي يتوسلها المنهج التداولي في تسطير إجراءاته على النصوص

⁽¹⁾ الرواية، ص 137.

⁽²⁾ ينظر تفاصيل أكثر ضمن: أديب حرب، التاريخ الإداري و العسكري للأمير عبد القادر، ج1، ص148.

⁽³⁾ ينظر لأجل الاطلاع على تفاصيل الحادثة : أديب حرب، التاريخ الإداري و العسكري للأمير عبد القادر، ص148 و ما يليها.

⁽⁴⁾ Copoeru et N. Szabo (éd.), Beyond Identity. Transformations of Identity in a (Post-) Modern World, Cluj-Romania, Editura Casa, 2004, pp. 104-105. (Version web) Moi-même comme un autre. Identité personnelle, « Mais le symbole le plus riche, le plus universel, le plus complet du rapport corps-esprit l'expression même du « moi », consiste dans le langage. De la sorte, la définition de la personne humaine, du je, du moi, de la conscience, doit prendre en compte le langage en tant qu'un critère essentiel d'identité personnelle. C'est le langage qui exprime le mieux non pas seulement le rapport entre notre corps et notre esprit ou notre rapport au monde, mais aussi notre rapport à autrui. Dans son ouvrage Et langage Ion Stăvilă structurelle et morphogénèse, René Thom avance la thèse de vezeanu.

الروائية، و مفاد هذا الطرح أن الهوية الشخصية لا يستطيع الفرد أن يجعلها من بنات أفكار وجوده إلا بواسطة الإحساس و الشعور بأن لهذا الفرد لغة خاصة به، يستطيع بها أن يحافظ على كينونته داخل خضم الكينونات المتعددة، و يجدر بنا الإشارة أن الرأي القائل بهذه الفكرة يشير أصحابه إلى الأهمية التي يكتسبها النص المكتوب و لا سيما السرد الروائي منه في تحديد سمات الهوية الذاتية، إذ إن اللغة تمد النفس الإنسانية بالجانب المعرفي كما تمدّها بجوانب أخرى تترافق مع هذا الجانب، و هي المتمثلة في نقل المناحي الشعورية التي تصنع هرم القيم داخل ثقافة المرء، و هو بدوره يخرجها إلى الوجود في شكل سلوكيات كتابية، و قد كان الأمير عبد القادر من هذا الصنف الذي استطاعت لغته العربية أن تجعل منه القائد الفارس الشاعر الفقيه الفيلسوف، لأنه المشهود له بمعرفته العميقة للغة العربية من حيث أشكالها القرائية المتعددة بداية من القرآن الكريم أعظم كتاب مقدس سماوي قدّس اللغة العربية و غرس فيها بذور الخلود فهي باقية بقاءه، و قد أقرّت بعمق معرفة الأمير جلّ المصادر التي تناولت حياة هذا الرجل⁽¹⁾، و قد أشار توماس هوبس إلى أن الهوية الشخصية تتأقلم مع دلالات مسميات الأشياء التي نستعملها للوصول إلى حقيقتها، و بالتالي تتمحور المسألة في أن الهوية الشخصية ينبغي أن يُنظر إليها من زاوية البناء التقعيدي اللساني لا من زاوية الخلفية الفلسفية⁽²⁾، و كأن اللغات تختلف لا من حيث الحروف و البناء الكلي للكلمات فحسب، بل من حيث كذلك الدلالات التي تركز عليها و يستعملها الأفراد المتكلمون بها، و ما نقصده من وراء هذه الفكرة هو أن اللغة مهما كانت قيمتها، فإنها تحمل روحا داخلها و هذه الروح تسري في الفرد الذي يتعامل بها في حله و ترحاله، وليس فقط في ممارسته العادية أو ممارسته الثقافية، و مادامت اللغة تمثل المعيار الأساسي الذي نستطيع به قياس مدى تمثل الفرد لهويته فإن مرافقة هذه اللغة للفرد تنطرح بوجه حتمي و أشد من ضروري، لأن اللغة في الاعتبار المنطقي تُعدّ من المكونات الفردية التي لا يعترها التغيير، فهي من الثوابت القارة في ذاتية الإنسان، وهي إلى جانب ذلك مثل الثوابت

(1) ينظر: أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، ج4، ط1، 1996، ص180 .

(2) « Thomas Hobbes qui pensait que l'identité dépend finalement des mots (des noms) que nous utilisons pour désigner et comprendre la réalité De même, David Hume affirmait que : [...] toutes les questions habiles et subtiles à propos de l'identité personnelle ne peuvent jamais être tranchées et doivent être regardées comme des difficultés grammaticales, plutôt que philosophiques. »
Ibid. p 9.

الأخرى المتمثلة في التركيبة النفسية le caractère psychologique و الانتماء الوراثي la formule génétique و البصمات les empreintes التي تكسو أصابع الإنسان⁽¹⁾.

لم يكن الأمير ليغفل عن الأهمية التي تكتسيها اللغة العربية لغته الأم، و التي كانت وسيلته في التعرف على العالم من حوله بشقيه الفيزيائي وكذا الرمزي، و لأجل ذلك اتخذها كوسيلة للتراسل مع الشخصيات الفاعلة في الأحداث التاريخية و الأحداث السردية، وذلك قصد إظهار الوعي بالمنحى القوي للهوية لدى الإنسان، و منها رسالته إلى ديبوش بشأن طلب هذا الأخير أن يطلق سراح ماسو le sou- intendant Massoudi زوج المرأة التي جاءته راجية إياه⁽²⁾، و كذلك رسالته التي وجهها إلى الحاكم العام دوري ديرلون⁽³⁾، و كلتا الرسلتين وردتا في الرواية بأساليب اللغة العربية الفصيحة، و هذا الأمر هو الديدن الذي سار عليه الأمير منذ تكليفه بإمارة الناس، و يطرح بول ريكور ضمن هذا السياق مسألة ذات أهمية وتتعلق بالمزاج le caractère الذي يقبع داخل نفسية الفرد من حيث أنه يعتبر من المعايير التي نستطيع بها استخلاص هوية الفرد الشخصية، و يتشكل هذا المزاج من الأفكار و القيم و المعايير⁽⁴⁾ التي يُكِنُّ لها المجتمع والفرد على وجه الخصوص الولاء و الإخلاص، و هو: "عبارة عن جملة من العلامات التي نستطيع بها معاينة الشخصية من خلال قسّمات الجسم الفطرية و المكتسبة، وبالتالي يتمظهر من خلال ذلك ما يُشكل الآخريّة في نفسية الشخصية، على أساس أن الأشياء المكتسبة هي مناط هذه الآخريّة"، و يحدد ريكور الثقافة الفطرية ضمن فضاء الذاتية الذاتية la mémère أما المكتسب منها فيجعله في impiété، و الخطاطة التالية توضح الأمر:

⁽¹⁾ ibid. p111

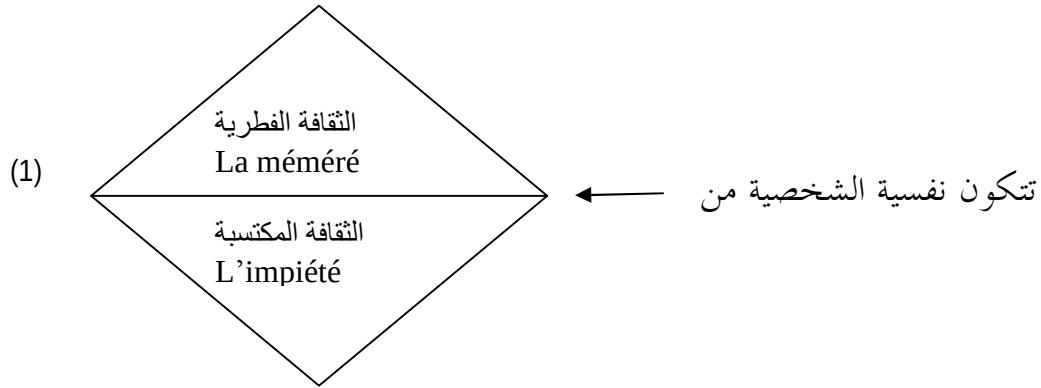
⁽²⁾ الرواية، ص56.

⁽³⁾ الرواية، ص149، قد بعثها الأمير لأجل محاولة الحفاظ على معاهدة دوميشال لأجل ربح الوقت، الجنرال دوري

ديرلون d'eron Drouet جنرال فرنسي أول حاكم على الجزائر المحتلة سنة 1834، ينظر : Correspondances de l'émir a. e. k 1833-1888, Hani Abdelkader, éd dar el Gharb, 2004, Oran, Algérie, p181.

« d'eron Drouet général français premier gouverneur de l'Algérie en 1834 »

⁽⁴⁾ Copoeru et N. Szabo (éd.), Beyond Identity. Transformations of Identity in a (Post-) Modern World, Cluj-Romania, Editura Casa, 2004, p 113. (Version web) Moi-même comme un autre. Identité personnelle, « le caractère n'est rien qu'un ensemble de signes percevables, de traits distinctif, il en va de même pour les identifications acquises, processus par lesquelles ce qui est autre dans la constitution du même »



لقد واجه الأمير عبد القادر الواقع الذي صنعه الآخر الفرنسي، بالبناء النفسي المبين أعلاه، بحيث كان كلما أُفحم في موقف سردي جديد سارع إلى محاولة إيجاد التفسيرات المنطقية لهذا الجديد، مستمداً ذلك من القناعات المترسبة في ذاته جراء القراءات و الأسفار المتعددين، ثم ينطلق في تحديد الإجراءات الواجب اتخاذها تجاه الموقف، و تعبر الحوارات النفسية التي كانت تنعقد داخل ذاتيته عن مدى محاولة هذه الشخصية إيجاد السبل التي تمتح من الثقافة الفطرية المكون للهوية الشخصية، و تمتح كذلك من ثقافة الغير، و في الرواية نجده يستعين بعناصر غير عربية و لا إسلامية لأجل تشييد مصانع الذخيرة و المدافع، و يستعين كذلك بمستشارين ينتمون إلى ديانة مختلفة عن ديانته لأجل تحديد المواقف المصيرية للرعية كـ:ليون روش اليهودي⁽²⁾، و لقد عمل النص الروائي على مدّ القارئ بجملة من الرموز اللسانية التي يستطيع من خلالها تكوين رؤية عن التشكيلة النفسية لدى الأمير، و يمكننا أن نتوصل إلى هذه التشكيلة بواسطة محاولة حصر المدار السياقي الذي أنشأه الراوي متوسلاً أشكالاً لغوية متعددة،

⁽¹⁾ الخطاطة من اجتهاد البحث.

⁽²⁾ ينظر الجدول التفصيلي للأحداث في الفصل الثاني، ص 220.

و نقصد بالمدار السياقي⁽¹⁾، تلك الأداة اللغوية التي تعمل على حصر شساعة الخطابات الأميرية لتجعلها تأثيرات إظهارية لما كان تتمتع هذه الشخصية به من صفات قد تكون ذات منحى إيجابي أو سلبى على قدر آراء المتلقين المؤولين و المفسرين التابعين لنفس الجماعة التابعة لها الشخصية قيد الحديث، و قد جعل السارد الراوي من شخصية الأمير عنصرا فاعلا ضمن هذا المدار، و ذلك بتوظيف انتقائي لجملة من المواقف الخطابية أو بالأحرى الكلامية التي أنتجت بدورها آثارا فعلية تجسدت في السامعين ضمن المسرح الروائي التاريخي، و كنموذج على ذلك نختار الملفوظ الذي يقول فيه الأمير: "لا أحد يستطيع الهروب من تاريخه"⁽²⁾، فنجد أن السياق الذي وظف ضمنه السارد هذه القولة يُعبر عن ما يؤمن به الأمير و يصنغه ضمن سلم المعتقدات ذات الأولوية، و لقد جاء ذكر التاريخ على سبيل انتقاء الجزء الأساسي من الهوية للدلالة عليها، و لأن المقام و السياق يقتضيان ذلك، و المقصود بالسياق في جانبه التأريخي الذي حرر الروائي نصه على منواله، و يشير البرنامج السردى أن الأمير استعمل هذا الملفوظ لتبيان مدى خطورة العمل الذي أقدم عليه أخوه مصطفى، و المتمثل في انضمامه لجماعة الدرقاوي المنشق عن البيعة الشرعية المعلنة.

إن التاريخ في المقولة السابقة الذكر يمثل الجانب الإنساني العام⁽³⁾، و لكن معناه في السياق يمثل التاريخ الخاص بكل فرد على حدة، و الذي يسير مع الإنسان أينما حلّ و ارتحل عاملا على تمثيل هويته التي يحقق بها انتماءه، و لا تشذ الرواية عن هذه القاعدة فهي الأخرى يمارس عن طريقها المتلقي النوعي صناعة هويته الشخصية، و ذلك لأن كلاً من التاريخ والرواية ينتميان إلى مملكة واحدة وهي السرد، و ينهلان من الثالوث المتشكل من **الواقع والحياة و العالم**⁽⁴⁾، إذ يحاول الروائي أن يصنع من خلال هذه الثلاثية منظومة من التركيبات

⁽¹⁾ لقد تم أخذ المصطلح مع تدليل مفهومه لأجل موافقته للبحث من: عبد اللطيف محفوظ، آليات إنتاج النص الروائي، ص190.

⁽²⁾ الرواية، ص139.

⁽³⁾ التاريخ بالمعنى العام يعنى التطور البشري في جميع جوانبه السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية و الفكرية و الروحية أيا كانت معالم هذا التطور و ظواهره و اتجاهاته، ينظر: رأفت غنيمي الشيش، فلسفة التاريخ، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، مصر، 1988، ص7.

⁽⁴⁾ ينظر: عبد السلام أقلمون، الرواية و التاريخ، ص102.

الفكرية، و التي حاول بعد ذلك أن يجسدها من خلال تنزيدها في شكل نصوص روائية، تركزت عبر ملاحقة واسيني الأعرج صاحب نص كتاب الأمير لسلسلة من النصوص السردية بقصد تحقيق ما يسمى بالقراءة الأصلية للحادثة التاريخية أو الشكل الحقيقي لها، على أساس أن نمط نص الرواية ينتمي إلى الشكل السردى التخيلي التاريخي، و تتموضع هذه القراءة ضمن ما يدعى بالموضوع الدينامي للنص الروائي الذي يسبق تشكُّله تحرير النصوص التي تناولته، و هذا ما يُدعى كذلك بالمدار النصي⁽¹⁾ حيث يمثل هذا الأخير تيمة/موضوعة محددة القسمات، و تعبر هذه التيمة عن لحظة ميلاد الفكرة و دخولها ضمن عملية تبلورية تشكيلة في النصوص المختلفة التي تحررها أنامل السارد، سواء أكانت طبيعة السرد من التاريخ ذي الأسلوب المباشر والموضوعي أو من الرواية ذات الأسلوب الممزوج من الحقيقة و التخيل، و لقد أسعف استعمال هذا الأخير من طرف الروائي لاستجلاء المناطق التي تعبر عن المناخ المناسب لخروج الهوية من وجودها بالفعل إلى وجودها بالقوة، أي إلى الحيز الذي يستطيع المتلقي أن يعاين مظاهر هذه الهوية، و في الرواية نجد تظهر هذه المسألة في عديد المواقف، من بينها حديث الراوي جون موي عن أمر يكاد يكون محل اتفاق الأصوات التي تُكوّن مرجعيات الفكر لدى الشخصيات التي تحتكم إلى العقل و الموضوعية في مواقفها، و يتمثل هذا الرأي في قوله: "أكبر أذى يصيب الإنسان هو أن تسحب منه حريته"⁽²⁾، و لقد أدلى الراوي بذلك في خضم حديثه عن سيده الأسقف ديوش الذي عان الأمرين، جراء الأذى الناتج عن التهجير الذي تلقاه من بني جلدته، و المرارة التي تصيب الإنسان بسبب سقوط حق التمتع بالحرية عنه.

تتمتع وظيفة الرواية في النص السردى بتعدد أدوارها، و ذلك على حسب السياق الذي يتم من خلاله موضوعة الراوي ضمن البرامج السردية، و بالتالي يشير أحد النقاد إلى هذه المسألة في خلال تحليله لبعض النصوص الروائية إلى وجود أنماط ثلاثة من الرواة، أولها الراوي الكاتب الغائب، و هو صاحب الشأن الكتابي أي واسيني الأعرج ضمن نص كتاب الأمير، أما الثاني فالراوي الحاضر و الصريح من ناحية الذكر، و في نصنا تنوعت الشخصيات التي أنيطت بهذا الدور، و لكن الحصة الكبرى ذهبت للخادم جون موي نظرا لمرافقته اللصيقة

(1) ينظر: عبد اللطيف محفوظ، آليات إنتاج النص الروائي، ص 167.

(2) الرواية، ص 242.

للأسقف ديبوش الشيء الذي أهله إلى اعتلاء مرتبة الشخصية العليمة بما يدور في البرامج السردية، أما النمط الثالث فهو الراوي المساعد للراوي الحاضر و تستطيع أية شخصية أن تلعب هذا الدور⁽¹⁾، و نجد نماذج من هذه الأنماط الثلاثة مستعملة في نص كتاب الأمير، فوقفة **مواجه الشقيقين** تظهر لنا بوضوح كيف جعل السارد الحقيقي اللغة تنساب على لسان موبي الذي اضطلع بدور الراوي بحيث استخدم آلية الوصف لأجل إخبارنا بالجهد المبذول من طرف سيده في سبيل إسعاد الناس أينما كانوا، و كذا المشاكل التي صادفها في خلال تأديته للمهام التي يؤديها المخلصون من عمال الكنيسة المسيحية، و لقد قال موبي عن سيده أنه: "لم يجد الوقت الكافي لتأمل وضعه المعقد من منفى إلى عزلة، إلى خوف"⁽²⁾، إنها آثار نفسية اعتلت بها نفسية الأسقف إثر المعاملة السيئة التي تلقاها من شخصيات تنتمي إلى دائرة الهوية المسيحية، ولقد تحدث عنها السرد بصيغة المجهول أي بعدم ذكر أسمائها في الرواية، وقد أدت هذه الشخصيات الدور المعرقل للشخصيات الفاعلة، و تمثلت في الأطراف التي أخذ منها بعض المبالغ المالية لأجل إسعاف بعض المحتاجين، على أساس أن ديبوش كان سيعمل على إرجاع هذه الديون من مال المحسنين أو من المال المخصص للكنائس، و لكن الرياح تتخذ مسارها عكس ما يريده ربان السفينة، و بالتالي اضطر الأسقف بسبب عدم إيفائه بالسداد إلى مغادرة الجزائر سرا فارا وكذا منفيا⁽³⁾، كل هذه الأحداث و غيرها اضطلع بروايتها موبي بإيعاز من الراوي الغائب.

لا يمكننا معاينة البناء الهووي عن طريق تتبع البعض من البرامج السردية دون غيرها، بل ينبغي أن يضع الدارس في حسبانته أن الحصول على رؤية واضحة عن الهوية لا تتم إلا عبر معاينة جل البرامج السردية الرئيسة في الرواية، لأن البناء الدلالي للشخصية: "لا يكتمل إلا في الصفحة الأخيرة من القصة أو الرواية، أي أن البناء لا ينتهي إلا بانتهاء الأثر نفسه"⁽⁴⁾، و من أجل ذلك بات من الضروري التعرض إلى عناصر مثل مقام الشخصية و وظيفتها وعلاقتها

⁽¹⁾ ينظر: نعمان بوقرة، لخطاب الأدبي و رهانات التأويل، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2012، ص292.

⁽²⁾ ينظر: الرواية، ص240.

⁽³⁾ ينظر: الرواية، ص240، و ما يليها.

⁽⁴⁾ ينظر: نعمان بوقرة، لخطاب الأدبي و رهانات التأويل، ص322.

الاجتماعية والعاطفية⁽¹⁾، و لقد صورت لنا لغة النص السردى فضاء العلاقة الاجتماعية التي نمت مع نمو رواية الأحداث إلى أن اتخذت شكل الصداقة النادرة بين الأمير و الأسقف، والتي توضحت معالمها من خلال التضحيات التي قدمها ديبوش من أجل إيصال الرسالة إلى نابليون التي حاول أن يشرح من خلالها الأحقية التي يمتلكها الأمير في السماح له بمغادرة سلسلة الأماكن التي مثلت ثنائية الأسر و المنفى بداية من قلعة لامالغ fort lamalgue إلى قصر أمبواز Amboise أين سكنه الإحساس بسلب الحرية منه بله الهوية، و إنه لأثر كان الآخر يتقصّد إلحاقه بالآنا سواء على المستوى الفردي أو على المستوى الجمعي.

2.1.2.1 - الهوية الثقافية الشخصية :

ينطلق الخطاب الذي تشكّله لغة الأمير من قناعة مفادها أن الخطر الحقيقي هو حينما تُستهدف البنية الثقافية و الثوابت العقدية لأن بدونها لا تقوم الهوية⁽²⁾، ولقد اعتمد الأمير لإبراز هذا النمط من الهوية على أرضية ثقافية و فكرية منتقى مضمونها من عيون التراث العربي الإسلامي، و لقد عمل السارد على إبراز هذه المنظومة الفكرية بإيراد جملة من المفكرين القدماء الذين شكّلوا قلما حضاريا ضمن ساحة الفكر التراثي، و كان الأمير كلما طلبت نفسه الوقود الذي يبقّيها دوما ضمن الأحياء في التاريخ الذين يرونه على أنه حركة وسرعة، و تتحدد قيمة الإنسان من خلاله في تسخير قواها لأجل تحسين الظروف و جعلها تنحو إلى التحضر⁽³⁾، قلنا كلما استدعت الحاجة إلى الوقود النفسي يهّم إلى أحد مصنّفات هؤلاء القدماء، و على رأسهم أبي حيان التوحّيدي تـ440هـ صاحب الإمتاع و الموائسة و الإشارات الإلهية و ابن خلدون تـ808هـ⁽⁴⁾ صاحب كتاب المقدمة، إلى جانب الشيخ ابن عربي⁽⁵⁾ تـ638هـ صاحب كتاب الفتوحات المكية، و الذي يعتبر أهم مكون من مكونات مرجعية الأمير عبد القادر

⁽¹⁾ ينظر : نعمان بوقرة، لخطاب الأدبي و رهانات التأويل، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2012، ص322.

⁽²⁾ ينظر: عبد الله بن إبراهيم الزهراني، ندوة البلاغة العربية سؤال الهوية و آفاق المنهج، ص360.

⁽³⁾ ينظر: رأفت غنيمي الشيخ، فلسفة التاريخ، دار الثقافة و النشر و التوزيع، القاهرة/مصر، 1988، ص12.

⁽⁴⁾ الرواية، ص74.

⁽⁵⁾ بدأ بتأليف الفتوحات المكية بمكة سنة 598هـ، و به سبع و ثلاثين سفرا، و طبع الكتاب لأول مرة ببلاط بمصر 1274هـ و يحتوي الكتاب على ستة فصول بها 560 بابا، اختص الفصل الأول بالمعارف و الثاني بالمعاملات و الثالث بالأحوال و الربع بالمنازل و الخامس بالمنازلات أما السادس بالمقامات، الموسوعة الحرة.

المعرفية، و لم يكن هذا اللجوء لأجل استزادة الترفيه القرائي، بل كان من باب البحث عن الحلول للمشاكل المصيرية التي استعصى حلها، و كان الأمير أكثر حبا بل أشد من ذلك أكثر عشقا وولها بالكتاب؟، فلا عجب أن يختار السارد ملفوظا يناسب هذا الحالة المتميزة بقوله على لسان الأمير ذاته: "يحدث معي -أي الأمير عبد القادر- أن أبكي على كتاب أكثر من بكائي على أعزائي"⁽¹⁾، و لقد كان الأمير عبد القادر يتتبع الآثار التي خَلَفَهَا جيش الاحتلال خلفه حينما دخلت قواته لأجل تدمير عاصمته الأولى معسكر، و ذلك بقصد جمع ما خلفه الحرق من بقايا الكتب المتنوعة التي حرص الأمير على جمعها و قراءتها و إنزالها إلى الواقع، وكذا حفظها للذين سيأتون بعده.

تُطْلَعُنا البرامج السردية بجملة من الملفوظات ذات المصادر المختلفة عن الأهمية القصوى التي كانت تكتسيها الكتب الفكرية التراثية بالنسبة للأمير ضمن السياق التاريخي الذي عاش فيه، و ليس هذا بدعًا من الأمور عند العائلة التي شكلت السياق الأول في التلقي، بل يعتبر هذا الأمر من الأساسيات التي تحرص هذه العائلات ذات الشأن الشريف العالي في مجتمعها على تطبيقه، و جعله ديدنها، و حينما كان الوالد محي الدين على كرسي الخلافة كان يلفت انتباه ابنه عبد القادر، إلى مراجعة ما قرأه عن ابن خلدون، و ذلك في سياق تعليميٍّ لمبدأ الصرامة في تسير أمور الرعية و عدم التساهل في إلحاق العقاب بالمخالفين، تماما كما شاهد العقاب الذي ألحقه الخليفة الوالد بقاضي آرزو حينما خالف الأوامر و تعاون من الاحتلال اقتصاديا قصد تقويته، و بالتالي لقد تطلب من الوالد لصوغ البرنامج الإقناعي للابن الخليفة المستقبلي، العودة إلى الأصول الأولى للتكوين الثقافي الذاتي، أو بتعبير آخر إلى المرجعية القرائية للهوية العائلية التي تعلقت بشخصية الأمير، و حينما أنزلت المسألة حيز التطبيق حصل الأثر في النفس، و بالتالي واجه محي الدين ابنه عبد القادر باستفهام استنكاري بقوله: "تَذَكَّرْ كلامَ أستاذك ابن خلدون جيدا، العصية هي التوفيق بين العشائر بالشعور العضوي"⁽²⁾ و بالتالي راحت منظومة التفكير الأميرية تمارس فعل المراجعة و المذاكرة ضمن الموروث القرائي و الثقافي محاولة إيجاد التخرج الصائب للقضية التي تسربت إلى العمق النفسي للأمير، و بالتالي أنتجت

⁽¹⁾ الرواية، ص330.

⁽²⁾ الرواية، ص72.

هذه المراجعة ملفوظات مختلفة مفادها الشك و الريب في الفهم الذي حصل لها من مطالعة ابن خلدون⁽¹⁾، و تمثل الأثر النفسي بوجه أقوى مما كان يتصوره المتلقي، إذ قال الأمير ضمن حديث نفسي شابه التكتّم الشديد: "هل كان ابن خلدون غيبا إلى هذا الحد الذي يعنى فيه بصره و بصيرته؟ لا اعتقد. هناك شيء في المجتمع الذي درسه ما يبرر موقفه"⁽²⁾، نعم يا أيها السارد.. في الأمر أن ابن خلدون استعمل آلية التحليل الاجتماعي التي تناسب السياق التاريخي الذي عاش ضمن إطار تداوله، أما الأمير فإنه سيضطر إلى تشغيل هذه الآلية و لكن يجعلها تناسب السياق التاريخي الخاص بالمجتمع الذي ينتمي إليه بكل ملابساته، و شتان بين الفترتين التاريخيتين فالاختلاف باد في القضية شكلا و مضمونا، إذ إن الاستعمار الذي انسكب مرة واحدة على البلدان العربية هو من الأمور التي استحدثتها العادات السلبية للفكر الامبريالي العولمي الحديث، و هذا هو الجديد الاستراتيجي الذي دخل الفترة الأميرية، و لم يكن هذا الشكل من الاستعمار موجودا في عهد ابن خلدون، و إذا كان فبأشكال أخرى .

إن انتقال الأمير من الأرض التي نشأ بها إلى أرض المنفى القسري غير الاختياري، لم يُغيّر من رؤاه الراسخة نحو هويته شيئا، و لم يكن ما عاينته عيناه من التحضر الذي لحق المجتمع الفرنسي من حيث العمران و التنظيم العام ليحمله يتخلى عن عناصر هويته، بل دفعه ذلك إلى الشد بالنواجد على أسباب كينونته، و كذا الحفاظ عليها لأنه يختزن في معرفته الذاتية حقيقة مفادها أن الهوية جوهر للذاكرة و هذه الأخيرة تمثل التاريخ، و يدفعه كذلك علمه أن هذه الهوية قام من أجلها نضاله، و سيقوم من بعده نضال تلو النضال، إلى أن تأخذ المكونات الهوية الوطنية النصاب الحقيقي لها من فضاء الصيرورة التاريخية، إن هذه الحالة أشبه بالنوستالجيا Nostalgie التي تعني الرجوع المقترن بالشقاء، و الأمير المنفي يعيش في هذا الخضم حالة انزلاق

⁽¹⁾ قانون العصبية عند ابن خلدون يقوم على الالتحام الذي يدور بين القبائل الذين تجمعهم رابطة الدم أو الدين وينتج عن اشتداد إحدى الرابطتين الوصول إلى السلطة و هكذا تبدأ هذه في الضعف إلى حد الانهيار، و يعرفها الجاهلي على أنها: قوة جماعية تمنح القدرة على المواجهة سواء كانت المواجهة مطالبة أو دفاعا، فوجود العصبية هو الدافع إلى التكتل و التوحد، و للعصبية عوامل تضعف منها كالجوع إلى الترف و النعيم كما لها عوامل تعززها مثل خلق العصبية العامة كما هو الحال عند الدول العظمى. ينظر، جاسم سلطان، الفكر الاستراتيجي في فهم التاريخ، مؤسسة أم القرى للترجمة و التوزيع، المنصورة، ط1426/1هـ - 2005م، الصفحات: 33-34-35-36-37.

⁽²⁾ الرواية، ص74.

في : "سفوح منحدره لا سبيل له إلى الثبات و لا الوصول إلى نهاية محددة"⁽¹⁾، لقد مثل هذا السياق عائقا صعبا استطاع الأمير القفز عليه و بالتالي تجاوزه.

لقد كانت للقراءات التي مرت على الأمير في خلال رحلته العلمية بين المعاهد العلمية الأثر البالغ الأهمية، و لقد توضح هذا الأثر في اتخاذ شخصية الأمير لكتب بعض التراثيين ملجأ استئناس و راحة بال جراء المهمات الصعبة التي كان يواجهها، إذ نسجل مسألة لجوئه إلى التوحيد، و التي كان الدافع إليها علمُ الأمير بما يحضره الجنرال تريزل من حملات لأجل إلحاق التدمير بالعاصمة معسكر، و بالتالي سجّل السرد على لسانه الملفوظ الآتي: "سأرتاح قليلا مع التوحيد"⁽²⁾، و لقد جعل الراوي شخصية الأمير تمارس الفعل الثقافي حتى في أصعب الظروف إذ تبين لنا الوقفة الخامسة المعنونة **بمثلة التدوين** اضطلاع الأمير بفعل إملاء مجريات الأحداث على مصطفى بن همامي⁽³⁾، معللا هذا الفعل بتفادي إقدام الآخر على إقحام التزوير و التحريف في الحقائق التاريخية، فيخاطب الأميرُ الأسقفَ ديبوش قائلا: "الآخرون الذين يشتهون تأويل التاريخ كما تقول لهم رؤوسهم لا يسألون أحدا عندما يريدون الإساءة يا سيدي الفاضل"⁽⁴⁾، حقا إن التاريخ كما قال فيصل دراج يدور: "حول مقولتي الانتصار و الهزيمة.. و تفضي هذه الثنائية إلى تاريخين متنافسين المنتصر و المنهزم في نظرهما... و يغدو الانتصار في الحالات جميعها معيارا للحقيقة، و تصبح الهزيمة مرادفا للضلال"⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ عبد الله إبراهيم، السرد و الاعتراف و الهوية، ص11.

⁽²⁾ الرواية و تأويل التاريخ، فيصل دراج، ص86.

⁽³⁾ مصطفى بن همامي 1205-1283 هـ، 1790-1866م، شاعر وفقه مالكي و هو صهر لأمر عبد القادر خاض معه المقاومة من 1831 إلى 1845، و ظل معه في المنفى الفرنسي بألمواز ثم سافر معا إلى سورية سنة 1852، و مات بدمشق له مؤلفات في الفقه و قصيدة مشهورة عنوانها "مقام الفضل" ينظر معجم البابطين الإلكتروني.

http://www.almoajam.org/poet_details.php?id=7332

⁽⁴⁾ الرواية، ص201.

⁽⁵⁾ الرواية، ص201.

2.2.1- رصد الهوية المُعبر عنها:

يعتبر هذا العنصر رديف سابقه من حيث الحمولة النظرية التي تحتزنها محتوياته، والتي ستزداد اتساعا حين يعمل البحث على إسقاطها على نص كتاب الأمير، و لقد سبقت الإشارة إلى الفرق الكامن بين النمطين الهويين الشخصية و المعبر عنها، إذ إن هذه الأخيرة تسكن في أذهان الآخرين و لا تسكن أذهاننا، لأن مصدر مواصفاتها من الآراء الصادرة عن الآخر تجاه الأنا التي نتملكها بحكم الطبيعة، و بالتالي تتمتع الهوية الشخصية بالنظرة الذاتية للذات، و كأن الأمر يتعلق بنظام داخلي للأفكار بحيث لا يستطيع الآخر التدخل في صفات ومميزات هويتي حينما أكون في طور تكوينها، بينما يستطيع أن يفعل ذلك حينما أبدي أنا ما تضمه أناي، و عليه فالأطراف التي تمارس التأويل و التفسير لا مكان لها ضمن الهوية الشخصية، بينما تجد لها المكان المناسب ضمن المعبر عنها، لأن هذه الأطراف هي التي تصنع برؤاها البناء الهوي الذي سمحت لنفسه بعرضه أمام الآخرين.

إن الأمر لا يتعلق بمدى جدية آراء الآخرين أو عدمه، بل هي عملية تقع في سياق السير التجريدي في التاريخ، أي بمعنى أن الإنسان لا يستطيع أن يمارس على نفسه فعل الانعزال لمدة طويلة، بحيث يفقد إثرها الآليات التي جُهِز بها لأجل مواجهة الأطراف التي تشكل الآخر بالنسبة له، و بالتالي تجد الذات ذاتها في حالة حتمية الدخول ضمن عملية الاحتكاك الاجتماعي التي يتولد عنها تشغيل آلية استقبال إصدار آراء الغير فيما يخص الهوية الذاتية، و كأن الهوية الشخصية مرحلة تسبق مرحلة الهوية المعبر عنها، و لكن الإشكال الذي يطرح نفسه بنفسه هو: هل لآراء الغير في ذاتي أهمية و فعالية بحيث يمكنها التدخل في تكوين هويتي؟ قد يكون الجواب عن هذا السؤال بالسلب كما قد يكون بالإيجاب، إذ إن الآخر قد يحمل النظرة التي تسودها الموضوعية، و قد تنزع نفسه إلى ذاتيته بحيث ينصاع إلى الجري وراء مآربه، و الحديث سيطول حول هذه القضية إذا اتخذها البحث من باب التنفيذ العلمي للتاريخ، لأجل ذلك سيحاول البحث تقييد هذا العنصر بما جاء منه قريب المطابقة ضمن النص الروائي، و لا سيما آراء هذا الآخر الفرنسي و كذا نظراته للأنا الجزائرية سواء أكانت عربية أو أمازيغية، فكلاهما يشكلان الهوية الوطنية التي تنصهر فيها جميع الهويات، و هل كانت لهذا الآراء نوعا من الموضوعية التي تحمل الذات على اتخاذها ضمن التكوين الهوي الخاص أم؟...

لقد تمحورت الآخريّة في الرواية ضمن عدة أطراف، حاول الروائي إشراكها في نص كتاب الأمير انطلاقاً من معيارين: الأول يتعلق بإقحامها ضمن البرامج السردية المناسبة لها نزولاً عند مسابقة السياق التداولي للحدث المسابير لها، أما الثاني فيتمثل في مدى الأهمية التي يمثلها طرف دون طرف آخر، إذ نجد أن الأتراك الذين كانوا يعيشون جنباً إلى جنب مع أفراد المجتمع الجزائري صاروا يمثلون في الرواية آخريّة متميزة، لأنهم اتخذوا طريق الاستسلام لأول وهلة حينما رست قوات الاحتلال في ميناء سيدي فرج، كما نجد أن الذين جعل عبد القادر أميراً عليهم كانوا يمارسون عملية الانقلاب عليه بين الحين السردى و الآخر، فيضطر إلى اللجوء إلى عمليات التأديب العسكري الردعى، و نجد كذلك أن الطرف المحتل لم يتخذ له شكل التلميح في الظهور، بل اتخذ شكل التصريح، و لقد أظهر نص كتاب الأمير هذه الأطراف كلا على حسب مدى مشاركته في الحدث التاريخي الذي رصدته السردية الروائية، والتي امتزج فيها التخيل⁽¹⁾ بالحقيقة، على اعتبار أن: "الروائي يضع التاريخ الحقيقي في الحاضر المعيش"⁽²⁾، و لقد عملت الشخصية الأميرية الفاعلة في الرواية على إظهار جانب الكينونة المعبرة عن الهوية إزاء كل طرف مفيدة من سياق مزج التخيلي بالتاريخي.

1.2.2.1- إثبات الهوية إزاء الآخر التركي:

لم يحفل نص كتاب الأمير بسرد ما يتعلق بالعنصر التركي إلا ما كانت له علاقة بحياة شخصية الأمير من السيرورة التاريخية، و بالتالي نجد بروز هذا العنصر قليلاً بالمقارنة بالعناصر الأخرى قياساً على الفترة التاريخية التي عاشها الأمير مع الأتراك، و لقد انتقى السارد للشأن التركي العثماني توظيفاً بنمطين، أحدهما إيجابي ذو طبيعة ثقافية كي يكون له الوقع عند

⁽¹⁾ تتمحور جدلية المزج بين التاريخ و التخيل في تحديد الروائي موقعه الخاص به لأجل تشكيل رؤياه التي تتميز عن البقية من الرؤى، ينظر: فيصل دراج، نظرية الرواية و الرواية الجديدة، ص 292.

⁽²⁾ فيصل دراج، الرواية و تأويل التاريخ، ص 115.

السامع، و نقصد به استعمال الأمير عبد القادر في تسطير ملفوظاته لكتابات حمدان خوجة⁽¹⁾، الذي أظهره السرد من خلال اقتباس نص من مؤلفه المرأة، إذ ييدي من خلال النص المقتبس حسرة شديدة على ما حلّ بالجزائر من جراء الاحتلال الفرنسي، و يزداد ألم حسرته حينما يشاهد التعاون بين دول أوروبا⁽²⁾، بينما لا يرى ذلك بين الشعوب ذات الهوية الموحدة، و التي يجمعها الدين و التاريخ و اللغة، أما النمط الثاني الذي ظهر به الآخر التركي فهو سلمي، و لقد تمثل في الذين تنازلوا عن أسلحتهم بمجرد ما إن حطّت قوات الاحتلال على سواحل الجزائر، بل هناك من حمل الأسلحة معهم وقاتل أهل الأرض التي آوهم لأجل الحفاظ على المصالح التي تكونت لديهم خلال الاستقرار السياسي للبلاد، و نستطيع أن نعاين عينة من هؤلاء ضمن برنامج سردي تدور تفاصيله حول حيثيات الاتفاق الذي عقدته الشخصية الفاعلة المتمثلة في الأمير مع الجنرال بيجو، و الذي كانت من نتائجه تخلي القوات الفرنسية عن قصر المشور المتواجد بمدينة تلمسان، و بالتالي حينما تم ذلك ظهرت الخيانة التي ارتكبها الكروغليون الذين يُعتبرون أتراكا أكثر مما هم عرب على أساس النسبة الأبوية، و لقد تخلل هذا السياق السردى برنامجا آخر تمثل في محاولة صناعة التواطؤ بين الأمير و مستشاره ابن دوران على أساس أن لا يترك هؤلاء الكراغلة الفرصة للاستيلاء على البارود، و قد أقحم الروائي ذلك بسرد تخيلي

⁽¹⁾ حمدان بن عثمان خوجة (1841 - 1755) - م (1255 - 1189) هـ ولد في الجزائر (العاصمة)، وتوفي في استانبول. قضى حياته في الجزائر وفرنسا وتركيا. تلقى تعليمه الأولي عن أبيه، و تعلم العلوم الدينية واللغوية والمعارف القانونية والتاريخية والفلكية والطبية، كما أتقن عدة لغات منها: الفرنسية والتركية والإنجليزية. عمل أستاذاً في العلوم القانونية والشرعية، كما كان سفيراً دبلوماسياً لبلاده في بلاد البلقان وفرنسا، وعمل بالتجارة. ينسب إليه تأسيس حزب المقاومة المناهض للاستعمار الفرنسي، وكان من أهم الناشطين السياسيين في الحركة الوطنية في الجزائر بعد الغزو الفرنسي 1830، و من آثاره: - له عدة كتب مطبوعة بالفرنسية والعربية منها: «المرأة - المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار - الجزائر 2005، و«إتحاف المنصفين والأدباء عن الاحتراس من الوباء 1836، و«حكمة المعارف» 1837، وله عدة مقالات متنوعة. «المرأة» الذي أصدره سنة 1833 عقب احتلال العاصمة الجزائر، ينقسم كتاب «المرأة» إلى جزأين عرض في الجزء الأول تاريخ الجزائر الثقافي والاجتماعي والسياسي بشكل مفصل ودقيق. أما الجزء الثاني فيتناول أسباب الغزو الفرنسي للجزائر وتفاصيل عن نزولها بشاطئ سيدي فرج، كما يضم الكتاب معلومات هامة حول الأوقاف والوثائق الإسلامية بالجزائر، ينظر، عميرايوي أمحمد، نظرة حمدان خوجة إلى الآخر الرحالة العرب و المسلمين اكتشاف الذات و الآخر، موقع ارتياد الآفاق، المركز العربي للأدب الجغرافي ندوة الجزائر، 2004.

⁽²⁾ لقد تم طبع كتاب المرأة، في أيام الجزائر عاصمة الثقافة العربية من طرف المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، تعريب و تحقيق محمد العربي الزبير، سنة 2007.

صانعا الحوار العلني الذي دار بين الطرفين و الذي أعطى ثمرة ما أراداه الأمير، إذ وجّه هذا الأخير لمستشاره ابن دوران ملفوظا قويا واضح الدلالة مفاده: "يجب أن تجد وسيلة مناسبة لكي لا يترك البارود للكروغليين أو.."⁽¹⁾، و لقد أقدم الأمير على فعل ذلك كي يتسنى له الدخول السلمي لتلمسان، و حالما وصل الوفد الأميري المدينة شرع في البحث عن الخونة الذين يمثلون الآخر التركي السلي لأجل الاقتصاص منهم⁽²⁾ و لقد تمّ تنفيذ حكم الإعدام على رؤوس الفتنة و منهم بيروم أحد قادة الكروغليين، كما نجد أن عينات أخرى من التركيبة التركية ذات مكانة عالية في منظومة الحكم التركي عملت على إعلان موقف التواطؤ الصريح مع المحتل الفرنسي، إذ يبين لنا الملفوظ الأميري الموجه لأخيه مصطفى على وجه التقريع و الزجر الكلامي هذه القضية فيقول مستعملا الخليل من الدارجة و الفصحى: "مَارَاكَ عَارَفْ وَأَلُو-أي أنت لا تعلم من الأمر شيئا- الحاج مصطفى بن باي عثمان، حفيد محمد الكبير يطالب القبائل الغربية بالولاء للفرنسيين.."⁽³⁾، و يبين هذا الملفوظ مدى متابعة الأمير للأحوال الحادثة ضمن فترته التاريخية، و بالتالي يظهر الآخر التركي بموقف الخنوع المملوء بالاستلاب للاحتلال الفرنسي مكرسا السلبية والهوان لدرجة التصريح بالتخلي عن الهوية التي عززت كينونته في الجزائر، هذه الأخيرة التي وُضع حاكما محافظا وأميناً على المنطقة الغربية منها، و بالتالي يعتبر فعل التصريح بالتخلي عن الهوية على أرض الأنا بغية الحفاظ على المصالح غير المأمونة بمثابة فعل التخلي عن الكينونة و الهوية أصلا.

(1) الرواية، ص218.

(2) ينظر التفصيل التاريخي في: أديب حرب، التاريخ السياسي و الإداري للأمير عبد القادر الجزائري، ص14-15.

(3) الرواية، ص94. و للباي محمد بن عبد الكبير عظيم الانجازات بالغرب الجزائري إذ يعتبر المؤسس الرئيسي للمدرسة المحمدية و هي من المدارس الأولى التي حملت ميزة المدارس الرسمية، و هي المعروفة الآن بمسجد المبايع، أما المتحدث عنه فهو ابن الثالث من التالية أسماؤهم: الباي عثمان بن محمد بن عثمان الكردي الملقب بالأعور: 1797م - 1804م الباي محمد بن محمد بن عثمان الكردي الملقب بالـمَقْلَش- الذي سُلطت عليه الرعاية لحد لا يطاق حتى صار لا يحسن التصرف في المواقف - : 1805م - 1808م الباي محمد الصغير بن عثمان الكردي الملقب بالرقيق، والمسلوخ، وأبو كابوس: 1808م - 1813م و قد مثل هؤلاء منصب الباي بعد هلاك الجد، و كل هؤلاء ماتوا قتلا، ينظر موقع ندوة الرحالة العرب و المسلمين، اكتشاف الذات و الآخر، موقع ارتياد الآخر بلبروات بن عتو، ندوة الجزائر الأولى، 2004.

2.1.2.1 - إظهار حقيقة الهوية إزاء الآخر الداخلي:

المقصود بالآخر الداخلي هم الأفراد أو الجماعات التي أعلنت عدم الطاعة للأمير وحاولت صدّه عن مواجهة الاحتلال بالطرق العقلية و الإستراتيجية، و قد نال هذا الطرفُ قسطاً وافراً من السرد الروائي ضمن نص كتاب الأمير، و ذلك بسبب الطبيعة التي يتمتع بها، والمتمثلة في تَمَيُّزِهِ بِتَمَوُّقِهِ ضمن الجغرافية التي تعيش عليها الأنا و الممثلة في الرواية بالأمير الشخصية الفاعلة ضمن البرامج السردية، و يمثل هذا الطرف ما يسمى في العرف السياسي الاجتماعي الإسلامي بالرعية⁽¹⁾ أي جملة القبائل العربية و الإسلامية التي تَحَمَّلُ عبد القادر الإمارة عليها، و لقد استعملت شخصية الأمير جملة من الملفوظات لأجل إزاحة ضبابية المشهد التي كانت تغشى عيون هذه الرعية، و حاول أن يوضح البون الذي كان يفصل الأنا عن الآخر من ناحية بقاء الأولى على استخدام آليات قديمة لتقمص الهوية الحقيقية، إذ إن الأولى لا تزال ترزأ تحت وطأة النظرة إلى الماضي، و الثاني تفتن إلى أهمية استحداث آليات جديدة لمواجهة هذا العصر، و لذلك نجد ملفوظاً أميرياً ترافقه الحسرة الشديدة يُقر برفض هذه النظرة لعدم جدواها، إذ قال الأمير عبد القادر: "كلما سمعت أن مجنونا احتلّ عقليات الناس أشعر بهول المسافة التي مازالت تفصلنا عن أعدائنا الذين تسيرهم المصلحة و العقل"⁽²⁾.. نعم المصلحة والعقل النابتان من الالتزام بالفهم الواقعي المفلق لكل فهم آخر بعيد عن العقلانية المتهورة، ولقد قال الأمير هذا الملفوظ في حق شخصية موسى الدرقاوي⁽³⁾ الذي أراد منازعته في السلطان الذي ناله بطريقة البيعة ذات النّفس الديمقراطي، و قد انطلقت هذه المنازعة بدافع النزوة الذاتية التي تكونت لدى هذه الشخصية و غيرها من الشخصيات التي دفعته ظروف الاحتلال إلى جذب الناس نحو زعامتها، و لقد بدا للأمير بحكم نظره الثاقب أن الغرض من هذه الحركات يبدو بقصد تفتيت المكون الهووي الذي يعطي للمجتمع قوته، و هو ما عمل الأمير على استبعاده .

⁽¹⁾ الراعي هو كل من وُلِّي أمر قوم و جمعه رعاة، و راع الأمر أي حفظه، و الرعية هي الماشية الراعية المرعية، و أرعيت عليه أي أبقيت عليه و ترحمته، و منه دُعي القائم على أمر الأمة بالراعي لأنه يحرص على رعاية شؤونها. ينظر: الفيروز آبادي، المعجم المحيط، ص 1289.

⁽²⁾ الرواية، ص 197.

⁽³⁾ ينظر: التفاصيل في الرواية ص 134 و ما بعدها.

لقد أوقعت إخراجات الأحداث التاريخية الكثير من الشخصيات في مساحة ضيقة، بحيث أصيبت هذه الشخصيات بالأذى النفسي و الجسماني، و لقد توسلت شخصية الأمير ضمن برامج السرد آلية التحمل و الصبر على التبعات قصد صد صدمة هذه الإخراجات بله عدم التفريط في المسؤولية التاريخية التي كُلفت بالحفاظ عليها، و لقد استعان عبد القادر بالمخزون الثقافي الذي تحصل له طيلة اختلافه على زوايا العلم و على الشيوخ، و قد كان هذا المخزون الفكري بالنسبة للأمير بمثابة النموذج الذي ينبغي أن يُتخذ كمقياس يستعين به لأجل تحديد قيمة الأشياء و كذا اتخاذ الموقف الصائب تجاهها، أو بتعبير أوضح الذي يؤدي دور المثال، و لكن الواقع الذي تسير مجرياته على غير ما نريده كان يشكل بين الحين السردى والآخر الإعاقة لما كان يبتغي الأمير تحقيقه في السياق التاريخي لرعيته، و بالتالي كان الملجأ الوحيد في هذه الحالة، الوقوف في الطريق الوسط بين التراث الذي يمثل النموذج و المثال في القضايا، و بين الواقع الذي كان الإنسان يحاول صناعته على حسب مصالحه و قناعاته على أرض أناء، و عليه يمكن القول على الأمير عبد القادر على أنها شخصية: "تغلو في المثال، و تدنو من الواقع"⁽¹⁾، و هي إلى جانب ذلك تتجنب أن تكون لها صوت مفرغ من محتواه لا صدى له، لأن مثل هذا الصوت يُعرضُ صاحبه لنقمة الخروج من التاريخ⁽²⁾، و كان الأمير يدرك أن الأنا العامة التي تمثل الرعية المبايعة و غير المبايعة كان يشوبها نوع من البعد عن الواقع الراهن آنذاك، لذلك انتهى إلى معرفته أن: "إخراج الناس من دائرة القبيلة، و من منطقتها و لغتها يحتاج إلى زمن، و إلى تجربة في الساحة"⁽³⁾، و لقد تحملت شخصية الأمير تبعات هذه المهمة، إذ نجد أن اللغة السردية التي صنعتها أنامل الروائي استطاعت أن تصور التعامل ذا الحدين: السليبي والايجابي الذي ساد البيت الداخلي للأمير، فأما الأول فيتمثل في المواقف التي كانت تمثل الحواجز التي كانت تحول دون إنزال المشروع الأميري الذي يهدف إلى جعل المجتمع يواكب التحضر الذي حصل لفرنسا و لنظيرتها من أوروبا، و هذا الموقف هو الذي يمثل الآخريّة الداخلية، و أما الثاني فيتمثل في الطرف الذي واجه به الأمير سلبية الطرف الأول، إذ تُبينُ لنا لغة الراوي ضمن برنامج سردي ينتمي إلى وقفة ضيق المعابر مدى الوعي الذي وصل إليه

⁽¹⁾ مصطفى عبد الغني، قضايا الرواية العربية، الدار المصرية اللبنانية للطباعة، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص27.

⁽²⁾ إسماعيل نوري الربيعي، الهوية الزمنية نزيف الذات العربية، الفكر العربي المعاصر، ع 48-49، 1988، ص137.

⁽³⁾ ينظر: الرواية، ص115.

المقابل الموضوعي للآخر الداخلي، فقد لخص أحد الخلفاء المخلصين للأمير الأطراف التي تمثل الآخريّة الخارجيّة في ملفوظ وجيز في كلماته و كبير في معانيه قائلا: "يا سيدي أنا لم أتحدث عن الاستسلام، تحدثت عن عما يجب فعله بعد صمت سلطان المغرب و خنوع الباب العالي- أي الأتراك- و تردد الانجليز و غطرسة الغزاة"(1).

3.1.2.1-إظهار حقيقة الهوية إزاء الآخر الخارجي:

إن المقصود بالآخر الخارجي المختلف عن الأنا من حيث التوجهات الكبرى التي يبنى الإنسان من مادتها الخام أسس التعامل في حياته، و من بين انشغالات التوجهات الكبرى المكون الهوي، و يشكل هذا الأخير نقطة التقاء وافتراق في ذات الوقت، إذ إن الالتقاء يتمثل في أن هذا الآخر يملك هوية خاصة به مثل ما تملك الأنا هوية خاصة بها، و يعمل على توفير المناخ المناسب لأجل الدفاع عنها، أما نقطة الافتراق فتتمثل في الخصوصيات التي تتفرد بها كل هوية على حدة، و بالتالي تنشأ عن هذه المسألة دائرة من التفاعل بين هوية الأنا و هوية الآخر، و يمكن لهذا التفاعل أن يتخذ شكلا سلبيا أو شكلا ايجابيا أو حتى شكلا وسطا، و يظل الحكم الفصل في هذه القضية للتاريخ بأحداثه التي وقعت و لا مناص في تفادي عدم وقوعها، و يمثل التاريخ في هذا الحالة الهوية الجمعية التي اشترك الكل في تأسيسها و تكوينها، و بين هذا و ذاك صارت: "ذاكرة العرب مشحونة بذاكرة تاريخية عجّت بمدخلات سلبية مع الآخر، سواء أكان التهديد من الشمال أو الشرق تدميرا، أو الغرب استعمارا، أو الجنوب تطويقا"(2)، و بالتالي صار من الضروري توسيع الاحتكاك مع هذا الآخر انطلاقا من أن معرفته صارت بدورها تشكل: "هاجسا ملازما للشعوب و الحضارات"(3).

لقد انعكست أشكال هذا التفاعل المذكورة سابقا على النصوص الأدبية و بخاصة السردية، و لا سيما نص كتاب الأمير الذي اقتنص لحظة تاريخية حاسمة و حرجة، على أساس أن عينة الأنا التي تم انتقاؤها من طرف الروائي تمثل نموذجا فريدا في التاريخ، إذ نجد أن الروائي

(1) الرواية، ص313.

(2) سيار الجميل، التحولات العربية إشكالات الوعي و تحليل التناقضات خطاب المستقبل، الأهلية للنشر، الأردن، عمان، ط1، ص115.

(3) عبد الله إبراهيم، السردية العربية، ص33.

قد سجل تفاعل هذه الشخصية ضمن شكل الوعي الذي جمع بين التراث من حيث القراءات التي قدمها الأمير ضمن السرد و اقتنع بها، وبين الفهم الراهن للفترة الأميرية المتعلق بإستراتيجيته في التحضر و التي تقضي بأن يطرأ التغيير في طريقة التفكير التي يتوسلها الفرد لتأسيس وجوده ضمن الجماعة التي ينتمي إليها، و لقد كرس اللغة الروائية هذا الشكل في جملة الملفوظات التي وجهها الأمير بلغة السارد التي يغلب عليها التخييل تارة و بلغة المراسلة الرسمية تارة أخرى⁽¹⁾ والتي تغلب عليها اللغة الموضوعية المباشرة ، مع الإشارة أن الرسالة التي تحملها لغة الروائي تغدو حاملة لمفهوم الخطاب⁽²⁾ الذي يتقصّد من ورائه إيصال أفكار محددة لأجل إلحاق التأثير بالمتلقين، و لقد اتبع الأمير لأجل تحقيق التحقق الهووي إستراتيجية محكمة، إذ بدأ بمحاولة التغلغل إلى الجوهر النظري الذي بنى الاستعمار الفرنسي عليه أسس خلفيته الفكرية، وتغيا من أجل ذلك سبيل تفعيل الوعي الذي يوصل إلى الفهم الواقعي للآخر، و يتجنب الفهم النخبوي المحصور في زاوية وحيدة، و بالتالي يتم تكسير حالة التضاد بين الخطاب و الآخر⁽³⁾ ، لأن الفهم الواقعي يخضع للمرحلة الراهنة و لا يتجاوزها إلى الأخرى حتى يستوفيها حقها، وبالتالي يُلْزَمُ الواقع في هذه الحالة صاحبه بالمتابعة الدائمة لمجريات الأحداث التي تصنعها يد الإنسان و تدفع بها إلى التاريخ كي يجعلها من مواده الأساسية التي تشكل بدورها الذاكرة الجمعية للأمم، و لأجل ذلك اعترف الأمير لدوميشال على أنه: "قائد كبير...أحرق المحاصيل ..و لكنه لم يخن أخلاق القائد منذ أن وقّع الاتفاقية معنا"، و هذا الملفوظ يحسب للآخر أكثر مما يحسب للأننا، بيد أن في مواقف أخرى نجد آراء الأننا مغايرة عن القادة الآخرين، الذين انتهجوا سبيلا آخر يتمثل في فرض التأثير بالقوة، و انعكس هذا السبيل المنتهج من طرف الآخر المحتل إيجابا على الأننا الأميرية لأنه شكّل لها دافعا لإرساء حقيقة ضمن ثقافتها مفادها أن: "القوة لا تواجه إلا بالقوة"⁽⁴⁾ .

⁽¹⁾ المقصود توظيف الروائي لجملة من المراسلات الرسمية في البرامج السردية، و قد تتحول هذه المراسلات من لغة الأمير الأصلية إلى لغة السارد،

⁽²⁾ للرسالة مفاهيم متعددة تبعا للميدان المستعملة فيه، ينظر لأجل التفاصيل المفيدة: سحر كاظم حمزة الشجيري، نظرية التوصيل في النقد الأدبي العربي الحديث، ص174 و ما يليها.

⁽³⁾ ينظر: سيار الجميل، التحولات العربية و إشكالات الوعي، العرب و المستقبل و الآخر، ص138.

⁽⁴⁾ عبد الله إبراهيم، السردية العربية، ص33.

تتواصل البرامج السردية راسمة مواصفات الإستراتيجية التي اتخذتها الأنا من أجل المحافظة على إنيتها أو على هويتها، و تُطْلَعُنا الملفوظات المستعملة في لغة السرد على التزعة الإصلاحية المتبعة من طرف الأمير و التي تختلف عن التزعتين الإحيائية والتجديدية إذ تقضي الأولى بإخراج المساحات المعرفية المغمورة من تراثنا و من ثمَّ إقحامها ضمن المعترك الثقافي للمجتمع على أساس الاكتشاف، أما الثانية فتقضي بمحاولة التوفيق بين هذه المساحات المعرفية المغمورة و بين مستجدات الواقع، و كلا من التزعتين لا تتعرضان إلى جوهر الظاهرة، إلا أن الإصلاحية التي تقضي بالبحث في مدى سلامة الأدوات المتبعة من طرف المنشئين لعلوم و فنون التراث هي الأقرب إلى الاختيار الواقعي، و لقد بدا هذا الاتجاه هو الاختيار الذي وقع عليه الأمير في خلال مخالطته لرؤى الآخر⁽¹⁾، فنراه يعقد مقارنة لأحداث وقعت على أرض الآخر تقارب إلى حد بعيد نظيرتها الأخرى التي كانت أرض الأنا مسرحا لها، ومن بينها حديثه عن قطع رؤوس البروتستانت و رمي الجثث في نهر اللوار الذي يماثل إلى حد بعيد المصير الذي واجهه العلماء و الخلفاء في الإسلام⁽²⁾، و بالتالي نلاحظ أن ملفوظات من هذا الشكل تنبئ عن رؤيا موافقة لطرح مفاده أن:" الواقع-ينبغي أن- يكون مرجعا يُحْتَكَمُ إليه في فهم النص و حل إشكالياته"⁽³⁾، و ليس العكس، و ذلك لتفادي الوقوع في مصيدة الذوبان في هوية الآخر بإغراق العقل في التقليد الفكري المبالغ فيه، و يقدم السارد الفعل الأميري ضمن البرامج السردية على أنه **الفعل** بحقيقته الدلالية و ليس على أساس رد الفعل، إذ في الحالة الأولى هناك إثباتٌ لفعالية القوة التي أخرجت هذا الفعل إلى الواقع، أما الحالة الثانية فإنها تعبر عن الآنية التي تقف في مقابل الثبات، و لقد اتخذ الأمير جملة من التدابير التي اجتهد في بلورتها بحكم تمرسه في مدرسة الحياة و مدرسة الكتب، و من بينها قيامه بسن نظام إداري للمقاطعات التي كانت تابعة لإمارته⁽⁴⁾، إلى جانب إصداره لكتاب **وشاح الكتائب** الذي سنَّ من خلاله تصنيف

(1) ينظر: يحي محمد، جدلية الخطاب و الواقع، إفريقيا للنشر، المغرب، 2012م-1413هـ. ص9.

(2) لقد جاء على لسان الأمير في الرواية ذكر علماء من التراث قُتلوا ظلما و عدوانا و من بينهم: ابن المقفع، الحلاج، ومنهم من أحرقت كتبه كابن رشد و ابن عربي.. ينظر: الرواية، ص146.

(3) يحي محمد، جدلية الخطاب و الواقع، ص12، الطرف الثاني للقضية يتمثل في نبذ التصور الذي يقضي باتخاذ النص مرجعا لمعرفة الواقع و حل معضلاته.

(4) ينظر: الرواية، ص119.

الرتب العسكرية⁽¹⁾، و يجدر الإشارة في هذا الصدد أن شخصية الأمير حرصت في انجاز هذه المشاريع على المحافظة الشديدة لطبيعة الجماعة التي تنتمي إليها و المتميزة بالميل إلى الاحتكام إلى الشرع الإسلامي مستمدا مقتضيات هذا الأخير من الحملة الفكرية التي تبلورت عبر السنين مُشكلةً هوية المجتمع الجزائري المتعدد الأطياف، و الدليل على ذلك حرصه على إعطاء أسماء مصطلحات مستمدة من التراث الإسلامي- المتخذ من طرف الأمير كمرجع أساسي للتفكير والتدبير- لتصنيفات الشارات العسكرية، و قد منح الأمير للجيش لقب **الجيش المحمدي** نسبة لاسم الرسول محمد صلى الله عليه و سلم، و وزع مُسمياتٍ على الأوسمة تناسب التشكيل الهووي، و من بينها **الشيعة المحمدية**⁽²⁾ الذي اقترحه الأمير تشجيعاً على المبادرة و العمل ضمن الجهاد و المقاومة، إلى جانب تدوين مصطلح **ناصر الدين**⁽³⁾ على مختلف الرتب العسكرية، و قد كانت الآراء الأميرية بمثابة الأفعال الكلامية التي تصدر عن جهة ذات سلطة مخولة لها من طرف الرعية المُمثلة في هذا المقام والسياق بصفة المأمورين، و كان الأمير يتغيا من وراء ذلك ترسيخ التشكيل الهووي في صغائر الأمور التنظيمية كي تترسخ في كباترها، و لقد استعان السارد بهذه القضايا لأجل تبيان الحرص الأميري على صد هجمة الاحتواء و الاستيعاب للهوية الأصلية التي كرسها الجانب الفرنسي في شكل الاحتلال السلمي، الذي يكرس بدوره لقاعدة علاقة الخدمة بين السيد و التابع⁽⁴⁾.

لقد حاول الآخر الفرنسي المكتمل في آخريته أن يُنزلَ هذا الاكتمال على الأنا الإسلامية في الجزائر، و ذلك بجعل هذه الأنا مقابلاً موضوعياً له، أو بمعنى أوضح بجعلها المطية التي يركبها ليعبر بها أشواطاً تنضاف إلى مسيرته الحضارية على حساب المجتمع الجزائري، وبالتالي يصبح التاريخ منقسماً بهذا الفعل إلى قسمين: الأول يتمثل في تاريخ المقموعين و الثاني يتمثل في التاريخ السلطوي، و لقد حاول الروائي إظهار ذلك من خلال ترك الحرية لشخصية

⁽¹⁾ لقد ضم هذا الكتاب أربعة عشر قانوناً ينظم التعامل العسكري، وقد تم وضع هذه القوانين بعد أن لب المتطوعين لتكوين الجيش المحمدي، ينظر لتفاصيل أكثر: الأميرة بديعة الحسني، أصحاب الميمنة إن شاء الله تعالى، ص 54-55، وينظر ذكر هذا الكتاب في الرواية، ص 283.

⁽²⁾ الرواية، ص 286.

⁽³⁾ الرواية، ص 286.

⁽⁴⁾ عبد الله إبراهيم، السردية العربية، ص 71.

الأمير للتعبير عن جملة من القضايا التي توضحت معالمها من خلال المحاورات التي كانت ساحة المنفى مسرحاً لها، مع العلم أن هذه الساحة تابعة بشكل طبيعي و كلي للجغرافية-فرنسا- التي يسيطر عليها الآخر، و لقد عملت جملة الملفوظات الموظفة في النص الروائي على الكشف عن هذه الظاهرة التي تسدي خدمة جليلة للدخيل، و تتمثل في التكريس الوهمي للحقائق و تغييب الحقيقة من التاريخ أو بتعبير فيصل درّاج حجب الحقيقي بالوهمي و تنصيب الوهمي مرجعاً للحقيقة⁽¹⁾، و بالتالي انتقل الأمير حسب الوقعة التاريخية إلى المنفى الذي ما كان في صيغة الاتفاق مع الجنرال لاموسير و ما كان أيضاً ضمن اختيارات الذات التي تحاول في كل الحالات إبداء الحرص على مقومات هويتها، و لكن التزعة التسلطية التي يمارسها الآخر صاحب الشأن في صناعة التاريخ بمثابته الغالب، أثبت إلا أن تُرغم الذات على السير في طريقها، و بالتالي ذاقت شخصية الأمير مع البقية من الذين رحلوا معه المعاناة بشكليها النفسي و الجسماني، و تعبر عن ذلك الشخصية الأميرية ذاتها قائلة: "و كنت أرى نفسي ضيفكم فجعلتموني أسيركم و أخذتم تعددون علي أموراً قمت بها دفاعاً عن أهلي و أرضي و ديني"⁽²⁾، و بالتالي أراد هذا الذي يُدعى آخراً، على الرغم من أني لا أستسيغ له هذا المصطلح⁽³⁾، أن يدفع بالشخصية الأميرية إلى الرضوخ إلى الأمر الواقع المتمثل في تقبل وضع الوقوع في المنفى الأسري أو الأسر المنفاوي، ولكن هذا الأخير لا يعتبر واقعاً ثابتاً في معتقد الفكر الأميري، بل هو من الواقع الذي في الإمكان تغييره إلى واقع تحافظ فيه الذات على مقوماتها الهويّة، لأن الحالة التي يريد هذا الآخر ترسيخها في ذهن الأنا هي التخلي عن الأمل في الحصول على الحرية، و لكن موضوع الحرية تشكل عند الذات الأميرية خطأ أحمر لا يمكن تجاوزه، ولقد أورد واسيني في مستهل الرواية النص الأميري المشهور عن الحرية الذي يقول فيه: "لو وضعت كل كنوز الدنيا تحت قدمي،

⁽¹⁾ ينظر: فيصل دراج، الرواية و تأويل التاريخ، ص93.

⁽²⁾ الرواية ، ص527، وينظر نفس المعنى للعبارة مع إضافة: "و لكن الخزي و العار سيلتصقان بكم و ليس بي" ضمن كتاب: شارل وستون تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر: أبو القسم سعد الله، ص252.

⁽³⁾ لأن الآخر لا يظهر العدواة و الاعتداء بل يبدي الوجه الصحيح للآخرية و هو الإنسانية التي يشترك فيها بني الإنسان كلهم، و بالتالي انسلخ الآخر عن آخريته و تظهر بمصطلح يلائم السياق التاريخي التي وضع فيه نفسه، فآخر هو بمثابة الجار و هذا الأخير إذا تجاوز الأدبيات المتفق عليها بين الناس صار غير ذلك، لأجل ذلك المعتدي لا يمكن أن يكون حاملاً لصفه الآخرية الجامعة بين الناس، البحث.

ولو خُيِّرَت بين هذه الكنوز و بين حريتي، لاخترت حريتي"⁽¹⁾، نعم إنها العبارة التي سمعها الأسقف ديبوش من دخيلة الأمير، و أكدها الراوي جون موي المخلص في خدمة الأسقف بقوله: "أكبر أذى يصيب الإنسان هو أن تسحب منه حريته"⁽²⁾، و يدخل هذا الأسقف ضمن السرد على أنه الآخر الذي يحمل الموضوعية في أفكاره و يصدر بذلك أحكاما تبتعد عن الذاتية التي تسيطر عليها العقلية القمعية السارتارية⁽³⁾ التي تمثل الآخر على انه الجحيم، و بالتالي أسند السارد مجمل الحوارات التي دارت في الرواية إلى العمل الذي شرع فيه هذا الأسقف و المتمثل في **تخليص** الأنا من الأسر الذي أرغمه الآخر السليبي على قبوله، و لقد انطلق ديبوش من الحديث العقلي المنطقي الذي تلقاه من الرد الأميري على طلبه لتحرير الأسير ماسو زوج المرأة التي توسلت إليه حينما شغل منصب المكلف بمالية الكنيسة في الجزائر، و لقد تمثل الرد في رسالة الأمير التي يقول فيها: "و مع ذلك اعذرني أن أسجل ملاحظتي لك بوصفك خادما لله و صديقا للإنسان، كان واجبك أن تطلب مني إطلاق كل المساجين المسيحيين.. و ليس سجيننا واحدا كائنا من يكون، و كان لفعلك أن يزداد عظمة لو مسَّ كذلك السجناء المسلمين.." و قد فعل هذا الملفوظ الكتابي فعله في نفسية الأسقف ديبوش، نظرا لاحتوائه على شروط نجاح الفعل الكلامي، و المتمثلة بوجه عام في احترام السياق و كذا إقحام المسالك اللغوية اللسانية التي تناسب المقام، إلى جانب تضمين الملفوظ القوة الإنجازية التي تعمل على إيصال الإقناع إلى الطرف المخاطب و هو هنا ديبوش، و تمثلت هذه القوة في تضمين الأمير لملفوظه وسائل حجاجية ذات طبيعة عقلية، و لقد تمثل الأثر الذي أحدثه الملفوظ الأميري في إحداث العودة والأوبة إلى المعرفة الذاتية، و محاولة مراجعتها من جديد، إذ بمجرد ما قرأ الأسقف ديبوش الرد الأميري أصيب بنوع الدهشة و الذهول، فقد غابت عنه المعاناة التي لاقتها الأنا المأسورة في السجن الفرنسية الممثلة للآخر، و تراءت له فقط معاناة الآخر عند الأنا، كأن الموقف سيميائيا

⁽¹⁾ الرواية، ص 537 وينظر نفس المعنى و لكن بعبارات أخرى مخاطبا الجنرال بيجو: "لو أن خزائن الدنيا فتحت أمامي و اقترح على وضعها في جهة و حريتي في جهة أخرى، لاخترت حريتي، إنني لا أطلب جزاء و لا شكورا. إنني أطلب تنفيذ الالتزامات التي التزم بها نحوي"، ينظر: شارل تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر: أبو القاسم سعد الله، ص 264.

⁽²⁾ الرواية، ص 242.

⁽³⁾ "الجحيم هو الآخرون" جان بول سارتر، ينظر: جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، ص 320.

وعلاماتيا⁽¹⁾ و تناصيا يشبه إلى حد قريب ما حدث لقوم إبراهيم عليه السلام حينما رد على سؤالهم: " قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتَةِ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ " وكان الجواب: " قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ " و بالتالي كان الأثر في : " فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ، ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ " ⁽²⁾ ، و كذلك حدث لديوش ما حدث لقوم إبراهيم عليه السلام، غير أن الفعل الكلامي الأميري كانت نتيجته التوفيق و النجاح، أما قوم إبراهيم عليه السلام فقد تناقضت دخیلتهم النفسية المقتنعة مع السلوك الصادر عنهم، و هذا هو السبب في عدم نجاح الفعل الكلامي الذي أرسل إليهم، أما السبب في التوفيق الذي حصل للفعل الأميري فيعود إلى خضوعه إلى إخراج ديوش للاقتناع الذي حصل له في شكل فعل تجسد في الواقع التاريخي قبل أن يتجسد في الواقع السردى، أي أن الطرف المستقبل للملفوظ الأميري كان أهلا للتقبل، لأجل ذلك ترك هذا الفعل الأثر في سير الأحداث في الزمن⁽³⁾، و التي بنى بها الروائي برامج نص كتاب الأمير السردية، و تبين المواقف التي صدرت من ديوش لصالح الأمير امتداد و بقاء هذا التأثير في سلسلة الأحداث، وقد تكللت هذه المواقف على حسب السياق السردى بأن يسترجع الأمير و من معه حريتهم، و كذا انتقلهم إلى تركيا ثم دمشق و هما المكانان اللذان كانا في اختيار الأمير، و لقد كانت الساحة السردية مسرحا للحوارات التي دارت بين ديوش و الأمير في منفاه القسري-قصر أمبواز Amboise. بمدينة تور Tour على أرض الآخر السليبي، بحيث أدار من خلالها السارد أهم التيمات التاريخية التي كان يود إبرازها، و من بينها الاستفهام غير البريء و المقصود و الموجه إلى الأمير عبد القادر بخصوص الذبح الذي طال المائة وسبعين أسيرا فرنسيا في سيدي إبراهيم⁽⁴⁾، من طرف صهر الأمير بن قهامي الذي استخلفه الأمير حينما ذهب إلى بلاد

⁽¹⁾ ينظر: أحمد يوسف، الأدبي الأيديولوجي في رواية التسعينات، الملتقى الخامس لقسم اللغة والعربية و آدابها، المركز الجامعي بسعيدة، 16/15 أفريل 2008، منشورا دار الأديب، وهران، الجزائر، 2008، ص246، و في الصفحة بين الناقد أهمية السيرورة السيميائية التي تنتقل من العلامات إلى الدلالات.

⁽²⁾ الآيات على التتالي: 59-63-64-65 من سورة الأنبياء.

⁽³⁾ ينظر: نبهة قارة، الفلسفة و التأويل، درا الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، يناير 1998، ص86.

⁽⁴⁾ الرواية ، ص399، ص415، في الأخيرة ورد استفهام ديوش للأمير عن الحادثة .

القبائل⁽¹⁾ لإسكات نار الفتنة و لتثبيت خليفة آخر قادر على مواجهة الجديد من المواجهات الاحتلالية، و لقد كان الرد أقسى من السؤال و هي عادة المثقف العربي المسلم الذي نهل من البلاغة التي تحت على إشباع المستفهم بالأجوبة التي تثير آليتي التعجب و الحيرة الكامنتان في دخيلة المتلقي، و الذي يمثل في هذا المقام الأسقف، و لقد قدّم الأمير بالمقابل حُجَجًا لا يكاد ديوش الهروب من جديتها و قوة حمولتها الدلالية، إذ جاء في رده ما مفاده أن التاريخ ينبغي أن ننظر إليه بكلية لا من الزاوية التي تخدم ذاتيتنا على حساب الذوات الأخرى، و ذكّر الأمير الأسقف بما فعله النقيب بليسيه Pélissier بتاريخ 18-19 جوان 1845، حينما هُتّم قبائل أولاد رياح بمغادرة أراضيها حفاظا على الأرواح و الشرف، واهتدت إلى فكرة الاحتماء بالجبال كما كان يفعل السابقون، فكان كهف الظّهرة⁽²⁾ هو مقصدها، و لكن التعنت الذي أبدياه كل من النقيب المذكور اسمُهُ و الجنرال بيجو حوّل كل الذين كانوا في الكهف نساء و رجالا وأطفالا و حتى الحيوانات إلى جثث متفحمة، إنها النازية الفرنسية التي قاومت النازية الألمانية و نقلت السيناريو إلى أرض المسلمين، و قد أضاف الأمير على ذلك لأجل إشباع جوع السائل أنه لم يكن الدافع من قتل المساجين هو الانتقام الذي يعتبره الأمير شيئا بذيئا، بل التباطىء و التهاون الذي أبداهما بيجو تجاه إيجاد حلٍّ للقضية، و بالتالي استطاع أن يهندس به صناعة المقام والسياق الذي تم من خلاله تصفية الأسرى، و لم يكن مصطفى قهامي إلا شخصية ممثلة للحلقة الأخيرة

⁽¹⁾ القبائل لفظ تداولي-معنى متداول و متعارف عليه- في المجتمع الجزائري و يعني الأمازيغ الجزائريون الذين لازالوا الحد اليوم محافظين على لغتهم "التيفيناغ"، و يتركز معظمهم في الشمال الجزائري أين تقع محافظاتهم- تمركزهم- الإدارية و التي من بينها: تيزي وزو، و بجاية و بومرداس، كما نسجل أقاليم أخرى تقترب من حيث اللغة إلى الأمازيغ و هي الشاوية في الشرق الجزائري و التوارق في الجنوب و بني ميزاب أهل المذهب التيجاني في ولاية غرداية بالقرب من الأغواط التي استوطنها محمد ولد الصغير التيجاني الذي شق عصا الطاعة على الأمير، الموسوعة الحرة.

⁽²⁾ الظهرة هي سلسلة جبلية بولاية مستغانم بالغرب الجزائري، و تنتمي قبيلة أولاد رياح التي اقترفت في حقها الجريمة إلى البطل القومي الشريف محمد ابن عبد الله الملقب ببومعزة، أما المغارة فتدعى: غار الفراشيش، و هناك محرقة أخرى لا تقل بشاعة عن السابقة و قد وقعت على بعد 5 كلم من الظهرة بمغارة تدعى شعبة البير، و لقد تمت هذه الجرائم بعلم من بيجو bugeaut و حاكم الشلف سانت أرنو saint Arnaud، و يبدي هذا الأخير اعترافات تاريخية ضمن رسائل بعثها لأخيه، و لا غرابة أن يدلي الآخر السلي البالغ درجة من السلبية القصوى بالقول: "أن جلد آلات الطبل التي ترافق الحملات الحربية أعز عندي من هؤلاء العرب الحقراء" -الترجمة للباحث-، ينظر هذه التفصيل :

Histoire de mazouna , Moulay belhamissi, SNED,Alger,1981, pp67-68-71. « Le texte est plus long ».

من الخطة التي أنتجت لنا سرديا هذا الفعل. إن الحالة الحرجة التي وقع فيها خليفة الأمير على الزمالة كان يُعبر عنها الأمير بعبارة "ضيق المسلك و انطفاء الرؤية"⁽¹⁾، و هي ذات العبارة التي نجا بها مصطفى بن قهامي من عتاب الأمير له على حادثة التخلص من الأسرى.

لقد تأرجحت غايات استفهامات ديبوش بين إشباع الحاجة المعرفية و بين التوصل إلى تكريس وقائع تعود على الأفعال الفرنسية في الجزائر بالإيجاب، و ينطلق طرحنا لتعدد هذه الغايات من أن الاستفهام في علم المعاني يتخذ له مسارين الأول: مسار الغرض الحقيقي و الثاني يتمثل في مسار الأغراض غير الحقيقية⁽²⁾، و ضمن هذه الأخيرة استطاع الروائي عبر ديبوش أن يوصل جملة من الخطابات التي تعطي قراءات أخرى لوقائع تاريخية ظلت ترزأ تحت نير القراءة التاريخية الموضوعية التي سطرها أيادي المؤرخين، و لقد ذكرنا مثال حادثة التخلص من الأسرى الفرنسيين على يد مصطفى بن قهامي على أساس أن الأمير خالف المبادئ التي آمن بها و قررها كتعليمات على الرعية، و يعتبر استفهام ديبوش من باب الاستفهام الذي خرج عن حقيقته و التي هي محاولة التعرف على الأشياء التي نجهلها، كما نجد إستفهامات أخرى أثارت نفس القضية ضمن المسار السردى، و من بينها الحوار الذي دار بين الجنرال كوري دو كونيو courbet de cognod الذي تم إنقاذه من طرف لالة -ممعنى السيدة المحترمة ذات الشرف و النبل- الزهراء والدة الأمير، إذ نجده يثير المسألة مع الأمير بعد أن تحصل هذا الأخير على رسالة التحرر من نابليون الثالث، فما كان من الأمير إلا أن ذكره بمحرقة النقيب بليسيه الذي تمت ترقيته مكافأة على مجزرتة في حق أولاد رياح، فما كان من هذا الجنرال إلا التزام الصمت إزاء المحاورة، و هكذا ظلت تيمة سيدي إبراهيم تتكرر ضمن المسالك السردية، و هذه المرة حدثت مع مصطفى بن قهامي للمرة الثانية على أرض الآخر بعدما تلقى الأول من الثاني اللوم والعتاب، و لكن هذه الكرة وجد الحدث السردى بن قهامي على فراش المرض و بالتالي علم الأمير أن الرجل الثاني في جماعته لا يريد لقاء من ألحقوا بأولاد رياح الحرق و بمن قطعوا رأس

(1) ينظر تفاصيل الحوار الحجاجي الأميري مع ديبوش ضمن الرواية : ص415-416، أما تفاصيل الحادثة في الرواية ص399.

(2) الاستفهام بلاغيا هو من أنواع الإنشاء الطلبي و هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل و هو الحقيقي، أما غير الحقيقي فيخرج إلى معاني أو أغراض أخرى تُفهم من السياق الكلامي كالنفي و الإنكار و التقرير و التعجب والتمني و التعظيم... ينظر: محمد سعيد اسبر، الشامل في علوم اللغة العربية، ص94-95-69.

أخلص الخلاء للأمير و هو سيدي مبارك، و قد شكّل السارد الحدث باستفهام ذي غرض غير حقيقي، مفاده طلب الاستزادة من الإيضاح من طرف السائل و هو بن قهامي من المسؤول و هو الأمير، و ما كان من هذه الأخير إلا أن يبين للمستفهم الاختلاف الذي لحق السياق التاريخي فأجابه مفندا: "...لم نعد في الوضع نفسه الذي كنا فيه سابقا..العالم يا سي مصطفى تغير..و نحن في عصر كل شيء تبدى لنا على حقيقته..و أننا كنا نعيش عصرا انسحب وانتهى"⁽¹⁾، و يتواصل الحوار بين الشخصيتين و يطرح بن قهامي استفهاما مفاده أن تواجههم بالمنفى و قبولهم به أفقدهم ما قاموا من أجله و هو حماية الأرض و الرعية، و بالتالي يعمل الأمير على التوضيح أكثر فيرد عليه بملفوظ قائلًا: "الأمك هي آلامى. هذا خيار لم نختره..أمّا نحن، فمنذ اليوم الذي قبلنا فيه إنزال السلاح و كتم صوت البارود، مُتْنَا و دخلنا برجل أولى نحو القبر..ينقصنا يا سي مصطفى قليل من العقل و الكثير من تأمل الأشياء، لاكما نريدها أن تكون و لكن مثلما هي في واقع الأمر ..يا سي مصطفى أنت مازلت مشدودا لعالم صنعناه ولكنه أصبح لغيرنا.." ⁽²⁾.

لقد أثارت تساؤلات ديوش قضايا حساسة في حياة الأمير، و عملت لغة السرد على تكريسها على لسانه، و من بين هذه المسائل قرار الاستقالة الذي حاول عبد القادر الإقدام عليه لولا تدخل الرأي المعبر عن الأنا العامة الواعية لأهمية القيادة الأميرية، و بين هذا وذاك كانت الملفوظات الصادرة عن ديوش تنبئ عن إعجاب كبير بشخصية الأمير و تنبئ عن الكشف عن المساوئ التي عمل الآخر الفرنسي على درئها و حجبها عن ذاته، و من ذلك ما جاء على لسان ديوش عن الخيانة التي تلقاها من قادة الاحتلال فقال بضمير الجمع: "تحمل-أي الأمير-مضايقات سلطان المغرب و حصار القبائل والوديان المتدفقة قبل أن يحصل على الضمانات التي طلبها و التي لم نحترمها ، يجب أن نملك الجرأة لقول كل هذا"⁽³⁾، و نجد ضمن أحاديث ديوش الثنائية التي لم تكن تغادر التعرض لشخصية الأمير من زاويا متعددة تركيزا كبيرا على إبراز مظاهر الشخصية الأميرية، ولقد ظلت تيمة الإعجاب تتمظهر خلال الأساليب

⁽¹⁾ الرواية، ص591-592. سي: تعني في لغة التخاطب الجزائرية السيد و هي اختصار لها.

⁽²⁾ الرواية، ص592-593.

⁽³⁾ الرواية، ص47.

السردية من بداية النص إلى آخره، ذلك لأن شخصية ديبوش كانت بمثابة الشخصية القائمة بالفعل بعد الأمير، و ليس أدل على ذلك استهلال الرواية بحدث دال على وصول رفاة الأسقف إلى الجزائر عملا بوصيته⁽¹⁾، و كذلك كانت الخاتمة السردية و التي بدأت بعبارة: "ثم غادر موسينيور باقي المكان..."⁽²⁾، إذن لقد بدأت الرواية بحدث عودة رفاة ديبوش و انتهت بمراسيم إعادة دفن هذه الرفاة، و كأن طريقة السرد في ألف ليلة و ليلة لا تزال مع واسيني تصحبه في نصوصه السردية، بحيث نجد أن البداية تظل تشابه الخاتمة، إنها الكتابة الحلزونية إذا صح هذا المصطلح، بحيث تنتهي الأحداث في المكان الذي بدأت منه، و في هذا جلب قوي للقراءة عند المتلقي، و نعاين داخل النص السردى حضور شخصية ديبوش بإبداء آرائه حول الأمير و ما يتمتع به من صفات حميدة، حتى بلغ الإعجاب إلى تصريح الأسقف بأن الأمير يكاد يكون قديسا راهبا، و من الملفوظات الدالة على تشكل أثر عاطفة الإعجاب في نفسية ديبوش: "لو أن كل الفرنسيين عرفوا الأمير مثلما أعرفه اليوم، لأنصفوه في أقرب وقت.." ⁽³⁾، وكذلك قوله: "ما قام-أي الأمير- به تجاه الآخرين لا يمكن أن يقوم به إلا رجل عظيم"⁽⁴⁾، وقوله: "كيف يمكن نقل هذا العقل الصافي و هذه الموضوعية إلى الرئيس نابليون"⁽⁵⁾، و في خضم هذا الإبداء لعاطفة الإعجاب الذي يعبر عن مدى رغبة الآخر في ربط جسور الحوار مع الأنا الجزائرية الإسلامية، تبقى مسألة الاعتقادات الايديولوجية مطروحة بقوة ضمن النص الروائي الأميري، لأن إكراهات القوة الواقعية المستمدة من الميل الهوى للفرد و المجتمع من جهة و الانتماء القدرى للتاريخ من جهة أخرى يفرضان على الإنسان أن يبدي التعلق و التبعية لهما، و لا يستطيع أن يتعد عنها قيد أنملة و إلا انسلخ من هويته، و بالتالي طفحت إلى ساحة الرواية الصراعات الايديولوجية كنتيجة لذلك على الرغم من محاولة درئها من طرف الاستعمالات البلاغية المتنوعة، وتتعلق الأيدلوجيا أكثر بالتاريخ الذاتى الذي لا يستطيع أحد الهروب منه، ولقد اتخذت الطروحات الايديولوجية لها أمكنة إستراتيجية ضمن الفضاء السردى في الرواية أو

⁽¹⁾ الرواية، ص9 وما يليها.

⁽²⁾ الرواية، ص625.

⁽³⁾ الرواية، ص21.

⁽⁴⁾ الرواية، ص46.

⁽⁵⁾ الرواية، ص209.

كما دعاه أحمد يوسف بـ: "عرش النص"⁽¹⁾، و تعمل الإنزياحات الأسلوبية المستعملة على اكتشاف المواطن التي عمل المؤرخون بالتواطؤ على إخفائها تبعا للمضمون الإيديولوجي الذي يؤمنون به، هذا الأخير يكاد يكون له محل في كل النصوص الروائية، لأن كلا من الكاتب والشخصيات يعتبران أطرافا فاعلة في المجتمع، وبالتالي يتحتم عليهما تحمل المضامين الإيديولوجية التي تنتشر في مجتمعاتهم الأصلية، و في كتاب الأمير تظهر هذه المضامين بالشكل الواضح من خلال التلوينات التلفظية التي تنتشر ضمن الوقفات السردية، و تنطرح من خلال هذا السياق مسألة ضرورة توسل السيميائيات التي تنظر إلى السياقات الإيديولوجية في الرواية على أنها علامات تسكن عرش النص، و بالتالي يعتبر السعي نحو إخراج هذه العلامات سبيلا فعالا لتجنب سلبية عمل بلاغة الطمس⁽²⁾ المتمثل في حجب نصاعة المعنى و نضارة الحقيقة و إبدائها من دون قناع⁽³⁾.

3.2.1- رصد النمط الهوي العلائقي :

تظل تيمة التاريخ تتردد ضمن نصوص الروائي متخذة أشكالا لسانية مختلفة ومسالك فنية متعددة، و التاريخ يمثل في هذه النصوص الذاكرة التي يعمل الروائي -بصفته- منتمي إلى معشر المثقفين- بكتابات على تشكيلها و تكوينها، ومن ثم العمل على حفظها مما تتعرض له من أخطار، و بالتالي عمل السارد على انتقاء البعد الهوياتي من الذاكرة الجمعية كي يجعله مكونا هاما ضمن مكونات نصوصه على أساس أنه يمثل نواة هذه الذاكرة.

تعد الهوية العلائقية النمط الثالث بعد الشخصية و المعبر عنها و التي تنتمي إلى التصنيف الذي وضعه الباحث في علم النفس الاجتماعي ميكائيل هشت، وقد استمد هذا الباحث هذه الأنماط من خلال رحلته التمرسية على تتبع و رصد و دراسة تعامل الأفراد انطلاقا من المواقف و السلوكيات الاجتماعية و الثقافية التي يُصدرونها بإرادتهم أو بغير

⁽¹⁾ أحمد يوسف، الأدبي الأيديولوجي في رواية التسعينات، الملتقى الخامس لقسم اللغة والعربية و آدابها، المركز الجامعي بسعيدة، 16/15 أبريل 2008، منشورات دار الأديب، وهران، الجزائر، 2008، ص246،

⁽²⁾ أحمد يوسف، الأدبي الأيديولوجي في رواية التسعينات، مرجع سابق، ص245.

⁽³⁾ أحمد يوسف، الأدبي الأيديولوجي في رواية التسعينات، مرجع سابق، ص247.

إرادتهم⁽¹⁾ و التي تتجسد بشكل أكثر وضوحا في السياق التحووري ضمن صورته الواقعة تداوليا و فعليا، و يضطلع علم النفس الاجتماعي بتتبع أنماط السلوكيات الإنسانية بوجه عام مركزا على الخاصة منها، و التي تشكل منحرجات في سياقها الاجتماعي، و المقصود بالمنعرج أي ذلك السلوك أو الموقف الذي ينجر عنه تغيير يتكرس في السياق الاجتماعي للأطراف المتحاور، و يكون بارزا ظاهرا للعيان من حيث خروجه في شكل ملفوظ لغوي كامل المعنى والدلالة مثل تصريحات السياسيين أو المقالات و الكتب التي تسطرها أناملهم و تصوغها أفكار عقولهم، و غالبا ما تصدر هذه المواقف من الأفراد الذين يشكلون المعاملات *la coefficient* المرتفعة ضمن معادلة التغيير الاجتماعي، وهم النخبة و الصفوة التي تحصل لها الزاد القوي من الثقافة و من الخبرات المتعددة، و قد دعاهم مالك بن نبي بـ: "قادة السياسة، وقادة الثقافة"⁽²⁾، على أن المقصود بالثقافة ليس التمكن من العلوم فقط بل هي: "محيط يحيط به-أي الإنسان- وإطار يتحرك داخله، يغذي الحضارة في أحشائه، فهي الوسط التي تتكون فيه جميع خصائص المتحضر..تبعا لل غاية العليا التي رسمها المجتمع لنفسه...فهي تلك الكتلة بما تتضمنه من عادات متجانسة وعبقريات مختلفة، و تقاليد متكاملة و أذواق متناسبة، و عواطف متشابهة، و الثقافة هي كل ما يعطي الحضارة سميتها الخاصة..⁽³⁾".

يشير جون جوزيف في أثناء عرضه للأنماط الهوائية إلى أن الهوية العلائقية تمتاز بعدم الاستقلالية في الظهور، بل يتم تجسيدها من خلال نمط آخر، و بالتالي كل هوية تتصف بصفة العلائقية بحكم الروابط التي تصلها بالهويات الأخرى، و هذا لا يعني بأي حال من الأحوال الانتقاص من أهميتها، لأن الجزء يظل يحمل نفس الأهمية التي يحملها الكل، وانطلاقا من هذا الطرح انتقت تركة المضمون الهوائي شخصية الأمير عبد القادر لتكليفها بتحمل هذه المسؤولية

⁽¹⁾ يتولى علم النفس الاجتماعي دراسة هذه القضايا، و يعتبر من علوم السلوكيات و يركز أكثر على الأفكار المنتمية إلى دائرة الفهم العام-الأنا الجمعي- مثل فكرة حب الإنسان لذاته، و يعمل هذا العلم على اكتشاف حقيقة أفكارنا، ينظر: علم النفس الاجتماعي، وليم لامبرت و وولاس لامبرت، تر: سلوى الملا، مر: دار الشروق، بيروت-لبنان، ط2، 1993، ص: 17 حتى 20.

⁽²⁾ مالك بن نبي، مشكلات الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة و أحمد شعبو، دار الفكر المعاصر، لبنان-سوريا، 2002، ص77.

⁽³⁾ الرواية، ص115.

على أنها طرف جدير بذلك و تحقيق باستقبال مختلف العلائق التي جعلتها هذه الشخصية كقنوات تواصل بينه و بين الأطراف التي تشكل الأنا العامة، و بالتالي تحقق للأمير بعض النجاح في أوائل الساعات السردية من الرواية، و ذلك حينما راح يلقي بعض الإجراءات الفعلية لتوطيد العلاقات بين إمارته و بين القبائل المنتشرة على الأرض الجزائرية من جهة، و بين القبائل فيما بينها من جهة أخرى، مثل إصداره لأمرية عالية الإنجازية للأفراد المكونة للحاشية و لسائر القبائل الداخلة تحت طاعته، و تختص هذه الأمرية بمنع الإغارة التي كانت محسوبة على الأعراف التي سادت بفعل الجهل بالتعاليم الدينية الحقيقية، و لقد تكلل ملفوظ التعليمات الأميرية بالنجاح، إذ ظهر أثرها في تجسيد التطبيق من طرف المقربين بوجه عام، و نجد السارد ينقل لنا هذا النجاح المنطلق من ايجابية الصدى الأميري فيقول واصفاً: "الكثير من القبائل أصبحت تطالب بالانضمام تحت الراية السلطانية للأمير .. بنومناد ، بنو مناصر و شنوا و سومترا و موزايا.."⁽¹⁾، و يمثل هذا الانضمام الجماعي للقبائل الشكل المعبر عن نجاح القوة التأثيرية التي أحتوتها أقوال و فعال شخصية الأمير، و التي استطاعت أن تقهر بآرائها الكلامية و الفعلية التعصب الذي كانت تكنه القبائل تجاه بعض الأعراف السلبية كالإغارة مثلاً، الشيء الذي دعا الآخر الفرنسي إلى الاعتراف بهذا التميز و التفرد الأميريين، حيث جاء على لسان الكولونيل دوما ما مفاده: "و في هذه لا تشبه أسلافك الذين كانوا يحكم السلطان يقهرون شعوبهم ويستترفونها و يأخذون كل ممتلكاتها"⁽²⁾، نعم على هذه الشاكلة كانت تنبني كينونة وهوية الأمير سواء على أرض الواقع التاريخي أو على أرض الواقع السردية التخيلي، و بالتالي تصبح للدلالات و المضامين المبثوثة في أسلوب الرواية قوة تفعل فعلها في نفسية المتلقي كما فعلت فعلها في النماذج البشرية الممثلة للآخر، و كأن لفعل التناص دَخَلاً واضحاً في صوغ البرامج السردية، إذ نلفي صدى الكتابات النقدية التاريخية التي تناولت شخصية الأمير من جوانبها التي عُرفت بها ضمن السياق الموضوعي للتاريخ من حيث تصوفه و ثقافته و كذا سياسته في التدبير و التسيير، نلفي هذا الصدى ضمن السياق السردية اللغوي المستعمل من طرف كاتب رواية **كتاب الأمير**.

(1) ينظر : شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص300.

(2) الرواية، ص528.

لقد أظهرت الرحلة التي عقدها الكاتب مع شخصية الأمير ضمن الرواية، مدى متانة الأسس التي بنى عليها عبد القادر الشاب و القائد، الأرضية التي أرست عوامل البقاء الصامدة إذ ظلت هذه الأخيرة تحفظ له و لمجتمع الكينونة و الهوية الحقيقيتين، و لم يغير الاحتكاك الحضاري ضمن السنوات الخمس للمنفي الأمير عبد القادر كما حدث لإبراهيم باشا خديوي مصر الذي دخل باريس فرنسا زائرا و متجولا، و بالتالي خرج منها متأثرا بما رأى وما سمع و كذا مستلبا، و لأن الأمير دخلها ضمن سياق مغاير تماما، فمظاهر التحضر لم تفعل فعلها كما كان يتمنى الآخر الفرنسي، بل شكلت دافعا قويا للأمير كي يتمسك أكثر بهويته الإسلامية، فهو يصف هذا السياق بنفسه فيقول: "إبراهيم باشا رأى باريس و غيرها من أمصار فرنسا متنزها له يمرح كيف شاء، أما أنا فلم أرى فرنسا الآن إلا سجنا لي و لمن معي، فلا فرق إذن عندي بين هذا القصر و باريس"⁽¹⁾، و بالتالي شتان بين السياقين المتناقضين، ففي الأول كان الاختيار الذي كرسه الأنا مكرسا من طرف الآخر على أرضه بناء على قناعتها، أما في حالة الأمير فقد أصيبت الأنا بوقع الخيبة في نفسها، لأن الحرية التي ظل الأمير ينافح عنها طيلة السنوات الخمس عشرة التي امتطى فيها جواده في الجزائر قد سلبت منه بطريقة الغدر و الخيانة للعهد و الميثاق، و بالتالي تكلف منه ذلك تضييع خمس سنوات في الاستلاب الإكراهي، إذ إن الإستعمار الذي بقي على أرض الجزائر القرن و النصف القرن، ظل في نفسية الأمير و من جاء من صلب الأمير أكثر من ذلك، لأن إحساس القائد باستلاب⁽²⁾ الحرية لا يشابه إحساس الفرد العادي بل يتعداه إلى أبعد الحدود، لأن الحادي في المجتمع كالربان في السفينة، على عاتقه تقع مسؤولية من هم على سطح المركب، و تشير فاليري ماسو في هذا الصدد أن الهوية العلائقية تتكون عبر معبرين: أولهما مَعَبَر الهوية الأصلية *identité* racine، المتعلقة بثقافة الأسلاف *culture atavique* أما الثاني فيتمثل في معبر الهوية الفرعية *identité* rysome، المتعلقة بثقافة الآخر المركبة *culture composite*⁽³⁾، و بين الثقافتين

⁽¹⁾ الرواية، ص528.

⁽²⁾ الاستلاب حالة من يكون ملكا لشيء آخر غيره، ينظر: جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات الفلسفية، ص36.

⁽³⁾ le statut du personnage dans l'œuvre romanesque d'Edouard glissant, Valérie Masson Perrin, thèse de doctorat, UN Cergy pontoise, soutenu 16nov2006, pp171-172-173. « ..Edouard glissant distingue la culture atavique qui liée a la au statut de l'identité a racine unique, de la culture composite qui liée au statut de la culture rysome.. »

وقعت شخصية الأمير ضمن السرد التخيلي في مطب تاريخي ظلت تحاول إيجاد المسالك التي تعبرها لأجل التحصل على الحلول المقنعة، و في الأسلوب الروائي يجد القارئ توظيفات لغوية متنوعة للأمير ناتجة عن المواقف التي صنعها السارد لها، و يدلي الأمير في برنامج سردي عن ثقافة الأولين بالملفوظ الآتي: "قدماؤنا كانوا أفضل منا في التدبير العسكري خصوصا في الفترة الأموية و الأندلسية، نشعر بقوة التنظيم الروماني في صفوفهم، و نحن لم نصل بعد إلى اعتبار أن تقليدنا للجيش الفرنسي قوة و ليس تبعا"⁽¹⁾، و يتبين من الملفوظ الرؤيا التي كان الأمير يحملها عن التأسيس الحضاري، إذ وعى كما وعى الأولون أن الهوية لا تفرض على الفرد إعلان الاعتزال و الرفض لكل ما هو آت من الآخر المختلف عنا في البناء الهويي، و إنما السبيل السليم هو الحفاظ على الأسس المكونة لهويتنا، و كذا الانطلاق إلى ساحة الآخر شرط توفره على جانب التحضر، كي ننهل من المقومات التي اعتمدها في رسم طريق تحضره، و هذا الذي قام به الأمير حينما أخرج مصنف وشاح الكتائب⁽²⁾ الذي ضمَّ بين دفتيه القواعد التنظيمية للجيش الأميري، و قد سُمِّيَ بالجيش الحمدي نسبة إلى الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم، و التسمية تغني عن كل مقال، إذ تنبئ عن احترام ووقار كبيرين من طرف الأمير عبد القادر لهويته الإسلامية.

شملت مسألة الهوية العلائقية معظم الارتباطات التي تَخَلَّقت بفضلها العلاقات المتعددة بين الشخصيات ضمن البرامج السردية، و قد بدت هذه العلاقات مرتسمة على حسب المسافات التي تربطها بعضها ببعض، إذ نجد أن الأنا الأميرية حاولت أن تجعل من الرعية-على أساس القرب الهوياتي- شريكا لها في الاهتمامات الحضارية و ذلك بمحاولة تقريب مفاهيم التحضر إلى أذهانها، و نجد في الطرف المقابل الذي يمثله الأسقف ديوش مجريات نفس الفعل، أي بمحاولة هذا الشخصية ضم أكبر عدد من الشركاء الذين لديهم التعاطف نحو هوية الآخر الايجابي، أو حتى الذين انساقوا نحو الآخر السلبي الذي كان يفضل دائما الحلول العسكرية التي تؤدي إلى إنبات الحروب بدل من تفاديها و المحافظة على الأفراد في المجتمع، و ما ألفيناه ضمن هذه المفارقة بروز السياقات التي كانت تبرز الرغبة التي كان الأسقف يتمنى تحقيقها من خلال

⁽¹⁾ الرواية، ص 289.

⁽²⁾ ينظر: الرواية، ص 284 و ما بعدها.

محاولة إقناع الأمير إلى الانضمام إلى صفوف المسيحيين، وكانت هذه الشخصية تردد ملفوظات دالة على ذلك كلما عاينت في الأمير الصفات و المناقب التي تمنحه الشأن العالي، و بالتالي تزداد وتيرة عاطفة الإعجاب بفعل محادثة ديوش للأمير، قصد التعرف و الإطلاع على جملة الاجتهادات التي أقدم عليها في سنوات جهاده للاحتلال الفرنسي، و لقد ورد الملفوظ الأول ضمن السياق المنطقي للبرامج السردية دالا على رأي ديوش على لسان الراوي موبى و الذي يقول فيه: "منذ أن فاوضه في السجناء تأكد له أن هذا الرجل لو امتلكته الكنيسة في صفها لتحول إلى قوة كبيرة لمواجهة الخيبات والانتكاسات"⁽¹⁾، و تحدث الراوي كذلك عن حلم ديوش الذي عبّر عنه في كذا مرة منها قوله: "رأى مونسينيور ديوش الأمير وهو يركب القطار ليتلقى التعميد من يدي البابا الأكبر.." ⁽²⁾، و بالتالي راحت التمنيات التي كانت تعتمل في نفسية ديوش تنمو بحيث كان أحيانا يصرح بها للراوي الرئيس موبى وهو ذاته الخادم المخلص، فيقول له في إحدى محادثاته: "الأنانية مؤذية أحيانا، في البداية تمنيته-أي الأمير- مسيحيا،.. نلقنه تعاليمنا ليذهب بها إلى ذويه.. ولكن لا يمكن أن يكون إلا هو"⁽³⁾، أي لا يمكن أن يكون الأمير موجودا محققا للوجود بالفعل إلا بصحبة هويته الأصلية، إنه الصراع الأيديولوجي الفكري الذي سبق الحديث عنه، و تحاول لغة التخيل أن تكرسه ضمن البرامج الروائية بإعطائه غلاف إصلاح العلاقات الإنسانية بين بني الإنسان ذواتهم، و كان يتغيا السرد التخيلي من وراء ذلك تحقيق ما يسمى بالاندماج الاجتماعي و العقائدي⁽⁴⁾، و من أجل ذلك ظلت البرامج السردية الخاصة بالأنا الأميرية تحافظ على المحطات التي تحفظ ماء الوجه المتعلق بالهوية الحقيقية كلما وقع اللقاء مع طرفي الآخر المتمظهرين بمظهري السلبية و الايجابية، و تشكلت هذه المحطات السردية في العلامات الأيدلوجية التي اتخذت عرش النص مسكنها و صارت تتوافر

⁽¹⁾ الرواية، ص51.

⁽²⁾ الرواية، ص52. التعميد BAPTISM عمّد الطفل عند المسيحيين أي غسله بماء المعمودية فهو مُعمد، و يُعمد الطفل بعد 45 يوم من ولادته، ليتطهر حيث يدخل الماء بين ركبتيه جهة النجم القطبي و يوضع في يده خاتما أخضر من الآس، و

التعميد أنواع: عماد الولادة، عماد الجماعة، و عماد الأعياد، موقع معرفة الله. www.knowingllah.com.

⁽³⁾ الرواية، 248.

⁽⁴⁾ أحمد يوسف، تضائيف السرد و الأيديولوجيا، ضمن ملتقى الأدبي و الأيديولوجي في رواية التسعينات، مرجع سابق ص258.

على حس كبير بضرورة صون الهوية ذات المنحى الإسلامي، و المنافحة على حياضها و تحقيق التكامل في المجتمع الذي أزمع الأمير على تأسيسه في الشكل المتحضر الموائم للملابسات لعصر النهضة التقنية⁽¹⁾، و لذلك أنشأ السارد على لسان الأمير ملفوظا مطولا استغرق مساحة معتبرة من ورق الكتاب⁽²⁾، و تُركت الحرية الكاملة للأمير لإفراغ ما تُكِنُّه النفس من معاناة الأسر والمنفى الإكراهي، و التي كانت لها نتائج سيئة على مرافقي الأمير على أرض الآخر بداية من قلعة لامالق و وصولا إلى قصر أمبواز أين أمضى المنفيون و المأسورون سنين المعاناة، و كانت التيمة الرئيسة التي بُني عليها الملفوظ الأميري هي عدم وفاء الهيئات الرسمية الفرنسية بوعودها، على الرغم من تعلق هذا الأمر بشرفها و قيمتها بين بقية التجمعات الملكية الأوروبية، و يعبر الأمير عن ذلك فيقول مخاطبا الأسقف ديبوش: "إلى اليوم يا سيدي لم أفهم حالة التردد في الوفاء بالوعد الذي قطعته فرنسا على نفسها. لا أفهم كيف نعطي وعدا هو أصدق على الرجولة، في ساحة المعركة"⁽³⁾ و كأن القيم⁽⁴⁾ التي بنى عليها قادة الآخر التضامن بين شعوبهم و دولهم لا تصلح إلا لهم، أو لمن يشبههم في الرغبة التوسعية التي تستوعب جغرافية الأنا بالطرق الملتوية، و لقد اقترح ديبوش على الأمير كتابة التعهد بصيغة الطلب الذي غرضه الالتماس⁽⁵⁾، و لكن الأمير كان السبّاق إلى هذه الخطوة و عندما رأى إصرار الآخر على اعتبار الأمير أسيرا مسلوبا بدل من اعتباره منفيًا متمتعًا بحقوق المنفى، تأكد له الموقف الصريح الذي يقف عليه هذا الآخر بشكليه، و يلخص هذا الموقف قول الشاعر :

إنك أسمعت لو ناديت حيا لكن لا حياة لمن تنادي

⁽¹⁾ أحمد يوسف، تضاف السرد و الأيديولوجيا، ملتقى الأدبي و الأيديولوجي في رواية التسعينات، ص258. العلامات الأيديولوجية هي الأفكار التي تمثل المادة الخام في ذهن الفرد، لأن الأيديولوجيا هي علم دراسة طبيعة الأفكار بمعناها العام أو بوصفها ظواهر نفسية، و قد قال به الفرنسي ديستوت دو تراسي d'estutt de Tracy (1755-1836) في 18، ينظر: جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات الفلسفية، ص70.

⁽²⁾ الرواية، من ص502 إلى ص508.

⁽³⁾ الرواية، ص502.

⁽⁴⁾ تعتبر القيم من العناصر الحجاجية، ينظر: عمر بلخير، مقدمات في الحجاج و النص، منشورات مخبر الممارسات اللغوي في الجزائر، جامعة مولود معمري تيزي وزو، الجزائر، 2011، ص12.

⁽⁵⁾ الالتماس هو في النحو و المعاني الطلب من شخص إلى نظيره القيام بعمل شرط تساوي متزلة الطرفين، و هو من معاني الأمر و النهي، ينظر: إميل بديع يعقوب، موسوعة علوم اللغة العربية، ج2، باب الهزمة، ص428.

3.1 - المنحى الحجاجي في منظومة التلفظ الأميرية:

لقد استعانت شخصية الأمير بالأسلوب الحجاجي الذي يريد من ورائه المتكلم إحداث الأثر في نفسية السامع، لأجل دفعه إلى إخراج الاقتناع الجواني في صورة سلوك فعلي و موقف مجسد في الواقع الموضوعي، و بالتالي عمل الأمير على تطعيم هذا الملفوظ المطول بجملة من المقدمات الحجاجية⁽¹⁾ و التي من بينها:

1.3.1- الوقائع التاريخية: و هي التي يشترك في الاتفاق على معرفتها و الاعتقاد فيها

جميع الناس سواء من طرف الأنا الجمعية أو الآخر الجمعي، و تتمثل هذه الأحداث في المعاناة التي وقع فيها نابليون أسيرا حينما تمت خديعته من طرف المملكة البريطانية أين انقلبت حالته من منفي إلى أسير⁽²⁾ و شتان بين الحالين، و تشكل الوقائع التاريخية لقادة السياسة نقطة انطلاق الحجاج، و بالتالي جعلها الأمير ضمن كلامه .

2.3.1-الحقائق: و هي أنظمة أكثر تعقيدا من الوقائع، و تعمل على تشكيل منظومة

من الروابط التي تُظهر الوقائع المستعملة في شكل متكامل، و نلتبس أنموذج هذه النمط من العناصر الحجاجية في تعرض الأمير لإخبار الأسقف ديبوش عن مبادلة الرسائل بينه و بين وزير الحربية أراغو Aragon الذي شكّل رَدُّه أذى كبيرا في نفسية الأمير بسبب علمه و تأكده من أن هذا الوزير اقتفى أثر و نهج سابقه، و بالتالي بات الأمير تحت وطأة الأسر، و لقد جاء في رسالة أراغو Aragon ما يثبت هذا الطرح، و منها هذه الجمل:"إن الجمهورية لا ترى نفسها مُقيّدة مع عبد القادر بأي تعهد، و من هنا سنتعامل معه بحسب وضعيته السابقة، أي كسجين"⁽³⁾، و بالتالي يمكننا اعتبار هذه الرسالة حلقةً من الحلقات التي بدأها لاموسير الذي كان أول من وقّع الاتفاق مع الأمير، الأمر الذي دعا هذه الشخصية إلى التساؤل و الاستفهام بالملفوظ الآتي:"في كل الحقب التي عرفها عن هذا البلد، حافظت فرنسا دائما في إفريقيا على

⁽¹⁾ ينظر: عمر بلخير، مقدمات ف الحجاج و النص، منشورات مخبر الممارسات اللغوي في الجزائر، جامعة مولود معمري تيزي وزو، الجزائر، 2011، ص11.

⁽²⁾ الرواية، ص504، و في الصفحة رسالة نابليون الاحتجاج الشديد إلى الانجليز.

⁽³⁾ الرواية، ص503.

كلمتها التي هي دليل حقيقة و ميثاق شرف، و أنا مندهش من تصرفها .." (1) إنه تعبير يدي من ورائه الأمير انفعالا يكاد يكون أشد من طبعي، و لأن الدهشة هي المآل الوحيد للمنفى الذي سُلِبَت منه حرّيته، لأجل ذلك كان التعبير الأمثل بها و ليس بغيرها من الانفعالات.

3.3.1- الافتراضات: و تتميز هذه الافتراضات بوقوعها محل الاتفاق لدى الجماعة التي تُكوّن أطراف الحلقة الحوارية التواصلية، و شأن هذه الافتراضات شأن العنصرين السابقين، بيد أنها لا تكتسب القوة التأثيرية الحجاجية إلا عندما تكون في سياق العناصر الحجاجية الأخرى، و مثال ذلك ما قدمه الأمير من تعقيبات حول الأحداث التاريخية التي أُتخذت كمضارب أمثال ضمن سياق الرواية، فنجد الأمير ضمن برنامج سردي يحاول من خلاله أن يوصلَ استنتاجا ذا أهمية بناء على تذكير ديبوش بما وقع لنابليون مع الانجليز، و يتمثل هذا الاستنتاج في طرح مفاده هو قوله: "الظاهر أن التاريخ لا يفعل الكثير في البشر، يعيشونه يحسونه عندما يكونون قريبين منه، و لكن عندما تزداد الشقة بعدا ينسونه و يرتكبون حماقات نفسها و كأن شيئا لم يكن، النسيان وقت السلطان هو لأكبر عاهة يعاني منها الحاكم الظالم" (2).

4.3.1- السلميات: المقصود بالسلمية القدرة على توزيع الأدوار على العناصر الحجاجية خلال استعمالها في الطرح الأسلوبي الذي يشكل العملية الحوارية و التواصلية، ويمكن التعبير عن السلمية بمصطلح الأولويات، كما نجد أن هذا المصطلح يتقارب من حيث الدلالة الوظيفية من سُلّم المبنى الذي يستعمل لأجل بلوغ طبقات المباني، و كلاهما يُعبران عن السير المرحلي المنظم الذي يحترم المستعمل للكلام الحجاجي من خلاله مراتب و درجات الأشياء ضمن التركيبة الاجتماعية، و يتكون السُلّم من درجات تتفاوت من حيث العدد و حتى من حيث الحجم الذي تظهر به، و تخضع السلمية التصنيفية لمراتب عالم الأشياء (3)، و تتلون هذه التصنيفية على حسب طبيعة كل سياق اجتماعي، إذ يتشكل التصنيف من الحركة التي يساهم في صنعها كل من قادة السياسة و قادة الفكر و كذا المثقفين العضويين الذين يكرسون حياتهم

(1) الرواية، ص503.

(2) الرواية، ص505.

(3) إن فكرة تصنيف العالم العام إلى ثلاث، عالم الأشخاص و عالم الأشياء و عالم الأفكار تعود إلى مالك بن نبي، ينظر: مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة، أحمد شعبو، دار الفكر المعاصر، سوريا و لبنان، ط2، 2002، ص56-75-58.

لمبادئهم التي يؤمنون من أجلها⁽¹⁾، و تُظهِرُ لنا البرامج السردية مدى النوعية التي تميزت بها التصنيفية التي اجتهد في صوغها الأمير، و تُظهر كذلك درجة الأولوية التي تتمتع بها كُلُّ قيمة من خلال شدة محافظتها على جانب الهوية التي يتوقف عليها الوجود الحقيقي - الوجود بالفعل - للفرد أو للمجتمع المنتمي إليه، و تظهر اجتهادات الأمير من خلال إدراكه لحقائق ذات أهمية قصوى عبّر عنها في مواقف كثيرة منها ما كان مع الأنا الجمعية و منها ما كان مع الآخر، و قد جعل الأمير هذه الحقائق المدركة كالدافع القوي لأجل اتخاذ التدابير الفعلية تجاه الأطراف التي تعمل على تشكيل العالم من حوله، هذا و ينبغي أن نشير أن الإدراك الثاقب الحاصل للأمير لم يكن الحصول عليه بالشكل الهين و السهل بل تحصل له من خلال التفاني الذي أظهره في التحصيل العلمي و كذا السعي نحو التوضع في أعماق المجتمع الذي ينتمي إليه، و من ذلك تمرسه على الفروسية كمظهر للمواجهة و تكريسها في المعارك الحقيقية لا الافتراضية، إذ نجد أن السرد الروائي يسجل التفاتة⁽²⁾ من ماضي الأمير الشاب القائد على شكل خبر أوصله أحد الخدم هامسا في أذن والد الأمير و مفاده: "يبدو أن سيدي عبد القادر قد عاد من غزوته ضد النصاري مظفرا بالغنائم والنصر و الخير"⁽³⁾، و بالتالي لقد بدأ احتكاك الأمير و مواجهته مع الآخر النصاري - على تعبير الروائي - قبل أن تُسلم له مقاليد الإمارة، و قد نُعت هذا الآخر بمظهره الديني الذي يعتبر الآلة التي فَعَلَتْ حركية الغزو و التوسع على حساب تدمير هوية الأنا التي تقابل الآخر بانتمائها للدين الإسلامي، إذ قرأنا ما يفيد بذلك ضمن وقفة **مثلة الابتلاء**

⁽¹⁾ الفيلسوف الماركسي الايطالي أنطونيو غرامشي 1891-1937، هو صاحب فكرة المثقف العضوي، و يعني به ذلك الفرد الذي تحصل له جانب شمولي ومعتبر من الثقافة الإنسانية و يعمل على تكريس هذه المحصلات الثقافية في سبيل إظهار حقيقة الصراع الذي يتم على حسب غرامشي في فضاء البنية الفوقية، و تعتبر فلسفة البراكسيس من بنات أفكار هذا الفيلسوف و يعني بها ربط المحصلات الثقافية بالتكريس الفعلي ضمن ساحة المجتمع، في إطار التعالق بين النظرية و الممارسة، **ينظر:** توفيق المديني، المجتمع المدني و الدولة السياسية في الوطن العربي، موقع: منشورات اتحاد كتاب العرب، 1997، و يعتبر عنصر البراكسيس praxis أحد المبادئ التي يقوم عليها المفهوم النظري للتدولية - ينظر التفصيل المفيد ضمن الفصل الأول، عنصر الحقول المعرفية المساهمة في تأسيس مبادئ التداولية، ص46، و ينظر كذلك: عبد الله الزهراني و آخرون، ندوة البلاغة سؤال الهوية و آفاق المنهج، ص454.

⁽²⁾ لقد كان للأمير رحلات تربصية تعلم من خلالها مع الوالد الصبر و التحمل أثناء المواجهة، **ينظر:** أديب حرب، التاريخ العسكري و الإداري للأمير عبد القادر، ص75-76-77.

⁽³⁾ الرواية، ص68.

الكبير لفظة "النصارى" ضمن الخبر الذي هَمَسَ به الخادم في أذن الخليفة محي الدين..إنها عبارات شكلت ملفوظا يحمل دلالة الحضور التراثي في العقول التي تشكل الأنا الجمعي، لأن استعمال ألفاظ ذات طبيعة دينية بحتة مثل: "غزوته-النصارى.." يعزز مقولة التقابل المتعدد في المواجهة بين الديانتين.

5.3.1- المعاني المشتركة أو المواضع⁽¹⁾: يُعرف المصطلح ضمن الثقافة اليونانية

بمصطلح topos⁽²⁾، و لقد ورد هذا المصطلح عند لالاند في ثنايا شرح طويقا topique التي تدل على موضوع خطاب أو سجل، أما مصطلح المواضع فمفهومه ضمن المنطق هو: الأصناف العامة التي يمكن أن تجمع فيها الحجج ذات المنحى المتشابه، و يطلق على هذه المسألة المواضع المشتركة، ومن هذه المسائل أو الأبحاث يتشكل سجل يمكن أن يُسهل الإبداع⁽³⁾، ويُعبر المصطلح كذلك عن فضاء معرفي تَشَكَّل من خلال الكتابات المتنوعة التي كانت تحركها عقول الفلاسفة، و قد تظهر بعضها في مصنفات صارت معتمدة كمراجع لتوضيح المبادئ العامة للجدل و المناقشة و المحاور، و تظهر هذه المواضع المشتركة من خلال المحاورات اللغوية و السجلات القضائية التي حاول السارد أن يقحمها ضمن البرامج السردية متوخيا المحافظة على المسالك البلاغية و الأسلوبية التي تمنح الرواية صفة الشعرية، و يمكن معاينة هذه المواضع من خلال الملفوظات ذات التركيز الشديد و التي كانت تصدر بين الحين السردى و الآخر من الشخصيات الفاعلة في الرواية، و تظهر أهمية استعمال هذه المواضع في القضايا ذات المصير المشترك و الذي يجمع الأمير عبد القادر بمثابته الحادي المُنْتَقى ديمقراطيا من الأعيان و الكبار و من بقية الأفراد الذين يشكلون النخب بالمستويات المختلفة ابتداء من أعلى منزلة كمصطفى بن قهامي المستشار الأول و وصولا إلى آخر فرد يساهم بوجوده الفعلي في تحقيق الجسم الهووي للأمة، و لقد بدأ العمل في تشكيل هذه المواضع ذات الصفة المجردة من الحين السردى الذي

(1) ينظر العناصر الحجاجية في: عمر بلخير، مقدمات في الحجاج و النص، منشورات مخبر الدراسات اللغوية، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، 2011، ص11 و ما يليها، و للإشارة فقد تم التصرف في العناصر من طرف البحث لغرض توضيحي لا أقل.

(2) جمع الكلمة هو. topoi

(3) ينظر: موسوعة لالاند الفلسفية، ص1462.

عائين من خلاله الأمير صرامة الوالد في إعدام قاضي آرزو⁽¹⁾، نظرا لعدم تطبيقه لأوامر الخليفة محي الدين في قضية تحريم المعاملات الاقتصادية مع العدو الفرنسي قصد إضعافه، و بالتالي أنشأ هذا الفعل الذي حصل على مرأى و مسمع الأمير مساحةً معرفيةً تكللت بحصول بالافتتاح في نفسيته، إذ كان هذا المشهد بمثابة الدرس للأمير للانطلاق في ممارسة التدبير و السياسة، و لقد واجه الأمير موقفاً مشابهاً للموقف الذي أبدى تجاهه الرفض، و ذلك حينما أصر على تدمير حصن محمد ولد الصغير التيجاني الذي اتخذ مدينة الأغواط محمية لإمارته الموازية، و هو الذي استطاع أن يجعل قلوب الكثير من الناس تهوي إليه حتى استحق في نظرهم لقب "أَلْمَقْدَم" وهو لقب يوصف به من تحصلت له السلطة الدينية و الروحية بفضل ما يتميز به من علم و تقوى وكذا كرامات، و مصدر هذا اللقب و غيره هو الافتتان الذي حصل لأفراد المجتمع آنذاك من طرف الحركة الصوفية الطرقية التي اتخذت أشكالاً و ألواناً، و لم يكن الأمير بمنأى عن ذلك فهو الآخر قد وجد نفسه مُقَحَّمًا ضمن هذه الحركة، و لكن الفرق بين الحالتين يكمن في أن هذه الشخصية اتخذت التصوف و الزهد كإضافة إلى الكيان الهووي و ليس كوسيلة لتملك القلوب و الأموال، و لقد سجل الروائي ضمن البرامج السردية الملفوظات التي تحولت إلى أفعال كلامية تظهت على مسرح الذات الأميرية قبل أن يعمل الأمير بواسطة قوة انجازية ملفوظاته على ترسيمها ضمن ساحة المقربين منه، لأن هؤلاء كانوا يمثلون الصورة التي تحمل الوجه الصحيح للاقتداء، لذا ألفينا الأمير يصدر ملفوظات على شكل تعليمات لا نصائح، لأن المقام يتطلب تضمين الكلام القوة التلقضية، وهذه الأخيرة لا تكون إلا في مثل صيغة الأوامر التي تأخذ شكل التعليمات حيث تضيق مساحة الاختيار لدى المستمع و المتلقي، و بالتالي يظهر هذا الأخير الانصياع و الامتثال اللذين يمثلان إيجابيةً و نجاحَ الفعل الكلامي الأميري، و هكذا تواصلت سلسلة التعليمات المتعلقة بتنفيذ سياسة ترشيد الإنفاق المتخذة من طرف الأمير، و من بين نماذجها قوله لأخيه مصطفى⁽²⁾: "ابتداء من اليوم كل شيء سيتغير، لسنا

⁽¹⁾ لقد تعلم الأمير على يد قاضي آرزو أحمد بن طاهر القرآن و الحديث و الشريعة و كذا علوماً أخرى في معهد القيطنة التي تبعد عن معسكر بحوالي 20 كلم غرباً، ينظر: أديب حرب، التاريخ الإداري و الأدبي للأمير، ص71.

⁽²⁾ سيدي مصطفى هو الأخ الشقيق للأمير من الزوجة الثانية لوالدهما محي الدين، وللعلم أن هذا الأخير لديه أربع زوجات و هن على التوالي: خيرة أم سيدي المرتضى و زهرة أم الأمير عبد القادر و خديجة و فاطمة أم الحسين و عريضة أم سيدي محمد السعيد، ينظر: أديب حرب، التاريخ الإداري و العسكري للأمير، ص69.

في حاجة إلى هذا البذخ لكي نحارب الآخرين⁽¹⁾ وكذا حديثه لأبيه: "يا أبي.. قل لأعمامي أن يُقِلُّوا من مظاهر البذخ و أن يرتدوا ألبسة ملائمة للمعركة"⁽²⁾، و بالتالي اتخذت ميزتي الوالد الممثلتين في صرامة التدبير و عدل التطبيق طريقتيهما إلى دخيلة الأمير، كي تصنع بعد ذلك **موضوعا** من **مواضع** الاتفاق بين الطرفين، و يتجسد هذا الاتفاق الموضوعي في أفعال الكلام الأميرية التي ضربنا أمثلة عليها، بالإضافة إلى الإصدار الأمري الأميري لليون روش⁽³⁾ الذي يقضي بحرق المدينة التي استوطنها التيجاني الخارج عن الطاعة، و قد توسل الأمير لأجل ذلك ملفوظا ضَمَنَهُ دلالة شديدة مفاده: "أنت تعرف ماذا بقي لك أن تفعل. لم أكره مدينة في حياتي مثل هذا الوكر الملعون. حَرَّقُهَا لا يحسر الأمة شيئا"⁽⁴⁾، و يعتبر الحرق في هذا المقام أحسن وسيلة للتخلص من الأشياء المزعجة، و هو إلى جانب ذلك بمثابة إزالة الإعاقات التي تعترض المشروع الأميري، و هو فوق ذلك كله بمثابة **حرق للهوية المزيفة**، التي أراد التيجاني أن يؤسس لها جغرافية خاصة عاملا بقصد أو بغير قصد، على إضعاف الهوية الحقيقية التي تجمع المساحة المعرفية للمواضع المشتركة .

4.1- الهوية المشتركة:

يعتبر هذا العنصر الرابع و الأخير في تصنيفية هشت المعتمدة من طرف البحث والمتعلقة بأنماط الهوية، و تقتحم الهوية المشتركة كغيرها من الأنماط الأخرى مساحات معرفية تتعالق من خلالها مع الأنماط التاريخية، و يعد السرد الروائي إحدى هذه المساحات لأن: "تاريخ

⁽¹⁾ الرواية، ص 95.

⁽²⁾ الرواية، ص 96.

⁽³⁾ تشير الأميرة بديعة إلى أن ليون روش 1809-1900 جاسوس فرنسي بثته فرنسا كي يتأكد من مساعدة أمير مكة لعبد القادر، و بالتالي تعلم ليون روش العربية حتى أتقنها و صار من المقربين للأمير بعد إعلان إسلامه المزيف، و كان يلقب عمر ولد الروش، و مكث مع الأمير من سنة 1835 إلى 1837، و عاد إلى بيجو سنة 1846 بعد إحساسه بنهاية مهمته، و خلالها استطاع أن يتأكد من الجهات التي تقدم المساعدة للأمير و بالتالي أخذ رسالة إلى أمير مكة بختم الأمير دون علمه طالبا الإمداد، و بعد ذلك سلم الجواب لفرنسا بقصد التأكد من عدم تقديم أمير مكة المساعدة لعبد القادر. ليون روش كتاب: اثنان و ثلاثون سنة في الإسلام، و لقد شغل منصب سفير فرنسا في طرابلس-ليبيا- 1852 بتونس 1855 و أخيرا باليابان 1863، ثم عاد إلى فرنسا. ينظر: الأميرة بديعة الحسني الجزائري، أصحاب الميمنة، ص 69.

⁽⁴⁾ الرواية، ص 278.

الرواية هو تاريخ الاستكشاف"⁽¹⁾، و الرواية عملت استكمالاً لهذا الاستكشاف على إخراج الهويات التي طواها النسيان.

نجد معجم الوسيط يشير إلى أن: **تَشَارَكَ الشَّخْصَانِ** في العمل أي كان كل منهما شريك الآخر في انجاز العمل المتفق عليه⁽²⁾، و بالتالي تتخذ دائرة المتحاورين تداولياً منحى مجازياً لتتقمص دلالة جديدة تتمثل في محاولة إيجاد مساحات الالتقاء بين الأنا الممثلة من طرف الأمير ومن يقف في صفه، و كذا الآخر الممثلة في ديوش و من يقف في صفه، و لكن ليس من اليسير أن تجد هذه المساحات طريقاً لها نحو الوجود الفعلي، الذي يسبقه الوجود بالقوة ضمن منظومة المشاريع الفكرية المتبلورة جراء تنامي الأحداث التاريخية، و ترتسم محاولات الروائي في تخصيص مسالك لغوية ضمن برامج السرد للهويات المشتركة التي شكلت نص كتاب الأمير، و يشكل تكريس هذه المسألة تحدياً خطيراً بالنسبة للأمير الذي يمثل الحادي و القائد لهوية الأنا، إذ قد يسقط المشروع ضمن فخ التماهي الذي يؤدي بدوره إلى تخلي الأنا عن بعض العناصر التي تشكلها أو بالأحرى التي تُقَوِّمُ أسسها، و لأجل تحقيق هذا الأمر يعمل الروائي على شحذ وقود الرغبة التي تكتنزها النفس الإنسانية.

1.4.1- الخيارات المطروحة للأنا لإثبات هويتها التشاركية ضمن السرد:

يطرح تودوروف ضمن هذه المسلك أربع خيارات للأنا من أجل إثبات هويتها وهي كالتالي:

1.1.4.1- الخيار الأول: اعتقاد الأنا بأن لا وجود لهوية غير هويتها، و بالتالي تصوير

كل الأصوات في الرواية تتحدث بصوت الأنا فقط، و تصوير كل الثقافات البعيدة التي تهتم بها الأنا تسير وفق وجهة نظرة الأنا الذاتية، و لقد سجلت لنا البرامج السردية ابتعاد شخصية الأمير عن الإيمان بمحتوى هذا الخيار، لأن السياق الزمني-فترة بداية الاستعمار الفرنسي - الذي نهلت منه الرواية سردية الأحداث يُقَصُّ على القارئ مجيء الآخر من أرضه محملاً بالعُدة و العتاد لأجل تحقيق نزوة التوسع التي اتخذها الآخر كمسالكٍ لحلولٍ متعلقة بمشاكل داخل جغرافيته،

⁽¹⁾ عبد الله إبراهيم، السردية العربية، ص71.

⁽²⁾ ينظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط4، 2004م، 1425هـ، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ص480.

وتتيح لنا برامج السرد التخيلي التعرف على حقيقة سعي الخطاب الروائي على تكريسها ضمن أشكال تعبيرية متعددة، و من بينها تصوير الرواية لمرافقة صوت الآخر لصوت الأنا، أو بتعبير الشخصيات مرافقة صوت ديبوش لصوت الأمير، إذ كانت اللقاءات التي جمعت الصوتين كاشفة لجملة من القضايا التي كانت آنذاك مبهمة من حيث الدلالة و المقصد، و من بينها حدث الإعدام الذي أُلحق بالأسرى الفرنسيين من طرف خليفة الأمير مصطفى بن قهامي⁽¹⁾، وفنّده الأمير لديبوش في موضع حوارى أطلق من خلاله الأسقف العنان للأسئلة التي ارتابت نفسه في إيجاد الجواب عليها، و قد استغرقت وقفة انطفاء الرؤيا وضيق السبيل طويلا في تشكيل مسرح الحوار المتعلق بالقضايا التي شكلت منعرجات خطيرة في حياة شخصية الأمير، وكان هذا الأخير ينطلق في تقديم التفسيرات المختلفة من الواقع الذي تمت صناعته من طرف من-أي الأمير- أدرك مكان القوة و عمل على تكريسها.

2.1.4.1- الخيار الثاني: يتمثل هذا الخيار في اعتقاد بعدم وجود هوية للأنا، بل

الوجود الحقيقي هو لهوية الآخر، وبالتالي تصوير الأصوات الروائية تتحدث باسم الآخر، ويمكن أن تسير الأمور إلى الذوبان الذاتوي ضمن مساحة الآخر، و لقد عمل هذا الطرف على تكريس هذا الخيار طيلة الرحلة السردية مستعملا أساليب متعددة، فمن جهة العسكريين بات العزم الإستراتيجي للقادة الفرنسيين ظاهرا من خلال الملفوظات التي وردت على ألسنتهم، و التي تصب كلها في قالب الاحتواء الكلي للجغرافية الأنا، بل تعدى الأمر إلى أكثر من ذلك بحيث أمر بيجو العرب الذين بسط سيطرته عليهم بوضع قلائد في رقابهم مكتوب عليها: "عربي خاضع arabe soumis"⁽²⁾، تميزا لهم عن غيرهم من الرافضين و لمقاومين للبقاء الفرنسي في الجزائر، ويمكننا تصنيف هذا الإجراء القوي في لهجته انطلاقا من اتخاذه صيغة الأمر العسكرية، و الموصوفة بقوة الإنجازية، على أساس أن تطبيق هذا الأمر يتم على يد الطرف العسكري الذي يرمز إلى القوة في المجتمع، ويمكننا تصنيف هذا الفعل أخلاقيا و إنسانيا في إطار الخط من قيمة هوية أهل الأرض، و باتخاذ شكل التكريس عن طريق تعليق القلادة فهذا لعمرى الشكل الأمثل في إلحاق الإذلال و الإهانة بالإنسان، لأن تعليق القلائد عادة تقليد يقوم بها الأفراد

⁽¹⁾ ينظر تفاصيل الرد الأميري الداحض ضمن الرواية، ص 417.

⁽²⁾ الرواية، ص 304.

لأجل تحديد هوية الحيوانات لا البشر، ومن وجوه تظهر هذا الخيار ضمن السرد الكلام الجواني الذي كان يمارسه الأسقف ديبوش بين الحين السردى و الآخر، مرسلا بعض الأمانى على شكل ملفوظات صريحة مفادها محاولة إرسال خطابات إلى شخصية الأمير عبد القادر فى الرواية لأجل الانضمام إلى صف الكنيسة المسيحية، و قد تردد هذا الخطاب فى مرة فى الرواية، وهذا الراوى يقدم لنا توضيحا عن المسألة بقوله: " فى تلك اللحظة رأى موسىنيور ديبوش الأمير و هو يركب بصحبته القطار المتجه إلى روما ليتلقى التعميد من يدي البابا الأكبر.. " (1)، وبالتالي صار الأمير متقمصا دور المخلص فى نظر الأسقف حين قال عنه: "السنوات القاسية لم تعلمه- أى الأمير - إلا الصبر، مثل عظماء المسحيين الذين تلقوا آلام الموت مقابل إنقاذ الذين يحبونهم" (2).

3.1.4.1 - الخيار الثالث: ضمن هذا الخيار تعمل الأنا⁽³⁾ على تحمل مسؤولية

إظهار هويتها و كذا المنافحة عنها، و بالتالى تسير هذه الأنا إلى عقد أسلوب الحوار و التخلي عن تشكيل مساحة الأحكام المسبقة، و لكن يبقى التميز منحازا إلى الأنا، بحيث تعمل هذه الأخيرة على تخصيص ملفوظات ذات دلالات مشتركة بينها و بين الطرف المقابل أى الآخر الفرنسى، و لقد انتقى السارد لذلك سياقات يقف عندها اتفاق الحكم من طرف الطرفين الفاعلين فى الرواية، فنجد حديث الأمير عن القيمة التى تحملها الروح الإنسانية ضمن الدين الإسلامى بوجه خاص و ضمن الشرائع الإنسانية بوجه عام، و كان مما حفظته شخصية ديبوش عن الأمير قوله: " حيث يسيل الدم بغير حق، تسقط الشرعية" (4)، و يأتي ذكر هذه المسألة على أنها محسوبة على الأشياء التى تعلمها الأسقف من الأمير فى سياق الحديث عن المساحات المعرفية التى تجمع طرفي الأنا و الآخر، و تعتبر هذه المسائل من المبررات القوية لإنشاء الحوار و كذا تقويته لأجل الوصول به إلى غايات إيجابية.

(1) الرواية، ص51.

(2) الرواية، ص153.

(3) يقف مصطلح "الأنا" فى قمة التعابير عن دخيلة الإنسان التى تبدأ تراتبيتها من: الفرد ثم الشخصية ثم الذات ثم الأنا، ينظر: ايغو كون، البحث عن الذات دراسة فى الشخصية و وعى الذات، تر: غسان نصر، منشورات دار معد للنشر و التوزيع، دمشق، سورية، 1992، ص6.

(4) الرواية، ص415.

4.1.4.1- الخيار الرابع⁽¹⁾: يعمل الطرفان ضمن هذا الخيار على تفريغ الذهن من

التصورات التي يحتفظ بها كل طرف عن الآخر، و يتشارك كل منهما في تأسيس مشروع تصورات جديدة مبنية على الموضوعية في الأحكام، و تترتب على الإقدام على هذا الخيار خطورة السقوط في الهاوي التي تفقد من خلالها إحدى الهويتين كينونتها، و يظهر تكريس هذا الخيار من علامات الفهم الصحيح للوجود الإنساني على الأرض، و من مساحة الخيار ذاته تنطلق شرارة الحوار ضمن الأديان.

قد عمل تودوروف على استخراج الخيارات أعلاه من خلال دراساته لمختلف المسالك السردية التي أنشأها يد الإنسان لكي تسجل مسيرة الشعوب المنتمية إليها، سواء منها ما تعلق بالسرد التاريخي الموضوعي أو ما تعلق بالسرد التخيلي، هذا الأخير يحاول الروائي من خلاله أن يمارس الاختزال على المجتمعات المتعددة في مراحلها التاريخية المختلفة، و بالتالي تظهر هذه المجتمعات ممثلة في علاقات بين الأفراد في الاتجاهين الإيجابي و السلبي، و تعمل اللغة التخيلية على تجسيد الانتماء الحقيقي لكل مجتمع على حدة، على حسب هوية الروائي الذي يمسك بزمام الكتابة، و في كتاب الأمير بدا المجتمع الجزائري على لسان الرواة المختلفين في شكله الاختزالي المصغر، و لقد أُتخذَ لأجل هذا الغرض جملة من التدابير الكتابية من طرف الكاتب الحقيقي للنص، و أبرزها تشكيل منظومة حوارية بين الشخصيات تطرح من خلالها قضاياها المتباينة، سواء منها ما شكل أولوية أو ما ظهر بالمظهر الهامشي، على أساس أن الرواية تعمل على إخراج كل القضايا بدون النظر إلى الحمولة الموضوعية التي تحملها، و بالتالي نجد الأمير مع ديبوش يلتقيان على صفحات الواقع الروائي متخذين صدفة الصداقة التي أعطاها الروائي حجما كبيرا بحيث صارت الذريعة الأساس التي جمعت بينهما، و لقد تنوعت الأمكنة بقدر التنوع الذي لحق المواضيع المتناولة من طرف ديبوش الذي كان يؤدي دور السائل والمستفهم- بكسر الهاء- عن تاريخية الأحداث الأميرية، و قد بدأت عملية المساءلة من أول لقاء تراسلي على أرض الأنا أين تمت عملية تبادل الأسرى، و تواصلت مع سلسلة اللقاءات التي تم

⁽¹⁾ لقد تم اقتباس هذه العناصر مع بعض التصرف في الأسلوب لأجل مواءمة السياق البحثي بلا تحوير أو تغيير، ينظر: جان فرييه، تودوروف من الشكلانية الروسية إلى أخلاقيات التاريخ، تر: غسان السيد، الجمعية التعارفية للطباعة، بيروت/ لبنان، ط 1، 2002، ص50.

سردها انطلاقاً من أرض الآخر، حيث لا تتمتع الأنا المنفية بالحرية التي تعتبر حقاً أساسياً تبني عليه هوية المرء أينما حلّ و ارتحل، و كان الأسقف يختلف إلى الأمير بغية التعرف على النقاط التي ظلت عالقة في الذهن و لم تستطيع قريحة ديبوش أن تجد لها التفسير الكافي و المقنع، مثل حادثة ذبح مساجين سيدي إبراهيم من طرف مصطفى بن قهامي الذي استخلفه الأمير على الزمالة و قد سبق الحديث عن الواقعة، و تلقى ديبوش الرد الأميري عن هذه القضية بتذكيره عن طريق الاستباق الحداثي بمجزرة أو بالأحرى بمحرقة الظهرة بنواحي مستغانم⁽¹⁾ بالغرب الجزائري، و لقد ظلت منظومة السؤال تعمل طيلة زمنية السرد الروائي إلى حين ركوب الأمير باخرة لابرادور Labrador⁽²⁾ التي أقلته إلى منفاه الاختياري تركيا الذي تمناه طيلة مكوثه في منفاه بباريس، و كأن ديبوش الباحث عن مساحات الحوار قد أدى دور المحاور الذي كان يتغيا تحقيق هدفين أساسيين بالنسبة له، أولهما محاولة التعرف على منظومة المعرفة التي تحرك مواقف الأنا بوجه عام و الذات الأميرية بوجه خاص، و في هذا لا يختلف عن بقية الشخصيات التاريخية التي تقصّدت الاستعمار السليبي بشكله النازي، أما الهدف الثاني فيتمثل في محاولة استكمال الرسالة التي ظل ديبوش يكتبها طيلة الزمن الروائي المختزل عن الزمن التاريخي، و لقد بدا فضول ديبوش بشكل ملفت للانتباه، إذ كلما أزمع على زيارة الأمير يعمل على تحضير جملة من الأسئلة المُنَهَجَة، و التي تشكل أجوبتها تكتلاً من منظومة التفكير الأميرية، ذات الاتجاه الإسلامي المغاير تماماً عن الاتجاه المسيحي الذي يدين به ديبوش، و كان هذا الأخير يبدي الحسرة الشديدة في الحين الذي لا يستطيع أن يستكمل جملة التساؤلات المحضرة قبلاً، و إذا نظرنا إلى الخيارات التي طرحها تودوروف فإننا سنجد أنها مطروحة بشكل متباين، على أساس ما تمثله من إنجازات أو انتصارات.

لم يكن الغرض من هذا النشر الكتابي إظهار الحقائق التاريخية لأن هذه الأخيرة عمل المؤرخون على تجليتها، بل كان الغرض التسلسل عبر الأماكن المظلمة التي تغاضى عنها هؤلاء، وما رواية كتاب الأمير إلا سبيل من السبل التعبيرية التي يتخذها أهل القلم النخبوي كي يمرروا خطابات متعددة تتخذ لها طرقاً إلى المجتمع عبر القراءة و الاطلاع، إذا كان بطبيعة الحال هذه

(1) ينظر تفاصيل الحادثة في البحث ، ص272

(2) ينظر: الرواية ، ص602 .

المجتمع يمارس الفعل القرائي بشكله الفعال، و بالتالي ما عاشه الأمير عبد القادر يستطيع أي شخص من الصفوة في مجتمعه أن يعيشه بنفس الوتيرة الصراعية، و لكن هل سيكون الرد من المجتمع دائما على وتيرة السلبية كما حدث للأمير عبد القادر، بحيث دفعه هذا إلى تغيير الجغرافية؟، هذا الذي أراد نص كتاب الأمير أن يطرحه، و سيبقى التاريخ هو الحكمُ الفاصل ويعززه الفهم البسيط و الواضح لأحداثه، و من هذه الأخيرة يتضح لنا أن الآخر يبقى آخراً حتى و لو أبدى بتعبيراته المختلفة أنه أهلٌ لتقمص دور المحاور و المستمع، فكذلك ينبغي أن تبقى الأنا على طبيعتها مشكلة الطرف المقابل للآخر في الشكل الصراعي التنافسي الذي لا يُلحق الضرر و الأذى بالآخرين لا ضمن الشكل الحميمي.

الخاتمة

الخاتمة:

ظهرت على الساحة النقدية العديد من المناهج التحليلية و قد سبقتها في الظهور العديد من النصوص الأدبية، بحيث كانت الثانية تمثل المعين الأساسي الذي يمد الأولى بالقراءات المختلفة، و قد اتخذت هذه الأخيرة مساحة معتبرة ضمن الفضاء القرائي وُصفت في بداية الأمر بأنها ذات شكل فوضوي مبعثر، و قد وقف المتلقي حيال هذه الأمر موقفاً زئبقياً، فأخذ يمتح من هذا النص تارة، ثم تارة أخرى تُسَوِّل له نفسه إلى النهل من نصوص أخرى، و بين الأمرين ترعرعت للمتلقي مساحة التجربة التي ستشكل فيما بعد الإرهاصات النظرية، و حينما تأخذ مساحة القراءة للمتلقي في الاتساع تجعل أنظار النقاد تلتفت إليها كي تحرر في حقها البعض من آرائها، و هكذا حينما تستجمع هذه الجهود قواها تبرز مظاهر مساحة من وجهات النظر إذ تجد نفسها متفقة في الكثير من النقاط، و ما حدث ذلك إلا من جراء الالتقاء التلقائي بين مساحة اتساع قراءات المتلقين و كذا اهتمام الدارسين بهذه القراءات الواقعة على النصوص الأدبية، و بالتالي سينتج عن التلاقح ما يسمى بالمنهج النقدي الذي يبدأ في النشأة من مرحلته الجنينية إلى أن يصل إلى مرحلة الرشد ثم يُرد إلى أرذل العمر، و يعتمد طول بقاء هذا المنهج أو ذاك على مدى عمل مناصروه على إرساء الأسس التي يركز عليها والتي يجب أن توافق القوى الإنسانية الثلاث: المنطق و العقل و الروح، و لا نلفي منهجاً نقدياً انطلق من فراغ قرائي أو من التفاتة ناقد واحد، و قد سارت التداولية على هذا المسلك بداية من تنبيهات فلاسفة التحليل اللغوي ووصولاً إلى أوستين صاحب الشرارة الأولى لهذا المنهج بكتابه: **كيف ننجز الأشياء بالكلمات**، ثم بلوغاً إلى جون سيرل الذي أتم حلقة التداولية بإضافاته و شروحاته المتعددة، والملاحظ هو كأن وقفة ابن خلدون مع العلوم و الفنون في مقدمته لا تزال تنشر ظلالها على مختلف الإنتاجات اللغوية الإنسانية فمن الصعود إلى الرشد إلى الانحدار، والقرآن يصدق ذلك فيقول: "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ"⁽¹⁾.

لقد اعتبرتُ إقدامي على محاولة إسقاط آليات التداولية على نص كتاب الأمير مجازفة بامتياز لعاملين هامين: أولهما الصرامة التي تتصف بها الآليات التداولية، أما ثانيهما

¹ سورة الروم الآية: 54.

فيتمثل في طبيعة النص الروائي التي تترع إلى التاريخانية⁽¹⁾، إذ المعروف أن بنية الأحداث في الرواية تعتمد أكثر ما تعتمد على التخيل، أما بنية الأحداث في التاريخ الموضوعي تعتمد الموضوعية المطلقة، و لكن كلا من الحقلين يلتقيان بصفة حميمة في فضاء السرد إذ الواقع أن: "بين الرواية والتاريخ من ترابط و تواشج هو أكبر من مجرد تماس وقائعي، بل ثمة ما يشي بأن النسغ السردى للكتابتين يطوي هوية واحدة قبل أن يمتاز الصنفان عن بعضهما البعض"⁽²⁾، ومن هذا التقاطع الفني الكتابي نتج هذا البحث بحيث تراءات لنا في نهايته بعض النتائج التي كانت تطوف على مرآنا بين الحين و الآخر طيلة رحلة الكتابة و هذه أهمها:

1- لقد كان ظهور التداولية إلى الوجود الثقافي بمثابة الفتح المعرفي على الدارسين بوجه عام، و بالتالي عرف اتجاه الدراسة اللسانية منحى آخر غير الذي كان معهودا، ولقد أرجعت التداولية المقاربات النقدية الأمور إلى نصابها بعدما كادت رحلة البنيوية ترسخ اعتقادا في أذهان الدارسين مفاده أن مبدأ الدرس اللغوي النقدي ينطلق من النص ثم يعود إليه، و لا علاقة للأمور غير اللسانية بالدلالات التي يروم الدرس النقدي استخراجها من النصوص، وبالتالي وقف الدرس التداولي منافحا مطالبا بإقحام القضايا غير اللسانية و عدم الاكتفاء بنظيرتها اللسانية.

2- يعتبر الجو الذي تسوده الحرية الكافية للباحث أحسن حافز لفتح المجالات الموصدة، و التي يُظن عدم جدواها، إذ سبقت الإشارة إلى أن أوستين حينما ألمح إلى قضية انجاز الكلمات بالأشياء، جعل النقد يلتفتون إلى قضية جديدة ما كانت في الحسبان، و بالتالي راح تلميذه جون سيرل يواصل المشوار بزيادة التوضيح و بإيراد الايضافات التي تتعلق بالعمل اللغوي أو الكلامي، و كذا تبين مجالات تواجد مثل هذا النمط من الملفوظات.

3- التداولية حقل معرفي يمتح من الحقول المعرفية الأخرى، و كلما توسلت التداولية آليات فن أو علم إلا و نالت من ذلك إبداع مبادئ أخرى تضيفها إلى قائمة الآليات التي تستعين بها في تفكيك النصوص المتعددة الأنماط، و قد لاحظنا ذلك حينما تعالقت التداولية

¹ التاريخ هو جملة الأحداث الماضية التي سجلتها أنامل المؤرخين، أم التاريخانية فهي دراسة الفلسفة التي أدت إلى وقوع هذه الأحداث كي يتم الاستفادة منها في المستقبل و كأن التاريخانية تمتد دراستها نحو المستقبل متوسلة الماضي و هي نفس نظرة ابن خلدون، ينظر معجم المصطلحات الفلسفية، ص83.

² الرواية و التاريخ، عبد السلام أقلامون، ص9.

مع علم النفس المعرفي، و كانت نتيجة ذلك ظهور ما يسمى بمبدأ الأفعال الكلامية التي أُعتبرت فيما بعد أهم أركان الدرس التداولي.

4- إذا كانت التداولية تروم تطبيق جملة من الآليات لأجل تفكيك دلالات النصوص ثم إعادة بنائها من جديد، و إذا كانت تروم كذلك استغلال مساحة الاستعمال اللغوي من هذه النصوص، فإنه و في الجهة المقابلة هناك تداولية من شكل آخر و تتمثل في تداولية الآراء النقدية في مقابل التداولية الكائنة بالفعل في النصوص الأدبية، بمعنى ينبغي على الدارس أن يتخذ احتياطاته في خلال إقدامه على عملية انتقاء المنهج الذي سيطبقه على دراسته أو مقارنته، فلا ينتقي منهجاً لا يتواءم مع مدونة البحث، و بناءً على ذلك حاولنا تفادي هذا الأمر في بحثنا إذ حينما ألفينا أن التداولية تساهم أكثر في مقارنة رواية تاريخية من مثل نص كتاب الأمير و في وزن كاتب مثل واسيني الأعرج سارعنا إلى المغامرة، و كان هذا البحث المتواضع هو المحصول الذي تحصلنا عليه، الذي خرجنا منه بهذا الاستنتاج الذي يمكننا أن نصوغه في العبارة الآتية: التركيز على انتقاء المنهج الذي يتناسب تداولياً مع النص المراد تحليله.

5- يشكل التاريخ الجزء الأهم من الذاكرة التي تحتفظ في جوهرها الأمم بجملة من الانتصارات و كذا جملة من الإهزيمات، و كلا من الأمرين له أهميته التي يتفرد بها، ولكن ينبغي الإشارة إلى أن مساحة الإهزيمات هي المنبع الذي يستقي منه عقلاء الأمة مشاريع بناء تحضرهم، و منه كذلك تستقي الأمة أيا كانت جغرافيتها مكونات هويتها، و لقد اتخذت هذه الأخيرة شكل التيمة في نص كتاب الأمير ذي النمط السردى التخيلي، الذي يوافق تاريخ الأمير الموضوعي في غالبية الأحداث، هذا التاريخ المملوء بأشكال الإحباط سواء من الداخل القريب و البعيد-الموالون له و المعارضون- أو من الخارج البعيد لا القريب-المحتل الفرنسي- وكانت هذه الشخصية كل مرة تتوسل ثقافتها التراثية الملونة بمستجدات عصرها لأجل تحويل الإهزام إلى انتصار، و نموذج ذلك إصداره للمفوز يفيد بمغادرة العاصمة العزيزة على قلبه معسكر إلى وجهة حددها استراتيجياً من قبل، وهي تكدامت على أساس أنها عاصمة الرستميين السابقين ففيها حقق هؤلاء انتصاراتهم بعدما أصيبوا في مقتلهم، و للتاريخ حديث متشعب و طويل في هذا المجال .

6- لقد أطلعنا قراءات مصنفات الغربيين في مجال التداولية على عديد المستجدات المعرفية المتعلقة بمناهج التحليل النصي و لا سيما التداولية، و بالمقابل وجدنا أن عديد الكتابات العربية التي تمتح من التداولية تشير إلى تواجد لمسات هذا المنهج في التراث، و في البحث المقدم نماذج من هذه الكتابات، و لقد ألفينا كذلك أن هذه الكتابات عملت في معظمها على تتبع مظاهر هذا المنهج عند التراثيين بقصد توضيحي بحت⁽¹⁾، و عليه إذا كان تراثنا يزخر بمثل ما تتوصل إليه العقول الغربية فلم لا نختصر المسيرة و نؤوب إلى ما أنتجتة أنامل القدماء بآليات جديدة تناسب تداوليا العصر الذي نعيشه؟ .

7- لقد اختار الروائي شخصية الأمير ليمثل بها جملة من الخطابات التي تأسست من خلال القراءات المتعددة للكاتب الحقيقي لكتاب الأمير، و يمكن أن نصنف هذا النوع من الخطابات في الخانة الادبولوجية إذ ستظل تخضع لسنة التغيير مادامت السموات الأرض إلا ما شاء ربك، و مادامت الحياة تدب في الجسم، و مادام العقل يلهث وراء الحقيقة، و بالتالي اقتطع الأمير في الواقع المعروض في الرواية بشقية الموضوعي و التخيلي طرفا من أوصاف الشخصيات التي تحدث عنها كبار النقاد السرديين، إذ نجد نمطية لوكاتش⁽²⁾ التي تنظر إلى الشخصية على أنها مزيج من ملامحها الذاتية العميقة في النفس و كذا نتاج تفاعلات فضائي التاريخ و المجتمع، كما نجد شيئا من باختين⁽³⁾ في الأمير بحيث تطلعنا الأحداث الروائية على أن هذه الشخصية كانت تهتم أكثر بما يمثله العالم بالنسبة لها و ليس ما تمثله هي بالنسبة للعالم، و اتصفت بذلك شخصية الأمير على رأي رولان بارت باستقلالية عن الحدث بواسطة التكوين السيكلولوجي

¹ ينظر: حافظ إسماعيلي علوي، التداوليات علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، ط1، 2011، و صلاح فضل، بلاغة الخطاب و علم النص، عالم المعرفة، المجلس الوطني للفنون و الآداب و العلوم، الكويت، 1992، و عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004، و عبد السلام عشير، تطور التفكير اللغوي من النحو إلى اللسانيات إلى التواصل، مطبعة دار معارف الجديدة، الرباط، المغرب، ط1، 2010، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، أحمد محمود نخلة، ص57. ينظر كذلك الوظائف التداولية في اللغة العربية، أحمد المتوكل، ص8، و ينظر كذلك: مقالات مثل: الأبعاد التداولية لبلاغة حازم، عالم الفكر، مصطفى الغرافي، ص249.

² ينظر: تقنيات البنية السردية في الرواية المغاربية، إبراهيم عباس، منشورات ANEP المؤسسة الوطنية للاتصال و النشر و الإشهار، الجزائر، 2012، ص153.

³ ن.م.س: ص153.

المير الذي خضعت له طيلة رحلة الأحداث، و لكننا نجد أن هذه الشخصية تبتعد عن وصف فيليب هامون⁽¹⁾ البنيوي على أنها لمسة لسانية وُضعت من طرف الروائي لأجل تأدية خطافية بحتة، و لكن تظل أنامل الروائي تُسَيِّر الشخصيات على حسب الخطابات المراد تمريرها إلى القراء، و على العموم المفيد مثلت شخصية الأمير الشخصية الأنموذج الثوري الدينامي⁽²⁾ التي حركت دواليب الأحداث داخل النص الروائي، و نجد هذه الشخصية في الطرف الآخر خاضعة لخطاباتها في الكثير من الأحيان لا رغبة من الكاتب و لكن كرها منه على أساس الحكم السلطوي للتاريخ المستخدم في نسج وقفات كتاب الأمير.

8- الأمير عبد القادر شخصية اقتحمت بذاتها التاريخ الحقيقي الإنساني، و حاولت أن توجد لنفسها مكانا ضمنه، و ذلك يتوسلها لآليات إظهار هويتها، على أساس أن هذه الأخيرة هي الفعالة في تحقيق هذا الهدف النبيل، و لقد صورها لنا الروائي في هذا الشكل ولكن بنسبية عالية، و ما يقال عنها تداوليا فإنها كانت كلما سقطت في مأزق حاولت أن تجد الوسائل التي تتملص منه، و هذه الصفة قلما تتوفر في الشخصيات الإنسانية حتى و لو كانت ذات شأن رفيع في التاريخ الإنساني العام، لقد كان الأمير صانعا للأحداث، و لم تكن الأحداث هي التي كانت تصنعه، و خير دليل على ذلك توصله إلى آلية العاصمة المتنقلة – الزمالة - التي أدهش بها قادة فرنسا آنذاك، و لم يكن هؤلاء القادة ليتحصلوا على الأمير منفيًا لولا خداع من كانوا يوالون الأمير، لذلك فالنهاية لم تكن ناتجة عن قوة اكتسبها القادة الفرنسيين من خبرتهم العسكرية، بل من الضعف و الخور الذي أصاب الأنا الجمعية الملتفة حول الأنا الأميرية.

لقد كانت الفقرات السابقة بمثابة الاستنتاجات البسيطة التي انفتحت على صاحب البحث في خلال رحلة التدوين، و للقارئ ما يدلي بدلوه في هذا المجال، لأن إقحام المقاربة النقدية وإلقائها بين يدي القراء يُعد بمثابة الكتابة الجديدة للبحث، وهنا نشير إلى القراءة النوعية على وجه الخصوص، و بالتالي لا نجزم أننا ألمنا بجوانب التحليل الذي أُلقي على رواية الأمير

¹ ينظر: تقنيات البنية السردية في الرواية المغاربية، إبراهيم عباس، منشورات ANEP المؤسسة الوطنية للاتصال و النشر و الإشهار، 2012، ص155.

² ن.م.س: ص157.

الواسينية، فهذا نص مفعم بالخطابات المتعددة المناحي، و لأجل ذلك أُسيل فيه الخبر الكثير، وما يبدو لي كمنجز لهذا البحث في آخر المطاف التدويني أن الإثبات الهووي مغامرة لا بد من خوضها و ذلك بالتقيد بالضوابط والأساليب التي اتبعتها الأمم التي نجحت في إخراج مشاريعها الهووية، و يبقى أهم ضابط ينبغي الحذر منه هو الآخر. بما يحمله من منظومات فكرية ذات تكريس فعلي في الواقع، فكما يتخذ الآخر الأنا مطية لتحقيق وجوده وأناه، فكذلك ينبغي أن تفعل الأنا ذلك، و لا يتم لها هذا الأمر إلا إذا أعلنت من شأن لسانها، و لنا في الأمير عبد القادر أسوة حسنة سواء في جانبه التاريخي أو التخيلي.

مكتبة

المصادر و المراجع

مكتبة المصادر و المراجع

القرآن الكريم.

1. -أبي الفتح عثمان بن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، د.ت، بيروت، لبنان.
2. - سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر البصري، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، مصر، ط3/1988.
3. -ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1416هـ-1996م.
4. -الأميرة بديعة الحسيني الجزائري، أصحاب الميمنة إن شاء الله، دار سلام للترجمة والنشر، دمشق، سورية، 1997.
5. -أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، وهران، الجزائر، ج4، ط1، 1996.
6. -أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان و التبيين، ، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7/1998 .
7. -أبو عمران الشيخ، قضايا الثقافة و التاريخ، منشورات ثالة، الأبيار، الجزائر، ط2/2006.
8. -أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، منشورات الجمعية المغربية للتأليف و النشر و الترجمة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1405هـ، 1985م.
9. أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1/1999.
10. -أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، در الكتاب العربي للطباعة و النشر، القاهرة، مصر، ط7/1968.
11. -أحمد محمد المعتوق، الحصيلة اللغوية، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1996.

- 12.- ادith كيرزويل، عصر البنيوية من ليفي ستراوس إلى فوكو، تر جابر عصفور، دار
قرطبة للطباعة و النشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2 / 1986.
- 13.- الإمام جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار عالم الكتب ، بيروت،
لبنان، د.ت.
- 14.- الصادق قيسومة ، طرائق تحليل القصة، دار الجنوب للنشر، تونس، 2000.
- 15.- الطاهر بومزبر، التواصل اللساني و الشعرية مقارنة تحليلية لنظرية جاكسون ،الدار
العربية للعلوم ناشرون، بيروت ، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1/1428هـ،
2007م
- 16.- امبرتو ايكو، السيميائية و فلسفة اللغة، تر: أحمد الصمعي، مركز دراسات الوحدة
العربية، بيروت، لبنان، ط1/2005.
- 17.- أمين معلوف، الهويات القاتلة، تر: نبيل محسن، ورد للطباعة و النشر، دمشق، سورية،
ط1/1999.
- 18.- آن روبول و جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد للتواصل تر: سيف الدين
دغفوس و محمد الشيباني، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، ط1، 2003.
- 19.- إيغور كون، البحث عن الذات دراسة في الشخصية و وعي الذات، تر: غسان نصر،
منشورات دار معد للنشر و التوزيع، دمشق ، سورية، 1992.
- 20.- بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني المصري، شرح ابن عقيل، حنا
الفاخوري، دار الجليل ، بيروت، لبنان، د.ت.
- 21.- تمام حسن اللغة، العربية معناها و مبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1994.
- 22.- تمام حسن، مقالات في اللغة و الأدب، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1/ 2006.
- 23.- توني بوزان، قوة الذكاء الكلامي، مكتبة جرير، الرياض، المملكة العربية السعودية،
ط2/2007.
- 24.- حسن خمري، فضاء المتخيل مقاربات في الرواية، منشورات دار الاختلاف، الصندوق
الوطني لترقية الفنون و الآداب، الجزائر، ط1/ 2005.
- 25.- جاسم سلطان، الفكر الاستراتيجي في فهم التاريخ، مؤسسة أم القرى للترجمة
والتوزيع، المنصورة، ط1/1426هـ - 2005م.

- 26.- جاك دريدا، أحادية اللغة أو في الترميم الأصلي، تر: عمر مهيل، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1/1429هـ-2008م.
- 27.- جان بيلمان نويل، التحليل النفسي و الأدب، تر: حسن المودن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 1997.
- 28.- جان فرييه، تر: غسان السيد، تودوروف من الشكلانية الروسية إلى أخلاقيات التاريخ الجمعية التعارفية للطباعة، بيروت، لبنان، ط1/2002 .
- 29.- جان غراندين، المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا، تر: عمر مهيل، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1/1428هـ، 2007م.
- 30.- جمال الغيطاني، مختارات التوحيد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 1995.
- 31.- جمال حمود، فلسفة اللغة عند لودفيغ فيتغنشتاين، الدار العربية للعلوم ناشرون، الدار البيضاء، المغرب، ط1/2009.
- 32.- ج. ل. أوستين ، تر: نظرية الأفعال الكلامية، عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب، الدار البيضاء، لبنان، بيروت، 1991.
- 33.- جلال شمس الدين، علم اللغة النفسي المناهج و النظريات، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية. مصر، د.ت.
- 34.- جهاد عطا نعيصة، في مشكلات السرد الروائي، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، سورية، 2001.
- 35.- جوليا كريسيغا، علم النص، تر: فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط 2/1997.
- 36.- جون جوزيف، اللغة و الهوية ، تر: عبد النور خراقي، عالم المعرفة، ع342، المجلس الوطني للآداب و الفنون و اللغات، الكويت، 2007.
- 37.- جون سيرل، العقل و اللغة و المجتمع، تر سعيد الغانمي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1/2006 .
- 38.- جون ليونز، اللغة و علم اللغة، ، تر: مصطفى التوني، الدار النهضة العربية، القاهرة، مصر، ج1، ط1/1987.

- 39.-حاتم الورفلي، بول ريكور الهوية و السرد، التنوير للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، 2009 .
- 40.-حافظ إسماعيلي علوي، التداوليات علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث، اربد الأردن، ط1/ 1432 هـ-2011م.
- 41.-دوسوسير، علم اللغة العام، تر:يوئيل يوسف عزيز، مر: يوسف المطلي، دار الكتب للطباعة و النشر، بيت الموصل، بغداد، العراق، 1988.
- 42.-رأفت غنيمي الشيخ، فلسفة التاريخ، دار الثقافة للنشر و التوزيع ، القاهرة، مصر، 1988.
- 43.-رافع النصير الزغلول و عماد عبد الرحيم الزغلول، علم النفس المعرفي، دار الشروق للنشر و التوزيع ، عمان ، الأردن، د.ت.
- 44.-ر.هـ. روبتز، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، تر: أحمد عوض، عالم المعرفة، الكويت، 1997.
- 45.-روبير مارتان، مدخل إلى فهم اللسانيات، تر: عبد القادر المهيري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1/2007.
- 46.-زكي نجيب محمود، قيم من التراث، دار الشروق، القاهرة، مصر، 2000.
- 47.-سحر كاظم همزة الشجيري، نظرية التوصيل في النقد الأدبي العربي الحديث، دار صفاء للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، مؤسسة دار الصادق الثقافية، بغداد، العراق، ط1/1432هـ-2011م.
- 48.-سعد البازعي، شرفات للرؤية العولمة والهوية و التفاعل الثقافي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب ، ط1/ 2005 .
- 49.-سعيد يقطين، السرديات و التحليل السردى الشكل و الدلالة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1/ 2012.
- 50.-سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي النص و السياق، المركز الثقافي العربي، بيروت-لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط3/2006.
- 51.-سمير أحمد معلوف، حيوية اللغة بين الحقيقة و المجاز، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، 1996.

- 52.- سلامة موسى، البلاغة العصرية و اللغة العربية، سلامة للنشر و التوزيع، دار ومطابع المستقبل بالفجالة، الاسكندرية، مصر، مكتبة المعارف ، بيروت، لبنان، ط2/1964.
- 53.- سيار الجميل، التحولات العربية إشكالات الوعي و تحليل التناقضات خطاب المستقبل، الأهلية للنشر، الأردن، عمان، ط1 / 1997.
- 54.- شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر: أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، 1974.
- 55.- شكري عزيز الماضي، أنماط الرواية العربية الجديدة، عالم المعرفة، المجلس الوطن للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، ع355، سبتمبر 2008.
- 56.- صابر الحباشة، لسانيات الخطاب، الأسلوبية و التلفظ و التداولية ، دار الحوار، دمشق، سورية ، ط1/2010.
- 57.- صالح عباد، الجزائر أثناء الحكم التركي 1514-1830 ، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط2/2005.
- 58.- صلاح فضل، بلاغة الخطاب و علم النص، عالم المعرفة، المجلس الوطني للفنون والآداب و العلوم، الكويت، ع164، 1992.
- 59.- طاهر ليب، الموسوعة العربية للمعرفة من أجل التنمية المستدامة، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط 1/1428هـ، 2007 .
- 60.- طه عبد الرحمان، التواصل و الحجاج، سلسلة الدروس الافتتاحية، الدرس 10، جامعة ابن زهر، أكادير، المغرب، 1993.
- 61.- طه عبد لرحمان، اللسان و الميزان و التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط1/1998.
- 62.- عباس حسن، النحو الوافي، مطابع دار المعارف، القاهرة، مصر، 1974.
- 63.- عبد السلام أقلامون، الرواية و التاريخ سلطان الحكاية و حكاية السلطان، دار الكتاب الجديد المتحدة بنغازي، ليبيا، ط1/2010.
- 64.- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني عند العرب، الدار العربية للكتاب، تونس، ط1/1981.

65. -عبد السلام الشاذلي شخصية، المثقف في الرواية العربية الحديثة، دار الحداثة، بيروت، لبنان، ط1/ 1985.
66. -عبد السلام عشي، تطور التفكير اللغوي من النحو إلى اللسانيات إلى التواصل، مطبعة دار لمعارف الجديدة، الرباط، المغرب، ط1/ 2001.
67. -عبد الصمد زايد، مفهوم الزمن و دلالاته في الرواية العربية المعاصرة، الدار العربية للكتاب، بيروت، لبنان، 1988.
68. -عبد العزيز عبد المعطي عرفه، من بلاغة النظم العربي، ج1، عالم الكتب، بيروت لبنان، ط2/ 1984.
69. -عبد العزيز عبد المعطي عرفه، من بلاغة النظم العربي، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط2/ 1984.
70. -عبد اللطيف محفوظ، آليات إنتاج النص الروائي نحو تصور سيميائي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1/ 1429هـ- 2008م.
71. -عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1/ 2003.
72. -عبد الله الزهراني و آخرون، ندوة البلاغة العربية سؤال الهوية و آفاق المنهج، جامعة أم القرى سلسلة كلية اللغة العربية، القاهرة، مصر، ط1/ 1433هـ- 2012م.
73. -عبد الله محمد الغدامي، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4/ 1998 .
74. -عبد القادر عبد الجليل، علم اللسانيات الحديثة، دار صفاء للنشر، عمان، الأردن، ط1/ 1422هـ، 2002م.
75. -عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز، تحقيق أحمد محمود شاكر، مطبعة الخانجي، القاهرة، مصر، ط5/ 2004.
76. -عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية بحث في تقنية السرد، عالم المعرفة، المجلس الوطن للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، ع240، شعبان 1419هـ- كانون الأول ديسمبر 1998م.

- 77.- عبد الواسع الحميري، في آفاق الكلام و تكلم النص، دار الزمان للطباعة والنشر، دمشق، سورية، ط1/2009.
- 78.- عبد الواسع الحميري، الذات الشاعرة في شعر الحداثة العربية، المؤسسة الجامعية للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، ط1/ 1999.
- 79.- عبد الواسع الحميري، ما الخطاب و كيف نحلله، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ط1/1430هـ-2009م
- 80.- عبد الوهاب المسيري، الهوية و الحركية الإسلامية، تحرير: سوزان حرفي، دار الفكر، دمشق سورية، ط1/2009.
- 81.- عبد الوهاب جعفر، الفلسفة و اللغة، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، القاهرة، مصر، ط2/ 2004.
- 82.- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1/2004
- 83.- عبده الراجحي، التطبيق النحوي، دار النهضة العربية للنشر، بيروت، لبنان، 1988.
- 84.- عمر بلخير، مقدمات في الحجاج و النص، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري تيزي وزو، الجزائر، 2011.
- 85.- علي آيت أوشان، النص و السياق الشعري، دار الثقافة للطباعة و النشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1/1421هـ-2000م.
- 86.- علي حرب، خطاب الهوية، الدر العربية للعلوم ناشرون و منشورات الاختلاف، الجزائر، بيروت لبنان، ط2/ 1429هـ-2008م.
- 87.- عمر بلخير، مقدمات في الحجاج و النص، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري بتيزي وزو، 2011.
- 88.- فتحي التريكي، الهوية و رهاناتها، تر: نور الدين السافي و زهير المديني، الدار المتوسطة للنشر، تونس، 1437هـ- 2010م،
- 89.- فريديناند دي سوسير، علم اللغة العام، تر: يوثيل يوسف عزيز، مر: يوسف المطلي، دار آفاق عربية، الأعظمية ، بغداد، العراق، 1985.

- 90.- فيصل دراج، الرواية و تأويل التاريخ، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، المغرب، ط1/2004.
- 91.- فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر و التوزيع، اللاذقية، سورية، ط1/2007.
- 92.- فولفجانج هاينه من و ديتر فيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ، تر: فالخ بن شبيب العجمي، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1419هـ، 1999م.
- 93.- قدامة بن جعفر البغدادي، نقد النثر ، تح : طه حسين بك و عبد الحميد العبادي، مطبعة بولاق، مصر، 1941 .
- 94.- لطفي عبد البديع، ميتافيزيقا اللغة، دراسات أدبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة، مصر، 1997.
- 95.- لودفيغ فيتجنشتين، بحوث فلسفية، تر: عزمي إسلام ، مراجعة: عبد الغفار مكاوي، منشورات جامعة الكويت، د ت .
- 96.- مالك بن نبي، مشكلات الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة و أحمد شعبو، دار الفكر المعاصر، لبنان، سوريا، 2002.
- 97.- مالك يوسف المطلي، الزمن و اللغة، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، مصر، 1986.
- 98.- مبارك مبارك، معجم المصطلحات الألسنية، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، ط1/1995.
- 99.- محمد العمري، البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط2/2002.
- 100.- محمد الداوي، أسئلة التحليل الروائي، شركة النشر و التوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ط1/1427هـ-2006م.
- 101.- محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ من خلال البيان و التبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

102. -محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984.
103. محمد بن عمرو الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1983.
104. -محمد توفيق الضوى، دراسات في الميتافيزيقا، دار الثقافة العلمية ، الإسكندرية، مصر، 1999م.
105. -محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، شركة شهاب، البليدة، الجزائر، د.ت.
106. -محمد مسلم، خصوصيات الهوية و تحديات العولمة، دار قرطبة، الدار البيضاء، المغرب، ط1/ 1425-2004.
107. -مج من الكتاب، نظرية الثقافة، ، تر: علي سيد الصاوي، عالم المعرفة، ع223، 1997.
108. -مشري بن خليفة، سلطة النص، منشورات الاختلاف، الجزائر، جويلية 2000،
109. -مصطفى عبد الغني، قضايا الرواية العربية، الدار المصرية اللبنانية للطباعة، بيروت، لبنان، ط1/1999.
110. -مصطفى ناصف، اللغة و التفسير و التواصل، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب، الكويت، 1995.
111. -محمد مرسللي ، منطق المحمولات، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1/ 2003.
112. -محمد مسلم، خصوصيات الهوية وتحديات العولمة، دار قرطبة، الدار البيضاء، المغرب، 1425 هـ، 2004.
113. محمد مفتاح، دينامية النص تنظير و إنجاز، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1/ 1987.
114. -محمد محمد يونس علي، المعنى و ظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2/ 2007.
115. -محمود احمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2002.

116. -ميشال زكريا، الألسنية و التوليدية و التحويلية و قواعد اللغة العربية، مؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان.
117. -مارك فيري، فلسفة التواصل، تر: عمر مهيل، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1/1427هـ، 2006م.
118. -ميشال زكريا، ينظر الألسنية والتوليدية و التحويلية، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت ، لبنان ، ط1/1406هـ-1986م.
119. -نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للفنون و الآداب و اللغات، الكويت، سبتمبر 1978.
120. -نبهة قارة، الفلسفة و التأويل، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1/1998.
121. -ياسين خليل، نظرية جوتلوب فريجه المنطقية في المنطق و اللغة، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، ع7 ، أبريل 1964.
122. -نبهة قارة، الفلسفة و التأويل، درا الطليعة، بيروت، لبنان، ط1/يناير 1998.
123. -نور الدين النيفر، فلسفة اللغة واللسانيات ، مؤسسة أبو وجدان للطبع والنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1 / 1993 .
124. -وليم لامبرت و وولاس لامبرت ،علم النفس الاجتماعي، تر: سلوى الملا، مر: دار الشروق، بيروت، لبنان، ط2/1993.
125. - يحي محمد، جدلية الخطاب و الواقع، إفريقيا للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2012م-1413هـ.

المجلات و الدوريات

- 1- أحمد يوسف، الأدبي الأيديولوجي في رواية التسعينات، الملتقى الخامس لقسم اللغة والعربية و آدابها، المركز الجامعي بسعيدة، 16/15 أفريل 2008، منشورات دار الأديب، وهران، الجزائر 2008.

- 2- أديب ديمتري، مفهومان للقومية العربية، دراسات عربية، دار الطليعة، ع2، بيروت، لبنان، ، ديسمبر1978،
- 3- إسماعيل نوري الربيعي، الفكر العربي المعاصر، الهوية الزمنية نزيف الذات العربية، منشورات مركز الإنماء القومي، ع 48-49، 1988.
- 4- إلياس خوري، التاريخي و الإنشائي، مجلة فصول النقد الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ع 63 شتاء-ربيع 2004
- 5- إيمان القاضي، نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، الموقف الأدبي، اتحاد كتاب العرب، دمشق، سورية، ع 172 آب 1985.
- 6- بشير بويجرة محمد، إستراتيجية وعي الذات الأنا و الآخر بحث في سردية ، مداخلات و إبداعات الأسبوع الثقافي لولاية معسكر، من 19 إلى 23 أبريل 2007. منشورات الأديب ، وهران، الجزائر.
- 7- بشير بويجرة محمد ، الأدبي و الإيديولوجي في رواية التسعينات. أعمال الملتقى الخامس، المركز الجامعي بسعيدة 15/16/أفريل 2008، منشورات دار الأديب، وهران، الجزائر.
- 8- طه عبد الرحمان، أشكال الحدود البحث اللساني و السيميائي، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 6، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1/ 1984.
- 9- عبد الحكيم سحايلى، التداولية امتداد شرعي للسيميائية، الملتقى الوطني المنعقد بجامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، بتاريخ: 15-18 نوفمبر2008.
- 10- عبد الحليم بن عيسى دراسات أدبية، المرجعية اللغوية في النظرية التداولية، مركز البصيرة، الجزائر، ع 1، ماي 2008.

- 11- فيصل دراج ، الرواية التاريخية العربية، السياق والشروط، ندوة التاريخ والرواية، مهرجان الدوحة الرابع عشر، المجلس الوطني للثقافة و الفنون، 2005،
- 12- محمد أرزقي بركان، التحول هل بناء للهوية أم تشويه لها، فكر ونقد، المغرب، ع35، 19 يناير 2001.
- 13- نادر كاظم، الهويات بين التحريك السردى و التشكيل الإيديولوجى، مجلة نزوى، مؤسسة عمان للصحافة و النشر و الإعلان، سلطنة عمان، ع 33 سنة 2009.
- 14- واسيني الأعرج، الرواية التاريخية و أوهام الحقيقة. ندوة الرواية والتاريخ، مهرجان الدوحة 14، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الدوحة، بتاريخ: 2000-03-24/23.
- 15- واسيني الأعرج، المتخيل الروائى و التاريخ، مهرجان الدوحة 14، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الدوحة، بتاريخ: 2000-03-24/23.
- 16- يوسف آيت همو، من التواصل إلى التواصل الشعبي، فكر و نقد، ع 36، المغرب، فبراير 2001.

مواقع الشبكة العنكبوتية

- 1- إسماعيل المصدق ، مدارات فلسفية هوسرل وأزمة الثقافة الأوروبية العدد1 ، الجمعية الفلسفية المغربية- جميع الحقوق محفوظة ، 2008 ، موقع: <http://philosophiemaroc.org>
- 2- إبراهيم القادري ، حول مفهوم الهوية ومكوناتها الأساسية، بتاريخ 13 يوليو 2008، من موقع www.aljabriabed.net.maj27 .
- 3- برسوم حنا، معجم الكتاب المقدس، كتاب الكتروني من موقع الدراسات القبطية. موقع معرفة الله. www.knowingllah.com.
- 4- بلبروات بن عتو، اكتشاف الذات و الآخر، ندوة الجزائر الأولى، 2004.
- 5- مدونة مونسي حبيب، موقع مكتوب، بلاغة الكتابة الأدبية في صحيفة بشر بن المعتمر، نشرها بتاريخ 25 أغسطس 2010.
- 6- حيدر إبراهيم علي، الهوية و الاندماج القومي ، موقع مركز التنوير المعرفي، <http://www.tanweer.sd>.
- 7- جميل حمداوي ، سيماء اسم العلم الشخصي في الرواية العربية، موقع المظلة إبداع ونقد: www.reditt.digg.blog.
- 8- عميراوي أحمدية، نظرة حمدان خوجة إلى الآخر، الرحالة العرب و المسلمين اكتشاف الذات و الآخر، موقع ارتياد الآفاق، ندوة الجزائر، 2004. www.arihla.com
- 10- كريستيان ديكامب تر: حسن أحجيج، مدارات فلسفية ، الجمعية الفلسفية المغربية مقال الأفكار الفلسفية في القرن العشرين ، كرونولوجيا أفكار القرن. ع5، 2008 .
- 11- محمد الحضيف، سيد قطب كما قرأته و فهمته، شبكة فلسطين للحوار، كُتب المقال في 21-06-2012، و نُقِل إلى البحث في 01-01-2013، www.paldf.net.

12- محمد محمد يونس علي، موقع مدونة تخاطب، الأصول الأنطولوجية و الاستمولوجية الموجهة لاتجاهات المدارس اللسانية في القرن العشرين، بتاريخ 22 يونيو 2010.

13- معجم البابطين الالكتروني. موقع الألوكة، www.aluka.net.

14- ياسر سليمان، حوار مع مؤلف اللغة العربية و الهوية القومية، حاوره خالد الحروب ضمن برنامج خير جليس، في موقع: شبكة صوت العربية، WWW.VOICEARABIC.NET.

15- واسيني الأعرج ضمن حوار أجرته براون حبيب ضمن قناة أبو ظبي في حصة أهل المعرفة بتاريخ 12 فبراير 2012.

16-Patience - 1789-1815.Com - waterloo1815.com ©
Bernard Coppens 2010

17-Copoeru et N. Szabo (éd.), Beyond Identity. Transformations of Identity in a (Post-) Modern World, Cluj-Romania, Editura Casa, 2004, pp. 104-124 (Version web) Moi-même comme un autre. Identité personnelle et langage, Ion vezeanu

المراجع الأجنبية

1-A.V.dinesen Abdelkader et les relations entre les français et les arabes, ra : fondation émir Abdelkader, éd .ANEP, Alger, 2001.

2- John Searle, sens et expression, tra : Joëlle Proust, éd : minuit, paris, 1979.

3-j.moeschler et a. auchlin, introduction a la linguistique contemporaine, paris, Armand colin, 1998.

4-Dictionnaire d'analyse du discours, patrique charaudeau et Dominique maigueneau , Ed du Seuil ; 2002.

5- Catherine Orecchioni, Les actes de langage dans le discours, Ed.Nathan, 2001.

6-jacques moeschler et Anne Reboul, Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, Ed du Seuil ; 1994.

7-Jouve Vincent, la poétique du roman, cèdes 1997, Paris, France.

8-Martina Avanza et Gilles Laferté *Dépasser la « construction des identités »*, Genèses 61, décembre 2005

9- Hani Abdelkader Correspondances de l'émie a. e. k 1833-1888, éd dar el Gharb, 2004, Oran, Algérie.

10- Moulay belhamissi, Histoire de mazouna , SNED, Alger,1981.

11-Valérie Masson Perrin, le statut du personnage dans l'œuvre romanesque d'Edouard glissant, thèse de doctorat, UN Cergy pontoise, soutenu 16nov2006.

12- Gabriel pomerand, le petit philosophe de poche, librairie générale française, paris ,1962.

المعاجم و الموسوعات

- 1- ابن منظور أبي الفضل جمال الدين بن مكرم الإفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، د ت.
- 2- الجرجاني الشريف، التعريفات، تح محمد الصديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، 2004.
- 3- الرازي، مختار الصحاح ، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1/ 1967
- 4- إميل بديع يعقوب، موسوعة علوم اللغة العربية، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 2006.
- 5- جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات و الشواهد الفلسفية دار الجنوب للنشر، تونس، 2004.
- 6- جميل صليبا المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982
- 7- عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط5/ 2007
- 8- علي الحمد و يوسف الزغي، المعجم الوافي في أدوات النحو العربي، دار الأمل، عمان، الأردن، ط2، 1993.
- 9- فؤاد كامل و آخرون، الموسوعة الفلسفية الميسرة، دار القلم، بيروت، لبنان.
- 10- سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1985.
- 11- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، المعجم المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط8/ 1426هـ- 2008م.

- 12- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر
ط4/2004م-1425هـ.
- 13- مبارك مبارك، معجم المصطلحات الألسنية، دار الفكر اللبناني، بيروت،
ط1/1995-1425هـ.
- 14- محمد سعيد اسبر و بلال جنيدي، الشامل في علوم اللغو العربية، دار العودة،
بيروت، لبنان، ط1/1981.
- 15- مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار الثقافة الحديثة، مصر، القاهرة، ط2/1971.
- 16- موسوعة لالاند، تعريب: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، لبنان،
ط2/2001.

مكتبة المصادر و المراجع

مكتبة المصادر و المراجع

القرآن الكريم.

1. -أبي الفتح عثمان بن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، د. ت، بيروت، لبنان.
2. - سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر البصري، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، مصر، ط3/1988.
3. -ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1416هـ-1996م.
4. -الأميرة بديعة الحسيني الجزائري، أصحاب الميمنة إن شاء الله، دار سلام للترجمة والنشر، دمشق، سورية، 1997.
5. -أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، وهران، الجزائر، ج4، ط1، 1996.
6. -أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان و التبيين، ، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7/1998 .
7. -أبو عمران الشيخ، قضايا الثقافة و التاريخ، منشورات ثالة، الأبيار، الجزائر، ط2/2006.
8. -أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، منشورات الجمعية المغربية للتأليف و النشر و الترجمة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1405هـ، 1985م.
9. أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1/1999.
10. -أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، در الكتاب العربي للطباعة و النشر، القاهرة، مصر، ط7/1968.
11. -أحمد محمد المعتوق، الحصيلة اللغوية، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1996.

- 12.- ادith كيرزويل، عصر البنيوية من ليفي ستراوس إلى فوكو، تر جابر عصفور، دار قرطبة للطباعة و النشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2 / 1986.
- 13.- الإمام جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار عالم الكتب ، بيروت، لبنان، د.ت.
- 14.- الصادق قيسومة ، طرائق تحليل القصة، دار الجنوب للنشر، تونس، 2000.
- 15.- الطاهر بومزبر، التواصل اللساني و الشعرية مقارنة تحليلية لنظرية جاكسون ،الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1/1428هـ، 2007م
- 16.- امبرتو ايكو، السيميائية و فلسفة اللغة، تر: أحمد الصمعي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1/2005.
- 17.- أمين معلوف، الهويات القاتلة، تر: نبيل محسن، ورد للطباعة و النشر، دمشق، سورية، ط1/1999.
- 18.- آن روبول و جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد للتواصل تر: سيف الدين دغفوس و محمد الشيباني، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، ط1، 2003.
- 19.- إيغور كون، البحث عن الذات دراسة في الشخصية و وعي الذات، تر: غسان نصر، منشورات دار معد للنشر و التوزيع، دمشق ، سورية، 1992.
- 20.- بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني المصري، شرح ابن عقيل، حنا الفاخوري، دار الجليل ، بيروت، لبنان، د.ت.
- 21.- تمام حسن اللغة، العربية معناها و مبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1994.
- 22.- تمام حسن، مقالات في اللغة و الأدب، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1/ 2006.
- 23.- توني بوزان، قوة الذكاء الكلامي، مكتبة جرير، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط2/2007.
- 24.- حسن خمري، فضاء المتخيل مقاربات في الرواية، منشورات دار الاختلاف، الصندوق الوطني لترقية الفنون و الآداب، الجزائر، ط1/ 2005.
- 25.- جاسم سلطان، الفكر الاستراتيجي في فهم التاريخ، مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع، المنصورة، ط1/1426هـ - 2005م.

- 26.- جاك دريدا، أحادية اللغة أو في الترميم الأصلي، تر: عمر مهيل، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1/1429هـ-2008م.
- 27.- جان بيلمان نويل، التحليل النفسي و الأدب، تر: حسن المودن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 1997.
- 28.- جان فرييه، تر: غسان السيد، تودوروف من الشكلانية الروسية إلى أخلاقيات التاريخ الجمعية التعارفية للطباعة، بيروت، لبنان، ط1/2002 .
- 29.- جان غراندين، المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا، تر: عمر مهيل، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1/1428هـ، 2007م.
- 30.- جمال الغيطاني، مختارات التوحيد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 1995.
- 31.- جمال حمود، فلسفة اللغة عند لودفيغ فيتغنشتاين، الدار العربية للعلوم ناشرون، الدار البيضاء، المغرب، ط1/2009.
- 32.- ج. ل. أوستين ، تر: نظرية الأفعال الكلامية، عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب، الدار البيضاء، لبنان، بيروت، 1991.
- 33.- جلال شمس الدين، علم اللغة النفسي المناهج و النظريات، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية. مصر، د.ت.
- 34.- جهاد عطا نعيصة، في مشكلات السرد الروائي، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، سورية، 2001.
- 35.- جوليا كريسيغا، علم النص، تر: فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط 2/1997.
- 36.- جون جوزيف، اللغة و الهوية ، تر: عبد النور خراقي، عالم المعرفة، ع342، المجلس الوطني للآداب و الفنون و اللغات، الكويت، 2007.
- 37.- جون سيرل، العقل و اللغة و المجتمع، تر سعيد الغانمي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1/2006 .
- 38.- جون ليونز، اللغة و علم اللغة، ، تر: مصطفى التوني، الدار النهضة العربية، القاهرة، مصر، ج1، ط1/1987.

- 39.-حاتم الورفلي، بول ريكور الهوية و السرد، التنوير للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، 2009 .
- 40.-حافظ إسماعيلي علوي، التداوليات علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث، اربد الأردن، ط1/ 1432 هـ-2011م.
- 41.-دوسوسير، علم اللغة العام، تر:يوئيل يوسف عزيز، مر: يوسف المطلي، دار الكتب للطباعة و النشر، بيت الموصل، بغداد، العراق، 1988.
- 42.-رأفت غنيمي الشيخ، فلسفة التاريخ، دار الثقافة للنشر و التوزيع ، القاهرة، مصر، 1988.
- 43.-رافع النصير الزغلول و عماد عبد الرحيم الزغلول، علم النفس المعرفي، دار الشروق للنشر و التوزيع ، عمان ، الأردن، د.ت.
- 44.-ر.هـ. روبرتز، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، تر: أحمد عوض، عالم المعرفة، الكويت، 1997.
- 45.-روبير مارتان، مدخل إلى فهم اللسانيات، تر: عبد القادر المهيري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1/2007.
- 46.-زكي نجيب محمود، قيم من التراث، دار الشروق، القاهرة، مصر، 2000.
- 47.-سحر كاظم همزة الشجيري، نظرية التوصيل في النقد الأدبي العربي الحديث، دار صفاء للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، مؤسسة دار الصادق الثقافية، بغداد، العراق، ط1/1432هـ-2011م.
- 48.-سعد البازعي، شرفات للرؤية العولمة والهوية و التفاعل الثقافي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب ، ط1/ 2005 .
- 49.-سعيد يقطين، السرديات و التحليل السردى الشكل و الدلالة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1/ 2012.
- 50.-سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي النص و السياق، المركز الثقافي العربي، بيروت-لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط3/2006.
- 51.-سمير أحمد معلوف، حيوية اللغة بين الحقيقة و المجاز، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، 1996.

- 52.- سلامة موسى، البلاغة العصرية و اللغة العربية، سلامة للنشر و التوزيع، دار ومطابع المستقبل بالفجالة، الاسكندرية، مصر، مكتبة المعارف ، بيروت، لبنان، ط2/1964.
- 53.- سيار الجميل، التحولات العربية إشكالات الوعي و تحليل التناقضات خطاب المستقبل، الأهلية للنشر، الأردن، عمان، ط1 / 1997.
- 54.- شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر: أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، 1974.
- 55.- شكري عزيز الماضي، أنماط الرواية العربية الجديدة، عالم المعرفة، المجلس الوطن للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، ع355، سبتمبر 2008.
- 56.- صابر الحباشة، لسانيات الخطاب، الأسلوبية و التلفظ و التداولية ، دار الحوار، دمشق، سورية ، ط1/2010.
- 57.- صالح عباد، الجزائر أثناء الحكم التركي 1514-1830 ، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط2/2005.
- 58.- صلاح فضل، بلاغة الخطاب و علم النص، عالم المعرفة، المجلس الوطني للفنون والآداب و العلوم، الكويت، ع164، 1992.
- 59.- طاهر ليب، الموسوعة العربية للمعرفة من أجل التنمية المستدامة، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط 1/1428هـ، 2007 .
- 60.- طه عبد الرحمان، التواصل و الحجاج، سلسلة الدروس الافتتاحية، الدرس 10، جامعة ابن زهر، أكادير، المغرب، 1993.
- 61.- طه عبد لرحمان، اللسان و الميزان و التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط1/1998.
- 62.- عباس حسن، النحو الوافي، مطابع دار المعارف، القاهرة، مصر، 1974.
- 63.- عبد السلام أقلامون، الرواية و التاريخ سلطان الحكاية و حكاية السلطان، دار الكتاب الجديد المتحدة بنغازي، ليبيا، ط1/2010.
- 64.- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني عند العرب، الدار العربية للكتاب، تونس، ط1/1981.

65. -عبد السلام الشاذلي شخصية، المثقف في الرواية العربية الحديثة، دار الحداثة، بيروت، لبنان، ط1/ 1985.
66. -عبد السلام عشي، تطور التفكير اللغوي من النحو إلى اللسانيات إلى التواصل، مطبعة دار لمعارف الجديدة، الرباط، المغرب، ط1/ 2001.
67. -عبد الصمد زايد، مفهوم الزمن و دلالاته في الرواية العربية المعاصرة، الدار العربية للكتاب، بيروت، لبنان، 1988.
68. -عبد العزيز عبد المعطي عرفه، من بلاغة النظم العربي، ج1، عالم الكتب، بيروت لبنان، ط2/ 1984.
69. -عبد العزيز عبد المعطي عرفه، من بلاغة النظم العربي، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط2/ 1984.
70. -عبد اللطيف محفوظ، آليات إنتاج النص الروائي نحو تصور سيميائي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1/ 1429هـ- 2008م.
71. -عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1/ 2003.
72. -عبد الله الزهراني و آخرون، ندوة البلاغة العربية سؤال الهوية و آفاق المنهج، جامعة أم القرى سلسلة كلية اللغة العربية، القاهرة، مصر، ط1/ 1433هـ- 2012م.
73. -عبد الله محمد الغدامي، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4/ 1998 .
74. -عبد القادر عبد الجليل، علم اللسانيات الحديثة، دار صفاء للنشر، عمان، الأردن، ط1/ 1422هـ، 2002م.
75. -عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز، تحقيق أحمد محمود شاكر، مطبعة الخانجي، القاهرة، مصر، ط5/ 2004.
76. -عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية بحث في تقنية السرد، عالم المعرفة، المجلس الوطن للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، ع240، شعبان 1419هـ- كانون الأول ديسمبر 1998م.

- 77.- عبد الواسع الحميري، في آفاق الكلام و تكلم النص، دار الزمان للطباعة والنشر، دمشق، سورية، ط1/2009.
- 78.- عبد الواسع الحميري، الذات الشاعرة في شعر الحداثة العربية، المؤسسة الجامعية للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، ط1/ 1999.
- 79.- عبد الواسع الحميري، ما الخطاب و كيف نحلله، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ط1/1430هـ-2009م
- 80.- عبد الوهاب المسيري، الهوية و الحركية الإسلامية، تحرير: سوزان حرفي، دار الفكر، دمشق سورية، ط1/2009.
- 81.- عبد الوهاب جعفر، الفلسفة و اللغة، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، القاهرة، مصر، ط2/ 2004.
- 82.- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1/2004
- 83.- عبده الراجحي، التطبيق النحوي، دار النهضة العربية للنشر، بيروت، لبنان، 1988.
- 84.- عمر بلخير، مقدمات في الحجاج و النص، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري تيزي وزو، الجزائر، 2011.
- 85.- علي آيت أوشان، النص و السياق الشعري، دار الثقافة للطباعة و النشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1/1421هـ-2000م.
- 86.- علي حرب، خطاب الهوية، الدر العربية للعلوم ناشرون و منشورات الاختلاف، الجزائر، بيروت لبنان، ط2/ 1429هـ-2008م.
- 87.- عمر بلخير، مقدمات في الحجاج و النص، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري بتيزي وزو، 2011.
- 88.- فتحي التريكي، الهوية و رهاناتها، تر: نور الدين السافي و زهير المديني، الدار المتوسطة للنشر، تونس، 1437هـ - 2010م،
- 89.- فريديناند دي سوسير، علم اللغة العام، تر: يوثيل يوسف عزيز، مر: يوسف المطلي، دار آفاق عربية، الأعظمية ، بغداد، العراق، 1985.

- 90.- فيصل دراج، الرواية و تأويل التاريخ، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، المغرب، ط1/2004.
- 91.- فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر و التوزيع، اللاذقية، سورية، ط1/2007.
- 92.- فولفجانج هاينه من و ديتر فيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ، تر: فالخ بن شبيب العجمي، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1419هـ، 1999م.
- 93.- قدامة بن جعفر البغدادي، نقد النثر ، تح : طه حسين بك و عبد الحميد العبادي، مطبعة بولاق، مصر، 1941 .
- 94.- لطفي عبد البديع، ميتافيزيقا اللغة، دراسات أدبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة، مصر، 1997.
- 95.- لودفيغ فيتجنشتين، بحوث فلسفية، تر: عزمي إسلام ، مراجعة: عبد الغفار مكاوي، منشورات جامعة الكويت، د ت .
- 96.- مالك بن نبي، مشكلات الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة و أحمد شعبو، دار الفكر المعاصر، لبنان، سوريا، 2002.
- 97.- مالك يوسف المطلي، الزمن و اللغة، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، مصر، 1986.
- 98.- مبارك مبارك، معجم المصطلحات الألسنية، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، ط1/1995.
- 99.- محمد العمري، البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط2/2002.
- 100.- محمد الداوي، أسئلة التحليل الروائي، شركة النشر و التوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ط1/1427هـ-2006م.
- 101.- محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ من خلال البيان و التبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

102. -محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984.
103. محمد بن عمرو الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1983.
104. -محمد توفيق الضوى، دراسات في الميتافيزيقا، دار الثقافة العلمية ، الإسكندرية، مصر، 1999م.
105. -محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، شركة شهاب، البليدة، الجزائر، د.ت.
106. -محمد مسلم، خصوصيات الهوية و تحديات العولمة، دار قرطبة، الدار البيضاء، المغرب، ط1/ 1425-2004.
107. -مج من الكتاب، نظرية الثقافة، ، تر: علي سيد الصاوي، عالم المعرفة، ع223، 1997.
108. -مشري بن خليفة، سلطة النص، منشورات الاختلاف، الجزائر، جويلية 2000،
109. -مصطفى عبد الغني، قضايا الرواية العربية، الدار المصرية اللبنانية للطباعة، بيروت، لبنان، ط1/1999.
110. -مصطفى ناصف، اللغة و التفسير و التواصل، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب، الكويت، 1995.
111. -محمد مرسللي ، منطق المحمولات، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1/ 2003.
112. -محمد مسلم، خصوصيات الهوية وتحديات العولمة، دار قرطبة، الدار البيضاء، المغرب، 1425 هـ، 2004.
113. محمد مفتاح، دينامية النص تنظير و إنجاز، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1/ 1987.
114. -محمد محمد يونس علي، المعنى و ظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2/ 2007.
115. -محمود احمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2002.

116. -ميشال زكريا، الألسنية و التوليدية و التحويلية و قواعد اللغة العربية، مؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان.
117. -مارك فيري، فلسفة التواصل، تر: عمر مهيل، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1/1427هـ، 2006م.
118. -ميشال زكريا، ينظر الألسنية والتوليدية و التحويلية، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت ، لبنان ، ط1/1406هـ-1986م.
119. -نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للفنون و الآداب و اللغات، الكويت، سبتمبر 1978.
120. -نبهة قارة، الفلسفة و التأويل، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1/1998.
121. -ياسين خليل، نظرية جوتلوب فريجه المنطقية في المنطق و اللغة، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، ع7 ، أبريل 1964.
122. -نبهة قارة، الفلسفة و التأويل، درا الطليعة، بيروت، لبنان، ط1/يناير 1998.
123. -نور الدين النيفر، فلسفة اللغة واللسانيات ، مؤسسة أبو وجدان للطبع والنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1 / 1993 .
124. -وليم لامبرت و وولاس لامبرت ،علم النفس الاجتماعي، تر: سلوى الملا، مر: دار الشروق، بيروت، لبنان، ط2/1993.
125. - يحي محمد، جدلية الخطاب و الواقع، إفريقيا للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2012م-1413هـ.

المجلات و الدوريات

- 1- أحمد يوسف، الأدبي الأيديولوجي في رواية التسعينات، الملتقى الخامس لقسم اللغة والعربية و آدابها، المركز الجامعي بسعيدة، 16/15 أفريل 2008، منشورات دار الأديب، وهران، الجزائر 2008.

- 2- أديب ديمتري، مفهومان للقومية العربية، دراسات عربية، دار الطليعة، ع2، بيروت، لبنان، ، ديسمبر1978،
- 3- إسماعيل نوري الربيعي، الفكر العربي المعاصر، الهوية الزمنية نزيف الذات العربية، منشورات مركز الإنماء القومي، ع 48-49، 1988.
- 4- إلياس خوري، التاريخي و الإنشائي، مجلة فصول النقد الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ع 63 شتاء-ربيع 2004
- 5- إيمان القاضي، نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، الموقف الأدبي، اتحاد كتاب العرب، دمشق، سورية، ع 172 آب 1985.
- 6- بشير بويجرة محمد، إستراتيجية وعي الذات الأنا و الآخر بحث في سرديّة ، مداخلات و إبداعات الأسبوع الثقافي لولاية معسكر، من 19 إلى 23 أبريل 2007. منشورات الأديب ، وهران، الجزائر.
- 7- بشير بويجرة محمد ، الأدبي و الإيديولوجي في رواية التسعينات. أعمال الملتقى الخامس، المركز الجامعي بسعيدة 15/16/أفريل 2008، منشورات دار الأديب، وهران، الجزائر.
- 8- طه عبد الرحمان، أشكال الحدود البحث اللساني و السيميائي، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 6، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1/ 1984.
- 9- عبد الحكيم سحايلى، التداولية امتداد شرعي للسيميائية، الملتقى الوطني المنعقد بجامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، بتاريخ: 15-18 نوفمبر 2008.
- 10- عبد الحليم بن عيسى دراسات أدبية، المرجعية اللغوية في النظرية التداولية، مركز البصيرة، الجزائر، ع 1، ماي 2008.

- 11- فيصل دراج ، الرواية التاريخية العربية، السياق والشروط، ندوة التاريخ والرواية، مهرجان الدوحة الرابع عشر، المجلس الوطني للثقافة و الفنون، 2005،
- 12- محمد أرزقي بركان، التحول هل بناء للهوية أم تشويه لها، فكر ونقد، المغرب، ع35، 19 يناير 2001.
- 13- نادر كاظم، الهويات بين التحريك السردى و التشكيل الإيديولوجى، مجلة نزوى، مؤسسة عمان للصحافة و النشر و الإعلان، سلطنة عمان، ع 33 سنة 2009.
- 14- واسيني الأعرج، الرواية التاريخية و أوهام الحقيقة. ندوة الرواية والتاريخ، مهرجان الدوحة 14، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الدوحة، بتاريخ: 2000-03-24/23.
- 15- واسيني الأعرج، المتخيل الروائى و التاريخ، مهرجان الدوحة 14، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الدوحة، بتاريخ: 2000-03-24/23.
- 16- يوسف آيت همو، من التواصل إلى التواصل الشعبي، فكر و نقد، ع 36، المغرب، فبراير 2001.

مواقع الشبكة العنكبوتية

- 1- إسماعيل المصدق ، مدارات فلسفية هوسرل وأزمة الثقافة الأوروبية العدد1 ، الجمعية الفلسفية المغربية- جميع الحقوق محفوظة ، 2008 ، موقع: <http://philosophiemaroc.org>
- 2- إبراهيم القادري ، حول مفهوم الهوية ومكوناتها الأساسية، بتاريخ 13 يوليو 2008، من موقع www.aljabriabed.net.maj27 .
- 3- برسوم حنا، معجم الكتاب المقدس، كتاب الكتروني من موقع الدراسات القبطية. موقع معرفة الله. www.knowingllah.com.
- 4- بلبروات بن عتو، اكتشاف الذات و الآخر، ندوة الجزائر الأولى، 2004.
- 5- مدونة مونسي حبيب، موقع مكتوب، بلاغة الكتابة الأدبية في صحيفة بشر بن المعتمر، نشرها بتاريخ 25 أغسطس 2010.
- 6- حيدر إبراهيم علي، الهوية و الاندماج القومي ، موقع مركز التنوير المعرفي، <http://www.tanweer.sd>.
- 7- جميل حمداوي ، سيماء اسم العلم الشخصي في الرواية العربية، موقع المظلة إبداع ونقد: www.reditt.digg.blog.
- 8- عميراوي أحمدية، نظرة حمدان خوجة إلى الآخر، الرحالة العرب و المسلمين اكتشاف الذات و الآخر، موقع ارتياد الآفاق، ندوة الجزائر، 2004. www.arihla.com
- 10- كريستيان ديكامب تر: حسن أحجيج، مدارات فلسفية ، الجمعية الفلسفية المغربية مقال الأفكار الفلسفية في القرن العشرين ، كرونولوجيا أفكار القرن. ع5، 2008 .
- 11- محمد الحضيف، سيد قطب كما قرأته و فهمته، شبكة فلسطين للحوار، كُتب المقال في 21-06-2012، و نُقِل إلى البحث في 01-01-2013، www.paldf.net.

12- محمد محمد يونس علي، موقع مدونة تخاطب، الأصول الأنطولوجية و الاستمولوجية الموجهة لاتجاهات المدارس اللسانية في القرن العشرين، بتاريخ 22 يونيو 2010.

13- معجم البابطين الالكتروني. موقع الألوكة، www.aluka.net.

14- ياسر سليمان، حوار مع مؤلف اللغة العربية و الهوية القومية، حاوره خالد الحروب ضمن برنامج خير جليس، في موقع: شبكة صوت العربية، WWW.VOICEARABIC.NET.

15- واسيني الأعرج ضمن حوار أجرته براون حبيب ضمن قناة أبو ظبي في حصة أهل المعرفة بتاريخ 12 فبراير 2012.

16-Patience - 1789-1815.Com - waterloo1815.com ©
Bernard Coppens 2010

17-Copoeru et N. Szabo (éd.), Beyond Identity. Transformations of Identity in a (Post-) Modern World, Cluj-Romania, Editura Casa, 2004, pp. 104-124 (Version web) Moi-même comme un autre. Identité personnelle et langage, Ion vezeanu

المراجع الأجنبية

1-A.V.dinesen Abdelkader et les relations entre les français et les arabes, ra : fondation émir Abdelkader, éd .ANEP, Alger, 2001.

2- John Searle, sens et expression, tra : Joëlle Proust, éd : minuit, paris, 1979.

3-j.moeschler et a. auchlin, introduction a la linguistique contemporaine, paris, Armand colin, 1998.

4-Dictionnaire d'analyse du discours, patrique charaudeau et Dominique maigueneau , Ed du Seuil ; 2002.

5- Catherine Orecchioni, Les actes de langage dans le discours, Ed.Nathan, 2001.

6-jacques moeschler et Anne Reboul, Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, Ed du Seuil ; 1994.

7-Jouve Vincent, la poétique du roman, cèdes 1997, Paris, France.

8-Martina Avanza et Gilles Laferté *Dépasser la « construction des identités »*, Genèses 61, décembre 2005

9- Hani Abdelkader Correspondances de l'émie a. e. k 1833-1888, éd dar el Gharb, 2004, Oran, Algérie.

10- Moulay belhamissi, Histoire de mazouna , SNED, Alger,1981.

11-Valérie Masson Perrin, le statut du personnage dans l'œuvre romanesque d'Edouard glissant, thèse de doctorat, UN Cergy pontoise, soutenu 16nov2006.

12- Gabriel pomerand, le petit philosophe de poche, librairie générale française, paris ,1962.

المعاجم و الموسوعات

- 1- ابن منظور أبي الفضل جمال الدين بن مكرم الإفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، د ت.
- 2- الجرجاني الشريف، التعريفات، تح محمد الصديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، 2004.
- 3- الرازي، مختار الصحاح ، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1/ 1967
- 4- إميل بديع يعقوب، موسوعة علوم اللغة العربية، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 2006.
- 5- جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات و الشواهد الفلسفية دار الجنوب للنشر، تونس، 2004.
- 6- جميل صليبا المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982
- 7- عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط5/ 2007
- 8- علي الحمد و يوسف الزغي، المعجم الوافي في أدوات النحو العربي، دار الأمل، عمان، الأردن، ط2، 1993.
- 9- فؤاد كامل و آخرون، الموسوعة الفلسفية الميسرة، دار القلم، بيروت، لبنان.
- 10- سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1985.
- 11- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، المعجم المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط8/ 1426هـ- 2008م.

- 12- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر
ط4/2004م-1425هـ.
- 13- مبارك مبارك، معجم المصطلحات الألسنية، دار الفكر اللبناني، بيروت،
ط1/1995-1425هـ.
- 14- محمد سعيد اسبر و بلال جنيدي، الشامل في علوم اللغو العربية، دار العودة،
بيروت، لبنان، ط1/1981.
- 15- مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار الثقافة الحديثة، مصر، القاهرة، ط2/1971.
- 16- موسوعة لالاند، تعريب: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، لبنان،
ط2/2001.

الفهرس العام للبحث

الفهرس العام للبحث

الصفحة

عناصر البحث

المدخل

- 1.1. التداولية من حيث المنشأ و التأصيل المعرفي.....2
- 2.1. التداولية ضمن المنظومة النقدية العربية.....7
- 3.1 - الوثائقية و علاقتها بالرواية التاريخية.....25

الفصل الأول

الأطر النظرية و المفاهيمية للبحث

- 1.1 - تحديد شبكة المفاهيم المتعلقة بالبحث.....29
- 1.1.1- الهوية identité.....29
- 2.1.1.1- تموقع الهوية ضمن الوجود المجتمعي.....31
- 3.1.1.1- تعالق التواصل بالمكون اللغوي.....32
- 4.1.1.1- المكون الهوي القومي.....36
- 5.1.1.1- المكون الهوي الديني.....40
- 2.1.1 - التبلور المفهومي للتداولية معجميا و اصطلاحيا.....43
- 2.1 - الحقول المعرفية المساهمة في تأسيس مبادئ التداولية.....51
- 1.2.1 - اللسانيات.....52
- 2.2.1 - انبعاث التداولية من الفلسفة التحليلية.....56

56.....	1.2.2.1-علاقة التداولية بالفلسفة التحليلية
57.....	2.2.2.1- الفلسفة التحليلية مرجعية فكرية للتداولية
61.....	3.2.2.1-مساهمة فلاسفة التحليل اللغوي و المناطق في تشكيل النهج التداولي
62.....	4.2.2.1-غوتلوب فريجه و المنعرج الألسني tournant linguistique
63.....	5.2.2.1-تداخل منطق المحمولات مع التطبيقات التداولية
67.....	6.2.2.1-لودفيغ فيتغنشتاين و اللغة العادية
70.....	7.2.2.1-سيرل امتداد لفيدغنشتاين
76.....	3.2.1-علم النفس و تطبيقات التداولية
77.....	1.3.2.1-التعريف بعلم النفس المعرفي
78.....	2.3.2.1-عوامل التعالق بين علم النفس المعرفي و التداولية
79.....	3.3.2.1-مساحات التلاقي بين علم النفس و التداولية
83.....	4.2.1-التداولية ثمرة للتعالق بين اللغة و التواصل
99.....	3.1-التداولية ضمن حقولها الإجرائية
101.....	1.3.1 مبدأ الأفعال الكلامية قرين للتداولية
103.....	1.1.3.1-التشكل الفعلي لمبدأ الأفعال الكلامية
107.....	2.1.3.1-بين تصنيف أوستين و سيرل للأفعال الكلامية
117.....	3.1.3.1-أهمية التركيز على قاعدة الانجاز النظري
121.....	4.1.3.1-إشكالية وقوع نظرية الفعل الكلامي ضمن السلوكية أو المعرفية انتماءً
124	5.1.3.1-الدعوة إلى إنشاء نظرية عربية للفعل الكلامي

133.....	4.1-الإشارات من حيث التعريف و التحديد
139.....	1.4.1-أنماط الإشارات التداولية.
139.....	1.1.4.1-الإشارات الشخصية: Déictiques personnel
140.....	2.1.4.1-الإشارات الزمانية: Déictiques de temps
141.....	3.1.4.1—الإشارات المكانية Déictique de lieu
142.....	4.1.4.1-إشارات الخطاب Deictique de discours
143.....	5.1.4.1-الإشارات الاجتماعية Déictiques sociale
145.....	2.4.1-المتضمنات القولية.
150.....	3.4.1-الاستلزام الحوارية: Implication conversationnel
152.....	1.3.4.1- أنواع الاستلزمات التداولية.
153.....	1.1.3.4.1-الاستلزام التخاطبي المخصص.
153.....	2.1.3.4.1-الاستلزام التخاطبي السلمي المعمم.
154.....	3.1.3.4.1- الاستلزام التخاطبي الجملي المعمم.
154.....	2.3.4.1- مبدأ الاستلزام التحاوري بين غرايس و طه عبد الرحمان.
154	3.3.4.1-المحتوى النظري للمبدأ
155	1.3.3.4.1-مسلمة القدر.....P.Quantité
155.....	2.3.3.4.1-مسلمة الكيف.....P.qualité
156.....	3.3.3.4.1-مسلمة الملاءمة.....P. Pertinence
156.....	4.3.3.4.1- مسلمة الجهة.....P .modalité

157.....	4.3.4.1- انتقاد مبدأ التعاون الغرايسي مع طرح البديل
163	5.1- نظرية الملاءمة

الفصل الثاني

قراءة تداولية مقامية لرواية كتاب الأمير

172	1.1- توطئة
172	2.1- توصيف الرواية
178	3.1- فلسفة الهوية في الرواية
181	4.1- هوية العمل الأدبي
187	5.1- استشفاف الهوية من الفضاء المقامي لأحداث الرواية
193	1.5.1- تتبع الهوية من خلال مقام الحضور المتعالي
194	1.1.5.1- الحضور المتعالي الداخلي
201	2.1.5.1- القيومية ثمرة موقف المتعالي
202	3.1.5.1- الحضور المتعالي الخارجي
206	2.5.1- الحضور التفاعلي الجدلي
213.....	1.2.5.1- الحضور الجدلي الايجابي
217.....	2.1.5.1- الحضور الجدلي السلبي
220	3.5.1- تألق الحضور المتعالي

223	1.3.5.1-جدول للأحداث مع تحديد أنماط المقامات من خلال مواقف الأمير.....
225	2.3.5.1-تقريب بيانات الجدول.....
227	6.1-هل نص كتاب الأمير يحقق الإنتماء إلى موجة الرواية الهوية.....
230	7.1- تعالق التاريخي بالروائي في كتاب الأمير
231	1.7.1- طبيعة التاريخي والتخيلي في كتاب الأمير.....

* الفصل الثالث *

237	أنماط الهوية من خلال السرد في نص كتاب الأمير.....
239	1.1- أنماط الهوية ضمن الهيكلية السردية.....
240	1.1.1 - الهوية الشخصية.....
240	2.1.1 - الهوية المُمَعَبَرُ عنها.....
241	3.1.1 - الهوية العلائقية.....
242	4.1.1-الهوية المشتركة.....
243	2.1-قراءة الأنماط الهوية في نص كتاب الأمير على ضوء تصنيف هشت..
244	1.2.1 - رصد فضاء الهوية الشخصية.....
251	1.1.2.1 - اللغة و الهوية الشخصية.....
258	2.1.2.1 -الهوية الثقافية الشخصية
262	2.2.1-رصد الهوية المُمَعَبَرُ عنها.....
263	1.2.2.1-إثبات الهوية إزاء الآخر التركي.....

266.....	2.1.2.1- إظهار حقيقة الهوية إزاء الآخر الداخلي.
268.....	3.1.2.1- إظهار حقيقة الهوية إزاء الآخر الخارجي
279... ..	3.2.1- رصد النمط الهوي العائقي
286.....	3.1 - المنحى الحجاجي في منظومة التلفظ الأميرية.
286.....	1.3.1- الوقائع التاريخية.
286.....	2.2.1- الحقائق.
287	3.2.1 - الافتراضات.
287.....	4.2.1- السلميات.
289.....	5.2.1- المعاني المشتركة أو المواضع.
291.....	4.1- الهوية المشتركة.
	1.4.1- الخيارات المطروحة للأنا لإثبات هويتها التشاركية ضمن السرد.
292.....	1.1.4.1- الخيار الأول.
293	2.1.4.1- الخيار الثاني.
294	3.1.4.1- الخيار الثالث.
295.....	4.1.4.1- الخيار الرابع.
298.....	الخاتمة.
305.....	المصادر و المراجع.
323.....	الفهرس العام.